297.64
A299a A

297.64
A299aA
C.1
AS

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

عائشة والسياسة

تأليف

سعيد الأفغاني

77557

Cat. Sept. 1951

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٧

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وإخوانه الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، وجميع الهداة إلى يوم الدين .

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

بين يدى الكتاب

فى طبعى هيام بالحرية والصراحة ، وكثيراً ما أتنكب الطريق الأسلم فى سبيل الجهر بما أرى أنه الحق فى العقائد والأشخاص ، متحملا بصبر وطمأنينة ما أجر على نفسى من عناء وعداء ، وهذا بلاء حتم لا مفر منه لمن خلق حراً صريحاً ، ولو حاول غير ذلك ما استطاع .

لقد أقدمت على نشر هذا الكتاب وأنا أدرى ما فى موضوعه من حرج ؛ ومن راعى جانب الناس وحاذر أن يصدم ما نشؤوا عليه من أهواء ، قضى ولم يقل من الحق شيئاً . وبحثنا هذا شائك جد شائك ، ما فى ذلك ريب ، وقد استعنت الله وسلكته على حرجه ، بل لعلى لم أسلكه إلا لحرجه . وأحب أن يعلم القارىء أنى شرعت فيه قبل عشر سنين كوامل ، وأنا كغيرى من المشتغلين بالتاريخ والأدب — أحمل آراء فى بعض الحوادث ، وأحكاماً على بعض الأشخاص ؛ فما زلت أوغل فى بحثى وأتحرى الصغيرة والكبيرة ، وأنظر فى مبادئ الحوادث ثم فى ذيولها البعيدة . . . حتى غيّرت — على رغم هواى ومألفى — كثيراً من تلك الآراء وهذه الأحكام .

وأبعد من ذلك : فقد تحررت — بحمد الله — بعد التفكير الهادئ من كثير من الآراء والمذاهب التاريخية التى يتعبد بها بعض الباحثين لعصرنا ، أو يُزْهَوْن بالانتساب إليها وكثرة الترديد لمصطلحاتها الحديثة ، يقهرون المنطق والواقع على الخضوع لها ؛ فإن لم يخضعا كان الخطأ فى المنطق والواقع لا فى المذهب .

وليس مذهب من هذه المذاهب بحق مطرد أبداً ، فقد يوافق بعضه الحق حيناً ثم يجانبه . ووجدت خير معين لفهم التاريخ فهماً صحيحاً هو البصر بالنفس الإنسانية فحسب ، فالإنسان ما زال كما كان ما تبدل جوهره فى شىء ، سواء أعاش فى (روما) القرن الأول أم فى (لندن) القرن العشرين ، وما يؤثر فى نفس الرجل البادى يؤثر فى نفس الحضرى الراقى .

وعلى هذا فلست إذنْ متبعاً مذهباً ما ، ولن أُخضع الحوادث لتفسير ما فأكلف الأشياء غير طبائعها : فلا أقول بالعلية التاريخية المطردة ، ولا أقر (الجبرية) فى التاريخ ، وأجد أبعد المذاهب عن الواقع وأنآها عن الحق والفطرة : مذهب التفسير المادئ للتاريخ ،

وهو أحدث المذاهب حتى الآن ، ويكاد لا يكون مذهب سواه فى روسيا وعند من انجر على أذيالها وأذيال دعاتها المبشوثين ؛ وإنما أعتقد أن هذا الكائن الاجتماعى الذى هو الإنسان لم يتغير من حيث غرائزه ودوافعه وكوابحه وميوله وأهوائه ... والنفس الإنسانية خالدة الصفات والميزات ، فمن فهمها فقد فهم تاريخ كل الأمم فى كل العصور .

وأعتقد أيضاً أن هذا التاريخ (الذى موضوعه الإنسان من حيث هو كائن اجتماعى) لا قانون آلىّ ينتظمه ولا أحكام مطردة يخضع لها : فلكل حادث أسباب عدة قريبة وبعيدة ، فيها المادى والمعنوى ، والظاهر والخفى ، وقد يبرز من بينها جميعا — فى بعض الأحيان — سبب يعللون به الحادث ويجعلونه (السبب المباشر) .

وعلى هذا فأبعد الناس عن فقه التاريخ وفهم النفس البشرية : أولئك الذين يقسرون الحوادث على التفسير المادى فقط ، كأن النفوس البشرية آلات صُم لا تعقيد فى تركيبها ولا التواء ، ولا تتحرك ولا تتنفس إلا بوحى الأسعار وقوائم التجار وأسهم الشركات وأطنان البترول ومناجم الحديد ... ، فلا روحية ولا عواطف ولا أى حساب لكرامة هذه النفس العجيبة ؛ فإن كان هذا تفكيراً فأنا أشهد أن الله لم يخلق فهماً أكثر (سطحية) وتعامياً منه .

هذا ما أحببت أن يعرفه عنى قارئ كتابى أول شىء ؛ رأيت حقاً علىّ بيانه بوضوح لا خفاء به ولا لبس ، قياماً بالأمانة العلمية . وللقارئ أن يوافق أو يخالف ، وأنا — بعد — بشر أخطئ وأصيب ، وما أنا بشىء أفرح منى بخطأ ينبهنى إليه مخلص حصيف فأرجع عنه .

* * *

هذا الكتاب صور حية من صدر الإسلام ، فيه أعنف نشاط سياسى شهدته الجماعة الإسلامية ، أجلوه كما شاهدته من خلال الحوادث على طبيعته ، فى إخلاص وأمانة وإفراغ وسع ، ومن غير تزويق .

وسينعم القارئ بلون آخر غير النشاط السياسى : هو هذا الأدب الغزير من نثر وشعر وأراجيز ، زخرت بها تلك الحوادث الجسام التى اكتوى بها العالم الإسلامى يومئذ ، فنفث المصدورون من أبطال القتال وفرسان البلاغة أدباً حياً خالداً ما خلدت النفس ، تقرؤه فتشارك قائليه شدائدهم وأهوالهم ، وتجد فى نفسك الحسرة التى وجدوها ، وتعانى الآلام

التى عانوا ، وتكاد كبدك تتفطر ألماً لما كابدوا . . . وإذا أنت أيضاً تنفّس عن صدرك بدموع حِرار تسكبها غزاراً وأنت مغلوب على أمرك . ولا عجب فى ذلك فليس فى هذا الأدب الكثير الذى يطالعك فى ثنايا الحوادث مغرز إبرة لتكلف أو تزويق ، إنه فيض الروح ووحى الحسرة وعصارة النفس .

***

وأحب أن أنبه هنا إلى خطأ يوقع كثيراً من الباحثين فى القصور ، ذلك أنهم يكتفون فى بحوثهم فى التاريخ العربى بالمصادر التاريخية فحسب ، فتجىء بحوثهم على ظلع ما تكاد تستقل واقفة . وكم من حقائق تاريخية خلت منها مصادر التاريخ وزخرت بها كتب الأدب ودواوين الشعر ، ولا غنى لأى باحث فى تاريخ العرب عن اطلاع مستفيض على المكتبة العربية ، وإن ما استفدته أنا من كتب اللغة والفقه والحديث والتفسير والأدب والأخبار ... لا يقل عما أصبته فى مطولات التاريخ ، لا فى هذا الكتاب وحده — بل فى جميع كتبى السابقة . وأعجب من ذلك أن كتابى (الإسلام والمرأة) وهو المدخل التاريخى لهذا الكتاب ولكل دراسة قيمة عن المرأة العربية ، قد غرف من مصدرين اثنين أساسيين هما القرآن والحديث ، أما المصادر التاريخية فقد كانت هناك مصادر ثانوية .

ولا بد من الإشارة إلى أنى جعلت أكثر اعتمادى — بعد البحث فى المصادر التاريخية — على تاريخ الطبرى خاصة ، فهو أقرب المصادر من الواقع ، وصاحبه أكثر المؤرخين تحرياً وأمانة ، وعليه اعتمد كل من أتى بعده من الثقات ، وليس (الكامل) لابن الأثير إلا تاريخ الطبرى منسقاً مختصراً منه الأسانيد واختلاف الروايات ، وحسبك أن ابن خلدون فيلسوف المؤرخين نقل عنه حوادث الجمل ثم أدلى بهذه الشهادة القيمة :

« هذا أمر الجمل ملخصاً من كتاب أبى جعفر الطبرى ، اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة فى كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين [1] » .

الحق أنى — منذ نعومة أظفارى — أولعت بهذا المؤرخ الجليل ، وحرصت هنا كل الحرص على عبارته ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، لما تقدم ، ولشىء آخر هو أن نثر الطبرى

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٤٢٥ (مطبعة النهضة سنة ١٣٥٥ هـ) .

من النثر الراقى البليغ الذى لا تطيب النفس بالتفريط فيه ، يقرؤه المتعلم مشروح الصدر ناعماً بما فيه من متعة لا توصف ، وهو إذ ينقل لك الرواية ينقلها بأمانة وتحرج ، مسندة إلى رواتها ، وبذلك يكون قد برىء من عهدتها وتركك إلى فهمك وحصافتك تأخذ ما تأخذ تدع ما تدع ، لا يضمن لك فى عمله إلا أمانة النقل والبرء من العهدة ، ثم أنت ومواهبك .

***

قد يقرأ هذا الكتاب قراء من طوائف شتى وميول مختلفة ، وكل الذى أرجو : أن يقرؤوه بنفوس طيبة سمحة زايلها التعصب . فالتعصب عدو العلم عدو الحق عدو الخير عدو الحرية . . عدو لكل الهبات العلوية التى أكرم الله بها الناس . وليعتقد المرء ما شاء فى هذه الحوادث وأبطالها فليس عليه فى عقيدته من بأس ، ولكن البأس كل البأس فى أن يوقن أن ما يعتقده هو الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن كان كذلك فقد جعل بينه و بين الحق والعلم حجاباً صفيقاً وأغلق دونهما الأبواب ثم رمى علمها بالأقفال .

والخير أن يجعل المرء عقيدته فى هذه المسائل — بعد بذل الجهد بإخلاص — مذهباً شخصياً يحتمل الخطأ ، ثم لا يأخذ نفسه إلا بشيئين : الإخلاص فى البحث وما يقضى به العقل الحر من حكم بعد بذل الجهد والتجرد من كل عصبية .

هذا وقد يضيق أقوام — كما ضاقوا من قبل — بتشددى فى رفض بعض روايات مشهورة استفاضت على ألسنة الناس وأقلام الكتاب والمؤرخين ، تُزعم نسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه ، ذاهبين إلى أننا لا حق لنا فى امتحان المتن بعد صحة السند . وأرى أن التشدد فى هؤلاء الضائقين أنفسهم : إذ منذا الذى حظر ماحظروا ؟ وهل من الأمانة أن يغمض باحث عينيه عن وهن أظهره الله عليه فى خبر ؟ ونحن نعلم وهم يعلمون أن أهل الأهواء لم يتورعوا عن نصرة أهوائهم بأحاديث ينسبونها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو يتسامحون فى روايتها — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — إرضاء لهواهم السياسى أو المذهبى أو العصبى . والمحدثون أنفسهم لم ينقلوا عن ذى هوى — مهما كان جليل القدر — حديثاً ينصر هواه ، وهم أنفسهم لم ينكروا نقد المتن ، بل هم الذين شرعوه وشرعوا له قواعد عامة ؛

إلا أن العناية انصرفت إلى نقد السند لأنه أقرب إلى (الآلية) حتى ضاع فى عباب هـذا النقد ما لهم من نقد للمتن ، وهم على كل حال — والشواهد حاضرة — لم يتنكروا للعقل إذا رفض رواية تضافرت الشُّبه على توهينها . ومن أكثر النظر فى تواليفهم عرف ذلك من شأنهم ، غير أنهم لم يفتحوا الباب على مصراعيه حذراً من عبث أطفال العقول وأدعياء الفهم والعلم وذوى الأهواء ، وحسناً فعلوا ، ولقد كانوا فى ذلك على حق مبين .

***

وبعد ، فسيواجه القارئ من فوره صميم الموضوع ، ولن يجد أمامه من تمهيد غير سطور فى (المرأة والسياسة) و(فى منزلة السيدة عائشة) ، إذ التوطئة والمقدمة كلهما فى كتابى (الإسلام والمرأة) الذى بادرت بطبعه قبل عام ، ولا غنى للقارئ عن استيعابه قبـل قراءة بحثنا الآنى . وسيساير القارئ الحوادث هنا مسايرة زمنية ليرى مولد تلك المشاركة السياسية القويه العنيفة للسيدة عائشة : متى بذرت بذورها الأولى وكيف نمت وترعرعت ثم اشتدت وتفاقمت حتى جرفت الهدوء والاطمئنان من حياة المسلمين السياسية ، وحتى ذهبت بحياة الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان وعصفت بخلافة الإمام على .

عرضت ذلك على نسق خاص فصلته على حاجة موضوعنا فنظرت إلى الحوادث من الجهة (العائشية) وعلى هذا سردتها ، وظاهر أن النظر إلى الحوادث من الناحية العامة يقتضى سرداً بنظام آخر يفصل ما أجمِلَ هنا ويُجمل ما فُصـل ويثبت ما حذف ويحذف بعض ما أثبت ، مستفيداً فى عرضى هذا من أحسن المزايا فى مناهج القدماء والمحدثين .

ولم أشأ أن أختم الـكتاب بوفاة السيدة ، لأنى وجدتها استأنفت — بعد وفاتها — عمراً جديداً فى حياة المسلمين العامة ، فتتبعت آثارها السياسية فى المجتمع الإسلامى بعد ذلك وكيف (تبلّرت) فى عقائد الفرق الإسلامية بعد أن أثارت جدلاً وخلّفت معسكرات يحتد فيها الخلاف من حول عائشة ثم يهدأ ليحتد من جديد ، ولن تزال السيدة فى هذه الحيـاة الثانية ما بقى المجتمع الإسلامى .

أخرجت فى طول صحبتى للسيدة رضى الله عنها ، كتباً عدة[1] على هامش دراستى لها ،

---

(١) سيأتى بيانها قبل الباب الأول .

وقد يسر الله وأعان فاستأنفت تأليف هذا الكتاب الذى بين يديك بعد أن ضاع التأليف الأول فى حادث فيضان سنة ١٩٤٣ ، وفى مأمولى أن أجد وقتا أعيد فيه تأليفاً ضاع أيضاً فى حياتها العلمية والأدبية وما إليها .

والله هو الموفق وله الشكر وبه المستعان .

دمشق { رمضان ١٣٦٥ هـ / آب ١٩٤٦ م

سعيد الأفغانى

تمهيد :

المرأة والسياسة

الحكم فى هذه القضية لسنة الله فى المرأة ، وما فطرها عليه من خصائص غريزية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية ؛ خصائص قاهرة لا يد للإنسان فى تحويرها إلا حين يستطيع تحويرا فى تركيب الدماغ و بنية خلاياه ، أو حين يبدل فى وظائف الأعضاء فيذوق بأذنه أو يسمع بقدمه .

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية ، اقتضتها الحكمة العميقة الكونية التى تعنى دائما بالتمييز الدقيق ، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وما خلق له . وكل مجتمع يحاول بُناته إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين فمصيره إلى الاضطراب والفساد : لأن فى ذلك ثورة على الطبيعة ، وما كان ثورة على الطبيعة فمنه الضرر كل الضرر ؛ ولا يرجى له دوام ، و إن خُيِّل لبعض الأفراد والجماعات (سطحيةً فى تفكيرهم أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه .

والطبيعة فى هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم ولا باختلاف الأعصار والأمصار ، ولا بتفاوت المجتمعات رقياً وانحطاطاً ولا بتباين الأفراد تربية وثقافة .

المرأة نظام الأسرة وسيدة البيت ، فمهما احتلت لتخرجها عما خلقت له من رعاية أطفال و برّ أزواج وتدبير منزل . . . فإنما تحاول خرقاً لقانون طبيعى ، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن يخرجه العهد الطويل ولا العرف المنحرف عن أن يكون شذوذاً يقذى العين و يصدم الفؤاد .

فمن البديهى إذاً أن تكون قيادة الجيوش و إدارة المصالح العامة وتدبير الممالك وسياسة الناس ... فن الرجال الخاص كما أن الأمومة وما إليها فن نسوى محض . ولئن حفظ التاريخ شواهد عديدة فى قيام المرأة بشؤون السياسة والإدارة ، إنى لا أجد فى هذه الشواهد كلها ما يمس هذه القاعدة ، بل أقرر أنها كلها تؤيدها ؛ ولأى مثقف كان أن يسرد ما فى

حفظه من ملَكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ملك أو نائبات فى المجالس . . . الخ ثم يستقرى أحوالهن واحدة واحدة ، ويمعن فيما حف بهن ، فسيدرك أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن ، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب .

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً فى التفكير ، ومنطقاً سديداً ، وحساباً دقيقاً للعواقب ، وصبراً مضنياً ، وضبطاً للعواطف ، وكبحاً للأهواء والنزوات . . . إلى صفات كثيرة كلها يعوز المرأة ، بل يعوز أكثر الرجال . فلا عجب أن كان اضطراب الأمور وتدخل المرأة فى السياسة قرينين فى التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبّر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار ؛ ومع هذا فقلما خلت امرأة — مهما حف بها من فحول محنكين — من طامع فيها مستغل لضعفها . وما أكثر ما حفظ التاريخ من سير عروش كان الغرام هو الحاكم فى ممالكها .

وهناك كلمة متداولة منذ القديم ، لا أشك فى أنها عصارة التجارب على الزمن ، وهى قولهم : « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » .

ويعجبنى فى ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أوف أكسفورد ، قالت :

« هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة ؟ إنى لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء فى شارع داوننج رقم ١٠ »[1] .

ولنتصور نحن — على نسق هذه الكونتس — أحوال المشتغلين بالسياسة فى الشرق صحفيين وأحزاباً ووزراء ونواباً ومن يتبع هؤلاء من محترفين ومرتزقة ... ، وما ينشأ من تزاحمهم وتكالبهم على المنافع من خصومات وعداء وجدال ومهاترات وتراشق بالتهم والسباب ثم

---

(١) من كتابها (فى السجلات) انظر العدد ٥٦٥ من مجلة الرسالة ص ٣٦٩ . — هذا وأقرب عبرة منا ما وقع فى فرنسا فى هذه الحرب العالمية الثانية من دس المرأة أنفها فى السياسة العليا وذهاب فرنسا ضحية هذا (التدخل) حتى قال أندره موروا الأديب الفرنسى الأشهر : « إن الكونتس (دى بورت) .. ستذهب فى التاريخ (على أنها) المرأة التى خربت فرنسا ... والنساء اللواتى على غرارها أدوات هدم لأن أدمغتهن التى تحوك الدسائس وشخصياتهن التى توقع الرجال لا تعرف حداً للاتزان ....

« وهكذا أصبحت الكونتس (دى بورت) من قواد الطابور الخامس الفرنسى وأصبح صالونها مركز القيادة » . — ترجمة الصاوى لكتاب (مأساة فرنسا) لأندره موروا ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

مظاهرات فيها اشتباك والتحام ، ثم ماينجم عن ذلك من قتلى وجرحى ومشوهين ومسجونين ... لنتصور ذلك وما إليه ، ولنتصور معه أن النساء يشاركن فيه الرجال بين محترفات وتابعات وداخلات فى الأحزاب ومُساهمات فى المهاترات الصحفية وما إليها ؛ وأن منهن أيضا نائبات وموظفات ، وأن كلا منهن تهاجم وتدافع ، وتتلقى التهم والشناعات وترمى غيرها بأمثالها . . . وقد خلت منهن بيوتهن وأصبح الرجال والأطفال (رحّلا مشردين) فى المطاعم والمقاهى ، إذ شغلت السياسة والانتخابات من كل يقمن بإدارة بيوتهم ... ولنرجع بعد هذا التصور إلى نفوسنا : أنجد فيها تعبيراً يفى بشناعة مجتمع كهذا ؟ حنانيك أيها القارئ أعف نفسك وأعفنى من فظاعة هـذا التصور ، و إنى لأستغفر الله لى ولك من خاطر يجعل مكان أولئك المحترفين بناتنا وأخواتنا وأزواجنا وأمهاتنا : انصرفن عن رعاية أسرهن فأخذن مكان ذلك وهـذا ممن نرى من خواض المهاترات والتكالب على فتات السياسات . إن مثل هذا المجتمع خالٍ من كل كرامة وحياء ، ولن يكون منه لحياة الدعة والحنان والنبل والإنسانية أى أثر ، هذا مجتمع خسر طعم السعادة منذ انهار فيه بناء الأسر ذى الجو المحبب العطر الجميل .

لقد سارت أمم غربية راقية فى أوربا وأمريكا خطوات فسيحة فى تحميل النساء أعباء سياسية ، فما أظفرها ذلك بطائل ، بل كانت نتيجة التجربة أن ضـج عقلاؤهم ومصلحوهم من تلك الأوضاع الشاذة الخارجة على الفِطر السليمة[1] .

---

(١) أحدث ما قرأت فى هـذا الباب شكوى الدكتور (ألكسيس كاريل) حائز جائزة نوبل الطبية . فقد نشرت له مجلة المختار من ريدرز دايجست فى العدد ٣٦ من الطبعة العربية) بحثاً عنوانه (لبن الأم حق طبيعى للطفل) هذه الأحكام التى وردت فى كلامه عرضاً ، وهى مع ذلك — لقوتها فى نفسه — تصور خير تصوير انحراف المجتمع الحديث عن الفطرة ، وتؤيد — من قرب — ما ذهبنا إليه ، قال :

« ... فالأم فى هذا العصر ليس لها من تعليمها ولا عاداتها ما يهيئها للأمومة ومقتضياتها ... ويرى كثير من الأمهات أن عملهن ومستقبلهن وشهواتهن الاجتماعية أهم من رعاية أطفالهن ، ولا يدركن أن المرأة إنما خلقت للأمومة ...

والأم فى العصر الحديث فريسة فى مخالب البيئة الاقتصادية والبيئة العقلية ، فقد ضرب المجتمع صفحاً عن قوانين علم الحياة ، وبخاصة قانون النسل . فالبنات قد حرمن معرفة العمل الذى خلقن له وجهلن قدره فى حياة البشر ، بل صرن يتعلمن ما يتعلمه الصبيان ، وصرن بمنزلة الذكور : لهن ما لهم فى الحياة ، وعليهن ما عليهم ؛ فصار على المرأة أن تعول نفسها كما يفعل الرجل . فكيف يتأتى لعاملة فى مصنع أو مكتب ، أو لمدرسة أو محامية أو طبيبة أو تاجرة أو امرأة باحثة عن ملاذ الحياة أن ترضع طفلها ثلاثة أشهر أو أربعة هى الحد الأدنى للرضاعة ؟ » ص ٧٢ ، ٧٣ .

هذه حسرة الرجل على اشتغال النساء عاملات أو مدرسات أومحاميات أوطبيبات ... وبعض هذه=

وليس تاريخ العرب ببدع فى تواريخ الأمم ، فالحكم واحد كما أسلفنا ؛ فحيث رأيت انحطاطاً فى إدارتنا أو تقهقراً فى سياستنا أو انحلالا فى مجتمعنا ، ففتش ثمة عن المرأة .

وكتابنا هذا فيه أكبر عبرة انطوى عليها تاريخنا فى هذا الموضوع ، ولم ينجنا من العاقبة الوخيمة : عاقبة دس النساء أنوفهن فى السياسة ، أنْ كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قل أن يحوى مثلها رجال عديدون ، ولم ينجنا كذلك رغبتها القوية المخلصة فى الإصلاح وابتغاء الخير للمسلمين .

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة »[١] ، وذلك جد معقول ، إذ أسندوا الأمور إلى ضعيف غير ذى اختصاص .

* * *

فإذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد فى الإسلام ، رأيت المسألة تختلف بين يديك ، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد ، وأنها هى والرجل سواء فى المطالبة به : كل بحسب استعداده واختصاصه ، فالرجال للقتال ، والمرأة لتمريض الجرحى ، والعناية بشؤون الجيش من نحو : إسقاء وإطعام ، وغسل وخياطة — . ثم هى مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التى تنتظرهم وحُرمهم إذا هم تهاونوا فى الدفاع .

وللمرأة العربية فى هذا الميدان الموقف المحمود الذى لا يجارى ، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها .

وعلى هذا درجتْ من قبلُ أيضاً فى جاهليتها ، فكان إليها فى الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسقى الماء وتحميس المحاربين[٢] .

ثم جاء الإسلام ففتحت عينها — لما أظلتها رايته — « على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقال ، فشمرت عن ساعدها

= المشاغل كالطب والتدريس ضرورة اجتماعية ظاهرة ، فماذا يقول وكم تبلغ شكواه ومرارته إذا بالغ النساء فى الابتعاد عن الفطرة فاشتغلن نائبات أو سياسيات ؟ ؟

(١) مسند أبى داوود الطيالسى ص ١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد ٥/٤٣ ، ٤٧ .

(٢) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٢٠ .

وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله عليه شكراً عمليا :

قاست فى أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت فى صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل شرف الجهاد ، وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية فى الشكران »[١] .

صحب رسول الله صل الله عليه وسلم النساء فى مغازيه ، وأبلين معه البلاء الحسن ، فكن نعم المعينات للمحاربين : يداوين جرحاهم[٢] ، ويحملن إليهم الماء فى القرب يسقينهم ، ويتعهدن أطعمتهم ، وملابسهم وقربهم ، وكن أحياناً يمارسن القتال :

تتابعت المواقف المأثورة للمرأة من بعد الرسول ، وحفظ التاريخ لنا أسماء بطلات من مجاهدات الصحابة : كنسيبة وصفية . ولن ينسى أحد جهاد خولة بنت الأزور أخت ضرار وحسن بلائها فى الروم ، ولا موقف الخنساء فى يوم القادسية ، وكانت واحدة من كثيرات .

ذكر الطبرى عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعى قالت :

« شهدنا القادسية مع سعد (بن أبى وقاص) مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى : فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم فيه »[٣] .

وإذ كانت هذه الوقعة من الخطر بحيث أنها هى الفاصلة بين العرب والفرس ، وأنها لها ما بعدها ، استعدت لها القبائل بكل ما تطيق ، حتى أن التاريخ ليذكر لقبيلتين من القبائل فخراً خالداً إذ أخرجتا نساءها معهما ، فكان فى قبيلة النخع — على ما يذكر الطبرى — سبعمائة امرأة لا أزواج لهن ، وفى قبيلة بجيلة ألف امرأة ، تزوجن جميعاً فى هذه الحرب . وكانت النخع تسمى : أصهار المهاجرين[٣] .

لقد شرع الرسول الاستعانة بالنساء فى الجهاد ، وأثابهن عليه من الغنائم ، ودرج

---

(١) عن كتابنا السابق ص ٣٧ .

(٢) أقام الرسول خيمة فى مسجده لرفيدة إحدى ممرضات الجيش وحمل إلى خيمتها سعد بن معاذ وهو مرتث (مثخن بالجراحة) .

(٣) تاريخ الطبرى ٣/٨٢ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ) وإلى هذه الطبعة نشير فيما يستقبلك من نقول عن الطبرى .

خلفاؤه من بعـده على سنته ؛ حتى إذا انقضى عهد الراشدين ، وخف علم الناشئين بالسنة ، شك بعضهم فى هذه الاستعانة ، فـكتب نجدة بن عامر الحرورى إلى ابن عباس يسأله : « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء ، وهل كان يضرب لهن سهماً ؟ » . فـكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلىّ تسألنى : هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويُحْذَيْنَ (يُعْطَيْنَ) من الغنيمة »[١] .

كل ما تقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد ، هو فى حال الفتح والهجوم حين يكون الجهاد فرض كفاية على الرجال أنفسهم ، فأما إذا انعكس الأمر وهاجم العدو بلاد المسلمين أو احتلها ، فحينئذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكراً كان أم أنثى ، لا يستثنى من هذا الفرض صبى ولا امرأة ولا رجل ، نص الفقهاء فى هـذه الحال على أنه يجب على المرأة أن تخرج إلى القتال بلا إذن زوجها[٢] . وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيـد ، لا يستأذن أحد أحداً فى تأدية هذا الواجب[٢] .

* * *

من شأن السياسة المزالق الخفية الخطرة ، فهى على المرأة حرامٌ صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب ، أما الجهاد فطريق لاحبـة مضمونة الخير . فللمرأة أن تأخذ من هذا الشرف نصيبها الأوفى .

---

(١) تيسير الوصول ١/٢٣٥ .

(٢) انظر فى ذلك : باب السير أو الجهاد فى كتب الفقه مثلا : شرح الزيلعى على متن الـكنز ٣/٢٤١ والحـكم مشهور لأن الإسلام لا يقر احتلالا لأجنبى بحال من الأحوال ولا يرضى لأهله حياة ذليلة .

سطور فى التعريف بعائشة

ولدت بعد المبعث ، ونشأت فى بيت أبيها أبى بكر الصديق أعلم العرب بتاريخ قريش وأنسابها وأيامها ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى صغيرة ، فترعرعت فى مهبط الوحى ، ومنبع العلم تغرف منه ما شاء لها ذكاؤها وعبقريتها ، وتأثرت بهدى الرسول فنشأت مجتهدة فى دينها وعبادتها ، وكان الرسول حفيا بها يعلمها ، ويُعنى بها ، ويخرج بها فى مغازيه ، وكانت أخبر الناس بتاريخ الرسول والمسلمين ، كما كانت أعلم بجاهلية العرب . فلم ينتقل الرسول إلى جوار ربه حتى خلفها مرجعاً وحجة يلجأ إليها الكبار والصغار متعلمين مستفتين .

كان الناس يرون « علم عائشة قد بلغ ذروة الإحاطة والنضج فى كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه . . . ومع حمل الأصحاب إلى الأمصار طائفة صالحة من الأحاديث والأحكام حتى كانوا ثمة مرجع طلاب العلم ورواة الحديث ، بقيت المدينة — لأسباب أهمها وجود السيدة نفسها فيها — دار الحديث ومنبع العلم . فحين يشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور ، يكتبون إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجاز يسألونهم عن حكم الله فيه ، فكان هؤلاء إذا فاتهم علم شىء رجعوا إلى علماء بينهم اشتهروا بحمل العلم وفقهه كعبد الله بن عمر وأبى هريرة وابن عباس . . . ومقام السيدة بينهم مقام الأستاذ من تلاميذه ، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبى البيتية ، لا يضارعها فى هذا الاختصاص أحد من النساء على الإطلاق .

ويصل إلى مسمع السيدة عن أولئك الصحابة العلماء روايات وأحكام على غير وجهها ، فتتصحح لهم ما أخطؤوا فيه أو تبين ما خفى عليهم ، حتى اشتهر ذلك عنها ، فصار من شك فى رواية أتى عائشة سائلاً ، وإن كان بعيداً كتب إليها يسألها[1] . ومن هنا طار لها ذلك الصيت فى التمكن من العلم ، ورجع إلى قولها كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وابنه وأبى هريرة

---

(١) انظر مثلا من ذلك فى : مسند أحمد ٦/٩ .

وابن عباس وابن الزبير . وقد نقل عنها وحدها ربع الشريعة على ما يقول الحاكم فى مستدركه »[١] .

هذه ثقافتها فى بيت الرسول ، أما ماحملته من بيت أبيها الصديق فإحاطة واسعة بالأخبار والأشعار وأيام العرب وأنسابها ومفاخرها حتى كانت تروى القصيدة ستين بيتاً[٢] .

ورسخت لها هذه المنزلة فى العالم الإسلامى حينئذ ، وانفردت بها دون غيرها من النساء والرجال ، حتى شاع فيه هـذه الشهادات ننقل لك منها ما فى مصدر واحد فقط وهو سير النبلاء للذهبى :

١ — عن أبى بردة عن أبيه قال :

ـــ « ما أشكل علينا أصحابَ محمد حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً »[٣] .

ـــ ٢ — قال الزهرى : « لو جمع علم الناس كلهم وأمهات المؤمنين لكانت عائشة أوسعهم علماً »[٤] .

ـــ ٣ — قال مسروق : «والله لقد رأيت أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض»[٥] .

٤ — قال عروة بن الزبير لعائشة :

ـــ « يا أمتاه ، لا أعجب من فقهك أقول : زوجة نبى الله وابنة أبى بكر ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول : ابنة أبى بكر وكان أعلم الناس ؛ ولكن أعجب من علمك بالطب : من أين هو ؟ وما هو ؟ » فضربت عائشة على منكبه وقالت :

« أىْ عُرَيّة ؛ إن رسول الله كان يسقم عند آخر عمره ، وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات ، وكنت أعالجها له ، فمن ثَمَّ »[٦] ، و « كنت أمرض فينعت لى الشىء ، ويمرض المريض فينعت له ، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض ، فأحفظه »[٦] .

---

(١) من قولنا فى مقدمة (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) للزركشى . وهو كتاب خاص فى نقدها العلمى لكبار الصحابة .

(٢) انظر سير النبلاء ٢/٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) ص ٨٥ . (٥) ص ٦٥ . (٦) ص ٦٦ ، ٦٧ .

٥ — وكان عروة يقول :

« لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت ، ولا بفريضة ، ولا بسنة ، ولا بشعر ولا أروى له ، ولا بيوم من أيام العرب ، ولا بنسب ، ولا بكذا ولا بكذا ... ولا بقضاء ، ولا طب منها »[١] .

٦ — روى الشعبي أنها كانت تقول : « رويت للبيد نحواً من ألف بيت »[٢] .

وكان الشعبي هذا يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها ثم يقول : « ما ظنكم بأدب النبوة ! ! »[٢] .

هذا ، ومن تخرج بهذا الأدب الغزير الزاخر لم يستغرب أن يكون أبلغ أهل عصره . وسترى من بلاغتها فى هذا الكتاب مالا تقضى منه عجباً ، ولست بحاجة إلى شهادة فيها بعد أن ترى أن هذه البلاغة وحدها (مع منزلة صاحبتها) أثارت الجموع ، وجعلت الناس يتسابقون لإهدار دمائهم فقضت على خلافة عثمان ، وزلزلت خلافة على فلم يسترح بها قط .

وحسبك شهادة اثنين : معاوية والأحنف بن قيس زعيم البصرة وسيد بلغائها :

٧ — دخل معاوية عليها — وهو خليفة — فى أواخر أيامه فكلمها ، فلما قام اتكأ على يد مولاها ذكوان فقال :

« والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٣] .

٨ — وقال الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد بلغاء العرب :

« سمعت خطبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء بعدهم . . . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من فى عائشة »[٤] .

٩ — ولقد جمع الله فيها من المزايا ما جعل الناس يقولون عنها بحق : « كانت رجُلة العرب »[٥] . وسترى أن هذه المزايا والمواهب النادرة خلقت منها (المرأة أمير المؤمنين) على

---

(١) ص ٦٦ ، ٦٧ . (٢) ص ٨٢ .

(٣) ص ٦٧ — هذا وذكر ابن عساكر فى تاريخه الكبير : أن معاوية سأل زياداً يوما : « أى الناس أبلغ ؟ » فقال له : « أنت يا أمير المؤمنين » . فقال له : « أعزم عليك » . فقال له : « حيث عزمت علىّ فأبلغ الناس عائشة » . فقال معاوية : « ما فتحتْ باباً قط تريد أن تغلقه إلا أغلقتْه ، ولا أغلقتْ باباً تريد أن تفتحه إلا فتحته » . تهذيب ابن عساكر ٤١٧/٥ .

(٤) سير النبلاء ٧٧/٢ . (٥) الإمتاع والمؤانسة ١٩٩/٣ .

تعبير أحد الظرفاء ، ومارست بالفعل هذه المهمة فى الجماهير فاستجابت لها حتى لو كانت رجلا لكانت خليفة ، وكان يقال :

« لو كان لأبيها (الصديق) ذكر مثلها لما خرج الأمر (يعنى الخلافة) منه »[١] .

* * *

« كانت السيدة إلى هذا زعيمة الآخذين بناصر المرأة والمنافحين عنها بلا منازع ، و إليها كانت تتطلع أبصار المستضعفات لما تم لها من المكانة الكبيرة فى العلم والأدب والدين ، حتى تقطعت دون مقامها الأعناق ، إذ أنها أستاذة لمشيخة الصحابة الأجلاء فى كثير من أمور العلم والدين . ولبث الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها و يشاورونها و يسألونها المسائل و يرجعون إلى رأيها ، وهى واقفة بالمرصاد للرعاة وكبار الرعية : تصحح لهم كلما رأت خطأ فى حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه .

و إلى السيدة عائشة يرجع الفضل الأكبر — بعد رسول الله — فى إعظام الناس المرأة الإعظام اللائق ، حتى ظهر كثير من اللائى طمحن إلى اقتفاء أثرها فى الشجاعة الأدبية والجرأة »[٢] .

وهى — بحكم زوجيتها للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم — واحدة من أمهات المؤمنين اللائى أنزل الله فى إعظامهن قرآناً « يتلى فى محاريب المسلمين منذ أربعة عشر قرناً إلى قيام الساعة ، يسمعه المؤمن فيمتلىء صدره إجلالاً لمن شاركن الرسول فى ضرائه وسرائه ، وصبرن معه على شظف العيش وكلَب الزمان ، وتحملن معه صروف الأذى ، وخففن عنه ما يجد من آلام فى سبيل الدعوة إلى الله .

ظلت بيوتهن مهابط الوحى والرحمة والهدى مدى حياته عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل إلى جوار ربه بقيت هذه البيوت مثابة للناس يقصدونها : متعلمين مستفتين أو ملتجئين مستغيثين ، فكانت تهدى الحائر ، وتعلم الجاهل ، وتحمى الملتجىء ، وتنجد المستغيث . ولبث الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم : الخلفاء فمن دونهم يخضعون لأزواج الرسول خضوع الأبرار لأمهاتهم .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٣/١٩٩ .

(٢) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٥١ ، ٥٢ .

لقد رفعهن الله إلى مقام تندق دونه الرقاب ، وأحاطهن برعاية وتقديس أذعن لهن من أجلهما كل مسلم ، فكنّ بذلك طبقة متميزة لا يفضلها إلا الأنبياء . وكان من رحمة الله بهذه الأمة أنْ طال عمرهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقلن لأمته كثيراً من سنته ، وخاصة فيما لا يطلع عليه إلا النساء ؛ فمن طريقهن عرف المسلمون أحوال النبي المنزلية ، وعنهن رووا كثيراً من السنة ولولاهن لضاع ، وبقيت بيوتهن بمنزلة مدارس مفتحة الأبواب للرجال والنساء على السواء »[١] .

ومن فضل الله وحكمته أنه جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة الهادية خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس : كأن الوحى لم ينقطع ، وكأنهم من أنواره فى شمس لا يلم بها أفول ، ولا تحجبها ظلمة .

ومن رجع إلى أمات كتب الحديث ودواوين السنة وخاصة المسانيد منها ، فرأى ما روى عن أمهات المؤمنين ، لهالته كثرته . لقد كانت بيوتهن مدارس لنشر الفقه والحديث والتفسير والسيرة ، وتهافت الرواة عليهن من كل جانب ، وتنافسوا فى الأخذ عنهن كل التنافس ، فإذا كان ما روى عن عائشة وحدها ربع الشريعة ، فما روى عن مجموعهن شىء عظيم جد غزير[٢] .

فإذا أضفت إلى هذه المكانة علماً منقطع النظير ، وأدباً وبلاغة سحرت بهما كل من سمعها ، ثم اجتهاداً فى العبادة : صياماً وصلاة وقراءة وصدقات . . حتى إنها لتسرد الصوم ، وتتصدق بسبعين ألف درهم وتنسى أن تحجز لنفسها من هذه الألوف السبعين درهماً واحداً تشترى به لحماً تفطر عليه[٣] .

وتصدقت مرة أخرى بسبعين ألفاً وإنها لترقع جانب درعها[٣] . . . ، إذا أضفت هذا إلى ذاك عرفت : لماذا ينظر التاريخ إلى السيدة عائشة فى علمها ودينها على أنها أنضج ثمرة أخرجها الإسلام فى عالم المرأة .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) انظر (الإسلام والمرأة) ص ١٠١ .

(٣) انظر فى ذلك أخباراً عدة فى سير النبلاء ٢/٧١ حتى حمل كثرة سخائها ابن الزبير على أن يحاول الحجر عليها . انظر ص ٨٤ .

و بعد ، فلم أرد من هذه الكلمات استيفاء مزايا للسيدة[١] ، فلذلك كتاب أرجو أن يوفق الله إلى عمله ، و إنما أردت بهذه السطور تمهيداً ضئيلا يدخل منه القارئ إلى الموضوع من فوره ، إذ لا مندوحة له عن أن يلم بمنزلة هذه التى نتحدث عن ناحيتها السياسية ، فذلك أعون على فهم هذه الآثار البعيدة التى سيراها .

هذا وليس للسيدة أى أثر سياسى فى عهد الرسول وخلافة صاحبيه أبى بكر و عمر ، فكتابنا — على هذا — سيبدأ فى عرض مآتى السيدة منذ عهد عثمان بن عفان ، فإليك إياها مرحلةً مرحلة[٢] .

---

(١) نشرنا فى ذلك مخطوطين فريدين : (الإجابة) و (سير النبلاء ج ٢) ، فارجع إليهما لتفردهما بنوادر ليست فى المصادر الكبيرة من الأمات .

(٢) قضيت فى دراسة السيدة عائشة نحواً من عشر سنوات ، وقد وفقت خلالها إلى إصدار كتب أوصى القارئ بالرجوع إليها ، فإنها صدرت جميعاً فى سبيل أن تكون دراسة المرأة عامة فى صدر الإسلام ، وعائشة خاصة دراسة مستفيضة واضحة المعالم ، شاملة عميقة .

١ — (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة : للامام الزركشى . صدر سنة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م) عن مخطوط فريد فى العالم هو مسودة المؤلف نفسها ، فى ٢٢٧ صفحة مع مقدمة واسعة وتعاليق وفهارس وافية . وهذا الكتاب سجل خالد لمجد المرأة العلمى فى الإسلام .

٢ — (فى المفاضلة بين الصحابة : للامام ابن حزم الظاهرى . صدر سنة ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م) عن مخطوط فى دار الكتب الظاهرية ، وعن مطبوع ضمن كتاب الفصل . وهذه الرسالة تنتهى إلى تفضيل السيدتين عائشة وخديجة على جميع الصحابة بلا استثناء ، بعد مناقشة سديدة واحتجاج صائب استخدم فيهما ابن حزم قواعد مذهبه الظاهرى وما آتاه الله من حجة ومنطق عما مضرب الأمثال فى الإحكام — أخرجت الرسالة مع دراسة وافية عن الإمام ابن حزم وتعاليق وفهارس شاملة فى ٤١٩ صفحة .

٣ — (سير النبلاء (جزء ثان) : لمؤرخ الإسلام الإمام الذهبى — طبع سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م فى ٨٨ صفحة) . وهو جزء خاص بترجمة فريدة للسيدة عائشة (أما الجزء الأول فخاص بترجمة ابن حزم نفسه ، صدر سنة ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م فى أربعين صفحة مع دراسة عن الذهبى صاحب سير النبلاء) ، صدرا عن نسخة وحيدة فى العالم بخزانة صاحب الجلالة إمام اليمن يحيى حميد الدين .

٤ — (الإسلام والمرأة) يبحث بابه الأول فى المرأة العربية فى نشأة الإسلام ، ويدرس بابه الثانى الطبقة المختارة فى الإسلام ، وهى طبقة (أمهات المؤمنين) دراسة بكرا . وهذا الكتاب أريد به أن يكون أساساً ومدخلا لكل دراسة نسوية فى الإسلام . فهو لكتابنا هذا والذى سيليه إن شاء الله مقدمة ومفتاح لابد منه . طبع سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م فى ١١٢ صفحة — نشرتها جميعاً المكتبة الهاشمية بدمشق .

وقد احتلت هذه الكتب الأربعة عن السيدة عائشة أمكنة ملحوظة فى المكتبة العربية الإسلامية .

الباب الاول

فى عهـــد عثمان

تمهيد :

لم يتح للسيدة عائشة أن يكون لها أدنى أثر على عهد الخليفتين العظيمين أبى بكر وعمر فانهما كانا من الكفاية وحسن القوامة على أمور الرعية : بحيث ساقا الفحول المحنكين أولى الدهاء من الرجال ، فما بالك بالنساء . لقد كان شأنها — شأن أخواتها من أمهات المؤمنين — مقتصراً على الرواية والتحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان أبو بكر وعمر وغيرهم من كبار الصحابة ، كثيراً ما يسألونهن فى دقاق المسائل وجلائلها ، وعلى هذا اقتصر عمل عائشة لهذا العهد . وكان فى ذكاء السيدة رحمها الله وفى علمها ما جعلها مقدمة على أزواج النبى عامة : يعرفن ذلك من حقها ، ويرجعن أمورهن إليها . . . وكان الناس حين يفزعون إلى أزواج النبى لا يبدؤون إلا بها . . فكان لها فيهن مكان الزعيم .

فلما كان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، سارت السيدة فى الشطر الأول من خلافته سيرتها على زمن صاحبيه ، تفتى وتحدث وتنشر العلم . لكنه لم يكد لين عثمان يجرىء الناس عليه ، ولم تكد القالة تفشو ناقمة عليه بعض تصرفاته وتنتشر الأمور عليه آخر خلافته . . . لم يكد يكون ذلك حتى انقلب الحال ، فرأينا السيدة عائشة تقود (حركة المعارضة العنيفة) ، ورأينا عثمان يتبرم بموقفها كل التبرم . . . ولم تزل السيدة توغل فى (تدخلها) السياسى حتى أدى الأمر إلى أن يستغل موقفها أولو الكيد والفساد ، وآلت الأحداث إلى ما لم تكن تحب السيدة نفسها ، وحتى خرج الأمر من يدها فى النهاية إلى أيدى الغوغاء وقادتهم الخطرين . . . فكانت — فيما بعد — أشد الناس ندماً وحسرة وألماً على ما فعلت .

***

نجد إذن للسيدة فى هذا العهد سيرة جديدة مرتجلة لم يكن لها ما يشبهها فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر ، إنها تبرز الآن بغتة فى ميدان السياسة وتمارس شؤونها وتملى على الخليفة رأيها فى عزل الولاة ونصبهم ، وتصب احتجاجاتها بعنف شديد على تصرفاته ، ثم يؤول بها الأمر إلى أن تتزعم معارضة شديدة خطرة ، تتقاذفها الأغراض والدسائس — من حيث لا تشعر السيدة ولا تريد — حتى تنجلى عن أشأم يوم عرفه تاريخ المسلمين : ذلك يوم الدار ، يوم قتل الغوغاء الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

هى وعثمان

ولعل من الخير قبل أن نعرض للخلاف الذى نجم بين السيدة والخليفة ، أن نحاول معرفة البذور الأولى لهذا الخلاف :

لقد بحثت عن علائقهما قبل تولى عثمان الخلافة ، فلم أصل — مع كثرة التحرى — إلى سبب أستطيع أن أعزو إليه تغير قلب السيدة عليه ؛ بل كانت العلائق بينهما قبل هذا التاريخ تخضع لإجلال واحترام من السيدة لعثمان ، تقتفى بذلك أثر الرسول الكريم فى صحبة عثمان ورعايته والاعتراف بجميل إيثاره وبذله منذ عانى الإسلام شدته الأولى .

ومع هذا فأنا أسوق هنا ما يفصح لك عن هذا الشعور النبيل منها : روايات لو بذل أكبر محب لعثمان ما عنده من جهد وقوة فى سبيل الدعاية له ما استطاع أن يبلغ من الناس ما تبلغه إشاعة هذه الروايات بينهم . إنها تجلو مقدار حب الرسول لعثمان وتعظيمه له واستحيائه منه . . . ترويها أحب أمهات المؤمنين إلى الرسول وأقربهن من قلبه وأنفذهن كلمة فى الجماهير :

١ — جاء رجل إلى عائشة فقال لها : « إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسأل عن عثمان بن عفان فإن الناس قد شتموه .. » فقالت :

« لعن الله من لعنه ، فوالله لقد كنت قاعدة عند نبى الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله مسند ظهره إلى وإن جبريل ليوحى إليه القرآن وإنه ليقول له : « اكتب يا عُثَيْم » ؛ فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ورسوله[1] . »

---

(١) مسند أحمد ٦/٢٥٠ . وقد أعاد الإمام أحمد هذا الحديث بتفصيل أوفى فى الجزء نفسه =

٢ — عن سعيد بن العاص : أن عائشة وعثمان حدثاه :

أن أبا بكر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على فراشه لا بس مِرْط عائشة ، فأذن لأبى بكر وهو كذلك ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، فاستأذن عمر فأذن له على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، ثم جاء عثمان فاستأذن عليه فجلس وقال لعائشة : « اجمعى عليك ثيابك » وقضى إلى حاجتى ثم انصرفت . فقالت عائشة : « يارسول الله مالى لم أرك فزعت لأبى بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عثمان رجل حَيِىّ ، وإنى أخشى إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ فى حاجته . »

وفى رواية أنه قال لعائشة : « ألا أستحيى ممن تستحيى منه الملائكة ؟! »[1]

٣ — روت عائشة :

استأذن عثمان على النبى فأذن له ، فدخل ، فناجاه النبى طويلاً ثم قال : « ياعثمان إن الله عز وجل مُقَمِّصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعْه لهم ولا كرامة » يقولها مرتين أو ثلاثاً[2] .

روت السيدة أن الرسول دعا عثمان ، فلما جاء قال : « تَنَحَّىْ » وجعل يسارّه ولون

= ص ٢٦١ ، وفيه تقول السيدة زيادة على ما تقدم : « ... ولقد زوجه ابنتيه إحداهما على إثر الأخرى ... » وانظر الورقة ٩٩ من مخطوطة دار الكتب الظاهرية لتاريخ ابن عساكر (رقم ٣٣٧٥ تاريخ ١٠ ج ١١) .

(١) مسند أحمد (٦/١٥٥ وانظر مخطوطة الظاهرية السابقة لتاريخ ابن عساكر الورقة ٩٦ ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ٥/١٠ — المرط : كساء صوف أوخز .

(٢) لقد كانت فى رواية السيدة لهذا الحديث — وهى أعنف خصوم عثمان — طرافة وحرص من سامعيها ، حتى إن النعمان بن بشير راوى هذا الحديث عنها لم يملك أن يخفى استغرابه ، فسأل السيدة بعد أن حدثت هذا الحديث : « يا أم المؤمنين ! فأين كان هذا عنك ؟؟ ! » أى يوم خاصمت عثمان فقالت : « نسيته والله فما ذكرته » ، فأخبرت بهذا الحديث معاوية بن أبى سفيان ، فلم يرض بالذى أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن « اكتبى إلى به » فكتبت إليه به كتابا . مسند أحمد ٦/٧٥ وانظر ص ١٤٩ من الجزء نفسه ، وأنساب الأشراف ٥/١١ ، هذا وفى مسند أحمد ٦/١١٤ صيغة ثالثة حدثت بها السيدة مرة ولا تخلو من زيادة فائدة : قالت عائشة : « ما استعتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة : فإن عثمان جاءه فى نحر الظهيرة فظننت أنه جاءه فى أمر النساء ، فحملتنى الغيرة على أن أصغيت إليه ، فسمعته يقول : « إن الله ملبسك قميصاً تريدك أمتى على خلعه فلا تخلعه » ... فلما رأيت عثمان يبذل لهم (للغوغاء وأهل الشغب) كل ما سألوه ... إلا خلعه ، علمت أنه من عهد رسول الله الذى عهد إليه » . وانظر الورقة ١٤٩ من مخطوطة ابن عساكر السابقة .

عثمان يتغير . . . فلما كان يوم الدار [يوم حصار عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥] وحصر فيها قالوا :

« يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟ » قال : « لا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهِد إلىّ عهداً وإنى صابر نفسى عليه »(١) .

٤ — أتى عثمان منزل عائشة فسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « ذهب يبتغى لأهله قوتاً ، فإنه ما أُوقد فى أبياته نار منذ سبعة أيام » . فقال : « رحمكِ الله ، أفلا تعلمينى إذا كان مثل هذا ! » ، ورجع فبعث بطعام وشاة إلى كل بيت ؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ماهذا يا عائشة ؟ » قالت : « بعث به عثمان » فقال : « ابعثى منه إلى النسوة » : فقالت : « ما منهن امرأة إلا أتاها مثل هذا » . فرفع يديه وقال : « اللهم لا تنسها لعثمان »(٢) .

٥ و ٦ — ولم أجد — فيما اطلعت عليه — لعثمان مما يخص السيدة عائشة من قريب أو بعيد شيئاً يخرج عن معنى ما تقدم ، إلا أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين توفى « أردن أن يرسلن عثمان إلى أبى بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت لهن عائشة : « أوليس قد قال رسول الله : « لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة »(٣) .

و إلا أن عثمان كان يحج بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم على عهد عمر :

فقد رغبت أمهات المؤمنين فى الحج ، فاستأذنّ عمر فأبى أن يأذن لهن حتى أكثرن عليه فقال : « سآذن لكن بعد العام ، وليس هذا من رأيى . » فلما أردن الحج جهزهن وأرسل معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن والآخر من خلفهن ولا يسايرهن أحد ، وقال : « فإذا نزلن فأنزلوهن شعباً ثم كونا على باب الشعب لا يدخلَنّ عليهن أحد . » ثم أمرهما إذا طفن بالبيت : ألا يطوف معهن أحد

(١) مصادر الحاشية السابقة .

(٢) أنساب الأشراف ٨/٥ .

(٣) مسند أحمد ٢٦٢/٦ والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٦٧ رواية عن البخارى ومسلم .

إلا النساء » ؛ فلما هلك عمر غُلِبْن من بعده . ولو أن غيرهن طلب هذا الطلب ما لان عمر ، ولـكنه — رحمه الله — كان شديد التعظيم لقدرهن كبير الرعاية لحرمتهن .

وسار على سيرة عمر فيهن ، الخليفة بعده عثمان بن عفان ، فقد « حج بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن بن عوف فى موضعه ، وجعل فى موضع نفسه سعيد بن زيد : هذا فى مؤخر القطار وهذا فى مقدمه . »[1]

(١) عن كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٩٨ وانظر أيضاً الرياض النضرة ٢/٢٣ والطبرى ٣/٤٢٧ .

الفصل الأول

كيف ساءت العلاقات بينهما فى خلافته

أنت ترى إذن أن السيدة تنطوى على إجلال واحترام عميقين لعثمان على عهد الرسول والخليفتين من بعده ، فلما وسدت الخلافة إلى عثمان دب دبيب الخلاف بينهما . وذلك أنه كان لتصرف عثمان مع بعض أجلاء الصحابة تصرفاً غير رفيق من جهة ، ولأخطاء عماله فى شؤون إدارية من جهة أخرى ، كان لكل ذلك أثر فى حمل السيدة على الإنكار العنيف . ولم يلطف من هذا الإنكار ما كان يظهره عثمان فى مناسبات شتى من إكرام لها و إجلال ، حتى لقد كان يغضى أحياناً عما يخل بالواجب نحو عمله وعما يوهن سلطانه رعاية لها :

كان محمد بن أبى بكر (أخو عائشة) قد امتلأ قلبه غيظاً من عثمان ، فصار يشغب عليه وعلى عامله بمصر شغباً كثيراً ، ويقال إنه أتى ذنباً يوجب الحد فأقام عليه عثمان الحد ، فعظم الأمر عليه لما له من الشرف بأبيه أبى بكر[1] وسولت له نفسه الوقيعة فى عثمان وسلطانه حتى ضاق به عامل مصر عبد الله بن أبى سرح فكتب إلى عثمان :

« إن محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة قد أنغلا على المغرب وأفساداه » .

فكتب إليه عثمان : « أما محمد بن أبى بكر فإنى أدعه لأبى بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين ، وأما محمد بن أبى حذيفة فإنه ابنى وابن أخى وأنا ربيته وهو فرخ قريش[2] »

أقول : وعلى رغم ما يكنّ عثمان ويظهر من احترام السيدة ورعايتها سارت الأمور سيرها المكروه بينهما ، وكان كل أمر يسلم إلى أشد منه ... حتى أن كلاً منهما أرسل لسانه فى الآخر على ملأ الناس . وأنا أسوق إليك مواقف عائشة فى أمور بأعيانها أنكرتها على عثمان :

لعل أول ما غير قلب السيدة — من حيث لا تشعر — نقص عثمان من عطائها :

---

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ٢/٢٠٠ .

(٢) أنساب الأشراف ٥/٥٠ — طلب محمد بن أبى حذيفة من عثمان عملا يتولاه ، فلم يره عثمان أهلا لعمل ، فاعتذر له ، فاستأذنه فى الخروج يكسب لنفسه ، فأذن له ، فخرج مغاضباً لعثمان يؤلب عليه .

كان عمر بن الخطاب قد فضّل عائشة على أخواتها أمهات المؤمنين فى العطاء ، لمكانها من رسول الله ، ولما تؤدى من خير فى نشر سنته أكثر منهن ، ففرض لأمهات المؤمنين ستة آلاف ستة آلاف ، وفرض لعائشة فى اثنى عشر ألفاً[1] ، فلما ولى عثمان « نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وصيّرها أسوة غيرها من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فإن عثمان ليخطب إذ دلت عائشة قميص رسول الله ونادت : « يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمان سنته !!» فقال عثمان : «رب اصرف عنى كيدهن إن كيدهن عظيم[1] » وظاهر أن عثمان لم يفعل إلا ما رآه — فى اجتهاده الخاص — واجباً فلا لوم عليه .

ثم كانت السيدة تتأثر بعنف كلما بلغها عن عثمان خطأ يمس الصالح العام من قريب أو بعيد ، فنصبت نفسها المحامى العام (ضد) الخليفة ، والذائد عن كل من يناله من عثمان أقل أذى . وهى إذ تجادل عن أولئك المظلومين لا تجادل جدال المحامى اللبق الذى يحمل الناس بحكمته ورفقه على التسليم له ، بل جدال المتحدى (العصبى) الحنق الذى يهيجه مس النسيم فيثور صاخباً على رؤوس الأشهاد :

١ — يأتى وفد مصر يشكو عاملها عبد الله بن أبى سرح ، فيكتب له عثمان كتاباً يتهدده وينهاه ، فيأبى ابن أبى سرح أن ينتهى ، ويضرب رجلا من الوفد فيقتله ، فيخرج من مصر سبعمائة رجل إلى المدينة فينزلون المسجد يشكون إلى أصحاب رسول الله فى مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبى سرح فيكلمون عثمان بشدة ، وترسل إليه السيدة عائشة قائلة :

« قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل ، فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك »[2]

٢ — كان مما أخذ الناس على عثمان عزله من ولاية الكوفة القائد المغوار صاحب رسول الله سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وتوليته مكانه الوليد بن عقبة (أخا عثمان من الرضاعة) رجلاً مستهتراً ، فكان من جراء تصرفات العامل الجديد : أن يأتى عثمان وفد من أهل الكوفة يطلبون عزل عاملهم ، ويشهدون عليه بإتيان منكر يوجب

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/١٧٥ .

(٢) العقد الفريد ٣/٨٠ (المطبعة الأزهرية طبعة سنة ١٩٢٨) .

الحد ، فلا يقنع بشهادتهم ويظن بهم التزوير ويتوعدهم ، فيأتى الشهود عائشة ملتجئين مستجيرين ، فيخبرونها بما جرى بينهم وبين عثمان وأنه زجرهم وهددهم ، فتنادى عائشة : « إن عثمان عطّل الحدود وتوعّد الشهود . »[١]

ويزيد البلاذرى على ذلك رواية بعضهم : « أن عائشة أغاظت لعثمان وأغلظ لها وقال « وما أنتِ وهذا ؟ إنما أمرت أن تقرى فى بيتك » فقال قوم مثل قوله ، وقال آخرون : « ومن أولى بذلك منها ؟ » فاضطربوا بالنعال وكان ذلك أول قتال بين المسلمين بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

٣ — ويطيب لى أن أثبت هنا رواية صاحب الأغانى ففيها تفاصيل تفصح عن غضب عثمان وتهديده ، وأن السيدة — بعد ما تقدم — أعادت القول فى الموضوع نفسه واستطاعت إهاجة عثمان حتى أخرجته عن حلمه . قال أبو الفرج الأصفهانى :

خرج رهط من أهل الكوفة فى أمر الوليد (بن عقبة) فقال عثمان : « أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . » ، فاستجاروا بعائشة وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال : « أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟!! » فسمعتْ ، فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل » فتسامع الناس فجاؤوا حتى ملؤوا المسجد ، فمن قائل : « أحسنتْ » ومن قائل : « ما للنساء ولهذا ؟ » حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال . ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له : « اتق الله ولا تعطل الحد واعزل أخالك عنهم » فعزله عنهم[٢] » .

وهكذا أجارت السيدة أخيراً الشهود من انتقام الخليفة وأثمر احتجاجها وإنكارها فعزل العامل المشتكى منه على كره من عثمان .

ومهما يكن فإن مما لا ينبغى أن ينسى أن كلمة عثمان « أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل » تؤرخ روح الشغب التى سيطرت فى الأمصار . ومن اطلع على حركة

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٠٣ .

(٢) الأغانى ٤/١٧٨ (طبعة الساسى) .

الجماهير حينئذ وما يبثه أهل الدسائس من شر وفساد ، عرف أن تصوير عثمان هذا حق كل الحق .

٤ — وينهض عثمان فى أمر جليل النفع والخير بعد مشاورة الصحابة الأجلاء فى جمع القرآن ويتم الله على يديه ما يتم ، ويملى عليه الحزم والنظر البعيد أن يجمع المصاحف المختلفة فى البلدان ، فيحرقها جميعاً بعد أن قابل بعضها ببعض على مجمع من القراء وفقهاء الصحابة ، ويأخذ الناس جميعاً بمصحف واحد ؛ وكل هذا مما يحمد عليه أكبر الحمد فقد أحكم الأمر وسدد الخطة وكان الصواب حليفه فى كل خطواته .

كان الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود قد أبى أن يبعث بمصحفه إلى المدينة ، وأبى تسليمه عبد الله بن عامر حسب أمر الخليفة ، فغضب عثمان وأمر بإشخاص ابن مسعود إليه . وإلى هنا عثمان على حق فى جميع ما آتيه ، فليس لأحد — مهما جل — أن يشذ عن أمر عام دخل فيه المسلمون وكان معقد الخير لهم عامة ؛ ولكن عثمان تعتريه حدة تخرج به عن طوره :

فقد وافى ابن مسعود المدينة ودخل مسجدها وعثمان يخطب ، فيزعم المؤرخون أنه حين أبصر ابن مسعود داخلا قال : « ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء »[١]

ويزيد البلاذرى فى روايته هذه الكلمة : « من يمشى على طعامه يقىء ويسلح . »[٢] فيرد ابن مسعود : « لست كذلك ، ولكنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم بيعة الرضوان » حينئذ لا تملك السيدة عائشة نفسها وهى غضبى لهذا الاستقبال السيىء يستقبل به الخليفة عثمان على مسمع منها ومن الناس : الصحابىّ الجليل عبد الله بن مسعود ، فتنادى من حجرتها : « أى عثمان ، أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟! » ويأمر عثمان بابن مسعود فيجر برجله حتى يكسر له ضلعان وتتكلم عائشة وتقول قولا كثيراً[٢] .

ولعل السيدة باستنكارها هذه المعاملة السيئة قد عبرت عن شعور كل المشاهدين فى المسجد ، ولقد مال عثمان فى مؤاخذة ابن مسعود إلى عنف واحتقار لا يستحقهما ، وعتب بلين فيه كل الغناء لمثل ابن مسعود .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١٩٧/٢ .

(٢) أنساب الأشراف ٤٨/٥ والمصدر السابق .

٥ — ثم وقع شر من هذا فى شأن صحابى جليل آخر هو عمار بن ياسر :

كان عمار قد أنكر على عثمان حين حلى نساءه من بعض ما فى بيت المال (ولعل ذلك كان على سبيل العارية ولكن الناس ألفوا طراز عمر فى الحكم)، فدعا عماراً فشتمه وضربه حتى غشى عليه — على ما يقول البلاذرى — ثم أمر به فأخرج « فأتى منزل أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصل الظهر والعصر والمغرب . . . فإذا أم سلمة قد غضبت لعمار ، وبلغ عائشة ما صنع بعمار فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثوباً من ثيابه ، ونعلاً من نعاله ثم قالت : « ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم تبل بعد ! » فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول ، فالتج المسجد (اختلطت أصوات أهله) وقال الناس . « سبحان الله سبحان الله » وكان عمرو بن العاص بين الناس فجعل يكثر التعجب والتسبيح[1] .

٦ — تكررت مواقف عائشة هذه من عثمان ، وأرغمته على تغيير عماله ... حتى تأذى منها كثيراً ، وحتى كان يخرج فى بعض الأحايين عما ينبغى له من وقار واعتدال وعما يليق به من حلم واحتمال ، قال صاحب البدء والتاريخ :

« كان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير ومحمد بن أبى بكر وعائشة . وخذله المهاجرون والأنصار ، وتكلمت عائشة فى أمره ، وأطلعت شعرة من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعله ، وثيابه ، وقالت . « ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم ... » فقال عثمان فى آل أبى قحافة (أسرة عائشة) ما قال ، وغضب حتى ما كان يدرى ما يقول[2] » اهـ .

هذا ما كان من آثارها ، ودع لنفسك أن تقدر ما يبلغ مثل ذلك من نفوس الناس وهم حينئذ أولو الحمية للاسلام وأقرب عهداً بالرسول وصاحبيه . . . كم يبلغ من نفوسهم الوجد على عثمان حين فرط حتى بلغ السيل الزبى . . . حتى تغير عليه امرأة ، ثم لا تكون تلك المرأة إلا أم المؤمنين عائشة أحب أزواج النبى إليه وأجلهن فى أعين الناس . ترفع عليه فى

---

(١) الصفحة نفسها من أنساب الأشراف . وكان عمرو بن العاص غاضباً على عثمان أنه عزله من ولاية مصر ، وكان يقول : « ألبت على عثمان حتى الراعى فى غنمه » .

(٢) البدء والتاريخ ٥/٢٠٥ .

المسجد صوتها ، وتبرز للمسلمين نعل الرسول مرة ، وشعره مرة ، وثوبه مرة تنصبه — على إحدى الروايات — فى حجرتها وتقول للداخلين عليها . « هـذا ثوب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

إن الأثر الذى أثرته السيدة فى نفوس الناس لجـد بليغ . ولست أغلو إذا قلت : إن هذا التغير فى النفوس يكمن ، ثم هو لا يزداد على الأيام إلا شـدة ثم لا يزال يتعاظم وهو فى خفائه حتى ينفس عن نفسه والويل منه حينئذ . وهـذا يفسر لنا بجلاء سبب تقاعس أهل المدينة — إلا نفراً قليلاً — عن نصرة عثمان حين حز به الأمر وتأزمت الأحوال ، واغتاله الشاغبون من أهل الأمصار .

الفصل الثانى

احتجاج عثمان وتتابع الحوادث

عرفت شيئاً مما نقم الناس على عثمان مما مرده إلى شكوى من عامل أو تأديب قاس لصحابى جليل تأديباً رآه الناس فى غير محله . وهناك أمور أهم من هذه مردها — كما اعتقدوا — إلى إحداث فى الدين أو تهاون بمصالح المسلمين أو تبذير لأموالهم ، وقد بلغت عثمان ، ودافع عن نفسه فيها خير دفاع . وأرى واجباً على قبل أن أورد لك احتجاج عثمان أن أنبهك إلى أن الذين روجوا هذه المعايب لم يكونوا يقصدون الإصلاح ، فلم تكن ثورتهم على هذه المعايب ، وإنما كانت على خلافة عثمان ، ولولا أن تظن بى مبالغة أو غلواً لقلت إنها ثورة على الإسلام نفسه . فأدعك الآن ، فعن قريب تتبين لك الأمور .

لم تكن غايتهم الإصلاح وإنما الإفساد ، يظهر ذلك لكل من أنعم النظر فى مآتى هؤلاء الثائرين من الأمصار ، ولن يعدم المدقق أن يلمس خبث طواياهم من بين السطور ، أستغفر الله ، بل من السطور نفسها .

لما توافى أهل الشغب إلى المدينة (وعلى رأسهم السبئيون) مظهرين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أرسل عثمان إليهم رجلين من غير بنى أمية : مخزومياً وزهرياً ، ليعلما علم القوم على جليته ، فلما اجتمعا بهم لم يشكوا فى أنهما ناقمان على عثمان لأنهما نالهما منه تأديب وعقوبة . فاطمأنوا إليهما وكاشفوهما جلية الأمر كما دبروه وهم لا يشكون فى أنهما داخلان فى أمرهم . أما الرجلان فقد أخلصا النصيحة لإمامهما وصبرا على الحق ولم يضطغنا على عثمان عقوبته .

قال الرجلان : « من معكم على هذا الأمر (أى الثورة) من أهل المدينة ؟ »

قالوا : ثلاثة نفر

قالا : هل إلا ؟

قالوا : لا

قالا : « فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ »

قالوا (تأمل) : نريد أن نذكر لعثمان أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قرعناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم ، فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه . »

والغريب أن الأمر تم بعد سنة على ما رسموا ، ولم ينفع عثمان علمه بالخطة إذ لم يأبه لها فيأخذ لها عدتها ، فانظر إلى اللاعبين بالجماهير : إنهم يلعبون بأداة لا عقل لها ولا امتناع بها .

رجع الرجلان إلى عثمان بالخبر على حقيقته ، فضحك (! !) وقال : « اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا . »

وظن عثمان أن ما بالقوم خطأ من الخطأ ، يعالج ببيان الصواب والنصح ، فأرسل إلى جموع الكوفيين والبصريين من المعارضين ليوافوه بالمسجد ، وأرسل من ينادى فى الناس « الصلاة جامعة » فأقبل الناس ، وتبادر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . جلس أهل الأمصار حول المنبر وحولهم الصحابة الكرام ، ثم صعد عثمان المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم ، وقام الرجلان (فشهدا) ، فأشاروا على عثمان بقتلهم فإنهم دعاة فتنة وشقاق ، فرفض عثمان وقال : « بل نعفو ونقبل ، ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفراً » ثم طفق عثمان يذكر القضايا التى نقموها عليه ويردها واحدة واحدة ، قال :

« إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها علىّ عند من لا يعلم :

١ — قالوا : (أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم)

ألا إنى قدمت بلداً فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين [1]، أو كذلك هو ؟

قال المستمعون : « اللهم نعم . »

---

(١) كذلك هى فى تاريخ الطبرى (طبعة ليدن سنة ١٨٧٩ م ، وطبعتى مصر (طبعة الحسينية ، وطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ) . وليس لإشارة التثنية هنا مرجع إذ لم يذكر إلا أمراً واحداً . ولم نجد لهذه الخطبة نسخة ثانية فى كل مصادر التاريخ المطبوعة ، لكننا بالرجوع إلى مخطوطة ابن عساكر فى دار الكتب الظاهرية (رقم ٣٣٧٥ تاريخ ١٠ ج ١١ الورقة ١/١٥٧) ، وجدنا نص الخطبة فى ترجمة =

٢ — وقالوا : (حميت حمى) وإنى والله ماحميت [إلا ما] [١] حمى قبلى ، والله ما حموا شيئاً لأحد ، ماحموا إلا ماغلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها [٢] لئلا يكون بين من يليها و بين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحّوا [٣] منها أحداً إلا من ساق درهما [٤] ، وما لى من بعير غير راحلتين ، وما لى ثاغية ولا راغية [٥] . و إنى قد وليت وأنا أكثر العرب بعيراً وشاء ، فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ؛ أكذلك هو ؟

قالوا : « اللهم نعم »

= عثمان ، كما هى فى الطبرى ، إلا أننا وجدنا فى أخباره شرحاً لهذين الأمرين : أما الأمر الأول وهو الذى أشير إليه فى هذه الخطبة فقد أوضحه عثمان نفسه حين أنكر عليه الناس فقال : « يأيها الناس إنى تأهلت بمكة منذ قدمت وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من تأهل فى بلد فليصل صلاة المقيم) أى أربع ركعات ، انظر الورقة ١/١٤١ .

وأما الأمر الثانى فيوضحه خبر قبل هذا مؤداه أن قوماً من الأعراب كثروا بمنى وظنوا أن الصلاة للمقيم ركعتان ، فخشى عثمان أن يرجعوا إلى مياههم وبواديهم وهم على هذا الفهم الخاطئ : يصلون الرباعية ثنائية ، فصلاها بهم أربعاً « ليعلمهم أن الصلاة أربع » — انظر الورقة نفسها ١/١٤١ .

وفى كتاب (التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان) وهو نسخة مصورة بملك السادة (عبيد إخوان) ما يفيد أنه أتم الصلاة من أجل حاج اليمن خشية أن يظنوا الصلاة ركعتين دائماً — انظر ص ٢٧ منه .

وكانت هذه الخطبة — بطبيعة الأمر — بعد إنكار الناس عليه إتمامه الصلاة ورده هذا الإنكار ببيان السببين المذكورين ، بزمن طويل ، إذ أنه جمع فى خطبته كل ما سبق أن أنكر عليه ، فكان الأمران معهودين عند السامعين ، وإن لم ترد إشارة إلى ثانيهما فى خطبته .

على أن الجملة فى مخطوطة ابن عساكر هذه خاليه من (هذين الأمرين) ففيها : (فأتممت لهذا الأمر) . وهو أوجه . وفى نسخة (التمهيد والبيان) : (فأتممت لهذا من الأمر » .

(١) زيادة عن مخطوطة ابن عساكر ، وقد خلت من هذه الزيادة الضرورية جميع طبعات تاريخ الطبرى .

(٢) فى كتاب (التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان) : « مويها » وهو أوضح . والمويه : تصغير ماء .

(٣) فى مخطوطة ابن عساكر : « ولا نحن » وكذا فى كتاب التمهيد والبيان ص ٩٣ ، وهى أحسن .

(٤) كذا فى طبعات تاريخ الطبرى جميعاً وليس لها معنى . وقد راجعت فى سبيل الاهتداء إلى أصلها كل ما لدى من مصادر التاريخ والأخبار فلم أظفر بشىء . وفى دار الكتب الظاهرية مخطوطتان لتاريخ ابن عساكر : أما النسخة الأصلية التى أشرنا اليها آنفاً ففيها : « إلا من شاودها ، وأما النسخة الثانية (رقم ١٠٥ تاريخ ج ٦) ففيها (ساودها) ، فإذا افترضنا أن التحريف عن (ساورها) بمعنى واثبها أو (ساودها) بمعنى كايدها ، لم يكن لضمير التثنية فى الحالين مرجع . فإذا جعلنا التحريف عن (ساورها) أو (ساودها) وصلنا إلى احتمال غير بعيد . أما أنا فلست بمطمئن ورحم الله من انكشفت له فدل عليها .

والذى فى كتاب التمهيد والبيان ص ٩٣ (إلا من ساق دهما) فإن كان المعنى أنهم لا يردون عن الماء صاحب الشاة والشاتين ولا البعير والبعيرين ، وإنما يردون صاحب العدد الكثير لقلة الماء ، كان ما فى (التمهيد والبيان) أبعث على الاطمئنان . فالدهم صفة للسود من الشاء والإبل والخيل ، والأمر يحتاج إلى تأييد نص آخر .

(٥) الثاغية : الشاة . والراغية : البعير .

٣ — وقالوا : (كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً [١]) . ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء ؛ أكذلك هو ؟

قالوا : « اللهم نعم »

٤ — وقالوا : (إنى قد رددت الحكم [٢] وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم) والحكم مكى سيره رسول الله من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده ؛ أكذلك هو ؟

قالوا : « اللهم نعم » .

٥ — وقالوا : (استعملت الأحداث) : ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملا مرضياً ؛ وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه [٣] ، وهؤلاء أهل بلده [٣] . ولقد ولى من قبلى أحدث منهم ، وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة ؛ أكذلك هو ؟

قالوا : « اللهم نعم ، يعيبون للناس مالا يفسرون »

٦ — وقالوا : (إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه) : وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مئة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما

---

(١) إشارة إلى جمعه المصاحف لما بلغه اختلاف أهل الامصار فى قراءة بعض الكلمات ، وأخذه الناس جميعاً بمصحف واحد هو ما أجمع على صحته قراء الصحابة ومشيخة قريش . وكان هذا من أجل الأعمال النافعة لعثمان رضى الله عنه .

(٢) الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى ، والد مروان بن الحكم وعم عثمان بن عفان :

أسلم يوم الفتح وسكن المدينة ثم كانت منه إساءات وأذى للرسول صلى الله عليه وسلم فنفاه من المدينة ، ولما ولى أبو بكر كلمه جماعة فى رده إلى المدينة فامتنع قائلا : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولما أعاده عثمان إلى المدينة كثرت القالة عليه ، فاعتذر عثمان بقوله : « قد كنت شفعت فيه فوعدنى النبى صلى الله عليه وسلم برده » .

فلعل هذا ما قصد إليه عثمان بقوله (فرسول الله سيره ورسول الله رده) ، وإلا فلم أجد فى مصدر : أن رسول الله رده فى حياته ولا الخليفتان من بعده .

مات الحكم فى خلافة عثمان سنة (٣٢ هـ) ، فضرب على قبره فسطاط فى يوم صائف ، فتكلم الناس فى ذلك منتقدين ، فاحتج عثمان بقوله : « قد ضرب فى عهد عمر على زينب بنت جحش فسطاط ؛ فهل رأيتم عائباً عاب ذلك ؟! » . — انظر ترجمة الحكم فى هذه المصادر : الإصابة ، أسد الغابة ، طبقات ابن سعد .

(٣) يريد بـ (فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده) : سلوا أهل البصرة عن عبد الله بن عامر . وليس فى الكلام مرجع لهذين الضميرين ولكنهما معهودان عند الخطيب وسامعيه .

فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم ؛ أكذلك هو ؟

قالوا : « اللهم نعم » .

٧ — وقالوا : (إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم) : فأما حبى فإنه لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ شحيح حريص ؛ أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى : قال الملحدون ما قالوا ؟ !

وإنى والله ماحملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم وما قدم علىّ إلا الأخماس . ولا يحل لى منها شىء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، ولا تبلغت [1] من مال الله بفلس فما فوقه . وما أتبلغ منه ؛ ما آكل إلا من مالى .

٨ — وقالوا : (أعطيت الأرض رجالاً) : وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ؛ فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ، ومن رجع إلى أهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له ؛ فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى »[2] هـ .

لقد أثر هذا الخطاب المقنع أثره فى نفوس السامعين إلا أهل الشغب من الأمصار فإنهم لم تكن إثارتهم هذه الأمور لوجه الله والإصلاح ، إنهم أثاروها مكيدة وفتنة وتوصلاً إلى أمر أضمروه ، فإن لم تثمر ثمرها أثاروا غيرها ... فإن الفتنة هى هدفهم الأوحد .

أما غيرهم فقد اطمأنوا إلى حجج عثمان ، وهى جميعها سديدة صائبة ، وهو فيها جميعاً محق مصيب . وأراد الناس عثمان على قتل هؤلاء المفسدين حسماً للداء بعد أن تبين غشهم

---

(١) فى تاريخ الطبرى ٣/٣٨٥ (مطبعة الاستقامة) : (ولا يتفلت) ، ولا معنى لها ، والتصحيح عن مخطوطة ابن عساكر .

(٢) عقب الطبرى على هذه الخطبة بقوله : (وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطى ؛ فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف ، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك ، وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب) ٣/٣٨٥ — وانظر أخبار عثمان بن عفان فى مخطوطة ابن عساكر السابقة .

ودخَلهم ، وأبى عثمان إلا أن يعاملهم بالحسنى ، فلان لهم وتركهم .

فائتمروا فيما بينهم أن يرجعوا هذا العام ليعودوا من قابل — على ما تقدم لك من خطتهم — فيحكموا أمر خلعه أو قتله .

* * *

و بعد ، فليس سرد الحوادث التى تتابعت منذ نقم الناس على عثمان ما نقموا إلى أن قتل ، من منهج كتابنا . لقد اختططنا لأنفسنا أن نجلو الأحداث كما يراها الرائى من ناحية السيدة عائشة وماحولها ، لا عامة مصغرة كما يراها الرائى من عل ، فذلك بكتاب تاريخ عام أشبه . إلا أنه لا مندوحة لنا عن عرض سريع موجز للحوادث عامة ، ثم نأخذ بالتفاصيل اللازمة من جهة السيدة عائشة . لقد قلبت مطولات التاريخ ثم اخترت عرضاً أعجبنى جداً لإمام دين ثقة ، قريب العهد من الحوادث نفسها ، ناقد بصير بموارد الأمور ومصادرها ، ذلك هو سعيد بن المسيب يعرضها على الصورة التى قنع بصحتها واطمأن إليها على أسلوبه الذى ارتضاه ، لقد آثرت عرضه على كل ما لدىّ — وما أكثره — فلنستمع إليه [1] :

« قال ابن شهاب الزهرى » :

قلت لسعيد بن المسيب : « هل أنت مخبرى : كيف قتل عثمان ؟ وما كان شأن الناس وشأنه ؟ ولم خذله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ »

فقال : « قتل عثمان مظلوماً ، ومن قتله كان ظالماً ، ومن خذله كان معذوراً . »

قلت : « وكيف ذاك ؟ »

قال : « إن عثمان لما ولى كره ولايته أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن عثمان كان يحب قومه ، فولى اثنتى عشرة سنة ، وكان كثيراً مايولى بنى أمية ممن لم يكن له من رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة ، وكان يجىء من أمرائه ما يكره أصحاب محمد ، فكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم .

فلما كان فى الحجج الآخرة ، استأثر بنى عمه ، فجزوا ، فولاهم وأمرهم بتقوى الله .

---

(١) عن العقد الفريد . وبعض الحوادث التى يشير إليها هنا مسلسلة بإيجاز ، مربك تفصيلها آنفاً .

وولى عبد الله بن أبى سرح مصر ، فمكث عليها سنين ، فجاء أهل مصر يشكونه و يتظلمون منه ، ومن قبل ذلك كانت من عثمان هنات إلى عبد الله بن مسعود وأبى ذر وعمار بن ياسر ، فكانت هذيل و بنو زهرة فى قلوبهم ما فيها لابن مسعود ، وكانت بنو غفار وأحلافها ومن غضب لأبى ذر فى قلوبها ما فيها ، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان بحال عمار ابن ياسر .

وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبى سرح ، فكتب عثمان إليه كتاباً يتهدده ، فأبى ابن أبى سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه ، وضرب رجلا ممن أتى عثمان فقتله . فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل إلى المدينة فنزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبى سرح ، فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان بكلام شديد وأرسلت إليه عائشة :

« قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قتل منهم رجلا ، فأنصفهم من عاملك » .

ودخل عليه علىّ وكان متكلم القوم فقال :

« إنما سألوك رجلاً مكان رجل ، وقد ادعوا قِبله دماً ، فاعزله عنهم واقض بينهم و بينه فإنه قد وجب عليه حق فأنصفهم منه » .

فقال عثمان لهم : « اختاروا رجلا أوله عليكم مكانه » . فأشار الناس عليه بمحمد بن أبى بكر فكتب عهده وولاه ، وأخرج معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون بين أهل مصر وابن أبى سرح . فخرج محمد ومن معه . . .

فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط الأرض خبطاً كأنه رجل يَطلب أو يُطْلَب ، فقال أصحاب محمد : « ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب ؟ » فقال : « أنا غلام أمير المؤمنين وجهنى إلى عامل مصر » . فقالوا : « هذا عامل مصر معنا » . قال : « ليس هذا أريد » .

وأُخبر بأمره محمد بن أبى بكر فبعث فى طلبه فأتى به ، فقال له : « غلام من أنت ؟ » فأقبل مرة يقول : « غلام أمير المؤمنين » ومرة : « غلام مروان » حتى عرفه رجل منهم

أنه لعثمان . فقال له محمد « إلى من أرسلت ؟ » قال : « إلى عامل مصر » . قال « بماذا ؟ » قال : « برسالة » قال : « معك كتاب ؟ » قال « لا » ففتشوه فلم يوجد معه شيء إلا إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل ، فحركوه ليخرج فلم يخرج ، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح ، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه :

« إذا جاء محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتابهم وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي ، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله » .

فلما قرؤوا الكتاب فزعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة ، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه ودفعوا الكتاب إلى رجل منهم ، وقدموا المدينة فجمعوا علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام ، وأقرؤوهم الكتاب ، فلم يبق أحد في المدينة إلا حنق على عثمان ، وازداد منهم من كان غاضباً لابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر غضباً وحنقاً ، وقام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلحقوا بمنازلهم : مامنهم أحد إلا وهو مغتم بما قرؤوا في الكتاب .

وحاصر الناس عثمان ، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر بني تيم وغيرهم ، وأعانه طلحة ابن عبيد الله على ذلك ، وكانت عائشة تقرضه (تذمه) كثيراً .

فلما رأى ذلك علي بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم بدري ، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير ، وقال له على : « هذا الغلام غلامك ؟ » قال : « نعم » قال : « والبعير بعيرك ؟ » قال : « نعم » قال : « والخاتم خاتمك ؟ » قال : « نعم » قال : « فأنت كتبت الكتاب ؟ » قال « لا » وحلف بالله : « ما كتبت الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت الغلام إلى مصر قط » .

أما الخط فعرفوا أنه خط مروان ، وشكوا في أمر عثمان ، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى ، (وكان مروان عنده في الدار) فخرج أصحاب محمد غضاباً وشكوا في أمر عثمان وعلموا أنه لايحلف باطلا ؛ إلا أن قوماً قالوا :

« لا نبرئ عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب ،

وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق ؟ فإن يك عثمان كتبه عزلناه ، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا فى أمره » ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشى عليه القتل .

وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء ، فأشرف عليهم فقال : « أفيكم علىّ ؟ » قالوا « لا » قال : « أفيكم سعد ؟ » قالوا : « لا » فسكت ... ثم قال : ألا أحد يبلغ علياً فيسقينا ماء ؟ » فبلغ ذلك علياً فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه ، وجرح من سببها عدة من موالى بنى هاشم و بنى أمية حتى وصل إليه الماء .

فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله فقال : « إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا . » وقال للحسن والحسين : « اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه . و بعث الزبير ولده ، و بعث طلحة ولده على كره منه ، و بعث عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان ، وسألوه إخراج مروان . . .

ورمى الناس عثمان بالسهام حتى خضب الحسن بن على بالدماء على بابه ،وأصاب مروان سهم فى الدار ، وخضب محمد بن طلحه ، وشج قنبر مولى على ... وخشى محمد بن أبى بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيرونها ، فأخذ بيدىْ رجلين فقال لهما : « إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين ، كشف الناس عن عثمان و بطل مانريد ، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد . »

فتسور محمد بن أبى بكر وصاحباه من دار رجل من الأنصار ويقال من دار محمد بن حزم الأنصارى ، فدخلوا عليه وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة والمصحف فى حجره ، ولم يعلم بتسورهم أحد ممن كان معه لأنهم كانوا على البيوت ، فتقدم إليه محمد وأخذ بلحيته فقال له عثمان : « أرسل لحيتى يا بن أخى ، فلو رآك أبوك لساءه مكانك » فتراخت يده من لحيته وغمز الرجلين فوجآه بمشاقص (نصال حادة أو سهام عليها نصال) معهما حتى قتلاه ، وخرجوا هار بين من حيث دخلوا ، وخرجت امرأته تقول : « إن أمير المؤمنين قد قتل . . . »

فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحاً ، فأكبوا عليه يبكون . وبلغ علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا ، وقال على لابنيه : « كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ » ورفع يده فلطم الحسين وضرب صدر الحسن وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله ابن الزبير . . . ثم خرج على وهو غضبان يرى أن طلحة قد أعان عليه ؛ فلقيه طلحة فقال « مالك ياأبا الحسن ضربت الحسن والحسين ... ؟ » فقال : « عليك وعليهما لعنة الله ، يقتل أمير المؤمنين ورجل من أصحاب النبى صل الله عليه وسلم بدرى ولم تقم بينة ولا حجة ؟ ؟ » فقال طلحة : « لو دفع مروان لم يقتل . » . . .

وخرج على فأتى منزله وجاءه القوم يهرعون إليه : أصحاب محمد وغيرهم ، يقولون : « أمير المؤمنين على بن أبى طالب » فقال على : « ليس ذلك إلا لأهل بدر ؛ فمن رضى به أهل بدر فهو خليفة . » فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً . . . فقالوا . « ما نرى أحداً أولى بها منك فمد يدك نبايعك . »[1] . . . الخ .

---

(١) العقد الفريد ٣/٧٩ — ٨٢ (المطبعة الأزهرية — ١٩٢٨) وفيه : أن عليا لما دخل سأل امرأة عثمان : « من قتل عثمان ؟ » قالت : « لا أدرى ، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما وكان معهما محمد بن أبى بكر » وأخبرته بما صنع محمد ، فدعا علىّ محمد بن أبى بكر فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ، فقال : « لم تكذب ، وقد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكر لى أبى فقمت وأنا تائب ، والله ما قتلته ولا أمسكته » فقالت امرأة عثمان : « صدق ولكنه أدخلهما » .

ويذكر الطبرى أن الذين أرادوا قتله كان يدخل عليه الواحد بعد الواحد فيهمّ بقتله فتدركه خشية فيرجع « حتى ثار قتيرة رسودان بن حمران السكونيان والغافقى ، فضربه الغافقى بحديدة معه وضرب المصحف (وكان عثمان فزع إليه يقرأ فيه) برجله ، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه ، وسالت عليه الدماء ، وجاء سودان ليضربه فأكبت عليه (زوجته) نائلة بنت الفرافصة ، واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها ، فأطن أصابع يدها وولت ، فغمز أوراكها وقال : « إنها لكبيرة العجيزة » وضرب عثمان فقتله ... وأرادوا حز رأسه فوقعت عليه نائلة ونساؤه وبناته فمنعنهم وأقبل الأشقياء فانتهبوا ما فى الدار وأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء ، وأخذ كلثوم بن تجيب ملاءة نائلة ... وهموا بجره من رجله لولا أن صاحت نساؤه وبناته ، وكان ذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة . الطبرى ٣/٤٢١ — ٤٢٣ .

وإذا عرفت — إلى ذلك — أن القوم ارتكبوا منه بعد قتله مناكر أبشع مما تقدم ، لم تستغرب ما سيمر بك من إخلاص المهاجرين والأنصار فى الاستماتة يوم الجمل ثأراً لعثمان ، فقد قتلوه قتلة تفطر لها كل قلب ، ثم لم يكتفوا حتى عدا أحدهم وهو عمير بن ضابئ عليه ميتاً وهو موضوع على باب فكسر ضلعاً من أضلاعه ، ثم منعوا دفنه فى مقابر المسلمين ، وأمر بعضهم بدفنه فى مقابر اليهود ، وكاديتم ذلك لولا غضب

= قريش وخوف المعتدين ، ثم دفن ليلا : خرج به أهله سراعا ولم يغسل ولم يصل عليه إلا أفراد قلائل ، ومع هذا وقف له ناس منهم فرموا الجنازة بالحجارة .

لقد بقيت كل نفس — بعد هذه الوحشية — مفجوعة ملتاعة على عثمان ، فلم يكد المنادى — فيما بعد — ينادى بالثأر له حتى هبت الألوف تتقرب إلى الله ببذل دمائها للاقتصاص من أولئك القساة الذين ملؤوا الأرض فتنة وبلاء ؛ أبق هذا فى ذهنك فسترى فيه تفسيراً لكثير من وقائع الجمل فيما يأتى .

هذا وقد قتل غلمان عثمان ثلاثة من قاتليه الداخلين عليه : سودان بن حمران وقتيرة وكلثوم بن تجيب ، ثم أصاب القتل كل من دخل على عثمان يوم الدار قتلوا فى فتنة الجمل وما بعدها . وكان آخر من قتل منهم كميل بن زياد وعمير بن ضابئ قتلا بعد سبع وثلاثين سنة :

ذكر ابن عساكر أن الحجاج بعد أن تغلب على ابن الزبير ولى الكوفة ، فدخلها وخطب أهلها ثم نزل يأخذ البيعة من القبائل قبيلة قبيلة . ... « حتى جاءت قبيلة النخع ، فقال لهم : « منكم كميل بن زياد ؟ » قالوا : « نعم » قال : « فما فعل ؟ » قالوا : « أيها الأمير ، شيخ كبير » . قال : « لا بيعة لكم عندى ولا تقربونى حتى تأتونى به » . فأتوا به منعوشاً فى سرير حتى وضعوه إلى جانب المنبر فقال : « ألا إنه لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا » ، فدعا بنطع فضرب عنقه .

وأما عمير بن ضابئ فقد أتى الحجاج بعد خطبته التى دعاهم فيها إلى الخروج إلى قتال العدو ، يستعفيه وهو يرتعش كبراً فقال : « أيها الأمير إنى من الضعف على ما ترى ، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى ، أفتقبله منى بديلا ؟ » فقال الحجاج : « نفعل أيها الشيخ » فذهب ، فأخبر الحجاج بحقيقته — ولم يكن يعرفه — فرده وقال له : « أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان بديلا يوم الدار ؟ إن قتلك أيها الشيخ صلاح للمسلمين ، يا حرسى اضرب عنقه » . تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥٣/٤ ، ٥٥ .

الفصل الثالث

فى أبطال الفتنة الحقيقيين و نصيب عائشة منها

نعود بك هنا إلى بعض ماسبق بالتفصيل والشرح والجلاء ، لعلاقته ببيان ما يخص عائشة على التحقيق ، مبينين لك ما استطعنا كشفه من سر خفى ، كما ظهر لنا وأدانا إليه اجتهادنا الخاص وفقهنا للحوادث ، بعد أن بذلنا جهدنا فى الإمعان فيها ورد أعجازها على صدروها :

تنادى أهل الشغب والفساد من الأمصار الثلاثة الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة كأنهم حجاج ، ودارت بينهم مكاتبات وأحكمت خطط لأمر فظيع قد بيته رؤساؤهم من أهل الدس والكيد للاسلام ، وانتشر الأمر على عثمان و بطانته ، وخرج من أيدى العقلاء. ولقد ذكر المؤرخون قدماء ومحدثين أسبابا كثيرة أطمعت الناس فى عثمان ، مردّ أكثرها إلى لينه وحسن ظنه . وليس من خطة كتابنا هذا تفصيل الأمر لخروجه عن غرضه ؛ و إنما الواجب بيان نصيب السيدة فى توهين أمر عثمان . ولقد قدمنا بين يديك تفاصيل كافية فى هذا الشأن ، ولعلك — مثلنا — ترجع أكثرها إلى إخلاص فى السيدة عائشة للصالح العام؛ لكنه إخلاص شابه اندفاع لم يكبح بما تقتضيه الحكمة و بعد النظر ، بل خضع كل الخضوع لمزاجها العصبى العنيف ، ولحوائز نفسية من حيث لا تشعر السيدة إلا أنها مدفوعة بقوة لا تقاوم إلى الإنكار .

لكن هذا كله لايصل بنا إلى درجة التصديق بكل ماتقدمه لنا المصادر من أخبار ، بل يحفزنا إلى التنبيه على سوء الغرض والتشيع الحزبى فى كثير من هذه الأخبار ، فإن فن الوضاعين يدور على خلق حوادث تشبه أساساً مشهوراً بين الناس ، فيبالغون ويزيدون ويبنون من الحبة قباباً كثيرة .

أقول هذا بين يدىْ شاهد أقدمه من هذه الشواهد الموضوعة التى تجد كثيراً منها فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد :

مر بك آنفاً أن عائشة أخرجت ثوب رسول الله وقالت : « هذا ثوب رسول الله لم

يبل وقد أبلى عثمان سنته » وقع هـذا مرة أو مرتين ، إلا أن ابن أبى الحديد أو الذين روى عنهم يأبون إلا أن يجعلوا هذا دأب عائشة ومجيراها تستقبل به كل داخل عليها ، قال :

« أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصبته فى منزلها وكانت تقول للداخلين عليها : « هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وقد أبلى عثمان سنته »[١].

إن هـذا التحوير ضئيل ، ولـكن المعنى الذى صار يؤديه واسع فظيع ، وحسبك فى دحضه أن هذا المصدر نفسه يروى عن على بن أبى طالب خصم السيدة القوى القديم توزيع التبعة فى أمر عثمان — وعلىّ صادق غير متهم على أحد — فلا يزيد على قوله : « ... وكان من عائشة فيه فلتة غضب ... [٢] » وهـذا هو الموافق منطق الحوادث . فأين منه الرواية السابقة التى تجعل الحفيظة مسيطرة على عائشة ما تنفك عنها لحظة . إن من أعجب العجب اعتماد مؤلف روايتين بينهما ماترى من تفاوت .

وذكر هذا المصـدر نفسه أنها أول من لقبت عثمان (نعثلاً) ، ونعثل رجل يهودى طويل اللحيـة شبهوا عثمان به لطول لحيته ، وأنها كانت تقول : « اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلاً »[٣] ويزيد ابن أبى الحديد مسترسلا : أنها لما بلغها قتله قالت : « بعداً لنعثل وسحقاً ، أبعده الله ، ذلك بما قدمت يداه[٣] » .

وهذه كلها لاأصل لها ، يقطع ببعدها كل من أعمل الروية والدراية فى نقد الأخبـار ومقابلة بعضها ببعض ، استفاضت هى وأمثالها فى المصـادر الشيعية وتسرب بعضها بطريقة العدوى إلى غيرها من المصادر ، فالبلاذرى مثلا يروى أن عبد الله بن عباس مر بعائشـة وقد ولاه عثمان الموسم (موسم الحج بمكة) وهى بمنزل من منازل طريقها ، فقالت عائشـة : « يا بن عباس إن الله قد آتاك عقلاً وفهماً وبياناً فإياك أن ترد الناس عن هذا الطاغية »[٤] وهذا دليل على أن الرواة منذ القديم يروجون ما ينصر هواهم من أخبار .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/٧٦ .
(٢) المصدر السابق ٣/٢٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ٢/٧٦ .
(٤) أنساب الأشراف ٥/٧٥ .

الحق أن العدوان على عثمان لم يخطر قط بخلد أحد من أهل المدينة أو غيرها إلا الموتورين و إلا نفراً من رؤوس المؤامرة من أهل الأمصار ممن دخلوا الإسلام دسيسة ولم يألوه كيداً وفساداً .

* * *

اشتد الأمر على عثمان وحوصر ومنع الماء ، فاستنجد بعلى وطلحة والزبير وعائشة ، وأمهات المؤمنين ، « فكان أولهم إنجاداً له علىّ وأم حبيبة بنت أبى سفيان : جاءت على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة فقيل : « أم المؤمنين أم حبيبة » فضربوا وجه بغلتها فقالت : « إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل » . قالوا : « كاذبة » وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندّت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها ، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، واستتبعت أخاها محمد بن أبى بكر فأبى . . . وهى ممتلئة غيظاً على أهل مصر . وجاءها مروان بن الحكم فقال : « يا أم المؤمنين لو أقمتِ كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل » فقالت : « أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعنى ؟ لا والله ، ولا أعيّر ، ولا أدرى : إلا م يسلم أمر هؤلاء ؟ » [1]

ويزيد البلاذرى أن عثمان هو الذى أمر مروان وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فأتياها وهى تريد الحج فقالا لها : « لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل » . وأنها أجابتهما « قد أوجبت الحج على نفسى ووالله لا أفعل » . ثم بدرت من مروان بادرة — على رواية البلاذرى — إذ تمثل :

وحرّق قيس علىّ البلا د ، حتى إذا اضطرمت أحجما

فسمعته عائشة فغضبت ، فأخرجها الغضب إلى أن تقول مجيبة :

« يامروان ، وددت والله أنه فى غرارة من غرائرى هذه وأنى طُوِّقْتُ حمله حتى ألقيه فى البحر [2] » .

---

(١) الطبرى ٣/٤١٧ .

(٢) أنساب الأشراف ٥/٧٥ — الغرارة : الكيس (الجوالق) .

ونحن مع اعتقادنا — إن صحت الرواية — أن عائشة لاتعبر هنا عما فى نفسها نحو عثمان ، لانمنع أن تقول هذا الكلام إغاظة لمروان وحرصاً على مساءته على سوء أدبه ، وقد يخرج الغيظ والحنق من النفوس أشد من هذا .

توجهت السيدة إلى الحج ، وكان ماقدمت آخر ما جرى منها فى شأن عثمان الذى سقط مضرجاً بدمائه بعد أيام ...

***

رأيت من الخير قبل أن أنتقل إلى مآتى السيدة بعد عثمان أن أنبه إلى سبب هام أعزو إليه تبعة هذه المأساة مأساة عثمان التى ذهبت ضحيتها وحدة المسلمين فلم يجتمعوا بعدها قط . أودع أيام عثمان مقرراً أن مايذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة [1] كعلى وطلحة والزبير وعائشة هو تبعات ثانوية فى رأيى . أما الأسباب التى أرّثت الشر وهاجت

---

(١) أشد ما أثر فى ذلك وأشهره كلمة سعد بن أبى وقاص فى توزيع التبعة ، وقد سئل عمن قتل عثمان فقال :

« قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه على » ، أما الزبير فقد « أشار بيده وصمت لسانه » .

وهذا الأثر الذى يقرره سعد : أثر غير مباشر بلا ريب ، إنه رأى أنهم قصروا فى حق عثمان ، وأن منهم من أعلن نقده للخليفة فكان ذلك التقصير وهذا الإعلان مما جرأ الناس ووجه الأمور — دون قصد — وجهتها المعروفة ، ولو لم يكن ذلك منهم لنقص عامل خطير قوى نفوس الثائرين على الشر . وإلا فلم يكن أحد من الصحابة ليرضى عن قتل عثمان . وعثمان نفسه قد كان منه ما يفسر كلمة سعد هذه :

ذكر ابن عبد ربه أن زيد بن ثابت رأى علياً مضطجعاً فى المسجد فقال له : « يا أبا الحسن ، إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان » . فجلس على ثم قال : « والله ما أمرتهم بشىء ولا دخلت فى شىء من شأنهم » . فأتى زيد عثمان فأخبره بقول على ، فتمثل عثمان :

وحرق قيس على البلا د حتى إذا اضطرمت أحجما » — العقد الفريد ٣/٨٦ .

فهذا عثمان صرح أن علياً أحجم عنه لما اضطربت الأمور .

ثم كان على يقسم على ذلك فى أوقات مختلفة : قال على المنبر يوما : « والله لئن لم يدخل الجنة إلا من قتل عثمان ما دخلتها أبداً ، ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لا دخلتها أبداً » .

ويروون أنه أشرف يوما من قصر له بالكوفة فنظر إلى سفينة فى دجلة فقال : « والذى أرسلها فى بحره مسخرة بأمره : ما بدأت فى حق عثمان بشىء » .

وصدق على ، فقد كان لعثمان طول حياته من المحسنين الحافظين لحقه ، الصابرين على الأذى فى سبيله .

وتعجبنى فى ذلك كلمة (عميقة بعيدة الغور) لمحمد بن سيرين تدل على بصر فى الحوادث وفقه لها ، قال :

« ما علمت أن علياً اتهم فى دم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس » . العقد الفريد ٣/٩٠ .

وكذلك بقية الاتهامات لطلحة والزبير وعائشة خالطتها المبالغات ودس الأمويون وذوو الأهواء من بعدهم ما يرضى أهواءهم .

الاضطراب وأوقدت الفتنة وأججت النيران فهو مؤامرة واسعة منظمة محكمة ، سهر عليها أبالسة خبيرون ، وسددوا خطاها وتعهدوها فى جميع الأقطار حتى آتت ثمرها . ولم تلق هذه المؤامرة من المؤرخين عامة ماتستحق من التحرى والاهتمام .

وأنا أجزم هنا أن الأسباب التى يذكرونها كلها والتبعات التى يوزعونها بين من ذكرت ومن لم أذكر .. لن تقوى مجتمعة على أن تسامى هـذا السبب الهام الذى أشرت إليه ، بل أقطع أنها عناصر ثانوية لم تكن لتنتج شيئاً لولا هذا الجو الذى هيأه عبد الله بن سبأ . وأبعد من هذا ، إنى أومن أشـد الإيمان أنه لو لم يكن شىء قط من هذه المساعى والأسباب التى يذكرونها ، لـكان عمل ابن السوداء وحده كافياً فى بلوغ النتيجة المشؤومة نفسها ، وإليك البيان :

ابن سبا البطل الخفى المخيف

عبد الله بن سبأ يهودى من صنعاء أمه سوداء (ويلقبونه : ابن السوداء) تظاهر بالإسلام على عهد عثمان ، ثم اندفع متنقلاً فى البلدان الإسلامية فبدأ بالحجاز فالبصرة فالكوفة ، فدمشق ، فمصر ، يطوفها « ليلفت الناس عن طاعة الأئمة ويلقى بينهم الشر »[١] باذراً للضلالات والفساد فى هذا المجتمع السليم ، وهو رجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة والنظر البعيد والحيلة الواسعة ، والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، أقطع أنه أحد أبطال جمعية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام ، وأكاد أزعم أن هذه الجمعية تعمل لحساب دولة الروم التى انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام ، عدا بلاد أخرى على البحر المتوسط .

والغريب الذى لم أقض منه عجباً أن نشاط هذا الرجل العجيب قد اتسع لتعهد ميادين مختلفة : الميدان الدينى والميدان السياسى والميدان الحربى ، فقد أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين زائفتين : الرجعة والوصاية . وقد حفظ لنا الطبرى بعض نصوص تعاليمه فمنها : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله : إنّ الَّذِى فَرَضَ عليك القرآنَ لرادُّك إلى مَعَادٍ . »[٢] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . »[٣] فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت فى المجتمع . ثم قال لهم بعد ذلك :

« إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد .. ، محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء » .[٣]

ثم انتقل خطوة بعد هذا التمهيد فجمع بين إفساد الميدان الدينى وإفساد الميدان السياسى فى إذاعة قوله :

---

(١) ابن عساكر ٧/٤٢٨ .

(٢) سورة القصص ٢٨ الآية ٨٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣/٣٧٨ — هذا وأرى من الواجب التنبيه هنا إلى قول على نفسه لعبد الله بن سبأ فى هذا الصدد : ويلك ، ما أفضى إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء كتمه أحداً من الناس ، ولقد سمعته يقول : « إن بين يدى الساعة ثلاثين كذابا وإنك لأحدهم » — ابن عساكر ٧/٤٣٠ .

« فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة »[١] ثم قال بعد ذلك لأتباعه :

« إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر »[١].

وهكذا دخلت تعاليم هذا المفسد الذكى قلوب الناس إذ تلطف لهم فجاء من الجهة التى تحن قلوبهم وتهواها نفوسهم .

لقد طاف أقطار المسلمين قطراً قطراً ، بدأ بالحجاز باثا ضلالاته كما تقدم ، ثم انعطف إلى الشام ، والشام يومئذ بيد بصير بأمره : معاوية بن أبى سفيان الذى فطن إلى خطره فأبعده ؛ إلا أنه على حذره قد أصابه رشاش من إفساده . والطبرى يزعم أن ابن السوداء « لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر »[١]. لكن الصحيح أنه قدر ، وزرع ، وحرك على معاوية صحابياً جليلا أذعن عامة الشاميين لأقواله ، وضاق به ذرعاً معاوية الداهية الحليم ، واضطر إلى أن يطلب من الخليفة عثمان إخراجه من الشام ، ذلك هو أبو ذر وحادثه مشهور ، وهذا الطبرى نفسه يتولى قص الحادث :

«لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال : « يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية يقول : (المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله !) كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين !! » فأتاه أبو ذر فقال : « ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » قال معاوية : « يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال مال الله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ » قال : « فلا تقله »[٢]. ثم كان ما كان من تأليب أبى ذر الفقراء على الأغنياء وخوف معاوية على الشام منه ونفيه منها .

---

(١) الطبرى ٣/٣٧٨ .

(٢) الطبرى ٣/٣٣٥ — هذا ويذكر ابن عساكر فى تاريخه الكبير عن الشعبى : أن « أول من كذب على الله وعلى رسوله : عبد الله بن سبأ » وكان يطعن على أبى بكر وعمر . وضاق به علىّ أشد الضيق حتى قال : « مالى ولهذا الحميت الأسود » . ولما ذاع وقوعه فى أبى بكر وعمر دعا به على ، ودعا بالسيف وهم بقتله ؛ فشفع فيه أناس فقال : « والله لا يساكننى ببلد أنا فيه » . فسيره إلى ساباط المدائن . فكان هناك من بعده الرافضة والقرامطة ، وكان ألقى إليهم بألوهية على بن أبى طالب . تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٤٣٠ .

إنى لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء وصدق فراسته وعمق دراسته للناس ، لقد عرف من يختار من الشام ، ولقد وفق التوفيق كله بهذه المقالة التى فصّلها على مزاج أبى ذر ، فلم يكد يلقيها إليه حتى طار بها أبو ذر مندفعاً إلى معاوية ، وهذا هو فن ابن السوداء الذى أنجح مساعيه : فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم ، و (استخبارات صادقة منظمة) انتفع بها أعظم الانتفاع فى إحكام خطط الشر ، واستغلال حسن لغفلة سواد المسلمين عن نواياه ، وخداع ماكر لهم عن دينهم وسلامة دولتهم . لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيراً كثيراً : إذ شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها وصرفها عن الاندفاع فى الفتوح ، وإن الذى استتبعت من شرور بعد ذلك آخذ بعضها برقاب بعض أفظع هولاً وأشنع . ولو وقع ابن السوداء هذا لإنكلترا اليوم لاستغنت به فى إبادة عدوها عن جيوش وأساطيل ومنظمات تعج بالفنيين الخبراء .

والظاهر أن ابن السوداء سكر بهذا الظفر الذى لم يتوقعه فى الشام ، فأتى أبا الدرداء ، ففطن هذا لمكره فقال : « من أنت ؟ أظنك والله يهودياً » فأتى عبادة بن الصامت ، فتعلق به هذا وسلمه إلى معاوية قائلا : « هذا الذى بعث عليك أبا ذر »[1] .

* * *

« كان حكيم بن جبلة رجلاً لصاً ، إذا قفل الجيوش خنس عنهم ، فسعى فى أرض فارس ، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله : « أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً) فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها »[2] .

على هذا الرجل المفسد الموتور الناقم على عثمان ، نزل عبد الله بن سبأ لما أتى البصرة . وصار يجتمع إليه الناس ويبث إليهم تعاليمه ومقالاته بلباقة لا يصرح فيها بما ينم عن نواياه ، وفشا أمره وقبل الناس ما يقول وعظموه ، وبلغ خبره الوالى عبد الله بن عامر « فسأله[2] :

---

(١) الطبرى ٣/٣٣٥ .

(٢) الجزء نفسه ص ٣٦٨ .

ما أنت ؟ فأخبره : (أنه رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك) فقال : (ما يبلغنى ذلك ، اخرج عنى) فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فاستقر بمصر وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم » .

هكذا صار ابن السوداء بما له من (استخبارات) يتسقط الناقمين واحداً واحداً ممن نالهم عقوبة أو تأديب من عامل أو خليفة ، أو ممن له طموح إلى منفعة لم يصل إليها . . . فجعلهم حزبه و بطانته وألف بينهم حتى صار له فى كل بلد جماعة منظمة هى كالفروع لحزب خطر هدام .

ولما قدم ابن السوداء مصر اختبر نيات جماعاتها واستعداداتهم و « عجمهم واستخلاهم واستخلوه وعرّض لهم بالكفر فأبعدوه »[1] فسرعان ما راغ عن الكفر الصريح المكشوف لما رأى نفرة الجماعة منه ، فرسم لهم خططاً توسع الشقاق بين الأمة وتوقع بينهم العداوة فلانت لها نفوسهم وطمع فيهم « فبدأ يطعن على أميرهم عمرو بن العاص (قبل عزله) وقال : ما باله أكثركم عطاء ورزقا ؟ ألا سنصيب رجلاً من قريش يسوى بيننا »[1] فهشت لهذه المقالة نفوسهم واستحلوها و بذلك أنجحت خطط هذا الخبيث ووجدت عقاربه مدباً تسمن فيه . فاستقر بمصر بؤرة الناقمين وألقى إلى جماعاته فى الأقطار دستور العمل وخطة الدعاية التى تسبق الثورة وقد مر بك أن الطبرى وابن عساكر حفظاها لنا فى هذه الكلمات :

« انهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر » . فبث دعاته ، وكاتب من استفسد فى الأمصار وكاتبوه ، ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة (العاصمة) وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون ؛ فيقول أهل كل مصر : « إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء » . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٤٣٠ ، ونحن مدينون لهذا المصدر بمعلومات قيمة .

فقالوا : « إنا لفى عافية مما فيه الناس »[١].

وأحكمت هـذه الجماعة مؤامرتها فأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاؤوا على لسان على وطلحة والزبير وعائشة .

لقد ملأ ابن السوداء البـلاد نقمة وثورة وفساداً وأصبحت الأقطار كلها هشيما يابساً ينتظر شرارة واحـدة كان إرسالها أهون شيء على جمعياته وأتباعه . وهكذا قضى على حكم (المدينة) وحكومة (الراشدين) إلى يوم الدين .

---

(١) الطبرى ٣/٣٧٩ — هذا ، ويعجبنى من أحـد رواة الطبرى فهم جيد لفلسفة الحوادث : إنه يعزو كثرة الناقمين من الصعاليك ، إلى عامل اقتصادى : هو ظفر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار بالغنائم الوافرة والضياع العامرة ، وحسد الصعاليك لهم حسداً خفياً لا يظهرونه لأنه « لا حجة لهم ، والناس عليهم ، فـكان إذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابى أو محرر ، استحلى كلامهم فـكانوا فى زيادة والناس فى نقصان حتى غلب الشر » . ١ هـ ٣/٣٣٣ — ومن هذه الـكثرة وجد ابن السوداء وأعوانه مادة وقودهم ، فاهبت الهبعة إلى الشر حتى كانوا جميعاً على استعداد للفتنة .

الفصل الرابع

فى دفع اتهامات خاطئة للسيدة عائشة

رأيت من المفيد أن أعرض هنا لاتهامات انتشرت على ألسن الناس تتهم عائشة وتحملها إصر قتل عثمان : اتهموها أنها كانت تصرح بأمر الناس بقتل عثمان وتتهمه بالكفر ، و بأنها كانت تحرض على قتله بكتب كتبتها إلى الأمصار ، و بأنها تريد من وراء ذلك البيعة لابن عمها طلحة بن عبيد الله ، ... ونحن ذاكرون لك هذه الأمور واحداً واحداً :

١ — اتهموها بأنها كانت تقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر[1] » . ونعثل — كما مر بك — لقب نبزوا به عثمان . و إذا أردنا أن نعزو هذا القول — على فرض صحته وهو غير صحيح — إلى ساعة غضب واستثارة ، فإن ابن أبى الحديد يحتاط للأمر و يقدم لنا رواية يحتاج تصديقها إلى شىء غير قليل من البله فينا أو فى السيدة عائشة نفسها ، إنه يعزو إليها أنها لما بلغها قتل عثمان قالت : « بعداً لنعثل وسحقاً ، أبعده الله ، ذلك بما قدمت يداه[2] ! »

وعلى فرض تجريدنا السيدة — جدلاً — من النبل والإنسانية حتى تقف هذا الموقف الذى يفيض تشفياً وشماتة و إغاظة ، لانستطيع إلا أن نقطع بوضع الخبر وكذبه لأنه لايأتلف وطبيعة الأشياء : إن أقل مقدار نفترضه من الذكاء فى السيدة كاف للقطع بأنها لايصدر عنها مثل هذا القول مهما كان معناه متمكناً فى نفسها ، فكيف والسيدة على ما أجمعوا من الاتزان والعقل والذكاء .

هذا وفى الطبرى أيضاً أن عبد ابن أم كلاب وهو الذى روى الجملة الأولى : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » لما أخبرها ببيعة على ، حاور السيدة فى طلبها بدم عثمان قائلاً : « ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لأنتِ » وأنشد :

---

(١) الطبرى ٣/٤٧٧ — وانظر فى تكذيب هذه الرواية احتجاجا قيما سديداً للامام المحدث المجتهد الناقد ابن تيمية فى منهاج السنة ٢/١٨٨ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٢/٧٦ .

فمنكِ البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : إنه قد كفر
فهبنا (؟) أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر[1]

٢ — واتهموها بأنها كانت تحرض على عثمان وتكتب بذلك الكتب للأمصار :

جاءها الأشتر أحد رؤوس الشغب — وعثمان محصور — فقال لها : « يا أم المؤمنين ماتقولين فى أمر هذا الرجل ؟ » وهذا سؤال أدركت السيدة ماذا يريد منه الأشتر وإن لم يصرح به ، فأجفلت من مراده وأرسلت جوابا صريحاً حاسماً : « معاذ الله أن آمر بسفك دماء المسلمين وقتل إمامهم واستحلال حرمتهم » فقال الأشتر : « كتبتنّ إلينا ، حتى إذا قامت الحرب على ساق أنشأتن تنهيننا ؟ !![2] » .

هذا ولعلك لم تنس بعد أن من خطط ابن السوداء تزوير الكتب على ألسنة الناس تتميماً لأمر أحكم الطريق إليه . وقد فطن بعض الناس إلى أمر ذلك التزوير ، لكن هذه الفطنة جاءت متأخرة جداً .

ذكر البلاذرى أن السيدة لما قالت حين قتل عثمان : « تركتموه كالثوب المنقّى من الدنس ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش .. » أجابها مسروق : « هذا عملك : كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه » ، حينئذ قالت السيدة وهى المصدقة فيما تقول :

« والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون : ما كتبت بسواد فى بياض حتى جلست مجلسى هذا » .

قال الأعمش : « فكانوا يرون أنه كتب على لسانها »[3] .

---

(١) الطبرى ٣/٤٧٧ ، وسأعود إلى هذه الرواية بالنقد عند الكلام على موقف عائشة من بيعة على .

(٢) أنساب الأشراف ٥/١٠١ .

(٣) الجزء نفسه ص ١٠٣ ، وفى الأصل : « ما كتبت بسوداء فى بياض .. » — ولم يقتصر التزوير على السيدة عائشة ، بل تناول أجلاء الصحابة المجمع على نفوذ كلمتهم فى الجماهير : ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد ٣/٨٣ أنه « لما قدم القواد (الذين أجلبوا على عثمان) قالوا لعلى : « قم معنا إلى هذا الرجل » قال : « والله لا أقوم معكم » . قالوا : « فلم كتبت إلينا ؟ » قال : « والله ما كتبت إليكم كتابا قط » . فنظر القوم بعضهم إلى بعض » اهـ .

٣ — وأطرف مما تقدم وأدخله فى باب الاختلاق والوضع ، زعمهم أنها كانت تبغى من تحريضها على قتل عثمان أن يتم الأمر لابن عمها طلحة بن عبيد الله فيُبايع خليفة . ولدينا فى ذلك حادثتان الأولى كانت قبل مقتل عثمان والثانية بعده .

تقدم لك (ص٤٥) أن عائشة رفضت البقاء فى المدينة — وعثمان محصور — وقصدت مكة للحج ، وأن عثمان ولّى موسم الحج عبد الله بن عباس ، فيذكر الطبرى أن ابن عباس « خرج فمر بعائشة فى الصلصل (موضع بقرب المدينة) فقالت : (يابن عباس ، أنشدك الله فإنك قد أُعطيت لساناً إزميلاً (قاطعاً) أن تخذّل عن هذا الرجل (تعنى عثمان) وأن تشكك فيه الناس ؛ فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلّبوا (سالوا) من البلدان لأمر قدحُمّ ، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يلِ يسرْ بسيرة ابن عمه أبى بكر » .

قال ابن عباس : « يا أمه ، لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا (يعنى عليا) » . فقالت : « إيهاً عنك ، لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك »[1] .

إنى مع عدم استبعادى أن يخطر على بال السيدة خاطر البيعة لابن عمها طلحة إن اعتزل عثمان أو قتل ، مع ذلك أرى دلالة الوضع ظاهرة على هذا الخبر : فى مجادلتها ابن عباس داهية بنى هاشم وطمعها فى أن يصرف الأمر عن ابن عمه على إلى طلحة ، وعائشة أبعد من ذلك فراسة وأقل خفة . ومهما يكن فليس فى هذا الخبر أى دليل على أنها سعت فى قتله حتى يصح لهم تعليل سعيها بإعداد الأمر لطلحة . إنها أرادت عثمان على تغيير عماله وإصلاح خطته ، فأذعن عثمان لإرادتها وإرادة أجلاء الصحابة وأعطى من نفسه آخر أيامه كل ماسئل من إصلاح . ولعل السيدة — مهما بالغنا فى سوء الظن — لم يكن يخطر لها حتى فى أشد حنقها على عثمان ، أكثر من رغبة فى تغيير بطانته واتخاذ بطانة من أجلاء الصحابة كطلحة والزبير ، أو أكثر من اعتزاله على أبعد تقدير . وهذا الخبر الذى تسرب إلى رواة الطبرى لاأشك فى أنه مصنوع ببعض إحكام ، فمن أمعن فى الحوادث التى حفت بهذا العهد وجالت فى نفسه الخواطر ، وجد فى هذه الرواية حل المسألة فاستراح إليه .

---

(١) الطبرى ٣/٤٣٤ .

ومن شاء التفكهة فليقرأ أقصوصة ابن أبى الحديد ، إنها أطرف وأكثر هلهلة ، وإن فاتتك التسلية عند الطبرى فانشدها أبداً عند ابن أبى الحديد . إنه يصور السيدة — عند ما بلغها قتل عثمان — مخلوقا استخفته الشماتة والطرب ، يخف ثم يخف ، حتى يكاد يرقص فى هذا المأتم فرحاً بما خيل إليه من أيلولة الأمر إلى طلحة ، وإليك المشهد :

« . . بلغها قتله فقالت : « بعداً لنعثل وسحقاً ، أبعده الله ، ذلك بماقدمت يداه » وكانت تطمع أن يكون الأمر إلى طلحة وتقول : « إيهٍ ذا الإصبع ! إيه أبا شبل ، إيه يابن عم ! . . لكأنى أنظر إلى إصبعه وهو يبايع .. حثوا الإبل ودعدعوها ، إيه ذا الأصبع ، لله أبوك ... أما إنهم وجدوا طلحة كفواً ... »[1]

وبعد هذا المشهد ، يبلغها خبر البيعة لعلى ، فينهار أملها وتيأس وتقول : « تعسوا تعسوا لا يردون الأمر فى تيم أبداً . »[1] اهـ

وهذا موضوع لفق له بعض الناس من الأخبار ما يرضى أهواءهم الحزبية أو المذهبية ، على نحو مانرى اليوم من عمل الأحزاب السياسية ودعايات الحكومات . بل إن بعضهم كان يتعبد بوضع الروايات التى تنصر صاحبه وتدين خصمه . وما نسب إلى السيدة — فى رواية ابن أبى الحديد — لا يصدر عن الأطفال ، بَلْهَ من كان فى عقل عائشة ودينها وحصافتها . ولعل واضع الخبر فاته أن يفصله على السيدة عائشة الذكية البليغة العالمة العاقلة ، فتصور أمامه امرأة فى مستشفى المجاذيب فقدت اتزانها جملة واحدة .

* * *

وبعد ، فإذا أردت التأثير غير المباشر فى فتنة عثمان فلعل أصح حكم وأصدقه فى توزيع هذا التأثير مامر بك من كلمة سعد بن أبى وقاص الصحابى الجليل :

« قتل عثمان سيف سلته عائشه ، وشحذه طلحة ، وسمه على ، وأشار الزبير بيده وصمت لسانه »[2] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٧٦ — كانت إصبع طلحة شلاء ، فذلك ما عنته بقولها ذا الإصبع . وتيم قوم عائشة وطلحة .

(٢) العقد الفريد ٣/٨٤ .

فإن أنت أغفلت الأسباب الحقيقية فى إيقاد الفتنة وأغفلت الدسائس الخفية التى اضطرمت فى الجماهير ، ونسيت أفاعيل ابن السوداء وخططه ومؤامراته وتنظيم جماعاته ، ولم ترعينك إلا هؤلاء الأربعة فى المدينة فإن الأمر حينئذ فى توزيع التبعة لايعدو ما قال سعد .

ولعل سعداً يعبر عن رأى كثير ممن يعطفون على عثمان وهم معذورون ؛ فإن حقيقة المؤامرة لم تنكشف بعض الانكشاف إلا بعد عشرات السنين إن لم أقل بعد مئات السنين . ومن هؤلاء : الأمويون حزب عثمان ومعاوية من بعده ، إنهم يرتاحون كل الارتياح إلى هذا الحكم الذى نطق به سعد ، بل ليس لهم رأى — فيما أظن — غيره ، ولقد أفصح عن رأيهم خير إفصاح سعيد بن العاص أحد أقطابهم المحنكين : فقد لقى مروان وأصحابه ممن اعتزموا النهوض مع عائشة إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان ، لقيهم بذات عرق فقال لهم : « أين تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ؟ اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ، لاتقتلوا أنفسكم .. » فقالوا : « بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً »[1] وسترى — فيما بعد — أنهم كذلك فعلوا : قتلوا طلحة والزبير وودوا لو تقتل عائشة[2] .

أما إذا لم تستطع إغفال (المؤثرات المباشرة) و (الأسباب الحقيقية) و (العوامل الخفية) . . . رأيت كل مايعزى إلى هؤلاء الأربعة آثاراً ثانوية غير مباشرة لاتعدو غضب النصيح من محبوب يعصيه .

ولقد تقدم لك نفى السيدة إرسال الكتب إلى الأمصار ، وعرفت أن هناك مزورين مختصين اضطلعوا بهذا الأمر ونجحوا فى إحكام مؤامراتهم و إخفائها ، وعرفت أنها لم تأمر قط بقتل عثمان ولم تشترك فى ذلك أى اشتراك قط ... ، فزد على ذلك أنها لم يخطر لها خاطر قتله على بال البتة ؛ حتى هذه الكلمات وذلك الغضب الذى بدر منها نحو عثمان ، اعتقدت أنها عوقبت عليها ؛ قالت :

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٧٢ ؛ وابن خلدون ٢ / ١٥٥ .

(٢) أفصح عن هذه الرغبة عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة للسيدة نفسها ، وستقرأ كلمة المغيرة بعد أسطر ، أما عمرو فقد جاء فى الكامل للمبرد (ص ١٥١) طبعة ليدن) أن عمراً قال لعائشة رحمها الله « لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل » . فقالت : « ولم ، لا أبالك ؟ » فقال : « تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على على . » . — وعمرو أكيس من أن يقول لها : « ونصيب بذلك ثأر عثمان منك . »

« ليتنى كنت نسياً منسياً قبل أمر عثمان : فوالله ما أحببت شيئاً إلا ومنيت بمثله ، حتى لو أحببت أن يقتل لقتلت »[١] .

وأوضح من هذه الرواية ، رواية ابن عبد ربه ، فقد ذكر أن المغيرة بن شعبة دخل عليها فقالت له : « يا أبا عبد الله ، لو رأيتنى يوم الجمل قد أنفذت النصل هودجى حتى وصل بعضها إلى جلدى . » قال لها المغيرة : « وددت والله أن بعضها كان قتلك . » قالت : « يرحمك الله لم تقول هذا ؟ » قال : « لعلها تكون كفارة فى سعيك على عثمان » . قالت : « أما والله لئن قلت ذلك : لما علم الله أنى أردت قتله ، ولكن علم الله أنى أردت أن يُقاتَل فقوتِلت ، وأردت أن يُرمىٰ فرُمِيت ، وأردت أن يُعصىٰ فعُصِيت ؛ ولو علم منى أنى أردت قتله لقُتِلت »[٢]

ثم كانت شديدة الحزن والغضب لقتله ، صادقة فى ذلك كل الصدق . ولقد غضبت على أخيها محمد بن أبى بكر لسعيه على عثمان ، وسمته (مذمماً) ، وظلت تدعو من كبد حرّى على أخيها و بقية الساعين فى قتله دعاء حاراً لانشك فى صدوره عن عاطفة صادقة فى التياعها. كانت تقول :

« قتل الله مذمماً (أخاها) بسعيه على عثمان ، وأهرق دم ابن بديل على ضلالته ،وساق إلى أعين بن تميم هواناً فى بيته ، ورمى الأشتر بسهم من سهامه لايشوى » .. قالوا : « فوالله ما منهم إلا أدركته دعوة عائشة »[٣] .

وليس أدل على ترفع السيدة عن خاطر القتل من هذه الدعوات الحارة البليغة على أخيها . فلا يقعن فى وهم أحد إذن ، أن السيدة ودت قتل عثمان أو توقعته ، وهذه الأقوال

---

(١) أنساب الأشراف ٥/١٠١

(٢) العقد الفريد ٣/٨٤ .

(٣) أنساب الأشراف ٥/١٠٢ والعقد الفريد ٣/٨٤ — أشوى السهم : أخطأ المقتل وأصاب الأطراف .

وفى كتاب (التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان) (مخطوط) : « كان محمد بن أبى بكر يدعى (مذمما) لقبته بذلك عائشة لسوء صنيعه ، فلقى عقوبة ذلك فى الدنيا من القتل والحرق وعند الله تجتمع الخصوم » ص ٢٠٧ — يشير إلى قتله وإحراقه فى جيفة حمار من قبل معاوية بن خديج فى مصر لما أوقع عمرو بن العاص والى مصر لمعاوية بجيش على وأنصاره .

الصادرة عنها — وهى الصادقة عندنا — فى الألم على عثمان كاف بعضها فى إبعاد الشبهة عنها . وغاية ما يؤخذ عليها عدا مواقفها العنيفة التى مرت بك ، أنها تركت عثمان محصوراً (حين بلغ الحزام الطُبيين ، وحين طمع فيه من لا يدفع عن نفسه)[1] — كما وصف هو نفسه — فى أشد الحصار وأحر الظمأ وخلصت إلى مكة .

وقد كان راسلها عثمان فى أمر الماء وطلب نجدتها ونجدة أمهات المؤمنين فأرسلن إحداهن أم حبيبة — على ماعلمت — فكادت تقتل ، وجاءها مروان حنقاً يقول : « يا أم المؤمنين لو أقمتِ كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل » .

كان طلب مروان — على وجاهة اعتذار السيدة أيضاً — فى محله ، وكان مقامها — لو هى أقامت — ربما نفع عثمان وردّ عنه ، لكنها رحمها الله استسلمت لموجدتها ، واكتفت أن استتبعت أخاها محمداً أكبر المحرضين على عثمان ، معها إلى مكة فأبى .

الحق أن أثرها فى هذه الفاجعة المشئومة كان — من حيث لا تريد — بليغاً غير ضئيل . لقد عارضت عائشة عثمان كما عارضه غيرها ؛ أما دمه فهى أبعد الناس عن أن تكون شركت فيه بقول أو فعل ، بل إن مجرد فكرة القتل لم تكن تخطر لها على بال قط . وللخصومات السياسية والمذهبية أياد طولى فى اختلاق الأخبار . ومن هذه الأخبار ما لايتماسك لأول نظرة ، ومنها ما يتهافت بعد إعمال العقل وفقه الحوادث ، ومنها مايخفى أمر وضعه حتى على الخبير .

---

(١) من الكتاب البليغ الذى أرسل به عثمان وهو محصور إلى علىّ على ما زعموا ، وهذا نصه على رواية الحصرى :

« أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه ، ولم يعجزك كلئيم ، ولم يغلبك كغلب ؛ فأقبل إلىّ ، معى كنت أم على ، على أى أمريك أحببت :

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى وإلا فأدركنى ولما أمزق

زهر الآداب ١/٧٥ المطبعة الرحمانية — الطبعة الثانية والكامل للمبرد (ص ١١ طبعة ليدن)

الزبى : الروابى — الطبى : حلمة الضرع (رأس الثدى) . وباوغ السيل الزبى وتجاوز الحزام أثناء الدابة المركوبة : كنايتان عن اشتداد الأمر . المغلب : الذى يغلبه الناس كثيراً — والبيت لقيس العبدى ، ومن أجله لقب بـ (الممزق) .

الباب الثانى

مواقفها فى عهد على حتى يوم الجمل

بويع على بالخلافة وإن الأمور للتوية معتاصة ، وإن كلمة الناس لمنتشرة ، وإن أهواءهم لشتى . ولقد استقبل رضى الله عنه عهد خلافته بأيام سود ، وفتن كقطع الليل المظلم ؛ فاقتحم الغمرات وعقد العزم على أن يجلوها غمرة غمرة ، وكان لله فى ذلك قضاء سبق ، فلم يجد علىّ بين يوم مبايعته ويوم مقتله ساعة خلا فيها من فتنة تثار ، وخوارج تنتقض ، ومشكلات تتوالد وخصوم يتكاثرون ؛ إن متاعبه وهمومه وما حمل نفسه من أعباء ... أخذته حتى عن نفسه التى بين جنبيه . وكان أمر عائشة رضى الله عنها أهم ما لقى من فتوق ، ولولاه لكان أمر علىّ أوثق ، والكلمة عليه أجمع ، ولآلت الأمور إلى غير مآلها المعروف .

الفصل الأول

فى طبيعة علائقهما الماضية

قبل الخوض فيما وقع بين عائشة وعلى فى خلافته يحسن بنا الإشارة إلى طبيعة العلائق الماضية بينهما قبل الخلافة ، فنحن خاضعون فى تصرفاتنا لهذا الحاكم القاهر المسمى بـ (الماضى) نختزن منه ذكرياتنا ومفارحنا وآلامنا وتسيرناهذه المفارح والآلام والذكريات فيما نستقبل من أعمال : رضينا أم أبينا ، من حيث نشعر ولا نشعر .

وهنا نجد الأمر مختلفاً كل الاختلاف عما كان بين عائشة وعثمان قبل خلافته : فلئن كانت عائشة منطوية لعثمان على خير ومحبة وتوقير . . وبالجملة على الرضى ، إنها لعلى خلاف ذلك مع على ؛ إنها لم تكن تطيب نفسها له بخير ، وفى الوسع أن نقول إن الجفاء هو الذى ساد علائقهما قبل الخلافة فى الأعم الأغلب .

لنرجع ثلاثين سنة قبل أن بويع لعلى بالخلافة ، فسنجد ثمة نقطة التحول التى فرضت على عائشة اتجاهها الذى اتجهته مع على ولم تستطع الإفلات منه ، ولا من عاطفتها العنيفة التى لم يخفف تتابع الأيام والسنين من حدتها . فلنمعن فى هذه الأمور التاليات :

١ — لم يجتمع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم على شىء اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة ، لما خصها به النبى من محبة ، إذ حلت من قلبه فى المنزلة التى لا تسامى ، والغيرة بين الضرائر أمر فطرى مألوف قل أن تتنزه عنه امرأة . وكان علىّ وزوجه السيدة فاطمة بنت الرسول يحاولان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على التخفيف من حبه لعائشة ، ويَسْفِران لبقية أزواجه بما يرضيهن ويغضب عائشة ، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفره أنثى البتة .

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوماً فى صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة ، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبى صلى الله عليه وسلم ينهاها فتأبى ، وعاين النبى غلياناً فى صدر عائشة على هذا العدوان ، فرأى من الحكمة

أن ينفس عنه بالقصاص العادل ، فأمر عائشة بسبها كما سبتها . فانطلقت أم سلمة إلى على وفاطمة — وكانا يخصانها بعطف ورعاية و بقيت أم سلمة فى حزب على حتى ماتت — فقالت : إن عائشة سبتها ، « وقالت لكم وقالت لكم » فكره ذلك على وقال لفاطمة : « اذهبى إلى النبى فقولى : « إن عائشة قالت لنا وقالت لنا . . » فأتته فذكرت ذلك له ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنها حِبَّة أبيك ورب الكعبة » .

وكأن هذا الدرس لم يرق لعلى ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : « أما كفاك الآن : قالت لناعائشة وقالت لنا ، حتى أتتك فاطمةفقلت لها : إنها حبة أبيك و رب الكعبة؟ »[1]

ولعل مثل هذه السفارة قد تكرر[2] ، فحفظت عائشة ذلك كله لعلى وفاطمة .

و ينبغى ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء ، أن نشير إلى أمر آخر مهم كانت السيدة نفسها هى التى تغار . ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول وكثير محبته لها ، لم ترزق منه الولد ؛ وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة ، كثير الرعاية لهم والحدب عليهم ، وكانت تشهد عائشة من مباسطته لهم العجب العجاب ، فتشتعل الغيرة فى صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبويهما على وفاطمة . وهذا — و إن كان مبعثه الفطرة ، ومستفيضاً فى كل الأسر — مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع فى الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى .

٢ — لئن كان من القريب الممكن أن نعتذر لعلى فى هذه البوادر التى يكون مثلها فى كل أسرة والتى رددنا أمرها إلى ما يكون عادة بين الأحماء ، إن الذى لا نستطيع الاعتذار له : هو موقف على من عائشة فى حادث الإفك : لقد وقف منها على — مع علمه ببراءتها — موقفاً غايةً فى القسوة ، أفصح أبلغ إفصاح عما فى نفسه نحوها من تأثر . و إن مع عائشة الحق كل الحق فى ألا تنسى له تلك البادرة التى كادت تعصف بروحها عصفاً لولا أن لطف الله بنبيه و بها فأنزل عليه براءتها تتلى فى القرآن حتى يوم الناس هذا .

روَّج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك ، شفاء لما يمزق قلوبهم

---

(١) انظر السمط الثمين ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ وسير النبلاء ٢/٢٣ .

من غيظ على نصرة الإسلام ودخول المدينة فى حكمه . وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة ، ولم يكن يخفى عليه طهر عائشة و براءتها ونوايا المرجفين ، لكنه أمّل أن ينزل الله عليه فى أمرهم وحياً ، فلما استبطأ الوحى دعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما فى فراق أهله ، فأتيا ، فأما أسامة فأثنى خيراً وأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله فقال : « يارسول الله ، أهلك ولا نعلم إلا خيراً » وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذى توحى به البديهة والروية معاً . لكن علياً ذهب مذهباً غريباً إذ أشار على النبى أن يطلق عائشة فقال له : « لم يضيّق الله عليك ، والنساء غيرها كثير ، واسأل الجارية تصدقك» ولم يكتف بذلك ، بل قام إلى الجارية فضربها — على مايقول الطبرى[1] — ضربا شديداً وهو يقول : « اصدقى رسول الله » . فتقول الجارية : « والله ما أعلم إلا خيراً ... الخ »[2]

ولعل علياً ظن هذا الرأى خيراً للرسول مهما جرّ على عائشة من سوء وظلم ، ولكن إنعام النظر يوحى بأن رأى على لوعمل به لأعقب عواقب جد وخيمة : تحطيم حياة عائشة البريئة ، وفجيعة قلب النبى بأحب الناس إليه ، وحزنه طول حياته كلما ذكر هذا الحادث وأين لأحد أن ينساه إذن . الحق أن من لطف الله بالنبى وآله — كما قلنا فى الجزء المخصوص بعائشة من سير النبلاء [3] — أن صرف رسوله عن رأى على .

ومع أنى لست أشك فى أن علياً صدر فى هذا الرأى عن غيرة بالغة على النبى وبيته ، مع ذلك أقرر أن المأمول من على غير هذا ، وهو المعروف بسموه عن كل هوى وهو القاهر لنفسه الضابط لنزواتها وتمويهها ، ولكن الله الذى استأثر بالكمال سلط الضعف على خلقه من حيث لايشعرون .

وأظنك تذهب معى إلى أن النتيجة المحتمة لموقف على هذا من عائشة ، أن يسود الجفاء علاقتهما مدى الحياة ، وأن موقفاً مثله لاينسى ولا ينتزع أثره من القلب مهما جاهد

---

(١) ٢/٢٦٧ .

(٢) وتزيد بعض الروايات — ولا آخذ بها — أنه قال : « إن هى إلا شسع نعلك . » — شرح نهج البلاغة ٢/٤٥٨ . وهذا التعبير عن المرأة بشسع النعل تعبير جاهلى أنزه علياً عنه .

(٣) ص ٣٧ ، ٤٢ .

لمرء نفسه . ولم تنس عائشة — مع كل جهودها المبذولة فى كبح عاطفتها — بادرة علىّ هذه حتى واراها التراب .

ولقد تفاقم فى نفسها أثره مع السنين ، ووجهها — من حيث لا تشعر — وجهة كان فيها للمسلمين أذى بالغ ، وهى ترى أن فيها الخير لهم كل الخير . نعم ، لقد كانت الأيام لا تزيده إلا نمواً فى نفسها حتى رأيناها مندفعة بقوة لا تغالب نحو حرب الجمل بعد ثلاثين سنة من هذا الحادث :

إن الأمور صغيرها ... مما يهيج له الكبير

٣ — ذكر ابن أبى الحديد حادثاً بينهما لم أره فى مصدر آخر ، وأنا أشك فيه كل الشك لبعده عن تربيتها ولأنه فى نفسه غير طبيعى :

لما خرجت على على فى خلافته ، جعلت أم سلمة تذكرها بهذا الحادث وإليك نصه على ما فى شرح نهج البلاغة :

قالت لها أم سلمة : « أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه ، حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال ، خلا بعلى يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمى عليهما فنهيتك ، فعصيتنى فهجمت عليهما فما لبثتِ أن رجعتِ باكية فقلتُ : « ماشأنك ؟ » فقلتِ : « إنى هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلى : ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام ، أفما تدعنى يا بن أبى طالب ويومى ؟) فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ وهو غضبان محمر الوجه فقال : ارجعى وراءك ، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتى ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان » . فرجعت نادمة ساخطة ؟ »

قالت : « نعم ، أذكر ذلك . . »[1] اهـ

وظاهر أن بيت القصيد من وضع هذا الحديث هو تقرير الكفر على مبغض على .

٤ — لما بويع أبوها أبو بكر الصديق تلكأ علىّ فى داره وامتنع هو وبنو هاشم ، إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة زوجه أقبل يبايع[2] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٧٨ ؟ هذا وقوله (من أهل بيتى ولا من غيرهم من الناس) لا يشبه البلاغة النبوية وحذفها أقوى وأوقع .

(٢) ذكر الطبرى (٢/٤٤٨) : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله =

ومن طبيعة الأشياء أن تضطغن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق بالخلافة منه وألا تطيب له نفسها بخير .

ولا بأس أن تضيف إلى ذلك قضية (فدك) الأرض التى كانت خالصة للنبى صلى الله عليه وسلم حياته : يأكل منها وينفق على آله وأضيافه مدة عمره ، فما فضل فعلى فقراء المسلمين ، فلما قبض الرسول وآل الأمر إلى أبى بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من أبى بكر ميراثها ، فاعتذر أبو بكر بحكم النبى المشهور : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة » . وأبى أن يحكم فى هذه القضية بغير حكم رسول الله . فلم يقنع ذلك السيدة فاطمة وغاضبته ، وكذلك لم يقتنع على ولا العباس . على حين أنك تذكر أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كن طلبن ميراثهن من رسول الله ، فلما احتجت عائشة بالحديث الذى احتج به أبو بكر كففن وأذعنّ . فكان خلاف على وفاطمة فى أمر فدك موضع استياء من السيدة عائشة . وقد عاد علىّ إلى النغمة نفسها فى خلافة عمر فلم يستفد[1] .

٥ — إشارات عارضة استخرجتها من مواطنها لأنه عظيمة الدلالة على رأيها فى على وعاطفتها نحوه ، أوردها تباعاً قبل الشروع فى الكلام على مقدمات حرب الجمل ، إذ أنها ستكون المفتاح لما بعدها ، والمصباح ينير طريق الباحث فيما يستقبل من أحداث :

أما الأولى فقد رواها عطاء بن يسار قال :

جاء رجل فوقع فى على وفى عمار رضى الله عنهما عند عائشة ، فقالت : « أما على فلست قائلة لك فيه شيئاً ، وأما عمار فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يخيَّر بين أمرين إلا اختار أرشدهما[2] » .

= صلى الله عليه وسلم وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر فقال لهما أبو بكر : « أما إنى سمعت رسول الله يقول : « لا نورث ، ما تركنا صدقة ، إنما يأكل آل محمد فى هذا المال » ، وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ، فدفنها على ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر . وكان لعلى وجه من الناس حياة فاطمة ، فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن على ، فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر . اهـ . وانظر أيضاً غزوة خيبر فى صحيح البخارى ٥/١٣٩ (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ) .

(١) انظر المصدرين السابقين وكتاب الأموال لابن سلام ص ١١ .

(٢) مسند أحمد ٦/١١٣ .

وأما الثانية فلهجتها فى نفى الوصاية :

سئلت : « أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى على ؟ » فقالت :

« لقد كان رأسه فى حجرى فدعا بالطست فبال فيها ، فلقد انخنث (انعطف) فى حجرى وما شعرت به ، فمتى أوصى إلى على ؟ [١] ».

وأما الثالثة وفيها البلاغ ولقد نبه إليها داهية بنى هاشم عبد الله بن عباس فإليك حديثها عن الطبرى :

روى عن عائشة أنها قالت : « لما اشتد بالرسول وجعه « دعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيتى ، فأذنّ له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر ، تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتى » . قال راوى الحديث : فحدثت بهذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال : « هل تدرى من الرجل الآخر ؟ » قلت : « لا » قال : « على بن أبى طالب ، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع [٢] » .

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير وتبادل ثناء ، لم يزل ما بنفسها نحوه ، فقد ذكروا أنه لما انتهى إلى عائشة قتل على قالت متمثلة :

« فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فمن قتله ؟ » فقيل « رجل من مراد » فقالت :

« فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس فى فيه التراب »

فذكروا أن زينب بنت أبى سلمة كانت حاضرة فقالت : « ألعلى تقولين هذا ؟ » فقالت : « إنى أنسى ، فإذا نسيت فذكرونى [٣] » .

وأنا أجد هذا الخبر مفصحاً عن طويتها نحو علىّ خير إفصاح ، وشارحاً ما قدمت

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/٤٩ والإجابة ص ٩٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٤٣٣ — لكن ابن عبد ربه روى عن السيدة تقريظاً لعلى موفياً على الغاية فى الثناء قالت وقد ذكر يوما عندها : « ما رأيت رجلا أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، ولا امرأة كانت أحب إليه من امرأته » . (تريد السيدة فاطمة) — العقد الفريد ٣/٩٤ .

(٣) الطبرى ٤/١١٥ .

لك من أنها تخضع من حيث لا تريد لتوجيه عاطفتها (اللاشعورية) ، ولست أشك أنها كانت حينئذ شاردة وأن عقلها الباطن هو الذى تمثل بهذين البيتين قبل أن تنبه إلى ما فيهما من بعد عن الجميل .

وحسبك هذا فى بيان طبيعة ما يكنه كل منهما نحو الآخر ، فلنشرع فيما نحن بسبيله من مآتيها فى خلافة على .

الفصل الثانى

موقفها من بيعة على والحالة العامة

نعود بك الآن — بعد هذه المقدمة التى لابد منها — إلى سوق الحوادث متسلسلة على نسقها الذى جاءت عليه[1] : عرفت أن السيدة تركت المدينة وعثمان محصور والأزمة أشد ما تكون تأزماً وأقرب إشرافاً على النتيجة المحتومة الفاجعة ، وعرفت أيضاً أن مروان ضرع إلى السيدة أن تظل بالمدينة لعل بقاءها يمنع عن عثمان شرة الغوغاء ، ولعلها إن نصحتهم أن يستجيبوا لها فيراقبوا الله فى الخليفة الشيخ ، وأنها أبت وخرجت حاجة ؛ فلما قضت حجها لبثت بمكة تنتظر عِمْرة المحرم .

وكان عثمان قد قتل ، وبويع علىّ لخمس بقين من ذى الحجة ، وتوارد بين القتل والبيعة أناس هاربين من الغوغاء إلى مكة ، وأكثرهم من بنى أمية رهط عثمان ، فاستخبرتهم عائشة عما وقع ، فأخبروها أن الأمر أمر الغوغاء ، وأنهم عرضوا الخلافة فلم يجبهم إليها أحد[2] . وأدرك السيدة هنا حزن صادق على عثمان ، ولعلها أيقنت فى نفسها أن نصح الأمراء لا يكون على رؤوس الأشهاد ، وأن ذلك مفسدة للعامة لا يخلو من المضرة مهما كانت نية الناصح خالصة ، فقالت وفى قولها إشارة لما جال فى خاطرها :

« ولكن أكياس ، هذا غبّ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح » .

---

(١) معظم اعتمادنا فيما نسوق على الطبرى .

(٢) تفصيل ذلك فى الطبرى ٣/٤٥٤ .

فلما قضت عمرتها خرجت متوجهة نحو المدينة ، فلما انتهت إلى (سَرِف) لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث وكانت السيدة واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبيد بن أبى سلمة ويعرف بأمه أم كلاب ، قادماً من المدينة ، فقالت : « مَهْيَمْ » فأصم ودمدم[١] ، فقالت : « ويحك علينا أم لنا ؟ » فقال : « لا ندرى ، قتل عثمان وبقوا ثمانيا » فاستعجلت قائلة : « ثم صنعوا ماذا ؟ » قال : « أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على علىّ ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز » . فقالت : « ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ! » ثم قالت : « ردونى ردونى » ، « قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه » . فقال لها ابن أم كلاب : « ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر[٢] » قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول »

فقال لها ابن أم كلاب :

فمنكِ البَداء ومنكِ الغيرْ ... ومنكِ الرياح ومنكِ المطرْ
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام ... وقلت لنا : إنه قد كفر
فهبنا[٣] أطعناك فى قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تُدْرَإٍ ... يزيل الشبا ويقيم الصعر[٤]
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر[٥]

وانصرفت السيدة راجعة إلى مكة وهى لاتقول شيئاً ولا يخرج منها شىء[٦] حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحِجرْ فسترت فيه واجتمع الناس إليها فخطبتهم بهذه الخطبة :

---

(١) المصدر السابق ٣/٤٦٨ مهيم كلمة استفهام من معانيها : ما وراءك ؟ الدمدمة : الغضب .

(٢) مر بك دحض هذه الفرية عن السيدة ص ٤٤ .

(٣) هناك رواية ثانية فيها : (ونحن) مكان (فهبنا) .

(٤) رجل ذوتدرإ : مدافع ذوعزم ومنعة — الشبا : العلو ، الحد — الصعر : إمالة الخد عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً .

(٥) يقع فى خلدى أن هذه الأبيات مصنوعة لنصرة هوى سياسى فزيدت فى هذا الخبر أيضاً .

(٦) جمعنا روايتين للطبرى ٣/٤٦٨ ، ٤٧٧ ، ويزيد صاحب (الإمامة والسياسة ص ٤٢) أن طلحة لما لقيها بمكة وأخبرها بما جرى قائلا : « بايعوا علياً ثم أتونى فأكرهونى ولبونى حتى بايعت » . قالت : « وما لعلى يستولى على رقابنا ؟ لا أدخل المدينة ولعلى فيها سلطان » اهـ .

« أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أنْ عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس : الإرْبَ واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سُبق بها لايصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم ؛ فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادوا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم : فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لإصبع عثمان خير من طِباق الأرض أمثالهم ؛ فنجاةً من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويُشَرَّدَ من بَعْدهم . ووالله لو أن الذى اعتدّوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خُبْثه أو الثوب من دَرَنه ؛ إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء[1] .. »

---

(١) الطبرى ٣/٤٦٨ — الإرب : الغائلة والنكر واستعمال الدهاء — خلجوا : تحركوا وطعنوا — التنكيل به : عقوبته عقوبة تحذر غيره عن مثل فعله — الموص : الغسل اللين والدلك باليد .

هذا ويروى أبو حيان التوحيدى هذه الرواية الغريبة حقاً :

لما قتل عثمان خرجت عائشة والناس مجتمعون ، وعلى فيهم [؟!] ، فقالت : « أقتل أمير المؤمنين عثمان ؟ » قالوا : « نعم » ، قالت :

« أما والله لقد كنتم إلى تسديد الحق وتأكيده أحوج منكم إلى ما نهضتم إليه من طاعة من خالف عليه ؛ ولكن كلما زادكم الله صحة فى دينه ازددتم تثاقلا عن نصرته طمعاً فى دنياكم . أما والله لهدم النعمة أيسر من بنيانها ، وما الزيادة إليكم بالشكر بأسرع من زوال النعمة عنكم بالكفر . أما لئن كان فى أكله ، ، واخترم أجله ، إنه لصهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين ، وما علمنا [خلقاً] تزوج ابنتى نبى غيره ؛ ولو غير أيديكم قرعت صفاته لوجد عند تلظى الحرب متجرداً ، ولسيوف النصر متقلداً ، ولكنها فتنة قدحت بأيدى الظلمة .

أما والله لقد حاط الإسلام وأكده ، وعضد الدين وأيده ، ولقد هدم الله به صياصى أهل الشرك ، ووقم (أذل) أركان الكفر . لله المصيبة به ما أفجعها ، والفجيعة به ما أوجعها ، صدع والله مقتله صفاة الدين ، وثلمت مصيبته ذروة الإسلام ؛ تباً لقاتله ، أعاذنا الله وإياكم من التلبس بدمه والرضا بقتله » . اهـ الإمتاع والمؤانسة ٣/١٩٩ .

وهذا الكلام كله مصنوع ، أريد به محاكاة أسلوب عائشة فى خطبها المحفوظة فى أيبها ، ولا أطيل عليك بتفنيده ، فحسبك أن عائشة خرجت من المدينة قبل قتل عثمان ثم لم ترجع إليها إلا بعد وقعة الجمل ، ولم تخطب قط بمجمع فيهم على بن أبى طالب ، وإذن لم تجمع المدينة بينها وبين على بعد خروجها أيام عثمان قط ... وكل هذا مريبك . وقد أورد هذه الخطبة مع بعض الزيادة أحمد بن أبى طاهر المعروف بطيفور المتوفى سنة (٢٨٠ هـ) فى كتابه بلاغات النساء ص ١٤ — ١٥ ، وقال فى آخرها : « وعلى عليه السلام جالس فى القوم ، فلما قضت كلامها قام وهو يقول : « أرسل الله على قتلته شهابا ثاقباً وعذابا واصباً » .

وقد كنت على ظن أن الخطبة من صنع أبى حيان التوحيدى وهو رجل بليغ يولع بمحاكاة الأساليب والوضع على أصحابها استطالة ببلاغته ، يعرف ذلك عنه ذوو البصر بالكلام وبفقه التاريخ ، ولكنى لما رأيت ابن أبى طاهر يوردها مع الزيادة وقد توفى قبل أبى حيان بنحو (١٢٠ سنة أيقنت أنها أقدم صنعاً .

كانت هذه الخطبة إعلانا واضحاً للثورة على خلافة على ، وعـدم الاعتداد ببيعته ، فلننظر أمر الذين استجابوا لها وموقفهم من على ، ولنختر من رؤوس الناس : طلحة والزبير وبعض رؤوس بنى أمية أولياء الخليفة الشهيد عثمان بن عفان :

* * *

فأما طلحة : فقد طمحت نفسه للخلافة مذ كان أحد الستة أهل الشورى الذين أوصى عمر أن يكون الخليفة بعده أحدهم ، فلما صار الأمر لعثمان وكثر الناقمون عليه كان طلحة فى طليعتهم ، فلما حصل الثوار فى المدينة تهيأ ليكون الخليفة بعد اعتزال عثمان أو قتله ، فبادر وعثمان محصور وقد قارب أمره التمام ، فاتخذ على بيوت الأموال والخزائن — على ما يروى الطبرى[1] — مفاتيح وحراساً ، وكثر لذلك إقبال الناس عليه وازدحامهم على بابه كأنه خليفة . وكان هذا التصرف من طلحة أشد إيلاماً لقلب عثمان ، فأرسل إلى على بن أبى طالب فأتاه فاستغاث به وذكره حق الإخاء والقرابة والصهر والعهد والميثاق ، وأيسر من هذا كاف فى استجابة مروءة على ، فنهض لإغاثة عثمان ووعده خيراً وقال : «سيأتيك الخبر» .

ثم خرج فدخل المسجد فرأى أسامة بن زيد جالساً فدعاه فاعتمد على يده فخرج يمشى إلى طلحة ، فلما دخلوا الدار وجدوها غاصة بالناس يموجون فيها فقال على :

« ياطلحة ماهذا الأمر الذى وقعت فيه ؟ » فقال : « يا أبا حسن ، أبعد مامس الحزام الطبيين ؟ »[2] فانصرف على ولم يجب بشىء .

وقصد إلى بيت المال فقال : « افتحوا هـذا الباب » فلم يقـدر على المفاتيح ، فقال : « اكسروه » فكسر باب بيت المال فقال : « أخرجوا المال » فجعل يعطى الناس[2] .

وطار الخبر فى أسواق المدينة حتى بلغ الذين فى دار طلحة ، فجعلوا يتسللون إليه حتى تركوا طلحة فى داره وحيداً ينظر والحسرة تأكله .

وبلغ الخبر عثمان فشفى مافى نفسه على طلحة وسر سروراً كبيراً . وأراد طلحة بعد ماسقط فى يده أن يعتـذر ، فاستأذن على عثمان ، فلمـا دخل عليه قال : « يا أمير المؤمنين

---

(١) ٣/٤٥٣ .

(٢) الصفحة نفسها — ومس الحزام الطبيين : كناية عن اشتداد الأمر وخروجه من يده — انظر شرحها فى الحاشية ص ٥٩ .

أستغفر الله وأتوب إليه ، أردت أمراً فحال الله بيني و بينه » . فقال عثمان :

« إنك والله ماجئت تائباً ، ولكنك جئت مغلوبا ؛ الله حسيبك ياطلحة ».[١]

ولما بويع لعلىّ تلكأ طلحة عن البيعة ، فأرسل حز به أهل البصرة الأشتر النخعى إليه فى نفر منهم ليبايع علياً ، غيظاً منهم وحنقاً إذ لم ينهض بأمر نفسه كما ينبغى حتى غلبهم أهل مصر ونصبوا (مرشحهم) علياً ، فجاؤوا يقودونه بالسيف وقال : « إنما أبايع كرهاً » وجعل الأشتر يتلّه تلاً عنيفاً وسل سيفه وهو يقول : « والله لتبايعن أو لأضربن بين عينيك » فصعد المنبر فبايع . و بعد أيام طلب من على أن يوليه البصرة[٢] وأشار إلى أنه والزبير بايعاه على أنهما شريكاه فى الأمر ، فاعتذر على عن توليته بأنه يريد أن يستعين برأيه فيما يعرض له من مشكل .

وأما الزبير : فكان أمره فى كل ذلك قريباً من أمر طلحة و إن لم يبلغ مبلغه : انتقد عثمان ماشاء له النقد ، ونقم عليه ، ورضى أن يثور الناس به ثم كان الثائرون من أهل الكوفة يصدرون عن رأيه ، وأهواؤهم معه ، وهم يريدون إن وقع بعثمان حادث أن تؤول إليه الخلافة ، فلما لم ينهض للأمر النهوض المطلوب نقم عليه حز به أيضاً ، وجاؤوا به ليبايع كرهاً فبايع ، ثم عرّض لعلى أن يوليه الكوفة[٢] فاعتذر بحاجته إليه و إلى طلحة أن يتحمل بهما على أمره

وأما بنو أمية : فقد أصبحوا مغلوبين من حين قوى أمر الثائرين ، فلما وقعت الواقعة بعثمان ثم بويع علىّ وهم أشد ما يكونون كراهة لولايته ، اختفوا ، وجعلوا يتسللون هُرّاباً إلى مكة : استعداداً لإحباط أمر على أو اللحاق بمعاوية فى الشام ، ومعهم الرجال والأموال إذ كان أغلبهم ولاة لعثمان ، فلما تركوا ولاياتهم تحملوا بما استطاعوا أخذه من الأموال والظهر والسلاح .

فأنت ترى أن عائشة طالبت بدم عثمان ، وسترى أنها اندفعت فى هذه السبيل على رغم تحذير المحذرين ونصح أمهات المؤمنين اندفاع الأتىّ الجارف ... حتى جمعت الجموع وأحاط بها كل طامع وكل ذى ثأر عند أصحاب على وكل كاره لخلافته ؛ مع آخرين خرجوا معها

---

(١) المصدر السابق . (٢) الطبرى ٣/٤٥١ .

بعقيدة مخلصة بريئة : مغيّرين منكرين مطالبين بإقامة الحدود . وخرجت بهذه الجماهير من الحجاز حتى وافت العراق ، فلم يكن من محيص دون القتال ومؤرثو الشر منتشرون متكاثرون فى جماعتها وجماعة على .

* * *

تفرق الناس فى أمر على فرقاً ، أبعدها أثراً تلك التى كرهت ولايته سراً وأعلنت وجوب الثأر لعثمان من الغوغاء . وهذا إعلان فيه من التعجيز أكثر مما فيه من القصد الصحيح ، وكان رأى على فى هذه القضية رأياً سديداً ملموساً صوابه ، وقد ألمّ المؤرخ الطبرى بالوجوه المختلفة فيها وموقف الأعلام منها فقال :

« اجتمع إلى علىّ بعد ما دخل طلحة والزبير عدة من الصحابة فقالوا : « يا علىّ إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم » فقال لهم : « يا إخوتاه ، إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ... فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟ » قالوا : « لا » قال : « فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله ... إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ... فاهدؤوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا » .

واشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج ... وإنما هيّجه على ذلك هرب بنى أمية .

وتفرق القوم : بعضهم يقول : « والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، لترك هذا إلى ما قال علىّ أمثل » . وبعضهم يقول : « نقضى الذى علينا ولا نؤخره ، والله إن علياً لمستغن برأيه وأمره عنا ، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره » . فذكر ذلك لعلى فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم ، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل عليه[1] » .

---

(١) الطبرى ٣/٤٥٨ ، ٤٥٩ .

ثم أمر على أن يرجع كل عبد إلى مواليه ونادى فى الناس : « أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب » ، ونادى فى الأعراب : « يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم » . وهو يريد بذلك أن ينفرد الوالغون فى دم عثمان من السبئية ، فلا يجدون مدداً لهم من الغوغاء ، فيستطيع حينئذ أن يثأر منهم . ولكنهم كانوا أفطن لمراده ، فرفضوا الخروج وتبعتهم الأعراب .

ولما دخل عليه بعد ذلك طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبى فيهم الذين يُحرجونه بطلب الثأر من القتلة ، قال لهم على : « دونكم ثأركم فاقتلوه » . فأظهروا عجزهم عن ذلك فأعلمهم أنهم بعد اليوم أعجز وتمثل :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

فانبرى طلحة يقول : « دعنى فلآت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا فى خيل » .

وانبرى الزبير يقول : « دعنى آت الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا فى خيل »[1] . فعلم علىّ ما يجول فى نفوسهما فأجابهما : « حتى أنظر فى ذلك » .

فما تقدم عرفت أن علياً محيط بهذه القضية من جميع وجوهها ، وأنه مطلع على تفرق الناس فيها ووجهة نظر كل فرقة ، وأن حكمه فيها على غاية من الحصافة والسداد ، كما لم يخف عليه شىء من النوازع المكتومة فى نفوس طلحة والزبير وغيرهما .

* * *

وليكون تصويرنا الحالة السياسية كاملا نرى من اللازم الإشارة إلى مجمل ما كان من موقف الأمصار من بيعة علىّ وطاعته ، ثم نعود إلى حديث طلحة والزبير وعائشة وأشياعهم :

بادر على إلى عزل عمال عثمان والاستبدال بهم ، وكان رأى ابن عمه عبد الله بن عباس إقرارهم إلى أن تستقر الحال وتأتى علياً بيعة الأمصار كافة ، ثم يكون أهون الأمور تغيير العمال . أما اجتهاد على فقد كان اجتهاداً (قضائياً) لا إدارياً سياسياً ، ومن هنا تزعزع أمره ، إنه يرى أن هؤلاء العمال غير صالحين ؛ ومن فسادهم وجورهم كانت هذه الشكاوى والثورات التى انتهت بأكبر فاجعة فى التاريخ العربى ، وإن إبقاءهم ولو لحظة إقرار للظلم والفساد يحاسب الله عليه ، وإلا ففيم نقموا على عثمان ؟

---

(١) الطبرى ٣/٤٥٨ ، ٤٥٩ .

لم تفد إشارة النصحاء : ابن عباس والمغيرة وغيرهما شيئاً ، ولم تصرف علياً عن رأى اعتزمه على رغم التحذير الذى حُذِّره . ففرق عماله على الأمصار : أرسل سهل بن حنيف إلى الشام بدلاً من معاوية وكان عرض ولاية الشام على ابن عباس فأبى ، وأرسل عبيد الله ابن عباس إلى اليمن ، وعثمان بن حنيف إلى البصرة ، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة . وكان أشار عليه عبد الله بن عباس أن يولّى البصرة والكوفة طلحة والزبير ، وبذلك يكفى أمرهما وأمر هذه الشكايات التى يبثونها فى مجالس قريش بعد أن أظهر علىّ أنه غير مولّيهما شيئا ، وكان الزبير لا يشك أنه موليه العراق وطلحة موقن بولاية اليمن ، فلم يجب علىّ ابنَ عباس توجساً منهما ، وكان من احتجاج علىّ على ابن عباس قوله :

« ويحك ، إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ؛ ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام . ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى[1] » .

سار عمال علىّ إلى أمصارهم ، فأما والى الشام سهل بن حنيف فما كاد يبلغ تبوك حتى ردته خيل الشام قائلة : « إن كان عثمان بعثك فحيّهلاً بك ، وإن كان غيره بعثك فارجع » فرجع إلى على . وأما والى اليمن عبيد الله بن عباس فسار إلى اليمن فوجد واليها السابق يعلى ابن أمية[2] قد خرج منها بالحامية والأموال إلى مكة . وأما والى البصرة عثمان بن حُنَيْف فدخل البصرة دون شغب . وأما والى مصر فقد دخل مصر بالحيلة وبقى أهلها شيعاً بعضهم معه وبعضهم اعتزل .

وأهمّ علياً أمر الشام قبل غيره ، فأرسل عقب رجوع عامله عنها رسولاً إلى معاوية ليبايع ، فلم يرد معاوية جواباً وماطل الرسول حتى شهر صفر ، ثم دعا برجل من عبس فدفع

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين لعبد الوهاب النجار ص ٣٨٥ .

(٢) ويقال له أيضاً : (يعلى بن منية) ومنية اسم أمه ، صحابى أسلم وشهد مع رسول الله تبوك ، وكان يقول : « غزوت مع رسول الله جيش العسرة ، وهو من أوثق أعمالى فى نفسى) — طبقات ابن سعد ٥/٣٣٧ ، والذى يعنينا من أمره هنا أن أبا بكر استعمله على حلوان فى الردة ، ثم عمل لعمر على بعض اليمن فحمى لنفسه حمى فعزله عمر ، ثم عمل لعثمان على صنعاء اليمن وحج سنة قتل عثمان ... الإصابة الترجمة ٩٣٦٠) .

إليه طوماراً مختوما عنوانه (من معاوية إلى علىّ) وأوصاه أن يدخل المدينة قابضاً على الطومار من أسفله، وأوصاه بقول يقوله، ثم سرّح معه رسول على ...

فقدما المدينة فى أول شهر ربيع الأول، فلما دخلاها رفع العبسى الطومار كما أمره معاوية، وقرأه الناس فعلموا منه أن معاوية غير مبايع. ودخل العبسى على علىّ فسلمه الطومار، ففض خاتمه علىّ فرآه فارغاً لا كتاب فيه، فسأل الرسول: «ما وراءك؟» قال: «أ آمن أنا؟» قال: «نعم فإن الرسل آمنة لا تقتل» قال: «ورائى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود (القصاص)» قال: «ممن؟» قال: «من خَيْط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق[1]». فقال على: «أمنى يطلبون دم عثمان؟ ألست موتوراً كترة عثمان؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان. نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله». وصرف العبسى، فعاد يسأله: «وأنا آمن؟» قال: «وأنت آمن» فلما خرج العبسى صاحت به السبئية: «هذا الكلب وافد الكلاب، اقتلوه» فنادى «يالَ مضر، يالَ قيس، الخيل والنبل، أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى فانظروا: كم الفحولة والركاب ...»، وتهافتوا يريدون أذاه فمنعته مضر وهم يقولون له: «اسكت» فيقول: «لا والله، لا يفلح هؤلاء أبداً فلقد أتاهم ما يوعدون» فيقولون: «اسكت» فيقول: «لقد حل بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم[2]». فما أمسى السبئية حتى عرف الذل فيهم. ولا ريب أن هذه الأقوال هى التى أوصاه معاوية بإعلانها وكأنه تنبأ بما سيقع له. وكان هذا أول الذل وقع على قتلة عثمان.

لما أعلن معاوية خلافه على علىّ، أشار نصحاء علىّ بالأناة والكف، وكان ابنه الحسن قد نصحه بالقعود وترك الناس وشأنهم، فلم يصغ إليه. وكانت الجماهير فى قلق من أمر معاوية لا يعلمون ماذا سيقضى فيه علىّ؟ أيلجأ إلى الرفق أم إلى السيف، فدسّوا إليه أحد ثقاته المنقطعين إليه: زياد بن حنظلة «فدخل[3] عليه فجلس إليه ساعة ثم قال له على:

---

(١) وفى العقد الفريد (٣/٨٨) أنه لما قرئ كتاب نائلة زوج عثمان تصف كيف قتل، حلف رجال من أهل الشام: ألا يمسوا غسلا حتى يقتلوا علياً أو تفنى أرواحهم.

(٢) الطبرى ٣/٤٦٤.

(٣) الجزء نفسه ص ٤٦٥.

« تيسر يا زياد »

فقال : لأى شىء يا أمير المؤمنين ؟ » .

قال : نغزو الشام .

قال زياد : الرفق والأناة أمثل :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علىّ وكأنه لا يريده :

متى تجمع القلب الذكىّ وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه فقالوا : « ما وراءك ؟ » فقال : « السيف يا قوم » ، فعرف الناس عزيمته ، ولم يكن ينتظر من على غير هذا .

استعد على للقتال وعبّأ جيشه فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وولّى عبد الله بن عباس على ميمنته ، وجعل على الميسرة قائداً واستدعى أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخى (أبى عبيدة ابن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد فتح الشام ، ووالياها ، وأمين هذه الأمة ...) ، فجعله على المقدمة واستخلف على المدينة قثم بن العباس وأخذ فى التهيؤ .

وفى هذه الحال أتاه طلحة والزبير يريدان اللحاق بمكة فقالا : « يا أمير المؤمنين ائذن لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وإن تسر نتبعك » . فنظر إليهما وقال : « نعم ، والله ما العمرة تريدان ، امضيا إلى شأنكما » فمضيا .

الفصل الثالث

عائشة فى طريقها إلى البصرة

الائتمار على الخروج الى البصرة :

ذلك إجمال يصور لك الحالة تصويراً شاملاً ، والآن نعود بك إلى أمر عائشة فقد تركناها (ص ٦٨) تخطب الجماهير فى مكة أول خطبها المثيرة تحضهم على الأخذ بثأر عثمان قبل كل شىء .

كان وقع الخطبة على أسماع بنى أمية وسائر الساخطين إمارة علىّ برداً وسلاماً ، أو كوقع المطر فى الأرض الجدبة ؛ فلما فرغت من خطبتها كان أول من استجاب لها عبد الله ابن عامر الحضرمى والى عثمان على مكة فقام وقال : « هأنذا لها أول طالب » . وكان هذا سألها لما رجعت من طريق المدينة : « ما ردك يا أم المؤمنين ؟ » قالت : « ردنى أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام » .

وأجابها بنو أمية بالحجاز وكانوا قد استتروا فرفعوا رؤوسهم ، ثم لما قدم طلحة والزبير مكة — على ما سبق آنفاً — سألت عائشة : « ما وراءكما ؟ » فقالا : « وراءنا أنا تحملنا هُرّاباً من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حيارىٰ لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم » . فقالت : « فائتمروا أمراً ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء » وتمثلت :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم لأنقذتهم من الخبال أو الخَبلْ »[1]

وجلس القوم يأتمرون : أين يقصدون بجموعهم ؟

أما عائشة فكانت تريد أن يذهبوا إلى المدينة فيقضوا على أمر الغوغاء والأعراب ويثأروا هناك من قتلة عثمان الذين عجلوا الأمر لعلى بن أبى طالب . وبذلك تقوض خلافته قبل أن يثبت لها ركن .

---

(١) الجزء السابق ص ٤٦٩ .

وقال قائل : « نقصد الشام » فلم يرض بنو أمية ذلك لأنهم يعدون الشام فى حوزتهم وإليها ملجؤهم أخيراً إن نزلت بهم نازلة . ثم الأمر مستتب لهم فيها بمعاوية فلا يريدون له إفساداً ، وهم من هذه اللحظة يضعون حجر الأساس للخلافة الأموية أو للملك الأموى على الأصح ، بسعيهم فى ضرب علىّ وطلحة والزبير والمدنيين والعراقيين : بعضهم ببعض . لذلك ، نهض متكلمهم عبد الله بن عامر فقال : « قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته » . وبهذا أبعدوا عن الشام ومعاوية كل شغب . فسألوا عبد الله هذا وكان — على ما علمت — والى البصرة لعثمان : « فأين نقصد ؟ » قال : « البصرة فإن لى بها صنائع ولهم فى طلحة هوى » . فقالوا : « قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب ، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفى بك فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟ » .

وهذا دليل آخر على أن الأمويين يصدرون عن رأى واحد إلى هدف واحد منذ الساعة ، فقد نقموا على ابن عامر إخلاءه البصرة لما عزله على ، وكان عليه أن يبقى فيها ولا يبايع لعلى ويتربص كما فعل معاوية ، وهذا مفهوم بصراحة فى جوابهم له .

ثم أجمع رأيهم على ترك المدينة إذ لا طاقة لهم بمن فيها ، وقصد البصرة لأن أهل هذين المصرين البصرة والكوفة هواهم فى طلحة والزبير . فلما اتفقوا على البصرة اعتذروا لعائشة عن قصد المدينة وقالوا : « يا أم المؤمنين دعى المدينة فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التى بها ، واشخصى معنا إلى البصرة فإنا نأتى بلداً مضيعاً ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على ابن أبى طالب فتنهضينهم كما أنهضتِ أهل مكة ثم تقعدين ؛ فإن أصلح الله الأمر كان الذى تريدين ، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد[1] » .

وجاد بنو أمية لهذا الخروج بالأموال دون حساب ، فإن والى اليمن يعلى بن أمية لما عزله علىّ عنها قدم بالأموال فكان معه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، فعسكر بالأبطح وجعل هذه الأموال وقفاً على فساد أمر على . وكذلك ابن عامر فقد كان يجر الدنيا بمكة جراً ، ونادى المنادى :

« إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز

---

(١) الطبرى ٣/٤٧٠ .

الإسلام وقتال المُحلّين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز . فهذا جهاز وهذه نفقة » .

فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب وكانوا جميعاً ألفاً . وأعان يعلى بن أمية وحده بأربعمائة ألف وحمل سبعين رجلاً من قريش ، وقدم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً ، فلما فصلوا من مكة بلغ عددهم — على ما يقول الطبرى — ثلاثة آلاف[1] .

نصح أم سلمة لعائشة :

لعلك ما زلت تذكر أن أم المؤمنين أم سلمة كان ميلها إلى على بن أبى طالب ، وبه كانت تتقوى منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علياً كان يشد أزرها فيما كان ينجم بينها وبين عائشة مما يكون عادة من المنافسة بين الضرائر (ص ٦٢) ، وبقيت أم سلمة حافظة لود علىّ مدى حياتها رضى الله عنها تتعصب له وتحطب فى حبله .

فلما اعتزمت عائشة الخروج على علىّ ، لم تألُها أم سلمة نصحاً ولم تقصر فى الخير لعلى ، حتى إذا لم يُجْدِ النصح ، وحبط مسعاها (السياسى) أرسلت ابنها يحارب مع على فكان ذلك غاية ما تملك من نصرة دعوته ، وقدمته لعلى بهذه الكلمات :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل وأنك لا تقبله منى لخرجت معك ؛ وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز علىّ من نفسى : يخرج معك فيشهد مشاهدك » . فخرج فلم يزل معه[2] .

كل هذا واقع لا شك فيه ، فلقد بذلت جهدها وما تملك من نصر لعلى . لكن الشك يعرونى فيما ينقل ابن أبى الحديد من أقوال يعزوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تذكّر بها أم سلمة عائشة فتذكرها هذه ، ومع تذكّرها تمضى فى خروجها ! ! والمعروف عن عائشة وتدينها أن أقل من هذه الروايات — لو صحت — كافٍ فى ردعها . مع هذا فمن الواجب أن أنقل لك ما روى ابن أبى الحديد :

قالت أم سلمة لعائشة :

---

(١) ص ٤٧١ .

(٢) الصفحة السابقة — واستعمل علىّ ابنها عمر هذا على البحرين ثم عزله » .

«إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول، وما كان اسمه عندك إلا نعثلاً، وإنك لتعرفين منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفأذكّرك؟» قالت: «نعم». قالت أم سلمة: «أتذكرين يوم أقبل[1].. الخ». قالت: «نعم أذكر ذلك». قالت: «وأذكّرك أيضاً: كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت تغسلين رأسه وأنا أحيس له حَيْساً[2] وكان الحَيْس يعجبه، فرفع رأسه وقال: «يا ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدْبَب، تنبحها كلاب الحَوْءب، فتكون ناكبة عن الصراط؟» فرفعت يدى من الحيس فقلت «أعوذ بالله و برسوله من ذلك» ثم ضرب على ظهرى وقال: «إياك أن تكونيها يا بنت أبى أمية[3] إياك أن تكونيها يا حميراء، أما أنا فقد أنذرتك». قالت: «نعم أذكر هذا». فقالت: «وأذكرك... (وذكرت مسألة استخلافه لعلى وهى ما أجمع الثقات على رده)». قالت عائشة: «أذكر ذلك». فقالت حينئذ أم سلمة: «فأىّ خروج تخرجين بعد هذا؟». فقالت: «إنما أخرج للإصلاح بين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله». فقالت أم سلمة: «أنت ورأيك[4]».

وأكرر هنا أن بعض هذا — لو صح وقوعه — كاف فى إقلاع السيدة عن خروجها، وفى حملها على الرجوع إلى بيتها وسنتكلم على حديث الحوءب هذا.

أما الرواية التى لا تحمل من الشك مثل ما تحمل الرواية المتقدمة فهى النصيحة المشهورة التى تذكرها كتب الأخبار وكتب الأدب وكتب اللغة معاً، وإليك إياها:

أتت أم سلمة عائشة لما أرادت الخروج إلى البصرة فقالت لها:

«إنك سُدّة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، وحجابك مضروب على حرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عُقَيْراك فلا تُصْحريها. الله من وراء هذه الأمة: لو أراد رسول الله أن يعهد إليك عهداً عُلْتِ عُلْت، بل نهاك رسول الله عن الفُرْطة فى البلاد. إن عمود الإسلام لا يُثْأب بالنساء إن مال، ولا يُرْأب بهن إن صُدع. حُمادَياتُ

---

(١) مرت هذه الفقرة وتعليقنا عليها ص ٦٤.
(٢) الحيس: الخلط، وهو طعام يتخذ من تمر يخلط بسمن وأقط.
(٣) أم سلمة.
(٤) شرح نهج البلاغة ٢/٧٨.

النساء غض الأطراف وخفر الأعراض وقصر الوَهازة . ما كنت قائلة لو أن رسول الله عارضك ببعض الفلوات : ناصَّة قلوصاً من منهل إلى آخر ؟ إن بعين الله مهواك ، وعلى رسوله تردين وقد وجهت سِدافته وتركت عُهَيْداه .

لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى « ادخلى الفردوس » لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه علىّ . اجعلى حصنك بيتك ، ووقاعة الستر قبرك حتى تلقينه وأنت على تلك : أطوع ما تكونين لله ما لزمتِه ، وأنصرُ ما تكونين للدين ما جلست .

لو ذكّرتك قولاً تعرفينه لنهشت نهش الرقشاء المطرق[1] » .

فقالت عائشة :

« ما أقبلنى لوعظك ، وليس الأمر كما تظنين ، ولنعم المسير مسير فزعتْ إلىّ فئتان متناجزتان . إن أقعد ففى غير حرج ، وإن أخرج فإلى ما لا بد لى من الازدياد منه[1] اهـ » .

---

(١) الفائق للزمخشرى ١/٢٩٠ ، والعقد الفريد ٣/٩٦ ، وشرح نهج البلاغة ٢/٧٩ وقد عزاها هذا إلى ابن قتيبة فى كتابه المصنف فى غريب الحديث فى باب أم سلمة . وابن قتيبة على ما مر بك حشا كتبه بالأهواء التى تحاماها ثقات المؤرخين كابن خلدون (انظر ص ٥ من هذا الكتاب) .

الشرح : السدة الباب (فإذا نابه أذى فقد ناب رسول الله) . ندح : فتح ووسع . العقيرى : مصغر عقر الدار (قال ابن قتيبة : لم أسمع بعقيرى إلا فى هذا الحديث) والمعنى : لا تبارحى بيتك الذى أمرت بلزومه . أصحر : خرج إلى الصحراء . علت : من العول وهو الميل عن الحق . الفرطة : التقدم والسبق . يثأب : يقوّم إذا مال . يرأب : يلأم . صدع : شق . حاداك : قصاراك وغاية أمرك . غض الأطراف (هكذا فى رواية ابن قتيبة ، وقد رواها كذلك الزمخشرى ثم ردّها إلى ما صحفت عنه وهو : غض الإطراق أى يغضضن أبصارهن مطرقات) . الخفر : الستر والحفظ . الوهازة : الخطوة ومشية المستحييات . النص : الدفع فى السير . القلوص : الفتية من الإبل . السدافة (وفى رواية السجافة) : الستر ، وتوجيهها : هتكها . العهيدى : العهد . الوقاعة : الموقع على الأرض . النهش : العض . الرقشاء : الأفعى المنقطة . المطرقة : من صفات الأفعى والسبع .

هذا وينفرد اليعقوبى فى تاريخه (٢/٢٠٩) برواية تذهب إلى أن عائشة لما حرضها طلحة والزبير أتت أم سلمة تستشيرها قائلة : « أن ابن عمى وزوج أختى (طلحة والزبير) أعلمانى أن عثمان قتل مظلوماً وأن أكثر الناس لم يرض ببيعة على ، وأن جماعة من بالبصرة قد خالفوا ، فلو خرجت بنا لعل الله أن يصلح أمر أمة محمد على أيدينا » .

فقالت لها أم سلمة : « إن عماد الدين لا يقام بالنساء ، حماديات النساء غض الأبصار وخفض الأطراف وجر الذيول ، إن الله وضع عنى وعنك هذا . ما أنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك بأطراف الفلوات : هاتكة حجابا قد ضربه عليك ! » فيروى اليعقوبى أن عائشة رجعت عن قصدها وأن مناديها نادى : « إلا إن أم المؤمنين مقيمة فأقيموا » . ثم أتاها طلحة والزبير وأزالاها عن رأيها وحملاها على الخروج اهـ .

وهذا كلام — على تكلفه وتصنعه — يجوز أن يدور بين أم سلمة وعائشة ، وهو أشبه بالواقع وأقل حظاً من الشك ، ووجود كثير من مفرداته فى معاجم اللغة : تشرح ويشار إلى أنها فى كلام أم سلمة لعائشة . . . باعث على بعض الاطمئنان ، وإن كنت لا أمنع جواز الزيادة فى الرواية ، وإنى من الجملة الأخيرة فى قول أم سلمة — خاصة — لفى بعض الشك[1] .

يوم الجمل :

وهكذا أزمع القوم الرحيل وانشقت — لأمر يريد الله تمامه — عصا المسلمين ، وخرجوا يبغى بعضهم لبعض الأذية والنكال ، منهم من خرج حمية ونصرة لما يزعم أنه مصلحة المسلمين ، ومنهم من خرج دسيسة وغشاً ، لأمر يخفيه ويظهر غيره .

كان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قد تأخرن يردن الرجوع مع السيدة عائشة إلى المدينة ، فلما صرفها طلحة والزبير وبنو أمية عنها إلى البصرة عزمن على الرجوع إلى المدينة ؛ إلا حفصة فإنها قالت : « رأيى لرأى عائشة تبع » وأرادت أن تخرج مع عائشة إلى البصرة ، فإنهما كانتا حزباً واحداً منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، إلا أن أخاها عبد الله بن عمر منعها وطلب إليها أن تقعد كما قعد أخواتها أمهات المؤمنين ، فقعدت وأرسلت إلى عائشة تعتذر قائلة : « إن عبد الله حال بينى وبين الخروج » . فقالت عائشة : « يغفر الله لعبد الله[2] » .

---

(١) أورد كلام أم سلمة هذا ابن أبى طاهر فى كتابه (بلاغات النساء) عقب كلامها أيضاً فى نصيحتها لعثمان وجوابه لها ثم قال : « زعم لى ابن أبى سعد : (أنه صح عنده أن العتابى كلثوم بن عمرو صنع هذين الحديثين) وقد كتبتهما على ما فيهما » . انظر ص ١١ وما قبلها فى (بلاغات النساء) — فتأمل .

(٢) الطبرى ٣/٤٧٠ .

وزعم صاحب الإمامة والسياسة (١/٩٩ مطبعة النيل سنة ١٩٠٤) أنه لما استقام أمر أصحاب الجمل واجتمعت كلمتهم على المسير قال طلحة للزبير : « إنه ليس شىء أنقع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخص عبد الله بن عمر » . فأتياه فقالا : « يا أبا عبد الرحمن ، إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها » فقال ابن عمر : « أيها الشيخان أتريدان أن تخرجانى من بيتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟ ! . . إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عياناً فى عافية أنالها » . فانصرفا عنه اهـ .

والظاهر أن وجود ابن عمر فى هذه الفتنة من أكبر ما اشتهى أربابها والناشئون فيها ، فقد كان بعد هذا الرفض من ابن عمر أن « غدا مروان على طلحة والزبير فقال لهما : « عاودا ابن عمر فلعله يئيب » =

ثم خرجت الجماهير من مكة يملأ قلوب كثير منهم الأسف على مغادرتها ، والحزن قد شملهم وشمل المودعين ، ونظر عبد الله بن الزبير إلى البيت مودعاً متحسراً فقال : « ما رأيت مثلك بركة طالب خير ولا هارب من شر[١] » .

ثم خرجت عائشة بعد خروج طلحة والزبير ، فتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عِرْق[٢] « فلم يُرَ يوم أكثر باكياً على الإسلام أو باكياً له من ذلك اليوم . وكان يسمى : يوم النحيب . »[٣]

***

لما تتامت الجموع المستجيبة لأمر عائشة وطلحة والزبير ، خرجوا فى نحو ثلاثة آلاف ، ولم يدخر هؤلاء الزعماء طاقة فى استفزاز أكبر عدد ممكن ، وكان معهم أكثر الأمويين إلا من كسره الخوف منهم ؛ وأرجو منذ الآن أن تنتبه إلى (الدور المحكم) الذى يقوم به هؤلاء ، فإن يكن بعض الناس أظهر الثأر لعثمان وأبطن شيئاً آخر فإن الأمويين هم المنفردون فقط بالصدور عن خطة مرسومة لبلوغ هدف محدد كتموه وأظهروا الغضب لعثمان .

ولما ودع الناس بعضهم بعضاً على ما مر بك ورجع أمهات المؤمنين من ذات عرق ، لقى سعيد بن العاص (أحد سروات الأمويين) مروان بن الحكم وأصحابه فقال لهم : « أين

فعاوداه فتكلم طلحة فقال : « يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ ! إن علياً يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهى الهلكة » ، الإمامة والسياسة ١٠٣/١ .

فكان من احتجاج عبد الله بن عمر على طلحة والزبير قوله لهما : « واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما : المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل علياً إلا من هو خير منه . وأما الشورى فقد والله كانت فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فا كفيانى أنفسكما » فانصرفا . لكن مروان يلح ويشير على طلحة والزبير أن يستعينا عليه بأخته حفصة ، فأتيا حفصة فقالت : « لو أطاعنى أطاع عائشة ، دعاه .. » فتركاه وتوجها إلى البصرة .

لقد كان ابن عمر — سواء أصحت هذه الروايات أم لم تصح — من الرجاحة وبعد الغور ونفاذ البصيرة أكثر مما قدر طلحة والزبير ، ولم يكن يعرف ميزته هذه أحد مثل أبيه عمر . فقد كان يقدر ولده حق قدره ، ولأمر ما جعله أحد الستة أصحاب الشورى على حداثته وجلالتهم .

(١) هكذا فى الطبرى ٤٧١/٣ والذى فى تهذيب تاريخ ابن عساكر (٤٠٩/٧) : أن الزبير نفسه لما سار من مكة إلى البصرة ، التفت إلى البيت بعد ما ودع وتوجه يريد الركوب ، فأقبل على ابنه عبد الله هذا وقال : « أما والله ما رأيت مثله لطالب رغبة أو خائف رهبة » .

(٢) ذات عرق : موضع يهل منه أهل العراق بالحج وهو الحد بين نجد وتهامة — معجم البلدان .

(٣) الطبرى ٤٧٨/٣ .

تذهبون وثاركم على أعجاز الإبل ؟ (يريد طلحة والزبير وعائشة) ، اقتلوهم ثم ارجعوا إلى بيوتكم لا تقتلوا أنفسكم . » قالوا : « بل نسير فاعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً . »

ويجعل صاحب (الإمامة والسياسة) هذا اللقاء فى أوطاس من خيبر حيث كان سعيد ابن العاص والمغيرة بن شعبة . ويروى أن سعيداً أشرف على الناس وقال لعائشة : « أين تريدين ياأم المؤمنين ؟ » فقالت « أريد البصرة » قال : « وما تصنعين بالبصرة ؟ » قالت : « أطلب بدم عثمان . » قال : « فهؤلاء قتلة عثمان معك . » ثم أقبل على مروان فقال له : « وأنت أين تريد أيضا ؟ » قال : « البصرة . » قال : « وما تصنع بها ؟ » قال : « أطلب قتلة عثمان . » قال : « فهؤلاء قتلة عثمان معك ، إن هذين الرجلين (يريد طلحة والزبير) قتلا عثمان ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غُلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة » .

ثم قال المغيرة بن شعبة : « أيها الناس ، إن كنتم خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيراً لكم ، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم نقمتم على علىّ شيئاً فبينوا ما نقمتم عليه ؛ أنشدكم الله : فتنتين فى عام واحد ؟ ! ! » فأبوا إلا أن يمضوا بالناس . ثم لحق سعيد بن العاص باليمن ، ولحق المغيرة بالطائف فلم يشهدا شيئاً من حرب الجمل وصفين (١) .

لكن سعيداً أراد أن يسهم فى عمل الأمويين المزدوج وهو إلقاء الشر وإضعاف كل جماعة غير جماعتهم ، وقد عزم على ألا يخرج فلا أقل من مسعى فى الدعاية ، فخلا بطلحة والزبير فقال : « إن ظفرتما فلمن تجعلان الأمر ؟ اصدقانى » قالا : « لأحدنا ، أينا اختاره الناس » . قال : « بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه » . قالا : « ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ ! » قال سعيد : « لا أرانى أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف » فرجع ورجع معه غيره . وكان المغيرة بن شعبة وهو أحد دهاة العرب حاضراً فقال : « الرأى ما رأى سعيد » . ثم نادى : « من كان هاهنا من ثقيف فليرجع » وكذلك كان . وهذا أول وهن وقع فى هذا العسكر ، وتكفل مروان بالباقى على ما سيأتى .

---

(١) الإمامة والسياسة .

فصل القوم من مكة ، فلما بعدوا حان وقت صلاة ، فأذن مروان ثم وقف على طلحة والزبير فقال : « على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ؟ » فقال عبد الله بن الزبير : « على أبى عبد الله الزبير » وقال محمد بن طلحة : « على أبى محمد طلحة » وكاد يظفر كيده فى الإفساد لولا أن أرسلت عائشة إلى مروان تقول له : « مالك ؟ أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصلّ ابن أختى » فكان يصلى بهم عبد الله بن الزبير[1] . وكان التعقيب المنتظر على هذا الحادث لمعاذ بن عبيد الله الذى قال : « والله لو ظفرنا لافتتنا : ما خلّى الزبير بين طلحة والأمر (يعنى الخلافة) ، ولا خلّى طلحة بين الزبير والأمر » .

* * *

الجمل والحوءب[2]

حملت عائشة على جمل شديد قوى اسمه (عسكر) ، اشتراه لها يعلى بن أمية بثمانين ديناراً وبه سميت هذه الفتنة كلها بيوم (الجمل) ، نسبة إلى هذا الجمل الذى حملوا عليه هودج عائشة . ولرواة الأخبار فى هذا الجمل وفى ماء مروا به فى الطريق اسمه (الحوءب) قصة محفوظة طريفة نحن ذاكروها لك على لسان صاحب الجمل نفسه وكان دليل القوم فى أول الطريق :

حدث العرنى صاحب الجمل قال :

« بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لى راكب فقال :

ياصاحب الجمل ، تبيع جملك ؟

قلت : نعم

قال : بكم ؟

قلت : بألف درهم .

قال : أمجنون أنت ؟ جمل يباع بألف درهم ؟

---

(١) رشحت عائشة بعد ذلك للصلاة عبد الرحمن بن عتاب فكان يصلى بالناس ، وكان — على رواية الطبرى — عدلا بينهم .

(٢) الحوءب : ماء فى طريق الذاهب من المدينة إلى البصرة .

قلت : نعم ، جملى هذا .

قال : ومم ذلك ؟

قلت : ما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد إلا فُتّه .

قال : لو تعلم لمن تريده لأحسنت بيعنا .

قلت : لمن تريده ؟

قال : لأمك .

قلت : لقد تركت أمى فى بيتها قاعدة لا تريد براحاً .

قال : إنما أريده لأم المؤمنين عائشة .

قلت : فهو لك ، فخذه بغير ثمن .

قال : لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم .

قال العرنى : فرجعت فأعطونى ناقة مهرية وزادونى أربعمائة درهم أو ستمائة[1] . فقال لى : « يا أخا عرينة ، هل لك دلالة بالطريق ؟ » قلت : « نعم ، أنا من أدلّ الناس » قال : « فسر معنا » فسرت معهم فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألونى عنه حتى طرقنا ماء الحوءب فنبحتنا كلابها ، قالوا : « أى ماء هذا ؟ » قلت : « ماء الحوءب » فصرخت عائشة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالت : « أناوالله صاحبة كلاب الحوءب طروقاً ، ردونى ردونى ردونى » . فأناخت وأناخوا حولها ، وهم على ذلك وهى تأبى . . حتى كانت الساعة التى أناخوا فيها من الغد ، فجاءها ابن الزبير فقال : « النجاء النجاء .. فقد أدرككم

---

(١) أما ابن أبى الحديد فإنه لم يعدم فى ذلك حديثاً ينسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قصة غريبة يصعب تصديقها لأنها تظهر السيدة عائشة هذه المخلوقة الذكية بمظهر المغفلة ، لكن ذلك لا يمنع ابن أبى الحديد من إثباتها مهما يكن فيها من تهافت ، أليس فيها حديث تزعم نسبته إلى الرسول يشير إلى هذا الجمل « عسكر » ؟ قال :

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيداً يحمل هودجها ، فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكر ، وكان عظيم الخلق شديداً ، فلما رأته أعجبها وأنشأ الجمال يحدثها بقوته وشدته ويقول فى أثناء كلامه : « عسكر » ؛ فلما سمعت هذه اللفظة استرجعت وقالت : « ردوه ، لا حاجة لى به » ، وذكرت حيث سئلت : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لها هذا الاسم (!!) ونهاها عن ركوبه !! » ، وأمرت أن يطلب لها بعير غيره ، فلم يوجد ما يشبهه ، فغيرها بجلال غير جلاله ، وقيل لها : « قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً وأشد قوة » وأتيت به فرضيت !! » اهـ . شرح نهج البلاغة ٢/٨٠ .

والله على بن أبى طالب » . فارتحلوا وشتمونى فانصرفت[١] .

لكن المؤرخ المسعودى وابن أبى الحديد يجعلان لخبر الحوءب خاتمة روائية طريفة ويصلان الحديث على الصورة الآتية :

« ... فاسترجعت وذكرتُ ما قيل لها فى ذلك فقالت : « ردونى إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاحاجة لى فى المسير » فقال ابن الزبير : « بالله ما هذا الحوءب ، ولقد غلط فيما أخبرك به » . وكان طلحة فى ساقة الناس ، فلحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحوءب ، وشهد معه خمسون رجلا (! !) ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت فى الإسلام !! »[٢] اهـ وما شاء الله كان .

وبعد فما هذا الحديث الذى زعمت الروايات أن عائشة تذكرته عند ماء (الحوءب) ؟ لقد مر بك ص ٨٠ رواية ابن أبى الحديد وشككنا فيها ، وأكثر روايات ابن أبى الحديد والمسعودى فى هذا الموضوع يصعب قبولها على الناقد لأمرين اثنين : الأول عصبية الرجلين لعلى وتشيعهما له تشيعاً ظاهراً لا خفاء به ، ولواطلع عليه على نفسه لكان أشد الناس له إنكاراً ؛ والعصبية حجاب ثقيل ، كثيراً ماصرف صاحبه عن الرؤية الصحيحة ، وكثيراً ما حمله — من حيث يشعر ولا يشعر — على الإغضاء عن عيوب الروايات إذا كان فيها ما ينصر إمامه أو أحد أتباعه ، أو يناهض خصومه من قريب أو بعيد ، ولعله يجد ذلك من أعظم القرب إلى الله ، والغاية دائما — عندهم — تبرر الوسيلة .

وأما الأمر الثانى فهو تهافت ظاهر فى الخبر نفسه يستبعد معه التصديق . والأمران مجتمعان هنا : فتغيير جلال الجمل (عسكر) غير كاف فى الضحك على السيدة عائشة ، ولا أثر له البتة فى تغيير (السمات الفارقة) فى نظر أغفل الناس فكيف بأذكاهم . وكذلك حشد الشهود يشهدون حالفين بالله : أن هذا الماء ليس بالحوءب بعد أن أيقنت السيدة أنه الحوءب وهمت بالرجوع ، غير معفّ على هذا اليقين ، وأقوى من ذلك كله أن طلحة الصحابى

---

(١) الطبرى ٣/٤٧٥ — ولحديث العرنى هذا بقية نعود إليها حين نتحدث عن خروج على .

(٢) مروج الذهب ٢/٥ والإمامة والسياسة ١/٥٦ وشرح نهج البلاغة ٢/٤٩٧ — وأحب للقارئ أن يقرأ فى مروج الذهب (٢/٦) وصفاً (عنتريا معراجياً) لموكب على بن أبى طالب ليرى كيف يكتب التاريخ هذا المؤرخ الحزبى بأسلوب هو بالدعايات ألصق منه بالتاريخ .

الجليل أحد العشرة المبشرين لن يرتكب هذا التزوير الذى زعمه — كذباً — رواة المسعودى أو المسعودى نفسه .

هذا من حيث النقد الداخلى للخبر (نقد المتن) ، أما النقد الخارجى (نقد السند) فإن علينا أن نستفيد من قواعد المحدثين القويمة فى هذا الشأن ، وأنا أستغرب الاستغراب كله ممن يدرسون (قواعد التحديث) المسماة [مصطلح الحديث] و يحفظونها للبركة ولا يمارسونها البتة . ولست أدرى أى فائدة لهم إذن من دراسة هذا المصطلح إذا كانوا لا ينتوون العمل به

لقد قرر بعض علماء الحديث — والمحدثون فى الحضارة العربية هم أئمة المؤرخين و بناة التاريخ على القواعد الصحيحة — أنه لا تقبل رواية صاحب نحلة فيما ينصر نحلته ولا ذى هوى — مهما كان ثقة — فيما يوافق هواه ولا فيما يناهض خصومه . وعلى ذلك فابن أبى الحديد والمسعودى ليسا بثقتين فى هذا الموضوع : موضوع على وعائشة .

لكن الأمر ليس أمرهما فقط . ومن الحق علينا أن نقرر هنا أن حديث الحوءب مشهور تعددت مصادره ؛ يشار إليه فى كتب اللغة وفى كتب التاريخ وفى بعض كتب الحديث ؛ تجده مثلا فى كتب اللغة : فى الفائق للزمخشرى (١ / ١٩٠) وفى القاموس مادة (الأدب) وفى كتب التاريخ : فى الطبرى ومن أخذ عنه وفى المسعودى وصاحبه وقد مرت رواياتها ، وتجدها فى بعض كتب الحديث والرجال : كالاستيعاب لابن عبد البر وسير النبلاء للذهبى (٢ / ٦٠ ، ٨٣) ومسند الإمام أحمد وهذا لفظ الحديث فيه : « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوءب » .

ولفظه فى سير النبلاء للذهبى بسنده الخاص : « أيتكن صاحبة الجمل الأدْبَب يقتل حولها قتلى كثيرون وتنجو بعد ما كادت » .

والذى عند الزمخشرى : « أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ، تسير (أو تخرج) حتى تنبحها كلاب الحوءب[1] » . وهذا الحديث فى مصادر عدة .

لقد قرر الذهبى فى هذا الحديث حكما وهو : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجوه » وكنت علقت على قوله هذا لما نشرت سير النبلاء قائلا :

---

(١) قال الزمخشرى هنا : الأدبّ كالأزبّ وهو الكثير وبر الوجه ، فأظهر التضعيف ليزاوج الحوءب .

« فى النفس من صحة هذا الحديث شىء ، ولأمر ما أهمله أصحاب الصحاح . وقد جاء فى معجم البلدان (مادة حوءب) ما يفيد أن صاحبة هذا الخطاب سلمى بنت مالك الفزارية وكانت سبية وهبت لعائشة ، وهى المقصودة بخطاب الرسول الذى زعموه ، وقد ارتدت مع طليحة الأسدى وقتلت فى حروب الردة . ومن العجيب أن تصرف بعض الروايات هذه القصة — إن صحت — إلى السيدة عائشة إرضاء لبعض الأهواء العصبية »[1] وما قرره ياقوت هنا مهم فلا تنسه .

وأضفت فى موضع آخر ، لما رواه الذهبى بسنده العالى قولى : « إن لم يصح هذا الحديث فهو مما دسه الوضاعون من بعض الفرق على صالحى المحدثين انتصاراً لأهوائهم المذهبية »[1]

عز هذا التعليق الذى قلته فى (سير النبلاء) على بعض الأفاضل من أهل الحديث وأكدوا لى أن الحديث صحيح ، وهم ليسوا بحاجة إلى هذا التأكيد فإن الذهبى نفسه إمام الحفاظ والمحدثين فى زمنه صحح إسناده (إسناده فقط) وأردف ذلك بقوله : « ولم يخرجوه . »

وأزيد هنا أمرين :

الأول : لو كان هذا الخبر صحيحاً لرجعت عائشة من فورها فليست بالتى تلقى بنفسها فى التهلكة على بصيرة .

والثانى : أن سند الذهبى فى هذا الحديث ينتهى — فى إحدى روايتيه — إلى ابن عباس ، وابن عباس — على عدالته — ممن خب وأوضع فى الحزبية السياسية ، فهو أكبر أنصار على وألد خصوم عائشة فى خلافها عليه . فلعل هذا جعله — إن صحت نسبة الحديث إليه — يتسامح ويغض عما فيه لتأييد مذهبه السياسى ؛ وإلا فإنى أسأل : هل كان ابن عباس حاضراً قول النبى هذا وهو بين نسائه ؟ ؟ إنى — استناداً إلى سكوت الرواية عن ذلك من جهة ، وإلى ضرورة التصريح بذلك هنا من جهة ثانية — أقطع بالنفى ، وإن على المثبت أن يأتى بدليل ينص على أن ابن عباس كان حاضراً مجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع نسائه ! ! ولا يغنى — هنا خاصة — قولهم (إن مراسيل الصحابة يحتج بها) لأن

(١) سير النبلاء ٢/٦٠ ، ٨٣ .

وجود ابن عباس هنا مع النساء فى حديث خاص بهن ، غير مألوف فيحتاج إثباته إلى النص الصريح . هـذا ولم أذكر ما فى ذوق الخاص لقاء هاتين السجعتين فى رواية الزمخشرى (ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ، تسير حتى تنبحها كلاب الحوءب) من بعد عن البلاغة النبوية عند من كثر إلفه لها .

ولست أدرى لم لا يطبق أولئك الأفاضل قواعد المحدثين على المتن والسند معاً ؟ ومهما يكن فقد بينت للقارىء — فيما تقدم — ما حدانى على الشك ، وفيه بلاغ .

وآخر مارأيت من الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله فى موضوع يوم الجمل حديث عن أبى بكرة :

قيل له : « مامنعك ألا تكون قاتلت على بصيرتك يوم الجمل ؟ »

قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج قوم هلكى قائدهم امرأة ، قائدهم فى الجنة »[1] .

ويرى المدقق شيئاً من البعد بين الجواب والسؤال : فإذا كان القوم هلكى فلم لم يقاتل على بصيرته مع الصف الآخر : صف غير الهلكى ؟ لقد كان الجواب المعقول للذين لم يقاتلوا مع إحدى الفئتين إذا سئلوا مثل هذا السؤال أن يحتجوا باعتزالهم الفتنة وما اشتبه من الأمور ، كذلك فعل كثير من الصحابة الأجلاء . ثم فى متن هذا الحديث بعد ظاهر عن المعقول : أصحيح أن أصحاب الجمل هلكى كلهم إلا عائشة ؟ الجواب : لا ، ففيهم طلحة والزبير وهما من المبشرين بالجنة ، وفيهم بدريون وفيهم مهاجرون وأنصار أخرجهم من بلدهم الحمية لله أن تعطل حدوده ، وذوو المآرب فى جيش عائشة قلة قليلة ، وهذا كاف فى القطع بعدم صحة نسبة كلام فى يوم الجمل مما تقدم ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وبعد ، فلقد تركتْ عائشة وجموعها ذات عرق وانتهت إلى جبال أوطاس ، هاجرة طريق البصرة حذراً من أن تلحقها جموع على ، وهى تريد دخول البصرة قبل أن تصطدم

---

(١) كتاب الأربعين فى مناقب أمهات المؤمنين لأبى منصور عبد الرحمن بن عساكر . مخطوط فى دار الكتب الظاهرية رقمه (حديث ٥٣٥) — الحديث الثانى عشر .

بأحد ، فتركت الطريق ليلة وجعلتها يساراً « وتيامنت عنها كأنهم سيارة ونجعة ، مساحلين ، لم يدن من المنكدر[1] ولا واسط[1] ولا فلج[1] منهم أحد حتى أتوا البصرة فى عام خصيب وتمثلت عائشة :

دعى بلاد جموع الظلم إذ صلحت فيها المياه وسيرى سير مذعور

تخيرى النبت ، فارعىْ ثَم ظاهرة وبطن واد من الضمار ممطور[1]

---

(١) الطبرى ٣/٤٧٣ — طريق المنكدر : طريق اليمامة إلى مكة . واسط قرية باليمامة وقرية بنجد وقرية بالحجاز (والأول المقصود) . فلج : مدينة بأرض اليمامة ، وادين اليمامة والبصرة . الضمار : موضع بين نجد واليمامة . — معجم البلدان .

الفصل الرابع

لحاق عليّ بأصحاب الجمل

تركنا علياً يتهيأ — على ما رأيت ص ٧٦ — ليغزو الشام ؛ و بينما هو جاد فى إحكام أمره ذلك ، أتاه الخبر عن هياج أهل مكة للمطالبة بثأر عثمان بتحريض عائشة وطلحة والزبير ، فأثاره الخبر ولم يعرف عزيمة القوم ، إلا أنه نهض بأهل المدينة فخطبهم قائلا :

« إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة ، وجعل لمن لزم الأمر واستقام : الفوز والنجاة ، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل .

ألا و إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتى ، ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأكف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغنى عنهم »[1] .

ولما أحكم طلحة والزبير و بنو أمية أمرهم وجعلوا البصرة هدفهم ، استأجرت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يدعى ظفراً : على أن يطوى و يأتى علياً بكتابها ، فقدم على عليّ بكتاب أم الفضل وفيه جلية الخبر[2] .

ساء الخبر أهل المدينة وجماعة المهاجرين والأنصار : فقد أشرفت الكلمة على التفرق ، وانشقت العصا ، وفى ذلك ما يسوء كل مخلص . إلا أن أبطال الشغب على عثمان كانوا أشد الناس استياء ، لأن المطالبين بدم عثمان إنما يريدون رقابهم ، فحاولوا إحباط الأمر بالوسائل المختلفة ، وكان من وسائلهم النصح تارة ، والتهديد تارة ، فقد كتب الأشتر أحد رؤوسهم من المدينة إلى عائشة وهى بمكة :

« أما بعد فإنك ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرك أن تقرى فى بيتك ، فإن فعلت فهو خير لك ، و إن أبيت إلا أن تأخذى منسأتك وتلقى جلبابك ، وتبدى للناس

---

(١) الطبرى ٣/٤٦٦ .

(٢) الطبرى ٣/٤٧٠ .

شُعَيْراتك قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذى يرضاه لك ربك » .

فكتبتْ إليه فى الجواب :

« أما بعد ، فإنك أول العرب شب الفتنة ، ودعا إلى الفرقة ؛ وخالف الأئمة ، وسعى فى قتل الخليفة ؛ وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم . وقد جاءنى كتابك وفهمت ما فيه ، وسيكفينيك الله وكلٌّ من أصبح مماثلا لك فى ضلالك وغيك إن شاء الله »[1] .

أشفق علىّ من انشقاق العصا ، ورأى أمر هؤلاء أخطر من أمر معاوية ، وشرهم أخل وأنهم موشكون أن يزعزعوا خلافته من القواعد ، فتجهز للخروج إليهم والحؤول دون بغيتهم ، فقال وقد بلغه خروجهم :

« إن فعلوا هذا اختل نظام المسلمين ، وما كان عليهم فى المقام فينا مؤونة ولا إكراه » .

تثاقل أهل المدينة لما استنهضهم علىّ لمجاعة عائشة وطلحة والزبير ، وعظم عليهم قتال إخوانهم ، ولم يكتف علىّ منهم بطاعته دون نصرته ، فجمع وجوههم وحضهم على النهوض ، وكان فيما قال :

« إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله ، فقد رأيتم عواقب قضاء الله عز وجل على من مضى منكم ، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم » . فلم ينشط أكثر الناس للنهوض معه ولم يكن فيمن خرج معه إلا ستة بدريين أو سبعة[2] .

وخف لدعوته جماعة فى أولهم أبو قتادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال لعلى : « يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله قلدنى هذا السيف ، وقد شمته فطال شيمه ، وقد أنى (حان) تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشاً ، فإن أحببت أن تقدمنى فقدمنى »[3] ونشط زياد بن حنظلة وجماعة ، وقد مر بك (ص ٧٩) موقف أم سلمة وولدها .

عزم علىّ على أن يأخذ عليهم الطريق بمن معه ، واستخلف على المدينة سهل بن حنيف (أو تمام بن العباس على رواية ثانية للطبرى) وعلى مكة قثم بن العباس « فخرج

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٨٠ والمنأة : العصا ، وأخذ المنأة كناية عن اعتزام السير .

(٢) الطبرى ٣/٤٦٧ والكامل لابن الأثير ٣/٩٤ .

يبادرهم فى تعبئته التى كان تعبّى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين ، متخففين فى سبعمائة رجل وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم و بين الخروج ، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال : « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً » فسبوه فقال على : « دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » .

خرجوا مسرعين يريدون معارضة القوم ؛ فلما بلغوا الربذة[1] علم علىّ أنهم فاتوه ، وقد كان فى هم من أمرهم : يخشى أن يكونوا قصدوا الكوفة وفيها الرجال والأموال وفيها شيعته ، فلما أيقن أنهم على قصد البصرة اطمأن وأقام بالربذة يحكم أمره . ولم يكتم سروره بقصدهم البصرة وتركهم الكوفة فقد قال لابن عباس : « الكوفة فيها رجال العرب و بيوتاتهم » و « أهل الكوفة أشد لى حباً » فأجاب ابن عباس : « إن الذى يسرك من ذلك ليسوؤنى : إن الكوفة فسطاط فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله : فإذا كان ذلك شغب على الذى قد نال حتى يفشأه فيفسد بعضهم على بعض » . قال على مبيناً خطته إزاءهم :

« إن الأمر ليشبه ما تقول ولكن الأثرة لأهل الطاعة والحق : لأحسنهم سابقة وقدمة فإن استووا أعفيناهم واجتبرناهم ؛ فإن أقنعهم ذلك كان خيراً لهم ، و إن كان لم يقنعهم كلفونا إقامتهم وكان شراً على من هو شر له » . فقال ابن عباس : « إن ذلك الأمر لا يدرك إلا بالقنوع »[2] .

هذا ولم يمر بالمسلمين موقف انبهم عليهم أمره واستغلقت فى وجوههم سبل الهداية فيه كهذا الموقف ، حتى إن الزعماء حين كانوا يفيئون إلى أنفسهم يقعون فى حيرة مقلقة من أمرهم لا يدرون : أمخطئون هم أم مصيبون . وكذلك الفتن إذا أقبلت لا يعرف سدادها من خطلها فإذا أدبرت تكشفت للناس على حقيقتها وافتضح منها ما استخفى . ومن الخير أن أجلو لك هذا الحكم فى شاهد وقع بالربذة ، وأظفرنا به الإمام الطبرى فى تاريخه ، إذ فيه ما يقفك على حيرة العامة والخاصة حتى الرؤوس منهم : قال طارق بن شهاب :

---

(١) من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها ، قريبة من ذات عرق — معجم البلدان .

(٢) الطبرى ٣/٤٧٧ يفشأ : يسكن ويكسر . القنوع : الرضى .

« خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان ، فلما انتهينا إلى الربذة وذلك فى وجه الصبح إذا الرفاق ، وإذا بعضهم يتلو بعضاً فقلت : « ما هذا ؟ » فقالوا : « أمير المؤمنين » . فقلت : « ما له ؟ » قالوا : « غلبه طلحة والزبير ، فخرج يعترض لهما ليردهما ، فبلغه أنهما قد فاتاه ، فهو يريد أن يخرج فى آثارهما » . فقلت : « إنا لله وإنا إليه راجعون !.. آتى عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين ؟.. أو أخالفه ؟.. إن هذا لشديد » . فخرجت فأتيته ، فأقيمت الصلاة بغلس ، فتقدم فصلى ، فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فقال :

« قد أمرتك فعصيتنى فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك » .

فقال على : « إنك لا تزال تحن حنين الجارية . ما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ »

قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر[1] ، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يدى غيرك . فعصيتنى فى ذلك كله » .

قال على : « أى بنى ، أما قولك : (لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان) فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك : (تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار) فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك (حين خرج طلحة والزبير ...) فإن ذلك كان وهناً على الإسلام . ووالله ما زلت مقهوراً منذ وليت ، منقوصاً لا أصل إلى شىء مما ينبغى ، وأما قولك : (اجلس فى بيتك) فكيف بما قد لزمنى ؟ أو من تريدنى ؟ أتريد أن أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دَبابِ دَبابِ ليست هاهنا ، حتى يحل عرقوباها ثم تخرج ؟ وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه ؟ فكفّ عنك أى بنىّ[2] » .

---

(١) أنت ترى أن فهم العرب المسلمين لما نسميه اليوم (بالديمقراطية) ، كان أصح فهم وأعمقه وأوسعه وأنها شىء مركوز فى طباعهم وتقتضيه طبيعة معايشهم ويمليه هذا القرآن الذى يتلونه ليل نهار ، والذى أدار النظم الاجتماعية كلها على الاشتراك والمساواة . لقد كلف الحسن أباه الشطط غراما بهذا الأصل وهياماً به وغلواً فيه .

(٢) الطبرى ٣/٤٧٤ ، الحنين هنا : شدة البكاء ، والحنين صوت كالبكاء . ودباب : استدعاء للضبع حتى تخرج ، وهى اسم فعل أمر من الدبيب وهو المشى .

واحتجاج الإمام هنا على ابنه الحسن وجيه فى القضايا الثلاث ، ونصائح ولده غير صائبة . وليس بسديد أيضاً ما علّق به على كلام الإمام ، المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ، فإنه بعد أن أورد عن الطبرى هذا الحوار الذى سقناه بين علىّ والحسن قال :

« وكأنى به (يعنى الإمام علياً) فى هـذا الأمر الأخير يقول بمقالة عثمان : « لا أخلع لباساً ألبسنيه الله عز وجل » . وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة ، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار : بأنه لا مناص لهم من تحمل التبعة الملقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التى يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها[1] » .

ليس حكمه هذا بسديد من وجوه :

أولها : أن هناك فارقاً كبيراً بين موقف على وموقف عثمان : فعثمان عظمت منه الشكوى واستطار من عماله الشر ، واستفحلت عليه الثورة وانتشرت الأمور ، فلو اعتزل لكان هناك أمل فى إخماد الجذوة واستقامة الأمور . أما على فلم يحتجّ عليه أحد بخطيئة أو ميل فى حكم أو جوْر أو أثرة ، حتى الذين كرهوا بيعته استتروا بالمطالبة بدم عثمان ، أى أعلنوا : أن خصومهم قتلة عثمان ، لا على ؛ فلو اعتزل على لكانت الأمور أضيع والشر أعم ، ولازداد انتشار الأمر وتفرق الكلمة . فلا شك فى أن اعتزاله هرب من الواجب ، وفرار من الصف وجريمة أى جريمة . وما كان علىّ من رجال الدنيا يوماً من الأيام حتى يصح أن نظن فى حرصه على الإمارة إرضاء لطمع من الأطماع .

ثانيها : لو كلفنا كل إمام أن يعتزل الحكم كلما كره إمامته كاره أو خرج عليه خارج ، ماانقضت ساعة إلا نصب فيها إمام جديد ؛ إذ لا يخلو رجل من كاره ، ونصف الناس أعداء لمن ولى الأحكام ، هذا إن عدل .

ثالثها : تشبيه حجة الإمام هنا بدعوى دول الاستعمار أبعد عن الحق وأنأى عن الواقع ، فهذه الدول مبطلة تدعى باطلاً لتبرر ظلماً ، والإمام صاحب حق يقوم بالواجب عليه ، فهو يحتج ببيعة واقعة وأمر لزمه يقتضيه النهوض والحماية ليم الأمن والعدل ، وشتان ما بين الحالين .

و بعد ، فإن علياً فى جميع ما أتى حتى هذه الساعة ملتزم جانب الحق والصواب ، ولئن

---

(١) تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون — لعبد الوهاب النجار — ص ٤١٤ .

أخذنا عليه إسراعه فى عزل معاوية وغيره من عمال عثمان وقلنا إن هذا التصرف لا سياسة فيه ، إن هذه المؤاخذة مؤاخذة سياسية لا قضائية وجدانية ؛ فليس من شك أنه — وقد اعتقد فيهم ما اعتقد — على حق فى عزلهم ولا يجوز له — فى دينه وأمانته — إبقاؤهم ولو ساعة إلا من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، وهذا هو الذى لم يأخذ به على . وإذا أخطأ امرؤ مرة فى سياسة فليس معنى ذلك أنه لا بصر له فى السياسة ومقتضياتها . هذه كلمة رأيت من الإنصاف إثباتها إذ كثيراً ما رأيت بعض من (يتعاطى) التاريخ من أهل عصرنا يرمى علياً بالغفلة السياسية من أجل عزل معاوية ، ويتعامى عن كثير من الحوادث الدالة على بصره فى السياسة وحسن تصريفه لشؤون الدولة ، وهو بهذا من طراز كطراز أبى بكر وعمر .

* * *

لما تواردت إلى على الجموع من المدينة إلى الربذة وتتام أمره ، سار منها قاصداً ذا قار[1] وهو يريد أن يبادر فيحوز إلى جانبه الكوفة قبل أن تشيع فيها دعاية الخارجين . وهنا نعود إلى حديث العرنى الذى قطعناه (ص ٨٧) ونستمع إليه يتم لنا قصته :

« ... فانصرفت فما سرت إلا قليلا وإذا أنا بعلى وركب معه نحو من ثلثمائة ، فقال لى على : « يا أيها الراكب » فأتيته فقال : « أين أتيت الظعينة ؟ » قلت : « فى مكان كذا وكذا ، وهذه ناقتها وبعتهم جملى » . قال : « وقد ركبتْه ؟ » قلت : « نعم ، وسرت معهم حتى أتينا ماء الحوءب فنبحت عليها كلابها ، فقالت كذا وكذا ، فلما رأيت اختلاط أمرهم انفتلت وارتحلوا » . فقال على : « هل لك دلالة بذى قار ؟ » قلت : « لعلّى أدل الناس » . قال : « فسرمعنا » . فسرنا حتى نزلنا ذا قار ، فأمر على بجُوالقين فضم أحدهما إلى صاحبه ، ثم جىء برحْل فوضع عليهما ، ثم جاء يمشى حتى صعد عليه وسدل رجليه من جانب واحد ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ثم قال :

« قد رأيتم ما صنع هؤلاء القوم وهذه المرأة .. » فقام إليه الحسن فبكى فقال له على .

---

(١) ذوقار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وبه سمى الوادى الذى جرت فيه الوقعة المشهورة بين العرب والفرس وانتصر فيها العرب نصراً مؤزراً .

« قد جئت تحن حنين الجارية ؟ » فقال : « أجل ، أمرتك فعصيتنى فأنت اليوم تقتل بمضيعة لا ناصر لك » . قال : « حدث القوم بما أمرتنى به » .

قال : « أمرتك حين سار الناس إلى عثمان ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك ، فأبيت على ؛ وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم المدينة وترسل إلى من استجاب لك من شيعتك » .

قال على :

« صدق والله ، ولكن والله يابنى ما كنت لأكون كالضبع تستمع للدم . إن النبى صلى الله عليه وسلم قبض وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى ، فبايع الناس أبا بكر فبايعت كما بايعوا ، ثم إن أبا بكر هلك وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس عمر بن الخطاب فبايعت كما بايعوا ، ثم إن عمر هلك وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى فجعلنى سهماً من ستة أسهم فبايع الناس عثمان فبايعت كما بايعوا . ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه ، ثم أتونى فبايعونى طائعين غير مكرهين ؛ فأنا مقاتل من خالفنى بمن اتبعنى حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين »[1] .

ثم أراد على أن يرمى بآخر سهم فى كنانة السلم ، فكتب إلى السيدة عائشة ينصحها ويعذرها :

« أما بعد ، فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ولرسوله ، أتطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس ؟ فخبرينى : ما للنساء وقود العساكر ؟ وزعمت أنك طالبة لدم عثمان وعثمان رجل من بنى أمية وأنت امرأة من بنى تيم بن مرة ! ولعمرى إن الذى عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى أُغضبتِ ، وما هجت حتى هُيجت ، فاتقى الله ياعائشة وارجعى إلى منزلك وأسبلى عليك سترك والسلام » .

فجاء الجواب إليه حاسماً موئساً :

---

(١) الطبرى ٣/٤٧٥ ، ٤٧٦ — اللدم : اللطم .

يابن أبي طالب ، جل الأمر عن العتاب ، ولن ندخل في طاعتك أبداً فاقض ما أنت قاض ، والسلام »[١] .

وكان على قد كتب في هذا المعنى إلى طلحة والزبير أيضا فكان جوابهما :

« إنك سرت مسيراً له مابعده ، ولست راجعاً وفي نفسك منه حاجة ، فامض لأمرك . أما أنت فلست راضياً دون دخولنا في طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها أبداً ، فاقض ما أنت قاض »[٢] .

---

(١) الإمامة والسياسة س ٦٢/١ ، وأثبت زيادة عن (مطالب السول في مناقب آل الرسول) لكمال الدين محمد بن طلحة الشافعي المتوفى سنة ٦٥٤ ، و(الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية) .

(٢) الإمامة والسياسة ٥٥/١ وجمهرة رسائل العرب ٣٧٩/١ .

الفصل الخامس

فى مساعى الجملين السياسية ثم مناوشاتهم

نحن الآن مع السيدة عائشة زعيمة هذه الجموع المعارضة الثائرة ، قريباً من البصرة ، ننتظر ما تسفر عنه مساعيها (الدبلوماسية) ومفاوضاتها فى سبيل ضم هذا المصر الكبير من أمصار المسلمين إلى دعوتها ، ونلمس صلابة هذا السور الذى صدم عائشة وحججها : كيف ألّفت صخورَه أدمغة عربية من خاصة أهل البصرة ، ولم تستطع السيدة ولا من معها أن يوهنوا منه بالبرهان ، بل رجع الوهن على كل ما قدم الخارجون من الدواعى المثيرة لهم على الخروج بزعمهم . ولا غرو ، فقد كان مع معارضى عائشة من سادات أهل البصرة المنطق وحكم الدين والجدال عن الوحدة العربية المشرفة على التفكك والسؤال عما لزم الثائرين من مبايعة الإمام ولزوم طاعته . وأنا ألفت نظرك منذ الآن لتتذوق هـذا الإيجاز البليغ الذى زخرت به تلك السفارات والمراسـلات وذلك الحوار ، فهما فى الذروة من البلاغة وسـتجد فيهما صوراً عميقة لنواحى هذه الفتنة ولأسرارها ، وأحكاماً صائبة فيها . . . كل ذلك فى كلمات قليلة العدد قوية التعبير .

لمـا كانت جموع عائشة بفناء البصرة على عزم دخولها ، لقيهم عمير بن عبد الله التميمى فقال : « يا أم المؤمنين ، أنشدك بالله أن تقدمى على قوم لم تراسلى منهم أحداً فيكفيكهم » . فانتبهت لأمر كان غاب عنها فقالت : « جئتنى بالرأى فأنت امرؤ صالح » ، قال : « فعجلى ابن عامر فليدخل فإن له صنائع فليذهب إلى صنائعه ، فليلقوا النـاس حتى تقدمى و يسمعوا ما جئتم فيه » . فأرسلته فاندس إلى البصرة فأتى القوم .

ثم أرسلوا كتباً إلى رؤوس أهل البصرة لينضموا إلى دعوتهم ، وانتظروا الأجوبة قبل دخولهم البصرة ، ثم كانت سفارات ووفود . ونحن بادئون بالـكتب فمثبتوها مع أجوبتها ، فهى خير ما تمثل نظر الناس إلى هذه الفتنة .

(١) المراســـلات

١ — كتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور :

« أما بعد فإنك قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن ، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام » .

فأجابهما :

« أما بعد : فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغِيَر باللسان ، فجاء أمر الغير فيه بالسيف ؛ فإن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ، وإن قتل مظلوماً فغيركما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل[1] » .

٢ — وكتبا إلى المنذر بن الجارود :

« أما بعد فإن أباك كان رئيساً فى الجاهلية وسيداً فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المصلى[1] من السابق : يقال : كاد أو لحق ، وقد قتل عثمانَ من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام » .

فأجابهما :

« أما بعد ، فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر . وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ، فمتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأى[1] ؟ ! ! » .

٣ — وكتبا إلى الأحنف بن قيس :

« أما بعد ، فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق ؛ وقد بلغك مصاب عثمان ، ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر والسلام » .

فأجابهما :

« أما بعد فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان ؛ وأنتم قادمون علينا :

---

(١) الإمامة والسياسة ١/٤٨ — المصلى : الفرس الذى يجىء تالياً للسابق .

فإن يك فى العيان فضل نظرنا فيـه ، وإلا يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا أيديكم ثقة والسلام[١] » .

٤ — وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبى بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ! أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فاقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذّل الناس عن علىّ » .

فـكتب إليها :

« من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبى بكر حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من نابذك[٢] » .

وهناك رواية ثانية لجواب زيد أوفى من رواية الطبرى وهذا نصها :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر : أمرك أن تقرى فى بيتك ، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة ؛ فتركتِ ما أُمرْتِ به وكتبت تنهيننا عما أُمرنا به ! فأمرك عندى غير مطاع ، وكتابك غير مجاب والسلام[٣] » .

وكتبت كتباً إلى الأحنف بن قيس وصبرة بن شيمان وأمثالهما من الوجوه .

٥ — وكان هنـاك غير عائشة وطلحة والزبير من يرسل الـكتب سراً لمن يتوسم فى نصرتهم قوة توهى أمر علىّ ، وهم بنو أمية الذين لم يخرجوا نصرة لطلحة والزبير وعائشة وإنما جمعهم بهؤلاء كره خلافة على ، فقد كانوا ساهرين على أمرهم لا تفوتهم خافية . عرف يعسوبهم فى دمشق معاوية بن أبى سفيان أن سعد بن أبى وقاص الصحابى الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة وصاحب فتح القادسية وأحد الستة أصحاب الشورى ... لم ينهض لهذا الأمر ، وأيقن أن فى نهوضه إضعافاً لأمر على ، فـكتب إليه كتاباً يظهر فيه أمراً ويخفى غيره ، وأنت إذا

---

(١) المصدر نفسه الصفحة السابقة .

(٢) الطبرى ٣/٤٩٢ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ١/٣٧٩ والعقد الفريد ٣/٩٧ ، وفى رواية ابن أبى الحديد أنها كتبت إلى زيد « أما بعد فأقم فى بيتك (! !) وخذل الناس عن على ، وليبلغنى عنك ما أحب فإنك أوثق عندى والسلام » — شرح نهج البلاغة ٢/٨١ .

أمعنت فيه رأيته يقطر دهاء ، و إليك الكتاب فانظر كيف يحتال على سعد و يتلطف له ثم يخدّره و يدغدغه :

« إن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك فى الأمر ونظيراك فى الإسلام ، وخفّتْ له أم المؤمنين ؛ فلا تكرهن ما رضوا ولا تردنّ ما قبلوا » .

فكتب إليه سعد ساداً الباب فى وجهه :

« أما بعد فإن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ؛ غير أن علياً قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه . وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما ، والله يغفر لأم المؤمنين[1] » .

لقد حمل معاوية دهاءه إلى وادٍ غير ذى زرع ، ولم يخف ما راوغ عن التصريح به على سعد . الحق أن سعداً راسخ القدم فى الحنكة والتجربة ، بصير برجال السياسة ومايضمرون . إن فى قوله : (لم يدخل عمر بالشورى إلا من تحل له الخلافة) لقطعاً للطريق على معاوية وما يهيئ له نفسه ، أما نقده مسير طلحة والزبير وعائشة فصريح غير خاف . لقد قتلت صراحة سعد كيد معاوية به وفضحت ما جهد فى كتمانه .

وأنا أثبتّ لك هذا الكتاب وجوابه لأطلعك على أن الحزب الأموى الذى جعل نصرة عثمان وسيلة لأمر آخر كان يتعهد من قريب و بعيد : كلّ ما يسرع فى نجاحه و بلوغ غاياته من حيث لا يشعر الناس . وقد حفظت لنا كتب التاريخ هذا الكتاب ، وما يدرينا أن مساعى معاوية الخفية انطوت على إرسال كثير من أمثاله إلى وجوه الناس وذوى الكلمة فيهم ، وكان اجتهاد معاوية فى كتمان أموره ناجحاً فى إخفاء هذه المساعى عن التاريخ إلى الأبد .

(ب) السفارات والوفود

١ — بلغ أهل البصرة مراسلات عائشة ونزولها وجموعها بفناء البصرة ، فدعا عثمان ابن حنيف أمير البصرة لعلىّ ، رجلين : عمران بن حصين وكان رجل عامة وأبا الأسود الدؤلى

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/٢١٧ .

وكان رجل خاصة ، فأرسلهما سفيرين إلى عائشة وقال لهما : « انطلقا إلى هذه المرأة : فاعلما علمها وعلم من معها » فخرجا فانتهيا إليها و إلى الناس وهم بالحُفَيْر[١] ، فاستأذنا عليها فأذنت لهما ، فسلما وقالا :

« إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ » .

فقالت : « والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ، ويغطى لبنيه الخبر :

إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترةٍ ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين [وأهل المدينة] لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا (وقرأتْ) :

« لا خَيْرَ فى كثيرٍ مِنْ نَجْواهم إلا من أَمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس[٢] » ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصغير والكبير والذكر والأنثى . فهذا شأننا ، إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره » .

فخرجا من عندها وأتيا طلحة فقالا له : « ما أقدمك ؟ » قال : « الطلب بدم عثمان » قالا : « ألم تبايع عليا ؟ » قال : « بلى واللُجّ[٣] على عنقى وما أستقيل علياً إن هو لم يحلْ بيننا و بين قتلة عثمان » .

ثم خرجا من عند طلحة فأتيا الزبير فقالا له : « ما أقدمك ؟ » قال : « الطلب بدم عثمان » . قالا : « ألم تبايع عليا ؟ » قال : « بلى واللج على عنقى ، وما أستقيل علياً إن هو لم يحل بيننا و بين قتلة عثمان » .

---

(١) ماء لباهلة على أربعة أميال من البصرة ، إذا خرج الحاج من البصرة يريد مكة فيأخذ بطن فلج ، فأول ماء يرد : الحفير — معجم البلدان .

(٢) سورة النساء ٤ الآية ١١٣ .

(٣) الطبرى ٣/٤٧٩ — ٤٨٠ ، اللج : السيف .

فرجعا إلى أم المؤمنين فودعاها ، فودعت عمران وقالت : « يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار (كُونُوا قَوَّامين لِلّهِ شهداء بالقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قومٍ على ألاّ تَعْدِلوا ، اعْدِلوا ، هو أقربُ للتقوى[١]) » فسرحتهما .

رجع الرجلان إلى عثمان بن حنيف ، فعاجل أبو الأسود عمرانَ فقال :

يابن حُنَيْف قد أُتيتَ فانفرِ
وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئماً وشمّر

فقال عثمان : « إنا لله و إنا إليه راجعون ، دارت رحى الإسلام ورب الكعبة ، فانظروا بأى زَيَفان تزيف[٢] » فقال عمران : « إى والله لتعركنكم عركاً طويلاً ثم لا يساوى ما بقى منكم كثير شىء » ، قال عثمان : « فأشر على يا عمران » . قال : « إنى قاعد فاقعد » . فقال عثمان : « بل أمنعهم حتى يأتى أمر أمير المؤمنين » .

قال عمران : « بل يحكم الله ما يريد »[٢] . وانصرف إلى بيته .

وكذلك عزم عثمان على مقاومتهم ومنعهم دخول البصرة .

٢ — ولهذه السفارة رواية مهمة غير رواية الطبرى ولعلها سفارة ثانية ، يقصها أحد السفيرين أبو الأسود الدؤلى وفيها زيادة ذات بال ، قال أبو الأسود :

« بعثنى وعمران بن حصين ، عثمان بن حنيف إلى عائشة فقلنا :

« يا أم المؤمنين ، أخبرينا عن مسيرك هذا : أعهدٌ عهده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم رأى رأيته ؟ » .

قالت : « بل رأى رأيته حين قتل عثمان . إنا نقمنا عليه ضربة السوط وموقع المسحاة[٣] المحماة ، و إمرة سعيد والوليد ، فعدوتم عليه فاستحللتم منه الحُرم الثلاث : حرمة البلد وحرمة الشهر الحرام [وحرمة الدم الحرام] ، بعد أن مصناه[٣] كما يماص الإناء فاستقبناه ، فركبتم

---

(١) سورة المائدة ٥ ، الآية ٩ .

(٢) الطبرى ٣/٤٧٩ — ٤٨٠ — . الزيفان : التبختر فى المشى .

(٣) بلاغات النساء ص ١٢ والعقد الفريد ٣/٩٨ — المسحاة موضع بسرف كان النبى حماه لخيله ، ثم حماه عمر لخيل المسلمين ، ثم جاء عثمان فحماه لنفسه على ما قالوا — وقد تقدم شرح بقية الكلمات فى ص ٦٩ — هذا وانظر البيان والتبيين للجاحظ (طبعة السندوبى) ٢/٢٠٩ ، ٢١٠ .

منه هذه ظالمين . وغضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيفكم ؟ » .

قلت : « ما أنت وسيفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرك أن تقرى فى بيتك فجئت تضر بين الناس بعضهم ببعض ! »

قالت : « وهل أحد يقاتلنى أو يقول غير هذا ؟ » قلت : « نعم » قالت : « من يفعل ذلك ؟ أزنيم ابن عامر ؟ هل أنت مبلّغ عنى يا عمران ؟ » قال : « لا ، لست مبلّغا عنك خيراً ولا شراً » قلت : « لكنى مبلّغ عنك ، هات ما شئت »

قالت : « اللهم اقتل مذمماً قصاصا بعثمان ، وارم الأشتر بسهم من سهامك لا يشوى ، وأدرك عماراً بخفرته فى عثمان[1] » .

ويزيد صاحب الإمامة والسياسة أن السيدة قالت لأبى الأسود :

« يا أبا الأسود ، بلغنى أن عثمان يريد قتالى ! » فقال أبو الأسود : « نعم والله ، قتلاً أهونه تندر منه الرؤوس[2] » .

* * *

استقبال عائشة البصرة :

لم تسفر تلك الكتب وهذه السفارات والوفادات عن كبير أمر فى مصلحة عائشة ومن معها ، إلا أن البصرة لم تخل من طائفة هواها معهم يقولون بمقالتهم :

أصبح عثمان بن حنيف أمير البصرة لعلى ، على قلق من أمر عائشة ، وشاور نصحاءه فأشاروا عليه بمنعهم دخولها ، ومع ذلك لم يعدم من أشار عليه بالمسامحة ، روى الطبرى أن هشام بن عامر دخل عليه فقال : « يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره ، إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر ؛ فسامحهم حتى يأتى أمر على ولا تحادّهم » فأبى .

ونادى عثمان فى الناس وأمرهم بالتهيؤ ، ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع ، وأقبل عثمان على الكيد فكاد الناس لينظر إلى ما عندهم ، فدس رجلاً إلى الناس خَدعاً كوفياً قيسياً فقام فقال :

---

(١) انظر الحاشية السابقة .

(٢) الإمامة والسياسة ١/٥١ .

يا أيها الناس ، أنا قيس بن العقدية الحميسى ؛ إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من المكان الذى يأمن فيه الطير ، و إن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤوا » .

فقام الأسود بن سريع السعدى فقال : « أو زعموا أننا قتلة عثمان ؟ ! فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان من غيرنا ؛ فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم من إخراجهم ؟ الرجال أو البلدان ؟ » فحصبه الناس ، فعرف عثمان أن لهم البصرة ناصراً ممن يقوم معهم ، فكسره ذلك .

ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المِرْبَد[1] ، ودخلوا من أعلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها ... فاجتمعوا بالمربد ، وجعلوا يثوبون حتى غص بالناس .

فتكلم طلحة وهو فى ميمنة المربد ومعه الزبير ، وعثمان بن حنيف أمير البصرة فى ميسرته ؛ فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أُتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه وقال : « إن فى ذلك إعزاز دين الله وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حد من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ولم يكن لكم نظام » .

ثم تكلم الزبير بمثل ذلك ، فقال من فى ميمنة المربد : « صدقا وبرّا وقالا الحق وأمرا بالحق » . وقال من فى ميسرته : « فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان ! » وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهجوا (شغبوا) .

حينئذ تكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة (كأنه صوت امرأة جليلة) فحمدت الله وأثنت عليه وقالت :

« كان الناس يتجنوْن على عثمان ، ويُزْرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا

---

(١) المربد : مربد البصرة من أشهر محالها ، وكان به سوق للابل قديماً ، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس . وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . ثم تضاءل أمره وتقلص العمران من حوله حتى أصبح فى أيام ياقوت صاحب معجم البلدان (من أهل المئة السابعة) بائناً عن البصرة وسط البرية وبينهما ثلاثة أميال . انظر أوفى تفصيل عن البصرة والمربد فى كتابنا (أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام) ص٣٥٦ — ٤٠٤ .

فيما يخبروننا عنهم ، ويرون حسناً من كلامنا فى صلاح بينهم ، فننظر فى ذلك فنجده بريئاً نقياً وفياً ، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون ؛ فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر : ألا إن مما ينبغى — ولا ينبغى لكم غيره — أخذ قتلة عثمان و إقامة كتاب الله عز وجل (وقرأتْ) :

« أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً مِنَ الكتابِ يُدْعَوْنَ إلى كتابِ اللهِ ليحكم بينهم ثم يتولّى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون[1] » .

ثماج الناس وافترق أصحاب عثمان فرقتين :

فقالت فرقة : « صدقتْ والله وبرت وجاءت والله بالمعروف » .

وقال الآخرون : « كذبتم والله ، ما نعرف ما تقولون » فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا .

ولدينا نص أوفى وأجمع لأغراضهم التى خرجوا من أجلها ، ننقله عن ابن أبى الحديد ، فهو يذكر بصراحة وجلاء سبباً مهماً فى خروجهم غير الثأر لعثمان ، ذلك هو خلع على و إعادة الأمر شورى و إليك إياه :

لما حصل الهرج من كلام طلحة والزبير ، صرخت عائشة بصوت مرتفع :

« أيها الناس ، أقلوا الكلام واسكتوا ... »

فأسكت الناس لها فقالت :

« إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غيّر وبدّل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوما تائباً . و إنما نقموا عليه ضربه بالسوط وتأميره الشبان وحماية موضع الغرامة ، فقتلوه محرماً فى حرمة الشهر وحرمة البلد : ذبحاً كما يذبح الجمل . ألا و إن قريشاً رمت غرضها بنبالها وأدمت أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئا ، ولا سلكت به سبيلا قاصداً . أما والله ليرونّها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم يسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس ، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل دمه ، مصتموه كما يماص الثوب الرحيض ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابن أبى طالب بغير

---

(١) سورة آل عمران ٣ الآية ٢٣ ، والخطبة فى الطبرى .

مشورة من الجماعة : ابتزازاً وغصباً . ترانى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ؟ !

ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته ، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولا يدخل فيهم من شرك فى دم عثمان[1] » .

أوقعت هذه الخطب الانقسام فى جماعة عثمان بن حنيف ، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا فى المربد فى موضع الدباغين . و بقى أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة ، و بقى بعضهم مع عثمان على فم السكة ، وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدباغين استقبلوا الناس فأخذوا عليهم بفمها .

وهكذا ابتدأت هذه المأساة التى جعلت المسلمين ذوى الكلمة الواحدة يقفون صفين متناجزين يقاتل بعضهم بعضاً بعد أن كانوا جميعاً يداً واحدة على عدوهم . ولعل كثيراً من العقلاء ذوى النظر البعيد كشف لهم ما بعد هذا التقاذف بالشتائم والتحاصب والإرهاج : من دماء الألوف تزهق فى سبيل هذا الخلاف ، فحالوا بكل ما استطاعوا من نصح صريح وشدة فى الإنكار فلم يثمر مسعاهم . و إليك نمطاً مما جبهوا به السيدة عائشة نفسها وصاحبيها : ذكر الطبرى عقب ذلك أن جارية بن قدامة السعدى أقبل على السيدة فقال :

« يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضةً للسلاح ؛ إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك : إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلك ، و إن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس » .

فخرج غلام شاب من بنى سعد أيضاً إلى طلحة والزبير فقال :

« أما أنت يا زبير فحوارىّ[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما أنت يا طلحة فوقيت

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٤٩٩ والإمامة والسياسة ١/٦٠ — الموس : الغسل اللين والدلك باليد — الرحيض : المغسول — ولست أدرى هل أقحموا (وبايعتم ابن أبى طالب ...) فى خطبتها فيما بعد إقحاما اقتضته الدعاية المذهبية أم لا ؟ أما أنا فأستبعد أن تصرح بذلك والمصادر غير الشيعية خالية من هذا التصريح .

(٢) الحوارى : الناصر وهو لقب الزبير : جاء فى تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٥٩ (لما كان يوم قريظة برز رجل من يهود يصيح : « من يبارز ؟ » فبرز إليه محمد بن مسلمة فقتله اليهودى وكانت معه حربة =

رسول الله بيدك ؛ وأرى معكما أمكما : فهل جئتما بنسائكما ؟ » قالا : « لا » قال : « فما أنا منكما فى شىء » واعتزل . وقال السعدى فى ذلك :

صنتم حلائلكم وقُدتمْ أمكم ... هذا — لعمرك — قلة الإنصاف
أُمِرتْ بجر ذيولها فى بيتها ... فهوتْ تشق البيد بالإيجاف[1]
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطىّ والأسياف
هُتكت بطلحة والزبير ستورها ، ... هذا المخبر عنهمُ والكافى

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة — وكان محمد رجلاً عابداً — فقال : « أخبرنى عن قتلة عثمان » ، فقال محمد : « نعم ، دم عثمان ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة الهودج (يعنى عائشة) ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعنى أباه طلحة) ، وثلث على علىّ بن أبى طالب » . فضحك الغلام وقال : « لا أرانى على ضلال » ولحق بعلىّ ابن أبى طالب وقال فى ذلك شعراً :

سألت ابن طلحة عن هالك ... بجوف المدينة لم يقبر
فقال : ثلاثة رهط همُ ... أماتوا ابن عفان واستعبر :
فثلثٌ على تلك فى خدرها ... وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبى طالب ... ونحن بدوّيّة قَرْقَر
فقلت : صدقت على الأولين ... وأخطأت فى الثالث الأزهر[2]

وكاد الأمر يقف عند هذا ، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا حينئذ قتالاً ، ولكن جماعة فى أصحاب عثمان بن حنيف — ولعل أكثرهم ممن اشترك فى دم عثمان — تعجلوا الحوادث وأرادوا إنشاب القتال ، وأصبح الفريقان قد سيقا إلى النتيجة المحتومة ، حين أقبل حكيم ابن جبلة — وهو ممن شرك فى الشغب على عثمان واشترك فى قتله — وكان على الخيل فأنشب

= يحوش بها المسلمين حوشاً ، فبرز له على فقال له الزبير : « أقسمت عليك إلا خليت بينى وبينه » فبرز إليه فقتله فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى حوارى ، وحوارىّ الزبير » اهـ .

(١) الإيجاف : ضرب من سير الخيل والإبل — القاموس .

(٢) الطبرى ٣/٤٨١ — ٤٨٣ ، الدوية : الفلاة . القرقر : الأرض المطمئنة اللينة ، قرقر البلدة : نواحيها الظاهرة — القاموس .

القتال ، ومع هذا حاول أصحاب عائشة الكف وعدم المقابلة « فأشرعوا رماحهم وأمسكوا ليمسك أصحاب حكيم ، فلم ينته حكيم ولم يُثْنَ ، فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم ، وحكيم يذمّر (يحثّ) خيله ويركبهم ويقول : إنها قريش ، ليردينّها جبنها والطيش .

واقتتلوا على فم السكة ، وأشرف أهل الدور ممن كان له فى واحد من الفريقين هوًى ، فرموا باقى الآخرين بالحجارة ، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن فوقفوا بها ملياً ، وثار إليهم الناس ، فحجز الليل بينهم ، فرجع عثمان إلى مقره ورجع الناس إلى قبائلهم .

وجاء أبو الجرباء (أحد بنى عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم) إلى عائشة وطلحة والزبير فأشار عليهم بأمثل من مكانهم فاستنصحوه وتابعوا رأيه ، فساروا من مقبرة بنى مازن فأخذوا على مسناة البصرة من قبل الجبانة حتى انتهوا إلى الزابوقة ، ثم أتوا مقبرة بنى حصن وهى متنحية إلى دار الرزق فباتوا يتأهبون ، وبات الناس يسيرون إليهم ، وأصبحوا وهم على رِجْل[1] فى ساحة الرزق .

وأصبح عثمان بن حنيف فغاداهم يريد منعهم دخول البصرة ، وغدا حكيم بن جبلة وهو يبربر (شاتماً عائشة) وفى يده الرمح ، فقال له رجل : « من هذا الذى تسب وتقول له ما أسمع ؟ » قال : « عائشة » قال : « يابن الخبيثة ، أَلِأُمّ المؤمنين تقول هذا ؟ » فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله ، ثم مر بامرأة (وهو يسب) فقالت : « من هذا الذى ألجأك إلى هذا ؟ » قال : « عائشة » قالت : « يابن الخبيثة ، أَلِأُمّ المؤمنين تقول هذا ؟ » فطعنها بين ثدييها فقتلها ، ثم سار .

فلما اجتمعوا واقفوهم ، فاقتتلوا بدار الرزق قتالاً شديداً من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار ، وقد كثر القتلى فى أصحاب ابن حنيف وفشت الجراحة فى الفريقين ، ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون ؛ حتى إذا مسهم الشر وعضهم ، نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح فأجابوهم ، وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة »

---

(١) من المجاز قولهم فلان قائم على رجل : إذا جد فى أمر حزبه — الزمخشرى فى أساس البلاغة .

يسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير لعلى : فإن كانا أكرها خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة ، وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير ، وتبقى الهدنة قائمة حتى يرجع الرسول بالخبر فينفذ الفريقان ما اتفقا عليه . وهذا نص وثيقة الصلح :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اصطلح عليه : (ا) طلحة والزبير ومن معه من المؤمنين والمسلمين ،

(ب) وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين :

١ — أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة ؛

٢ — ولا يضارَّ واحد من الفريقين فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فُرْضة[1] : بينهم عَيْبة[1] مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر ؛

٣ — فإن رجع : بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما ، فإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطِيَّته وإن شاء دخل معهما ؛

٤ — وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة علىّ وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما .

٥ — والمؤمنون أعوان الفالح[1] منهما[1] » اهـ .

وعلى ذلك انقضت هذه المناوشة بالمربد وهى المسماة بيوم الجمل الأصغر[2] .

***

يعلق المؤرخ المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار بعد أن نقل ما نقلناه هنا عن الطبرى بقوله :

« من تمام الأمر بالصورة التى وصفنا ، نعلم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثاً فى يد

---

(١) الطبرى ٣/٤٨٤ — الفرضة من النهر : ثلمة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن ، وكانت البصرة كثيرة الأنهار جداً (انظر : أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ص ٣٤٧) ، والعيبة : موضع سر الرجل . الفالح (بالحاء والجيم) : الفائز — ويذكر ابن أبى الحديد صلحاً وقع بين الفريقين أن يتهادنوا إلى حين مجىء على واجتماع عثمان به — شرح نهج البلاغة : ٢/٥٠٠ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٢/٥٠١ أما يوم الجمل الأكبر فهو يومهم مع على بن أبى طالب ، وهذا كان مع عثمان بن حنيف .

على ، والحال تسير على غير نظام : فإن عثمان بن حنيف لم يولّه (إمامه) على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه و بين طوائف المسلمين ، ولم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التى تفضى إلى ضياع الأمصار . وقد كان الرجل على غير ما يجب فى أمثاله من الإرْب وقوة الحجة ، ولو كان على شىء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ، ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة علىّ ، ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هى للإمام ، ولا ينبغى النهوض إلا فى طاعة إمام ، وهم قوم نُزّاع لا إمام لهم ، ومن كانت فى عنقه بيعة فإنه خارج على إمامه . وكان فى وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يؤامر علياً . ومن الخرق فى الرأى أن يرخص لحكيم بن جبلة فى القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه فى ذلك . و إن الإمساك كان أحسن فى العاقبة وأرجى فى العافية[1] » اهـ .

أقول : قد حج القومَ بالحجة التى ذكرها الأستاذ كثير من رؤوس البصرة ؛ بل إن بعضهم تعداها إلى التصريح لهم بما يحملون من الشركة فى إثم قتل عثمان . وما كان المنطق يوماً من الأيام سلاحاً ينفذ فى الجماهير ؛ إنما السلاح الماضى فيهم هو التمويه عليهم واستجلابهم بما يهز قلوبهم ومشاعرهم من الخطابيات . ولا أدرى : كيف يسع عثمان بن حنيف — وهو والٍ مسؤول عن سلامة البصرة — أن يكف حتى يأتيه جواب على ، والقوم جادون نحو البصرة يريدون احتلالها و يطلبون رقاب الذين دخلوا المدينة على عثمان بن عفان رضى الله عنه .

بل إن الطبرى ليذكر رواية تدحض ما أخذه الأستاذ النجار على عثمان بن حنيف وتثبت أن هذا الوالى كاتب علياً من أول الأمر ، لكن الجماعة لم يمهلوه بل عاجلوه القتال ؛ لقد قال لهم عثمان لما قدموا البصرة : « ما نقمتم على صاحبكم ؟ » فقالوا : « لم نره أولى بها منا وقد صنع ما صنع » . قال عثمان : « فإن الرجل أمّرنى فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلى بالناس حتى يأتينا كتابه » . فوقفوا عليه وكتب ؛ فلم يلبث إلا يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه »[2] .

و إذا ملنا مع الأستاذ النجار إلى تخطئة عثمان فلينبئنا : هل استطاع أحد من الولاة بعد عثمان هذا أن يجمع أهل العراق على رأى واحد ؟ وهل خلا العراق — فى تاريخه الطويل — من خارج على خليفة أو أمير يوماً من الأيام ؟ ؟

---

(١) تاريخ الإسلام : (الخلفاء الراشدون) ص ٣٩٧ .

(٢) الطبرى ٣/٤٨٦ .

ومهما يكن من أمر فإن ما يؤاخذ به عثمان شيء واحد : هو عدم مراجعة إمامه فى شروط الصلح حين كان أصحاب عائشة هم الطالبين له . وموقف عثمان أقوى (شرعية) من موقف خصومه ، ولو هو فعل لأجابوه إلى ما يريد ، ولعله استشعر ضعفاً ولو وجد من القوة ما يكاثر به أصحاب عائشة ما توقف ، وقد علمت قبل قليل أن جماعات لا يستهان بها من أصحابه لحقت بعائشة . وكان بوسعه أيضاً ألا يعطى بيده هذه الخطة الشائنة : فيرجع إلى أهل المدينة وهم ليسوا له بمرجع ، إنما مرجعه إمامه ليس غير . وهذه الهفوة تحمله التبعة فى إضعاف أمر على فى العراق تلك الفترة .

الفصل السادس

فى استيلاء الجمليين على البصرة

سفارة كعب بن سور الى المدينة :

خرج كعب بن سور إلى المدينة ، إنفاذاً لما اتفقوا عليه ، فبلغها ، واجتمع الناس لقدومه وكان يوم جمعة ، فوقف فى الناس فقال :

« يا أهل المدينة ، إنى رسول أهل البصرة إليكم : أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علىّ أم أتياها طائعين ؟ » .

فلم يجبه أحد من القوم رهبة وخشية أن يُبطَش به . وكأنه عظم على أسامة بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحِبّه وابن حبّه أن يبقى الحق مكتوماً ضعيفاً ، فوقف وقال :

« اللهم لم يبايعا إلا وهما كارهان[1] » .

فأمر به تمام بن العباس أمير المدينة لعلىّ ، فواثبه سهل بن حنيف والناس حتى كاد أسامة يتلف ، لولا أن ثار صهيب بن سنان وأبو أيوب الأنصارى فى عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوا أن يقتل أسامة فقال : « اللهم نعم ، فانفرجوا عن الرجل » . فانفرجوا عنه . وأخذ صهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله وقال : « قد علمت أن أم عامر[2] حامقة ، أما وسعك ما وسعنا من السكوت ؟ » قال : « لا والله ، ما كنت أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت وقد أبسلنا[3] (الأمر) العظيم » .

* * *

وصل خبر ما كان بالمدينة إلى على فكره ذلك ، وساءه ما فعل عثمان وهو وال له على

---

(١) مر بك ص ٧١ تفاصيل بيعتهما لعلى .

(٢) أم عامر كنية الضبع والعامر : جروها ، فلعله يعرض به أو يقول : إن الحمق من شأن الجماعات .

(٣) أبسلنا : أسلمنا للهلاك .

البصرة : عليه أن يحميها منهم ، فأتى ما أضعف أمره وأمر عليّ ، فبادر على بالكتابة إليه يعجّزه ويقول :

« والله ما أكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل ؛ فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا [١] » .

وقد وقع فى غياب كعب أشياء بين الفريقين ، عدها طلحة والزبير اعتداء ونقضاً لشروط الصلح فاضطغنوها فى أنفسهم ، منها : أن محمد بن طلحة — وكان على ما مر بك : زاهداً متعبداً صاحب صلاة — قام فى المسجد مقاماً قريباً من أمير البصرة عثمان بن حنيف ، فارتيب به ، وخشى الزط والسيابجة [٢] أن يكون جاء لغير الصلاة فنحياه ، فبعث طلحة والزبير إلى عثمان يقولان : « هذه واحدة » .

رجوع كعب واعتذار عثمان عنه إنفاذ الشروط :

رجع كعب إلى البصرة ، وأخبر القوم بجواب أهل المدينة ، وأرسل طلحة والزبير ومن معهما إلى عثمان بن حنيف : « أن اخرج عنا » . وكان طلباً حقاً ، فعلى ذلك اصطلحوا وهذا ما شرطوه .

إلا أن عثمان بن حنيف اعتذر بأنه أصبح أمام حادث جديد ، فإن الكتاب الذى أرسله على إليه يعجزه فيه ، يجعل البت فى هذا الأمر إلى عليّ نفسه لا إلى عثمان . وذلك حيث يقول فى كتابه الذى مر آنفاً : « فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا » .

أرسل عثمان إليهما محتجاً بالكتاب المذكور قائلاً : « هذا أمر آخر غير ما كنا فيه » .

فجمع طلحة والزبير الرجال فى ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ، ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء ، وكانوا يؤخرونها ، فأبطأ عثمان بن حنيف ، فقدما عبد الرحمن بن عتّاب ليصلى بالناس ، فشهر الزط والسيابجة السلاح ثم وضعوه فيهم ، فأقبل أصحاب الجمل واقتتلوا

---

(١) الطبرى ٣/٤٨٥ .

(٢) السيابجة : هم الشرط حرس بيت المال — شرح نهج البلاغة ٢/٥٠٠ .

فى المسجد وصبروا لهم حتى قتلوهم ، ثم دخلوا على عثمان بن حنيف ليخرجوه إليهما ، فلما وصل إليهما توطؤوه حتى ما بقيت فى وجهه شعرة ، فاستعظم طلحة والزبير ذلك ، فأرسلا إلى عائشة بالذى كان ، واستطلعا رأيها ، فأرسلت إليهما أولاً : « أن اقتلوه » فقالت لها امرأة : « نشدتك الله يا أم المؤمنين فى عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فاستردت الرسول وقالت له : « احبسوه ولا تقتلوه » قال الرسول : « لو علمت أنك تدعيننى لهذا لم أرجع » . فقال لهم مجاشع بن مسعود : « اضربوه وانتفوا شعر لحيته » . فضربوه أربعين سوطاً ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه[١] .

وقام بعد ذلك طلحة والزبير خطيبين فقالا :

« يا أهل البصرة ، توبة بحوبة[٢] ، إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه » .

فقال الناس لطلحة : « يا أبا محمد ، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! » .

فقال الزبير : « فهل جاءكم منى كتاب فى شأنه ؟ » ثم ذكر قتل عثمان رضى الله عنه وما أتى إليه وأظهر عيب على . . . فقام إليه رجل من عبد القيس فقال : « أيها الرجل ، أنصت حتى نتكلم » . فقال عبد الله بن الزبير : « ومالك وللكلام ؟ » فقال الرجل العبدى :

« يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس فى الإسلام كما دخلتم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلاً منكم : والله ما استأمرتمونا فى شىء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل فى إمارته بركة . ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلاً منكم فلم تشاورونا فى ذلك فرضينا وسلمنا ، فلما توفى الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر ، فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا : فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفىء أو عمل بغير الحق ، أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ وإلا فما هذا ؟ ؟ » فهموا بقتل ذلك الرجل ،

---

(١) الطبرى ٣/٤٨٥ .

(٢) الحوبة : الخطيئة .

فقام من دونه عشيرته ، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من كان معه فقتلوا سبعين رجلاً[١].

وقد كان هذا الحادث فى جملة ما اعتدّ به أصحاب علىّ على أصحاب الجمل ؛ وما أكثر الذين يقولون قول هذا الرجل العبدى[٢] ، وما أكثر الذين وقعوا معه فى حيرة من أمر طلحة قبل قتل الخليفة عثمان و بعده .

ومهما يكن من شىء فإن فى كلام هذا العبدى إنصافا وحياداً ومنطقاً وحقاً ولكن ما كان المنطق مغيراً شيئاً من ثورة الجماهير العمياء . لقد طحنت الجماهير هؤلاء السبعين مع العبدى وكانت هذه المجزرة من أقوى ما أضرم الغيظ والحقد فى النفوس ، فعجلت الحرب وملأت بالغضب والحرقة صدر علىّ ومن معه فيما بعد .

استولى أصحاب عائشة على دار الرزق فى الليلة التى قبضوا فيها على عثمان ، وكان فى رحبتها طعام كثير يرتزقه الناس ، فأراد الزبير وابنه أن يرزقاه أصحابهما خاصة ، وصيرا على بيت المال عبد الرحمن بن أبى بكر بعد اختلاف يسير فيما بينهم .

* * *

لم يكن بقاء الطائفتين متجاورتين فى البصرة أمراً طبيعياً ، بل لابد من إخراج الضعيفة منهما واستئثار القوية بالبلدة ومرافقها . وكانت الطائفة القليلة هى البادئة بالشر وهى التى تنجزت القضاء على نفسها : فقد « أصبح طلحة والزبير : و بيت المال فى أيديهما والناس معهما ، ومن لم يكن معهما فهو مغمور مستخف[٣] » ، وعلما أن حكيم بن جبلة — وهو أشد الناس عراماً فى عداوتهما ورغبة فى القتال — قد أخذ يجمع الأنصار للتحفز ، فأرسلا بذلك إلى عائشة .

« وأصبح[٣] حكيم بن جبلة على رجْل فيمن تبعه من عبد القيس ومن نزع إليهم من أفناء ربيعة ، ثم توجهوا نحو دار الرزق « وحكيم يقول : « لست بأخيه إن لم أنصره » وجعل يشتم عائشة رضى الله عنها ، فسمعته امرأة من قومه فقالت : « يابن الخبيثة ، أنت أولى بذلك » فطعنها فقتلها كما فعل فى المناوشة الأولى ، فضربت عبد القيس فقالوا : « فعلت

---

(١) الطبرى ٣/٤٨٦ .

(٢) نسبة إلى عبد القيس .

(٣) الطبرى ٣/٤٨٦ — ٤٨٨ و ٤٩١ بتصرف يسير .

بالأمس ، وعدت لمثل ذلك اليوم ؟ والله لندعنك حتى يقيدك الله » ، فرجعوا وتركوه .

وسار حكيم بمن بقى معه من بكر بن وائل وعبد القيس نحو دار الرزق ، فأتى عبد الله ابن الزبير فقال عبد الله : « ما لك يا حكيم ؟ »

قال : « نريد أن نرتزق من هذا الطعام ، وأن تخلوا عثمان يقيم بدار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم علىّ ؛ والله لو أجد أعواناً عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم . ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا ، أما تخافون الله عز وجل ؟ بم تستحلون سفك الدماء ؟ »

فقال ابن الزبير : « بدم عثمان »

قال حكيم : « فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ أما تخافون مقت الله ؟ »

فقال ابن الزبير : « لانرزقكم من هذا الطعام ولا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً » .

قال حكيم : « اللهم إنك حكم عدل فاشهد » .

وقال لأصحابه : « إنى لست فى شك من قتال هؤلاء ، فمن كان فى شك فلينصرف » .

ولما رأى أصحاب الجمل الجد من حكيم ومن معه قالت عائشة : « لا تقتلوا إلا من قاتلكم » . ونادى أصحاب الجمل : « من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا ، فإنا لانريد إلا قتلة عثمان ولا نبدأ أحدا »

فأنشب حكيم القتال ، ولم يرعوِ للمنادى ، فقال طلحة والزبير :

« الحمد لله الذى جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة . اللهم لاتبق منهم أحداً ، وأقِدْ منهم اليوم فاقتلهم » .

فجادّوهم القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً ، واصطفوا فرقاً أربعاً عليها قواد أربعة ممن أغار على عثمان ؛ فكان حكيم بحيال طلحة ، وذريح بحيال الزبير ، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن ابن عتاب ، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ...

فزحف طلحة لحكيم وهو فى ثلثمائة رجل ، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضربهم باليابس
ضرب غلام عابس
من الحياة آيس
فى الغرفات نافس

فضرب رجل رجله فقطعها ، فجبا حتى أخذها فرمى بها صاحبه ، فأصاب جسده فصرعه ، فأتاه حتى قتله ثم اتكأ عليه وقال :

يا فخذُ لن تراعى
إن معى ذراعى
أحمى بها كراعى (١)

وارتجز أيضاً :

أقول لماجد بى زماعى (٢)
للرِجْل : يارجلى لن تراعى
إن معى من نجدة ذراعى

وتكلم يومئذ حكيم و إنه لقائم على رجل واحدة ، و إن السيوف لتأخذ منهم فما يتعتع (يتلعثم) ويقول :

« إنا خلفنا هذين (طلحة والزبير) وقد بايعا علياً وأعطياه الطاعة ، ثم أقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان ، ففرقا بيننا ونحن أهل دار وجوار ، اللهم إنهما لم يريدا عثمان » فنادى مناد : « ياخبيث ، أجزعت حين عضك نكال الله عز وجل إلى كلام من نصبك وأصحابك بما ركبتم من الإمام المظلوم وفرقتم الجماعة ، وأصبتم من الدماء ونلتم من الدنيا ؟ فذق وبال الله عز وجل وانتقامه ، وأقيموا فيمن أنتم ... »

ثم خارت قوى حكيم وهو يرتجز :

ليس علىّ أن أموت عار
والعار فى الناس هو الفرار
والمجد لايفضحه الدمار

---

(١) الكراع : ما دون الكعب من الدابة ، ودون الركبة من الإنسان .
(٢) الزماع : المضى فى الأمر لا يثنيك عنه شىء .

فأتى عليه رجل وهو رثيث (جريح به رمق) قد أسند رأسه على جسد الذى قتله ، فقال : « مالك يا حكيم ؟ » قال : « قتلت » قال : « من قتلك ؟ » قال : « وسادتى » فاحتمله وضمه فى سبعين من أصحابه من عبد القيس جميعهم قتلوا .

همّ أصحاب الجمل — بعد قتل حكيم — أن يقتلوا عثمان بن حنيف ثانية ، فقال لهم عثمان : « ماشئتم ، أما إن سهل بن حنيف والٍ على المدينة ، إن قتلتمونى انتصر » فأقلعوا عن قتله خوفاً على ذويهم بالمدينة وخشية من غضب من فى البصرة من الأنصار . وأرسلت عائشة آمرة أن : « خلوا سبيله فليذهب حيث يشاء ولا تحبسوه » . فأخرجوا الحرس الذين يعتقبون حرسه وكانوا أربعين رجلا . ومضى عثمان بن حنيف فيمن غزا عثمان بن عفان وحصره من نزاع القبائل ، وعرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة .

* * *

قتل فى هذه الواقعة حكيم وابنه الأشرف وأخوه الرعل ، وقتل ذريح ومن معه ، وأفلت منهم حرقوص بن زهير فى نفر من أصحابه فلجؤوا إلى قومهم .

وهنا أمرت عائشة — لما اختلفوا على الصلاة — أن يصلى بالناس ابن اختها عبد الله ابن الزبير . ونادى بالبصرة منادى طلحة والزبير عقب الحادث :

« ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم » . فجىء بهم كما يجاء بالكلاب فقتلوا ، فما أفلت من أهل البصرة جميعا إلا حرقوص بن زهير [1] فإن قومه بنى سعد منعوه .

ولم يكتف أصحاب عائشة بما صنعوا ، وإن فيه لكفاية ومزيداً على الكفاية ، بل أرادوا أن يقتصوا لعثمان من جميع الآلاف التى قصدت المدينة وحرصوا على ألا يفوتهم أحد . وخسروا — بما شددوا — جموعاً كثيرة هرعت إلى على : كان فى الإمكان أن تظل محايدة إن لم نقل حاطبة فى حبل أصحاب الجمل . لقد منعت قبيلة بنى سعد رجلا منهم فلم يتركه طلحة وأصحابه ، ولم يلاينوا قبيلة بأسرها فشددوا عليهم وضربوا لهم أجلا وخشنوا صدور بنى سعد

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٩٣ .

— وإنهم لعثمانية — حتى قالوا : نعتزل . وغضبت بنو عبد القيس حين غضبت بنو سعد لمن قتل منهم بعد الوقعة ومن كان هرب إليهم وهم — على خلاف بنى سعد — طاعتهم وميلهم إلى على .

ثم زاد طلحة والزبير الأمر ، حين أمرا للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم ، وفضّلا بالفضل أهل السمع والطاعة — من جماعتهم طبعاً — فخرجت عبد القيس وبكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول فبادروا إلى بيت المال ، وأكب الناس عليهم فأصابوا منهم ، وخرج القوم حتى نزلوا على طريق علىّ . وهكذا قوى أمر ابن أبى طالب بعض القوة .

* * *

أما السيدة فلم تفتر بعد هذا الظفر المؤقت عن إحكام الدعاية لدعوتها السياسية ، تحاول أن تجتلب من لا يزال يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وأرادت أن تعوض عما خسر أصحابها من قبائل ذهبت عنهم إلى علىّ مغاضبة . بل لقد طمعت أن تجتذب إلى دعوتها حتى رؤساء الناس أصحاب الدهاء والغور البعيد ممن هم على خلاف مذهبها السياسى ؛

خطبت عقب هذه الحوادث لما دخلت البصرة وبحضرتها الأحنف بن قيس وموسى ابن طلحة ورجال من وجوه العرب ، فقالت :

« إن لى حرمة الأمومة وحق الموعظة ، لا يتهمنى منكم إلا من عصى ربه ، وقبض رسول الله بين سَحْرى ونحرى وحاقنتى وذاقنتى وأنا إحدى نسائه فى الجنة . وبه حصنى ربى من كل وضيع ، وبى ميز مؤمنكم من منافقكم ، وبى رخّص لكم فى صعيد الأبواء ، وأبى ثانى اثنين ، ورابع أربعة من المسلمين وأول من سمى صديقا ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وقد طوّقه وَهْف الإمامة . ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه ورتق لكم أثناءه ، فوقذ النفاق وأغاض نبغ الردة ، وأطفأ ما حشّت يهود ؛ وأنتم يومئذ جُحُظ العيون تنظرون العدوة وتستمعون الصيحة . . . فرأب الثأى وأوْذم السِقاء ، وامتاح من المهواة ، واجتهر دفن الرواء . . حتى قبضه الله إليه واطئاً على هام النفاق ، مذكياً لحرب المشركين ، يقظان الليل فى نصرة الإسلام ، صفوحاً عن

الجاهلين ، بعيد ما بين اللابتين ، عُرَكة للأذاة بجنبه ، خشاش المرأة والمخبرة ، فسلك مسلك السابقين .

تبرأت إلى الله من خطب جمع شمل الفتنة ومزق ما جمع القرآن . أنا نصب المسألة عن سيرى هـذا [لم ألتمس إثماً ولم أدلس فتنة أوطئكموها] : ألا وأنى أقبلت لدم الإمام المظلوم المركوبة منه الفِقَر الأربع : حرمة الإسـلام وحرمة الخلافة وحرمة الصحبة وحرمة الشهر الحرام ؛ فمن ردنا عن ذلك بحق قبلناه ، ومن ردنا عنه بباطل قتلناه ، فربما ظهر الظالم على المظلوم والعاقبة للمتقين[١] . [أقول قولى هذا صدقاً وعدلا و إعذاراً وتعذيراً ، وأسأل الله أن يصلى على محمد ، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين][٢] » .

فقال لها الأحنف : « إنى سائلك ومغلظ لك فى المسألة فلا تجدى (تغضبى) على : « أعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خروجك هذا ؟ » قالت : « لا » قال لها :

« أفعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك معصومة عن الخطأ ؟ » قالت : « لا » .

قال لها : « صدقت ، إن الله رضى لك المدينة فأبيت إلا البصرة ، وأمرك بلزوم بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فنزلت بيت الحرشـة الضبى . ألا تخبرينى يا أم المؤمنين : أللحرب قدمت أم للصلح ؟ » قالت : « بل للصلح . » فقال لها :

---

(١) ذكر بعض هـذه الخطبة وخبرها فى أخبار النساء لابن الجوزى ص ١٣ ، وذكر فى الفائق للزمخشرى ٢٨٧/١ ، وفى بلاغات النساء ص ٧ وفى العقد الفريد ٩٦/٣ ، وقد اعتمدنا رواية الفائق غالباً واستفدنا من بلاغات النساء فى الإصلاح والزيادة ، وتختلف الألفاظ فى الروايتين .

الشرح — السحر : الرئة . الحاقنة : النقرة بين الترقوة وحبل العاتق . الذاقنة : طرف الحلقوم . صعيد الأبواء : مكان ضاع فيه عقدها فاحتبس الجيش فى التفتيش عنه ولم يكن ثمة ماء فأنزل الله رخصة التيمم ، الوهف : الإقامة . نبغ الردة : ما ظهر منها . حشت : أوقدت . رأب الثأى : أصلح الفاسد . أوذم السقاء : شده بالأوذام وهى السيور الطوال . امتاح من المهواة : استخرج الماء من البئر . اجتهر دفن الرواء : كسح الماء الكثير . [ويروى : اجتحى دفين الداء : استأصل] : اللابتان : حرتا المدينة (تريد : واسع الصدر) عركة : محتمل . خشاش المرأة والمخبرة : ماض خفيف ظاهرها وحقيقة . أنا نصب المسألة : أنا عرضة لأن أسأل . الفقر : الحرمات .

(٢) زيادة عن أخبار النساء لابن الجوزى .

والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ما اصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواتقهم ؟! »

فبدا للسيدة ما لم تكن تحتسب. وانكسرت نفسها فقالت :

« لقد استغرق حلم الأحنف مجاوزه إياى ، إلى الله أشكو عقوق أبنائى[١] . »

* * *

أقام طلحة والزبير ، وبايع لهما أهل البصرة ، واستخفهما هذا الظفر حتى استحليا أن أن يعجلا النتيجة قبل استتمام مقدماتها ، فقد روى الطبرى أن الزبير قال لما بويع لهما :

« ألا ألف فارس أسير بهم إلى على ، فإما بيّته و إما صبحته ، لعلى أقتله قبل أن يصل إلينا ؟ » فلم يجبه أحد ، فقال : « إن هـذه لهى الفتنة التى كنا نحدّث عنهـا[٢] » فتربصا وأصحابهما ليس معهما بالبصرة ثأر إلا حرقوص بن زهير . وكتبوا بما تم لهم من الظفر كتاباً لأهل الشام وآخر إلى أهل المدينة ، وآخر إلى اليمامة ، ورابعاً إلى أهل الكوفة . ولا حاجة لذكر جميع هـذه الكتب ، بل نكتفى بأوفاها وأجمعها وهو الكتاب الذى أرسلته عائشة إلى أهل الكوفة مع رسولهم ، فإن فيه بلاغاً ، أرسلت إليهم :

« أما بعد فإنى أذكركم الله عز وجل والإسلام ، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، اتقوا الله واعتصموا بحبله وكونوا مع كتابه ؛ فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده فأجابنا الصالحون إلى ذلك ، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح وقالوا : لَنُتْبِعَنَّكم عثمان » ليزيدوا الحدود تعطيلا . فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر ، فقرأنا عليهم :

« أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ يُدْعَوْنَ إلى كتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون[٣] » .

فأذعن لى بعضهم واختلفوا بينهم فتركناهم وذلك ، فلم يمنع ذلك من كان منهم على

---

(١) المصادر السابقة .

(٢) الطبرى ٣/٤٩١ .

(٣) سورة آل عمران ٣ الآية ٢٣ .

رأيه الأول مِنْ وضع السلاح فى أصحابى ، وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلونى ، حتى منعنى الله عز وجل بالصالحين ، فرد كيدهم فى نحورهم . فمكثنا ستاً وعشرين ليلة : ندعوهم إلى كتاب الله و إقامة حدوده وهو حقن الدماء أن تُهْراق ، دون من قد حل دمه ، فأبوا واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها ، فخانوا وغدروا وخافوا وحشروا ، فجمع الله عز وجل لعثمان رضى الله عنه ثأره ، فأقادهم فلم يفلت منهم إلا رجل . وأردأنا (حمانا) الله ومنعنا منهم بعمير بن مرثد ومرثد بن قيس ، ونفر من قيس والرباب والأزد . .

فالزموا الرضى إلا عن قتلة عثمان بن عفان حتى يأخذ الله حقه ، ولا تخاصموا عن الخائنين ولا تمنعوهم ، ولا ترضوا بذوى حدود الله فتكونوا من الظالمين[1] »

وكتبت إلى رجال بأسمائهم :

« . . فثبّطوا[1] الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، واجلسوا فى بيوتكم ؛ فإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وفرقوا بين جماعة الأمة وخالفوا الكتاب والسنة . . . حتى شهدوا علينا — فيما أمرناهم به وحثثناهم عليه من إقامة كتاب الله و إقامة حدوده — بالكفر ، وقالوا لنا المنكر . فأنكر ذلك الصالحون وعظموا ما قالوا ، وقالوا : « ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم : أنْ أمرتكم بالحق ، لتقتلوها وأصحاب رسول الله عليه وسلم وأئمة المسلمين ؟ » فعزموا وعثمان ابن حنيف معهم على من أطاعهم من جهال الناس وغوغائهم : على زطهم وسيابجتهم ، فلذنا منهم بطائفة من الفسطاط . . . فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً : ندعوهم إلى الحق وألا يحولوا بيننا و بين الحق ، ففدروا وخانوا فلم نقايسهم ، واحتجوا ببيعة طلحة والزبير ، فأبردوا بريداً فجاءهم بالحجة فلم يعرفوا الحق ولم يصبروا عليه ، فغادونى فى الغلس ليقتلونى والذى يحارب بهم غيرى ، فلم يبرحوا حتى بلغوا سُدّة بيتى ومعهم هادٍ يهديهم إلىّ ، فوجدوا نفراً على باب بيتى منهم عمير بن مرثد ومرثد بن قيس و يزيد بن عبد الله بن مرثد ، ونفر من قيس ونفر من الرباب والأزد . . ، فدارت عليهم الرحى ، فأطاف بهم المسلمون فقتلوهم ،

---

(١) الطبرى ٣/٤٨٩ .

وجمع الله عز وجل كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة . فإذا قتلنا بثأرنا وسعنا العذر .

وكانت الموقعة لخمس ليالٍ من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين .

وكتب عبيد بن كعب فى جمادى » .

ويظهر من كتابها هذا أن بعض الغوغاء ممن لا خلاق لهم ، هموا بالاعتداء على السيدة نفسها . ولم أعثر — فى المصادر التى رأيتها — بخبر هذا الاعتداء إلا ما أشارت إليه فى كتابها هنا وإلا ما جاء فى كتاب أصحاب عائشة إلى أهل الشام ، فقد روى الطبرى[1] فيه هذه الجملة .

« . . . فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم ، وخالفنا شرارهم ونُزّاعهم ، فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا : (نأخذ أم المؤمنين رهينة . .) أنْ أمرتهم بالحق وحثتهم عليه ، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة . . الخ » .

وظل القوم فى نشوة من استيلائهم على البصرة وإخراجهم منها أميرها مدحوراً ، وقتلهم قتلة عثمان . وعجلت عائشة فى حسابها وظنت أن الأمر معها إلى تمام ، فأحبت أن تبشر بذلك أم المؤمنين حفصة بنت عمر بالمدينة ، فكتبت إليها :

« أما بعد فأخبرك أن علياً نزل ذا قار ، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا ؛ فهو بمنزلة الأشقر : إن تقدم عُقِر ، وإن تأخر نحر . .[2] »

---

(١) ٣/٤٨٨ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣/٢٩٢ — الأشقر : الفرس ، وهذا مثل .

الباب الثالث

يوم الجمل الأكبر

الفصل الأول

علىّ فى طريقه إلى الكوفة

سفارات ومراسلات

نرجع الآن بالحديث إلى على بعد أن علمنا كيف تم الأمر لأصحاب الجمل منذ خروجهم من مكة حتى احتلالهم البصرة وكتابتهم بذلك إلى الأمصار .

عرفت — على ما تقدم فى ص ٩٣ — أن علياً خرج من المدينة يريد معارضة أصحاب الجمل فى الطريق ، وأنهم لما فاتوه تربص بالربذة بعد أن بلغه مسيرهم إلى البصرة دون الكوفة ؛ وقد كان يخشى أن ينزلوا الكوفة ، فلما عرف طيتهم سرّى عنه وقال : « إن أهل الكوفة أشد لى حباً وفيهم رؤوس العرب وأعلامهم » .

أتته — وهو بالربذة — وفود القبائل من طيئ وبكر بن وائل وأسد : تقدم إليه الطاعة وتعرض عليه الخروج معه ، فشكرهم وأثنى عليهم خيراً . ولما قُدِّمت جماعة طىء قيل له : « هذه جماعة طىء قد أتتك : منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك » قال على : « جزى الله كلاً خيراً ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » . ثم دخلوا عليه فقال على : « ما شهدتمونا به ؟ » قالوا « شهدناك بكل ما تحب » قال : « جزاكم الله خيراً : فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين » . فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما فى قلبه ، وإنى والله ما كل ما أجد فى قلبى يعبر عنه لسانى ، وسأجتهد وبالله التوفيق :

أما أنا فسأنصح لك فى السر والعلانية ، وأقاتل عدوك فى كل موطن ، وأرى لك من

الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك » ، فأجابه على : « رحمك الله ، قد أدّى لسانك عما يُجنّ ضميرك[١] » .

لقد نزلت هـذه المقابلة من نفس علىّ ، نزول العذْب البارد من ذى الغلة الصادى ، فقويت نفسه بعد أن حزّ فيها خلاف معاوية وخلاف أصحاب الجمل ، وأرسل إلى المدينة « فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره ، وقام فى الناس فخطبهم وقال :

« إن الله عز وجل أعزنا بالإسـلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله : الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والـكتاب إمامهم حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هـذه الأمة . ألا إن هذه الأمة — لا بد — مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن . فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينـكم واهتدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا سنته ، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ؛ فما عرفه القرآن فالزموه وما أنـكره فردّوه ، وارضوا بالله جل وعز ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صـلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن حكماً وإماماً » .

اغتبط على بما كان يرى فى الربذة يوما بعد يوم من إقبال الناس على أمره . ولما عزم على الخروج من الربذة ، قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أى شىء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ » .

قال : « أما الذى نريد وننوى : فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه » .

قال : « فإن لم يجيبونا إليه ؟ »

قال : « ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر » .

قال : « فإن لم يرضوا ؟ » .

قال : « ندعهم ما تركونا » .

قال : « فإن لم يتركونا ؟ » .

قال : « امتنعنا منهم » .

---

(١) الطبرى ٣/٤٩٤ — وذكر أن سعيد بن عبيد هذا بقى مع على حتى قتل معه بصفين .

قال : « فنعمْ إذنْ[١] » .

وبهذا كشف علىّ عن خطته التى اعتزم إمضاءها وهى — كما ترى — خطة سداد ومسامحة ورتق فتق .

وقام الحجاج بن غزية الأنصارى فقال : « لأرضينك بالفعل كما أرضيتنى بالقول ، وأنشد :

دَراكِها دراكها قبل الفوْت
وانفر بنا واسمُ بنا نحو الصوت
لا وألت نفسى إن هبت الموت

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً[١] » .

ففى جيش على من كان يخلص له النصرة ، ويحب ملء قلبه أن يلقى الخارجين عليه ، فيروى سنانه وسيفه من دمائهم .

هذا وقد وصل إلى على وهو بالربذة ، واليه على البصرة عثمان بن حنيف منتوف شعر الرأس واللحية والحاجبين — على ما علمت ص ١١٧ — فقال :

« يا أمير المؤمنين بعثتنى ذا لحية وجئتك أمرد ! » .

قال : أصبت أجراً وخيراً . إن الناس وليهم قبلى رجلان فعملا بالكتاب ، ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ، ثم بايعونى وبايعنى طلحة والزبير ثم نكثا بيعتى وألّبا علىّ الناس ؛ ومن العجب انقيادهما لأبى بكر وعمر وخلافهما علىّ ، والله إنهما ليعلمان أنى لست بدون رجل ممن قد مضى ... اللهم فاحلل ما عقدا ، ولا تبرم ما قد أحكما فى أنفسهما ، وأرهما المساءة فيما قد عملا[٢] » .

ثم قال على لأصحابه بذى قار : « إن هذا انطلق من عندنا وهو شيخ فرجع وهو شاب » .

تعبأ على ، وخرج من الربذة فى سبعمائة وستين ، وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح ، والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن عباس ، وعلى الميسرة عمر بن أبى سلمة[٣] ، وخرج علىّ على ناقة له حمراء يقود فرساً كُمَيْتاً وراجز يرجز به :

---

(١) الطبرى ٣/٤٩٤ ، ٤٩٥ — وألّ : نجا .
(٢) الطبرى ٣/٤٩٥ .
(٣) انظر ص ٧٩ .

سـيروا أبابيل وحثوا السيرا
إذ عزم السير وقولوا خـيرا
حتى يلاقوا وتلاقوا خـيرا
يغـزو بها طلحة والزبيرا[١]

اتجه على إلى ذى قار ، وكان فى الطريق لا ينى عن استخبار الناس عما وراءهم ، وخاصة عن أخبار أهل الكوفة فإن أمرها مما يهمه . يروى الطبرى أنه سأل عامر بن مطر أحد بنى شيبان عما وراءه فأخبره ، حتى سأله عن أبى موسى فأجابه : « إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، و إن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك » . فقال على : « ما أريد إلا الإصلاح حتى يُردّ علينا » . قال الرجل : « قد أخبرتك الخبر » وسكت على .

وكان لما انتهت إليه حوادث البصرة وما لقى عثمان بن حنيف وحرسه ، قام فأخبر جموعه الخبر ثم قال : « اللهم عافنى مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين ، وسلمنا منهم أجمعين . » وعلق على قتل أصحاب الجمل حكيم بن جبلة و إخوانه الثائرين بالخليفة الشهيد بقوله :

« الله أكبر ، ما ينجينى من طلحة والزبير إذ أصابا ثأرهما أو ينجيهما ؟ » وقرأ :
« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَها[٢] »
ثم استقر بذى قار يحكم فيها أمره ، ويحاول أن يصل إلى توحيد الكلمة عن طريق الإقناع والنصح : بالكتب والرسل والسفارات .

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٥ — أبابيل : جماعات ، الكميت : الأشقر .
(٢) سورة الحديد ٥٧ الآية ٢٢ .

سفارات على ومراسلاته

(١) إلى أهل الكوفة

١ — كتب على — وهو متربص بالربذة — إلى أهل الكوفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

أما بعد ، فإنى اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحق وقضى الذى عليه[١] »

٢ — ثم أرسل إليهم من الربذة أيضاً يستنفرهم لنصرته ، وسرح إليهم محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر ، وبعث إليهم بالكتاب الآتى :

« إنى اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث ؛ فكونوا لدين الله أعوانا وأنصاراً ، وأيدونا وانهضوا إلينا ، فالاصلاح ما نريد لتعود الأمة إخواناً . ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره ، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه[٢] » .

فمضى الرسولان إلى الكوفة ، وأتيا أبا موسى بكتاب على واستنهضا الناس إلى الخروج إليه ونصرته ، فلم يجابا إلى شىء . وفى المساء دخل ناس من وجوه أهل الكوفة وذوى الحجى منهم على أبى موسى يستشيرونه فى هذا الأمر الجديد وقالوا : « ما ترى فى الخروج » ؟ فقال : « كان الرأى بالأمس ليس اليوم : إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون ومابقى . إنما هو أمران : القعود سبيل الآخره ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا » وبذلك حبط مسعى الرسولين ولم ينفر أحد ، فغضب المحمدان وأغلظا لأبى موسى الكلام فقال أبو موسى : « والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال لانقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا[٣] » .

وبهذا أشبه مذهب أبى موسى مذهب طلحة والزبير فى البعد عن المنطق : إذ ليس من

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٣ (٢) ص ٤٩٤ — وغمص النعمة : كفرانها ، وهو ضد الشكر .
(٣) ص ٤٩٧ .

المعقول أن يقام حد والناس لا إمام لهم ، فإن وجد الإمام فليس لأحد أن يستبد بأمر إلى إلى الإمام مردّه ، إلا مشورة يبذلها أو نصحاً يدلى به ثم عليه الائتمار بأمر إمامه .

رجع الرسولان إلى على فوافياه بذى قار ، وأخبراه الخبر .

٣ — لما بلغ علياً جواب أبى موسى لمحمد بن أبى بكر قال : « لقد أردت عزله وسألنى الأشتر أن أقره » . وأرسل ثانية هاشم بن عتبة — وهو الذى أبلغه ما كان من أبى موسى — إلى الكوفة لينهض الناس ، وكتب على إلى أبى موسى :

« إنى وجهت هاشماً لينهض مَن قِبلك من المسلمين إلىّ ، فأشخص الناس : فإنى لم أولك الذى أنت به إلا لتكون من أعوانى على الحق » .

فلما أتى أبا موسى الرسول والرسالة دعا السائب بن مالك الأشعرى يستشيره ، فقال له : « ماترى ؟ » قال مالك : « أرى أن تتبع ما كتب به إليك . » قال أبو موسى : « لكنى لا أرى ذلك » . وأصر أبو موسى على موقفه الأول ، فلم تغن الرسالة ولا الرسول شيئا . وكتب هاشم إلى على :

« إنى قد قدمت على رجل غالٍ مشاق ظاهر الغل والشنآن » .

٤ — لما رأى على إخفاق السفارتين المتقدمتين وقد كان ينتظر الإجابة والنجاح ليسرع إلى الكوفة ، كره مقام أبى موسى فى هذا الأمر ، وغدا يلوم الأشتر النخعى لأنه هو الذى كان أشار عليه بإبقاء أبى موسى ويقول له : « يا أشتر أنت صاحبنا فى أبى موسى والمعترض فى كل شىء ، اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت » .

فخرج عبد الله بن عباس ومعه الأشتر حتى قدما الكوفة ، فكلما أبا موسى واستعانا عليه بأناس من الكوفيين ، فلم يغير ذلك من موقف أبى موسى شيئا . بل جمع الناس ليحذرهم من أن يؤخذوا بدهاء ابن عباس وفصاحته ، فلما اجتمعوا خطبهم أبو موسى فقال :

« يا أيها الناس ، إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقا فأنا مؤديه إليكم :

كان الرأى ألا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا عليه ، وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا ، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة

ولا تكلّفوا الدخول فى هذا ؛ فأما إذ كان ما كان : فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ... فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد ... حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة » .

كان نصيب هذه السفارة نصيب ما قبلها إخفاقا ، ولم ينجع دواء من لين وحجة مع عناد أبى موسى و إصراره على مخالفة إمامه . فدعا ذلك عليا إلى الأخذ بالعلاج الحاسم ، وعرف أن الحلم وسعة الصدر كثيراً ما يضيعان على صاحبهما الحزم فى أموره :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

٥ — عزز علىّ سفاراته الثلاث بسفارة رابعة ، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر إلا أنه أرسل معهما عزل أبى موسى عن ولاية الكوفة ، وولى عليها قرظة بن كعب الأنصارى ومعه هذا الكتاب إلى أبى موسى :

« أما بعد ، فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذى لم يجعل الله لك منه نصيباً يمنعك من رد أمرى . وقد بعثت الحسن بن على وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، و بعثت قرظة بن كعب والياً على المصر ، فاعتزل عملنا مذموما مدحوراً ، فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن ينابذك ؛ فإن نابذته وظفر بك : أن يقطعك آرابا[1] » .

و يظهر أن أبا موسى لم يعتزل العمل بسهولة : لم يعتزله حتى نهب متاعه واقتحم قصره وكاد يبطش به .

أقبل الرسولان حتى دخلا المسجد ، فتذاكرا هما وأبو موسى وغيرهم الأمور على رؤوس الأشهاد ودفع بعض حجة بعض ، وكان موقف أبى موسى هذه المرة ألين قليلا و إن لم يغير نصحه للجماهير :

كان أول من أتى الرسولين مسروق بن الأجدع ، فسلم عليهما وأقبل على عمار بن ياسر — وعمار ممن أوضع فى فتنة عثمان — فقال له : « يا أبا اليقظان ، علام قتلتم عثمان ؟ » قال : « على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا » . فقال : « والله ما عاقبتم بمثل ماعوقبتم به ، ولئن

(١) الطبرى ٣ / ٥١٢ ونص كتاب العزل عند المسعودى : « اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً فما هذا أول يومنا منك ، وإن لك فيها لهنات وهنيات » . — مروج الذهب ٢/٦ .

صبرتم لكان خيراً للصابرين » . فخرج أبو موسى فضم إليه الحسن وأقبل على عمار قائلاً : « يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار ؟ » قال عمار : « لم أفعل ولم تسؤنى » . فقطع عليهما الحسن فأقبل على أبى موسى يقول :

« لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شىء » .

فقال : « صدقت بأبى أنت وأمى ولكن المستشار مؤتمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنها ستكون فتنة : القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب) وقد جعلنا الله عز وجل إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا وقال :

(يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)[1] وقال : « ومن يقتلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم »[1]

فغضب عمار وساءه كلام أبى موسى وقام فقال : « أيها الناس إنما قال له خاصة : أنت فيها قاعداً خير منك قائماً » .

وقام رجل من بنى تميم فقال : « اسكت أيها العبد ، أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا ؟ » .

وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار الناس ، وجعل أبو موسى يكفكف الناس ، ثم انطلق حتى أتى المنبر وسكن الناس .

وأقبل زيد بن صوحان على حمار حتى وقف بباب المسجد ومعه الكتابان من عائشة إليه و إلى أهل الكوفة ، فأقبل ومعه كتاب العامة وكتاب الخاصة ، كتاب العامة : « أما بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان . » فلما فرغ من الكتاب قال :

---

(١) سورة النساء ٤ الآيتان ٢٨ ، ٩٢ .

« أُمرتْ بأمر وأُمرنا بأمر : أمرت بأن تقر فى بيتها وأُمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ؛ فأمرتنا بما أُمرتْ به وركبت ما أُمرنا به . !! »

فقام إليه شبث بن ربعى فقال : « يا عمانى ، سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله . والله ما أمرتْ إلا بما أمر الله عز وجل به : بالإصلاح بين الناس » وثار الشغب وتدافع الناس فوقف أبو موسى يخطب :

أيها الناس أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب : يأوى إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف . إنا معشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا : إن الفتنة إذا أقبلت شبّهتْ ، وإذا أدبرت بينتْ . إن هذه الفتنة باقرة كداء البطن : تجرى بها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، فتسكن أحياناً فلا يدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس . شيموا سيوفكم ، وقصّدوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم . خلوا قريشاً — إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة — ترتق فتقها وتشعب صدعها ، فإن فعلت فلأنفسها سعت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت : سمنها تُهَريق فى أديمها . استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها[1] »

فقام زيد فشال يده المقطوعة وقال :

« يا عبد الله بن قيس (اسم أبى موسى) رُدَّ الفرات عن دراجه ، اردده من حيث يجىء حتى يعود كما بدأ ؛ فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست مدركه . » ثم قرأ : (الم . أحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا أنْ يقولوا آمنّا وهم لا يُفْتَنُونَ . ولقد فَتَنَّا الذين من قَبْلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين .)[2] سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين ، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق . »

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٨ — فتنة باقرة : صادعة للألفة مفرقة للكلمة ، محيرة — الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار — الدبور : ريح تقابل الصبا فى مهبها . شيموا : أغمدوا قصدوا : كسروا . تشعب : تلأم وتصلح . الصدع : الشق

(٢) سورة العنكبوت ٢٩ الآيات ١ — ٣ .

فأثر كلامه فى الناس ، ورفع أنصار علىّ رؤوسهم قليلا ، ثم وقف متكلم آخر هو القعقاع بن عمرو فقال :

« إنى لكم ناصح وعليكم شفيق أحب أن ترشدوا ، ولأقولن قولاً هو الحق :

أما ما قال الأمير — يعنى أبا موسى — فهو الأمر لو أن إليه سبيلا ، وأما ما قال زيد فزيد فى هذا الأمر [يعنى اشترا كه فى فتنة عثمان] فلا تستنصحوه فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى إليها . وإن القول الذى هو القول : أنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا علىّ يلى بما ولِّى ، وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع . »

وتتابع أشياع على يستنفرون : قام سيحان فقال :

أيها الناس إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم ليُنْظَر فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين ؛ فمن نهض إليه فإنا سائرون معه . »

فتكلم عمار وقد قام الحسن فى أعلى المنبر وعمار فى أسفل منه — فقال : « إن عائشة قد سارت إلى البصرة ، إنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم : إياه تطيعون أم هى .[1] »

وقال أيضا : « هذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنفركم إلى زوجة رسوله وإلى طلحة والزبير ، وإنى أشهد أنها زوجته فى الدنيا والآخرة فانظروا ثم انظروا فى الحق فقاتلوا معه » . فقال له رجل : « يا أبا اليقظان ، إن الحق لمع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له[2] » .

حينئذ قال الحسن : « اكفف عنا ياعمار فإن للإصلاح أهلاً » ثم قام خطيباً فى الناس فقال :

---

(١) تيسير الوصول ٤ / ٣٠ وقال : أخرجه البخارى ، والسمط الثمين ص ٣٤ عن الترمذى إلا أن آخره هنا : « لتتبعوه أو إياها »

(٢) يريد أن الحق مع عائشة على على . وانظر كلام الإمام ابن حزم فى رسالة المفاضلة بين الصحابة تعليقاً على هذا الخبر ص ٢٢٧ من كتابنا (ابن حزم الأندلسى ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة)

« أيها الناس ، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه . والله لأن يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا ، وأعينونا على ما ابتليتم به وابتلينا . » فتسامح الناس وأجابوا ، ورضوا به .

بذلك نجحت هذه السفارة واستجابت لها الجماهير والرؤوس : نفرت إلى علىّ طيئ بأمر عدى بن حاتم ، ونهض كذلك هند بن عمرو وحجر بن عدى وسادات الناس وقالوا خيراً ؛ حتى الذين لم يرضوا عن أحد الرسولين عمار بن ياسر وردوا عليه أقبح الرد ، ما وسعهم إلا إجابة الحسن إلى ما استنفرهم إليه :

ذكر الطبرى أن قوماً من طيئ أتوا عدياً فقالوا : « ما ذا ترى وما ذا تأمر ؟ » فقال : « ننتظر ما يصنع الناس » فأخبر بقيام الحسن وكلام من تكلم فقال :

« قد بايعنا هذا الرجل وقد دعانا إلى جميل و إلى هذا الحدث العظيم لننظر فيه ، ونحن سائرون وناظرون » .

وقام هند بن عمرو فقال : « إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه ؛ فاسمعوا إلى قوله وانتهوا إلى أمره ، وانفروا إلى أميركم فانظروا معه فى هذا الأمر وأعينوه برأيكم » .

وقام حجر بن عدى فقال : « أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين ، وانفروا خفافاً وثقالا ، مرروا وأنا أولكم » .

عندئذ قام الأشتر فذكر الجاهلية وشدتها ، والإسلام ورخاءه ، وذكر عثمان بن عفان .. فقاطعه المقطع العامرى بقوله : « اسكت قبحك الله ، كلب خلى والنباح . » فثار الناس فأجلسوه ، وقام المقطع فقال : « إنا والله لا نحتمل بعدها أن يبوء أحد بذكر أحد من أئمتنا ؛ و إن علياً عندنا لمقنع . . . فأقبلوا على ما أحثكم . » فقال الحسن : « صدق الشيخ » .

أعلن الحسن بعد هذا فى الناس :

« أيها الناس ، إنى غاد ، فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظَهْر (الدواب) ، ومن

شاء فليخرج فى الماء » . فنفر معه تسعة آلاف ، فأخذ منهم البرستة آلاف ، وأخذ منهم الماء ألفان وثمانمائة ، وعلى كل سبع رجل[١] .

تنحية أبى موسى فسرا

بعد أن أخذت الحوادث مجراها على ما رأيت ، وقف رجل اسمه عبد خير يناقش أبا موسى على موقفه فقال له : « يا أبا موسى ، هل كان هذان الرجلان (يعنى طلحة والزبير) ممن بايع علياً ؟ » قال : « نعم » قال : « هل أحدث على حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ » قال « لا أدرى . » قال : « فإنا تاركوك حتى تدرى . يا أبا موسى ، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التى تزعم أنها فتنة ؟ إنما بقى أربع قرون (فرق) : علىّ بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز : لا يجىء بها فىء ولا يقاتل بها عدو » فقال أبو موسى : « أولئك خير الناس وهى فتنة . » فقال عبد خير : « يا أبا موسى غلب عليك غشك » .

هذا مبلغ ثبات أبى موسى على رأيه ومجادلته عنه حتى فى أحرج المواقف ، وقد انقلبت الجماهير مع على ، فلم يكن بد إذن من إزالة هذا العناد بالعنف :

كان الأشتر قد طلب إلى على أن يرسله على أثر عمار والحسن قائلا : « إن أهل المصر أحسن شىء لى طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت ألا يخالفنى منهم أحد . . » فقال له : « الحق بهم » فأقبل حتى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس فى المسجد الأعظم ، ولما رأى جدال أبى موسى وحجاجه « جعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة فى مجلس أو مسجد إلا دعاهم ويقول : (اتبعونى إلى القصر) . . . فانتهى إلى القصر فى جماعة من الناس ، فاقتحم القصر فدخله ، وأبو موسى قائم فى المسجد يخطب الناس ويثبطهم قائلاً :

« أيها الناس ، إن هذه فتنة عمياء صماء ، تطأ خطامها ، النائم فيها خير من القاعد . . الخ » — على ما مر بك ، وقد نفد صبر حزب على — وعمار يخاطبه والحسن يقول له : « اعتزل عملنا لا أم لك ، وتنح عن منبرنا » . . . وعمار يقول له : « غلب الله

---

(١) الطبرى ٤ / ٥٠٠

من غالبه وجاحده » ... فبينما هم على ذلك فى المسجد ، إذ خرج غلمان أبى موسى يشتدون ينادون : « يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا .. » فنزل أبو موسى فدخل القصر ، فصاح به الأشتر : « اخرج من قصرنا لا أم لك ، أخرج الله نفسك ، فوالله إنك لمن المنافقين قديما . . » قال : « أجلنى هذه العشية » فقال : « هى لك ولا تبيتن فى القصر الليلة . » ودخل الناس ينتهبون متاع أبى موسى ، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر وقال : « إنى قد أخرجته . » فكف الناس[1].

(١) الطبرى ٣ / ٥٠١ .

الفصل الثانى

(ب) سفارات على إلى أصحاب الجمل وأهل البصرة

وافى جموع أهل الكوفة علياً بذى قار ، فاستقبلهم فى أناس من وجوه أصحابه فيهم ابن عباس ، فرحب بهم وأثنى عليهم ثم خطب فيهم فقال :

« الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين .

أما بعد ، فإن الله بعث محمداً إلى الثقلين كافة والناس فى اختلاف ، والعرب بشر المنازل ، مستضعفون لما بهم ، فرأب به الثأى ، ولأم به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمّن به السبل ، وحقن به الدماء وقطع به العداوة الواغرة للقلوب ، والضغائن المحششة للصدور ، ثم قبضه الله تعالى مشكوراً سعيه ، مرضياً عمله ، مغفوراً ذنبه ، كريماً عند الله نزله ، فيالها مصيبة عمت المسلمين ، وخصت الأقربين ، وولى أبو بكر فسار بسيرة رضى رضى بها المسلمون ، ثم ولى عمر فسار بسيرة أبى بكر (رضى الله عنهما) ثم ولى عثمان فنال منكم ونلتم منه ، ثم كان من أمره ما كان : أتيتموه فقتلتموه ، ثم أتيتمونى فقلتم : « لو بايعتنا » فقلت : « لا أفعل » وقبضت يدى فبسطتموها ، ونازعتكم كفى فجذبتموها وقلتم : « لا نرضى إلا بك ولا نجتمع إلا عليك » وتراكمتم علىّ تراكم الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ... حتى ظننت أنكم قاتلىّ وأن بعضكم قاتل بعضا . فبايعتمونى وبايعنى طلحة والزبير ، ثم ما لبثا أن استأذنانى إلى العمرة ، فسارا إلى البصرة فقاتلابها المسلمين وفعلا بها الأفاعيل ، وهما يعلمان — والله — أنى لست بدون من مضى ، ولو شاء الله أن أقول لقلت . اللهم إنهما قطعا قرابتى ، ونكثا بيعتى ، وألّبا علىّ عدوى ؛ اللهم فلا تحكم ما أبرما ، وأرهما المساءة فيما عملا[1] » .

ثم أعلن خطته لهم ، ونفرته من القتال ، ورغبته فى الإصلاح والعافية . وكان فيما قال لهم :

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٩٧ — رأب الثأى : أصلح الفساد ، الواغرة : المتوقدة غيظاً . الهيم : العطاش .

« يا أهل الكوفة ، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكها ، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم ، فأغنيتم حوزتكم ، وأعنتم الناس على عدوكم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة : فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجّوا داويناهم بالرفق وباياناهم حتى يبدؤونا بظلم ؛ ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله » .

وهذا غاية ما يفعله رجل يهوى السلامة ويجتهد لها مع القدرة القادرة على الإيقاع بمخالفيه . فقد اجتمع لديه بذى قار — على ما يقول الطبرى — سبعة آلاف ومئتان سوى من كان فى الماء وهم أكثر من ألفين ، وكانت قبائل عبد القيس التى خرجت من البصرة مغاضبة لأصحاب الجمل — على ما رأيت ص ١٢٢ — مرابطة فى الطريق بين ذى قار والبصرة : تنتظر مرور على بهم ليكونوا معه وهم آلاف[1] . وإليك الآن سفارات علىّ إلى أصحاب الجمل .

١ — عزّ على مساعيه فى سبيل الإصلاح بمسعى جديد ، حين أرسل إلى أهل البصرة القعقاع بن عمرو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفيراً بينه وبينهم ، وكان مما قاله له :

« ألقَ هذين الرجلين يا بن الحنظلية ، فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة . » ولم يزد على هذه الكلمات الجامعات ، وترك لسفيره أن يُحكِمَ الأمر على ما يرى . وقد كان على موفقاً كل التوفيق باختياره ، ومع هذا أراد أن يستوثق فسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ »

فقال : « نلقاهم بالذى أمرت ؛ فإن جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا وكلناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى . » فقال له على : « أنت لها » .

خرج القعقاع حتى قدم البصرة ، فبدأ بعائشة فقال لها : « أىْ أُمّهْ ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ » قالت : « أىْ بنىّ : إصلاح بين الناس » قال : « فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما » فبعثتْ إليهما فجاءا فقال لهما :

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٢

« إنى سألت أم المؤمنين : ما أشخصها ؟ فقالت : (إصلاح بين الناس) ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان » ؟ قالا : « متابعان ».

قال : « فأخبراني : ماوجه هـذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لايصلح » .

قالا : « قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإن هـذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن » .

فقال : « قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب من الاستقامة منكم اليوم : قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفلت (يعنى حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رِجْل فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولان ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا [1] عليكم فالذى حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون . وأنتم أحميتم مضر ور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هـذا الحدث العظيم والذنب الـكبير » .

فقالت أم المؤمنين : « فتقول أنت ماذا ؟ »

فقال وفى قوله بصر بعيد ونصح رشيد وحكمة كبيرة : « أقول : هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا ؛ فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ؛ وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه [1] كانت علامة شر ، وذهاب هذا الثأر ، وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهزها [1] . فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم . وايم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل ؛ فإن هـذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل [2] » .

---

(١) أديلوا : تغلبوا . اعتساف الطريق : الخبط فيه على غير هدى والضلال عن الطريق . الهزاهز : الشدائد .

(٢) الطبرى ٣ / ٥٠٣

كان لهذه الحكمة ينفثها القعقاع عن قلب غيور و إخلاص متقد ، أثرها المطلوب فى نفوس المستمعين عائشة وطلحة والزبير فمن دونهم ، فقالوا :

« نعم إذن ، قد أحسنت وأصبت ، فارجع فإن قدم علىّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر » .

وقد تمت هذه السفارة على أحسن ما تمت عليه سفارة : إخلاصَ نصح ، وتهديداً برفق ، ونجحاً فى النهاية .

٢ — أقبلت وفود أهل البصرة من تميم و بكر — والقعقاع لما يعد من سفارته — نحو على بذى قار : يريدون أن ينظروا : مارأى إخوانهم من أهل الكوفة ؟ وعلى أى حال نهضوا إليهم ؟ وليعلموهم أن الذى عليه رأيهم الإصلاح ولا يخطر لهم القتال على بال . فلما لقوا عشائرهم من أهل الكوفة بالذى بعثهم فيه عشائرهم من أهل البصرة ، قال لهم الكوفيون مثل مقالتهم ، وأدخلوهم على علىّ فأخبروه خبرهم[1] . »

٣ — اختلفت الوفود بين البصريين والكوفيين ، وقد حفظ لنا الطبرى وفادة طريفة ابتدأها برؤيا كان رآها أحد الوافدين فتحققت الآن ، فهو يقص كيف تحققت ثم يتخلص إلى ذكر وفادته ، ونحن نسوق إليك حديثها كما فى الطبرى[1] .

« قال كليب الجرمى :

رأيت فيما يرى النائم فى زمان عثمان بن عفان : (أن رجلا يلى أمور الناس مريضاً على فراشه وعند رأسه امرأة ، والناس يريدونه ويبهشون[2] إليه ، فلو نهتهم هذه المرأة لانتهوا ، ولكنها لم تفعل ، فأخذوه وقتلوه) . فكنت أقص رؤياى على الناس فى الحضر والسفر فيعجبون ولا يدرون : ما تأويلها .

فلما قتل عثمان ، أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا ، فقال أصحابنا : « رؤياك يا كليب » . فانتهينا إلى البصرة فلم نلبث إلا قليلا حتى قيل : « هذا طلحة والزبير معهما أم المؤمنين » . فراع ذلك الناس وتعجبوا ... فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضباً لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلانه ، وإن أم المؤمنين تقول : « غضبنا لكم على عثمان فى ثلاث : « إمارة الفتى وموقع الغمامة وضربة السوط والعصا ؛ فما أنصفنا إن لم تغضب له عليكم فى ثلاث جررتموها إليه : حرمة الشهر والبلد والدم » . فقال الناس ألم تبايعوا علياً وتدخلوا فى أمره ؟ » فقالوا : « دخلنا واللج على أعناقنا » ... وقيل : « هذا على قد أظلكم » فقال قومنا لى ولرجلين معى : « انطلقوا حتى نأتوا علياً وأصحابه فسلوهم عن هذا الأمر الذى اختلط علينا . » فخرجنا ... حتى إذا دنونا من العسكر طلع علينا رجل جميل على بغلة فقلت لصاحبى : « أرأيتم المرأة التى كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس الوالى ؟ إنها أشبه الناس بهذا » فقطن أنا نخوض فيه ؛ فلما

---

(١) الطبرى ٣ /٥٠٤ — ٥٠٦

(٢) بهش بيده إليه : مدها ليتناوله — القاموس .

انتهى إلينا قال : « قفوا ، ما الذى قلتم حين رأيتمونى ؟ » فأبينا عليه ، فصاح بنا وقال : « والله لاتبرحون حتى تخبرونى » فدخلتنا منه هيبة فأخبرناه ، فجاوزنا وهو يقول : « والله لقد رأيت عجباً ! » فقلت لأدنى العسكر إلينا : « من هذا ؟ » فقال : محمد بن أبى بكر » فعرفنا أن تلك المرأة عائشة رضى الله عنها ، فازددنا لأمرها كراهية (١).

انتهينا إلى على ، فسلمنا عليه ثم سألناه عن هذا الأمر فقال :

« عدا الناس على هذا الرجل يعنى (عثمان بن عفان) وأنا معتزل فقتلوه ، ثم ولونى وأنا كاره ، ولولا خشية على الدين لم أجبهم . ثم طفق هذان (طلحة والزبير) فى النكث ، فأخذت عليهما وأخذت عهودهما عند ذلك ، وأذنت لهما فى العمرة ، فقدما على أمهما حليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيا لها مارغبا بنسائهما عنه ، وعرضاها لما لا يحل لهما ولا يصلح ، فاتبعتهما لكيلا يفتقوا فى الإسلام فتقاً ولا يخرقوا جماعة » .

ثم قال أصحابه : « والله مانريد قتالهم إلا أن يقاتلوا ، وما خرجنا إلا للإصلاح . » فصاح بنا أصحاب على : « بايعوا » فبايع صاحبى ، وأما أنا فأمسكت وقلت : « بعثنى قومى لأمر فلا أحدث شيئاً حتى أرجع إليهم » فقال على : « فإن لم يفعلوا ؟ » فقلت : « لم أفعل » .

فقال : « أرأيت لو أنهم بعثوك رائداً ، فرجعت إليهم فأخبرتهم عن الكلأ والماء ، فمالوا إلى المعاطش والجدوبة : ما كنت صانعاً ؟ »

قلت : « كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلأ والماء » . قال : « فمد يدك » فوالله ما استطعت أن أمتنع ، فبسطت يدى فبايعته »(٢) وسألنى على : « ما سمعت من طلحة والزبير ؟ » فقلت : « أما الزبير فإنه يقول : « بايعنا كرها » وأما طلحة فمقبل على أن يتمثل الأشعار ويقول :

---

(١) هذا الخبر كبير الدلالة على الوجهة التى اتجه إليها الرأى العام فى إلقاء تبعة الحوادث على السيدة عائشة . وسواء أوقعت هذه الرؤيا أم لم تقع إن شيوع هذا الخبر منذ زمن الحوادث حتى زمن الطبرى كاف فى تصوير (نفسية الجماهير) وموقفها من خوض السيدة عائشة فى خضم السياسة . وما أجدر المؤرخ أن يكثر الوقوف والتأمل عند مثل هذه الأخبار وتناقلها : فليس أقوى منها فى الدلالة على ما يختلج فى النفوس على غير وعى منها من أحكام وجدانية ، حين لا يملكون من تفاصيل الحوادث ما يسعفهم على إصدار الأحكام منطقية ، ويقتنع حدسهم (وشعورهم اللاواعى) باتجاه خاص فيعبرون عنه بالرؤى والأحلام أو بتناقلها لما فيها من نصرة لما قر فى نفوسهم من رأى أو عقيدة .

(٢) كان هذا المحدث يشهد بعدها : « أن علياً من أدهى العرب » .

ألا أبلغ بنى بكر رسولا فليس إلى بنى كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم طويلُ الساعدين له فضول

فقال على : « ليس كذلك ، ولكن :

ألم تعلم أبا سمعان أنا نرد الشيخ مثلك ذا الصداع
ويذهل عقله بالحرب حتى يقوم فيستجيب لغير داع
فدافع عن خزاعة جمع بكر ومابك ياسراقة من دفاع[1]

ثم سار على حتى نزل إلى جانب البصرة ، وقد خندق طلحة والزبير ، فقال لنا أصحابنا من أهل البصرة : « ماسمعتم إخواننا من أهل الكوفة يريدون ويقولون » ؟ فقلنا : « يقولون : خرجنا للصلح ومانريد قتالا » اهـ

***

الإشراف على الصلح :

رجع القعقاع إلى على بجواب طلحة والزبير وعائشة ، فسرى عنه وأيقن بالعافية وجمع الكلمة . ثم قام علىّ على الغرائر يخطب ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة ، وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ، ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، ثم حدث هذا الحدث الذى جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ومصيب ما أراد ... ثم قال :

« ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ، ألا لا يرحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء ولْيُغْنِ السفهاء عنى أنفسهم[2] »

وعلى هذه الرغبة نفسها فى الصلح والإصلاح بات أصحاب الجمل ، ولم يستمعوا إلى من

---

(١) ذكر الطبرى أيضاً (٣ / ٥٠٤) أن علياً سأل جرير بن شرس عن طلحة والزبير فأخبره عن دقيق أمرهما وجليله وروى له تمثل طلحة بهذين البيتين والظاهر أنه كان كثير السؤال عنهما .

(٢) الطبرى ٣ / ٥٠٧ — لقد فطن على إلى عامل هام من عوامل الفتن وهو حسد الرعاع أهل الغنى . وذلك من أقوى الحوافز على الثورات .

كان يحرض على قتال . ومن المفيد أن ننقل لك حواراً بين الزبير نفسه وأحد هؤلاء المتحمسين لتعرف إخلاص القوم فى الرغبة فى الصلح :

قام أبو الجرباء إلى الزبير بن العوام فقال :

« إن الرأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل (يعنى علياً) أو يصبحوه قبل أن يوافى أصحابه »

فقال الزبير — وهو الذى تمنى قبل ذلك ألف فارس يقتل بهم عليا على ما مر بك ص ١٢٤ — :

« يا أبا الجرباء ، إنا لنعرف أمور الحرب ولكنهم أهل دعوتنا ، وهذا أمر حدث فى أشياء لم تكن قبل اليوم ؛ هذا أمر : من لم يلق الله عز وجل فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة ، ومع ذلك إنه قد فارقنا وافدهم على أمر ، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح فأبشروا واصبروا[1] » .

ثم جاء صبرة بن شيمان فقال :

« يا طلحة ، يا زبير ، انتهزا بنا هذا الرجل ، فإن الرأى فى الحرب خير من الشدة[1] »

فقال : « ياصبرة ، إنا وهم مسلمون ، وهذا (يريد الثأر لعثمان) أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن أو يكون فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ، إنما هو حدث . وقد زعم قوم أنه لا ينبغى تحريكه اليوم ، وهم على ومن معه ؛ فقلنا نحن : (لا ينبغى أن نتركه اليوم ولا نؤخره) فقال على : (هذا الذى ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم : شر ، وهو خير من شر منه ... وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعمها منفعة وأحوطها » .

وكذلك أقبل كعب بن سور يحرض طلحة والزبير ومن معهما على مبادرة القتال فأجابوه . « يا كعب ، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس . لا والله ما أخذ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مذ بعث الله عز وجل نبيه طريقاً إلا علمنا أين مواقع أقدامهم ... حتى حدث هذا ، فإنهم لا يدرون : أمقبلون هم أم مدبرون ؟ إن الشىء

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٨ و ٥٠٩

يحسن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا ، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم . وإنا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة ، ثم يحتجون بمثلها علينا . ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا ، وإلا فإن آخر الدواء الكيّ [١] »

كثر جدال الناس من الفريقين لزعمائهم فى هذا الأمر ، ومن الحق أن نعرض صورة لرغبة على ، مثل هذه التى تقدمت لأصحاب الجمل ، تمثل رغبته المخلصة فى السلامة و إيثار العافية :

سأله الأعور المنقرى فى جماعة من أهل الكوفة عن سبب إقدامهم فقال على :

« على الإصلاح و إطفاء النائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ، ويضع حربهم ، وقد أجابونى »

قال : « فإن لم يجيبونا ؟ » قال : « تركناهم ماتركونا »

قال : « فإن لم يتركونا » قال : « دفعناهم عن أنفسنا »

قال : « فهل لهم مثل ماعليهم من هذا ؟ » قال : « نعم »

ونهض إليه أبو سلامة الدالانى فقال : « أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل بذلك ؟ » قال : « نعم »

قال : « فترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ » قال — وأرجو أن تمعن فى جوابه — :

« نعم ، إن الشىء إذا كان لايدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعاً [١] » .

وسئل على عن قتلى الفريقين إن لم يتم الصلح فكان جوابه :

« إنى لأرجو ألا يقتل أحد نقىّ قلبه لله منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة [١] »

ولما كثر السؤال والجدال ، خشى علىّ استرسال الناس إلى أهوائهم الجامحة فأراد أن يفرغ على قلوبهم السكينة والرغبة فى العافية فخطبهم قائلا :

« يا أيها الناس ، املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم فإنهم إخوانكم ، واصبروا على مايأتيكم . وإياكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصم اليوم [١] »

لقد كانت منازع الزعماء من الفريقين متحدة فى رغبة الصلح وكره القتال طمعاً فى العافية و إيثاراً للسلامة وخوفاً لله عز وجل .

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٨ و ٥٠٩

نزول على البصرة :

ارتحل على بجموعه نحو البصرة ، وقد وقف له الناس بالطريق يريدون الانضمام إليه ، ولم يصل البصرة حتى تكامل جيشه بمن انضم إليه : عشرين ألفاً ، ورايته مع ابنه محمد بن الحنفية ، وعلى ميمنته ابنه الحسن ، وعلى ميسرته ابنه الحسين حتى إذا أطل على القوم بعث إليهم مع حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب :

« إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا ، وأقرونا ننزل وننظر فى هذا الأمر[1] » فأرسل إليه أصحاب الجمل : « إنا على مافارقنا عليه القعقاع فاقدم »

فقدم على حتى نزل على الزاوية ، ونزل طلحة والزبير فى الزابوقة وقد نزلت مضر جميعاً ونزلت فوقهم ربيعة جميعاً ، ونزلت أسفل منهم اليمن جميعاً : لايشكون أن الأمر آخذ بالانقشاع وأن الكلمة إلى اجتماع .

وكان أهل البصرة فرقاً شتى : فرقة مع طلحة والزبير وهى الغالبة ، وفرقة مع على ، وفرقة لاترى القتال مع أحد من الفريقين ؛ ومن هؤلاء الأحنف بن قيس أحد سادات البصرة ولعله أدهى هؤلاء على الإطلاق ، وقد علمت موقفه من أصحاب الجمل ص ١٢٣ . قدم الأحنف ومعه بنو سعد مشمرين قد منعوا — كما علمت — حرقوص بن زهير أن يناله أحد من أصحاب الجمل بسوء ، وهم لايرون القتال مع أحد الفريقين ؛ قدموا على علىّ فقال الأحنف لعلى :

« ياعلى ، إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً : أنك تقتل رجالهم وتسبى نساءهم »

فقال على : « مامثلى يخاف هذا منه ، وهل يحل هذا إلا ممن تولى وكفر ؟ ألم تسمع إلى قول الله عزوجل : (لَسْتَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ إلا مَنْ تَوَلّىٰ وَكَفَرَ[2]) وهم قوم مسلمون ؛ هل أنت مغن عنى قومك ؟ »

قال : « نعم ، واختر منى واحدة من اثنتين : إما أن أكون معك بنفسى ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف » فسأله على : « كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ »

---

(١) الصفحة السابقة .

(٢) سورة الغاشية ٨٨ الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

قال : « إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم » فقال على : « كُفَّ من قدرت على كفه » .

رجع الأحنف من عند على فلقيه من قومه هلال بن وكيع فسأله : « ما رأيك ؟ » قال الأحنف . « الاعتزال ، فما رأيك ؟ »

قال هلال : « نصرة أم المؤمنين : أفتدعنا وأنت سيدنا ؟ »

قال الأحنف : « إنما أكون سيدكم غداً إذا قُتِلْتَ و بقيتُ »

فقال هلال : « هذا وأنت شيخنا ؟!! » فقال : « أنا الشيخ المعصى وأنت الشاب المطاع »

ثم أقبل الأحنف ونادى : « يا آل زيد ، اعتزلوا هذا الأمر وولوا هذين الفريقين كَيْسه وعجزه (يريد صوابه وخطأه) [1] »

فقام المنجاب بن راشد فقال : « يا آل الرباب ، لاتعتزلوا واشهدوا هذا الأمر ، وتولوا كَيْسه » فأجابوه .

وقام أبو الجرباء فقال : « يا آل عمرو ، لا تعتزلوا هذا الأمر ، وتولوا كيسه » .

وعلى هذا اعتزل الأحنف إلى (وادى السباع [2]) ومعه بنو سعد ؛ ونهض المنجاب لنصرة عائشة على رأس قومه بنى الرباب و بنى ضبة ، وانضم أبو الجرباء على رأس بنى عمرو إلى أصحاب الجمل أيضا ، وكذلك هلال بن وكيع على حنظلة .

وعلى هذه الوتيرة انقسمت بقية القبائل ، كل فرقة تتبع رئيس فرقتها : منهم إلى القتال ومنهم إلى الاعتزال . حتى الأزد وهى من أشد القبائل نصرة لعائشة ، كان فيها من مال إلى الاعتزال إما إيثاراً للسلامة و إما عن اجتهاد ، فقد جاء كعب بن سور إلى صبرة بن شيمان سيد الأزد ينصحه قائلا :

---

(١) زاد الطبرى : فلم يبق سعدى إلا أجابه ، فاعتزل بهم ثم نظر ما يصنع الناس ... فلما وقع القتال وظفر على جاؤوه وافرين ، فدخلوا فيما دخل فيه الناس — ٣/٥١٠ .

(٢) ويروى الطبرى أن الأحنف غدا على طلحة والزبير فقال لهما : « والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين وحوارى رسول الله ، ولا أقاتل رجلا ابن عم رسول الله أمرتمونى ببيعته ؛ اختاروا منى واحدة من ثلاث : إما أن تفتحوا لى الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضى الله عز وجل من أمره ما قضى ، أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضى الله من أمره ما قضى ، أو أعتزل فأكون قريباً » . قالوا : « إنا نأتمر ثم نرسل إليك » . فائتمروا فقالوا : « نفتح له الجسر ويخبرهم بأخباركم ؟ ليس ذاكم برأى . اجعلوه ها هنا قريباً حيث تطؤون على صماخه وتنظرون إليه » . فاعتزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة ، فاعتزل معه ستة آلاف — ٣/٥١١ .

« إن الجموع إذا تراءوا لم تستطع ، وإنما هى بحور تدفق ، فأطعنى ولا تشهدهم ، واعتزل بقومك ، فإنى أخاف ألا يكون صلح وكن وراء هـذه النطفة[١] ودع هذين الغارين[١] من مضر ور بيعة فهما أخوان : فإن اصطلحا فالصلح أردنا ، وإن اقتتلا كنا حكاماً عليهم غداً » .

فأجاب صـبرة بعزيمة : « أخشى أن يكون فيك شىء من النصرانية (وكان كعب فى الجاهلية نصرانياً) أتأمرنى أن أغيب عن إصلاح بين الناس وأن أخـذل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردوا عليهم الصلح وأدع الطلب بدم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدا »

فأطبق أهل اليمن على الحضور وخسرت دعوة كعب إلى الاعتزال .

لقد كان من الممكن أن يكون لهذه الدعوات الاعتزالية أثر لو أن عائشـة لم تكن مع أصحاب الجمل ، فقد كان وجودها أقوى ما أحمى أنوف هؤلاء السـادات ، إنهم يريدون نصرتها مهما كلفهم الأمر ، إنهم ضربوا بهذه الدعوات — على سدادها وخيرها — عرض الحائط مراعاة لمقامها وقياماً بحقوقها :

أرسل عمران بن الحصين كبير بنى عدى رسولاً إلى قومه ، وأمره أن ينادى على باب مسجدهم — وهم أجمع مايكونون — قائلا :

« أرسلنى إليكم عمران بن الحصين صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ويحلف بالله الذى لا إله إلا هو : لأن يكون عبداً حبشياً مجدّعا يرعى أعنزاً فى رأس جبل حتى يدركه الموت ، أحب إليه من أن يرمى بسهم واحد بين الفريقين»

أترى هذا القول — على بلاغه وقوته — مغيراً شيئاً من موقف قومه ؟

كلا ، لقـد رفع شيوخ قومه رؤوسهم إليه فقالوا : « إنا لاندع ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشىء أبداً[٢] »

وهذا يقوله شيوخ الحى المحنكون الحلماء لاشبانهم ولافتيانهم ، فانظر مبلغ أثر عائشة فى النفوس ! !

ولقد شكا من مكانتها هذه وغار منها على نفسه ، فقد كان يقول : « بليت بأنضى

---

(١) من معانى النطفة : الماء الصافى قل أو كثر . الغار : الجمع العظيم .

(٢) الطبرى ٣/٥١٥ والمراد بالثقل : الزوجة .

الناس وأنطق الناس وأطوع الناس فى الناس » يريد بأنضى الناس : يعلى بن منية الذى جهز أصحاب الجمل من ماله ، و بأنطق الناس طلحة ، و بأطوع الناس فى الناس عائشة[١] .

ومن الحق أن نقرر هنا أن كثيراً من العقلاء حاولوا استئصال الشر قبل نشوبه فلم يفلحوا ، وأن طلحة والزبير أصبحا صادق النية فى الثأر لعثمان كما كانا مخلصين كل الإخلاص فى رغبتهما فى الصلح لما تملكهما من حيرة فى مسيرهما هذا : هما لا يرضيان بديلا من قتل قتلة عثمان بأسرع وقت مهما كلفهما الأمر ، وفى الوقت نفسه يخشيان أن يؤدى هذا الأمر إلى إهراق دماء بريئة يكونان هما المسؤولين عنها أمام الله ، وكانت عزيمتهما قوية صادقة فى الاستقتال توبة إلى الله مما قصرا فى حق عثمان رحمه الله ، لم يستطع أحد أن يردهما عنها على رغم خطئها الظاهر ، إنهما كانا مع هذه العزيمة الصادقة فى حيرة قاتلة ، ولقد سمع الناس منهما مايدل على هذه الحيرة مرات عديدة ، مر بك بعضها وسيمر بعضها الآخر ، وتأمل الآن موقفاً لكل منهما تدرك ما فى نفوسهما من قلق وألم :

قال رجل للزبير : « يا أبا عبدالله ، ماجاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ »

فقال الزبير : « إنا قرأناها على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر : (واتَّقُوا فِتْنَةً لاتُصِيبَنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصةً) ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت[٢] » .

أما طلحة فحيرته أشد وأعجب : قال له علقمة بن وقاص الليثى : « يا أبا محمد ، أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على زوْرك (صدرك) !! ؟ »

قال طلحة : « ياعلقمة بيننا نحن يد واحدة على من سوانا ، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا ؛ إنه كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى منه إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه » .

قال علقمة : فرد محمد بن طلحة فإن لك ضيعة وعيالا ، فإن يكن شىء يخلفك » .

فقال طلحة : « ما أحب أن أرى أحداً يخف فى هذا الأمر فأمنعه !! »

---

(١) العقد الفريد ٣/١٠٢ أنضى الناس : أكثرهم ناضاً (أى مالا) .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٦٤ والآية هى الخامسة والعشرون من سورة الأنفال (٨) .

فأتى علقمة محمد بن طلحة فقال له : « لو أقمت ، فإن حدث به حدث كنت تخلفه فى ضيعته وعياله » .

فقال محمد : « ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره !؟[١] »

فانظر كيف كان أخذ هذه الفتنة شديداً لهؤلاء الناس ، حتى استعصى نزعهم عنها على الحجج الواضحة والنصح المخلص . وما أصدق الحكمة القائلة : « الفتنة عمياء : إن أقبلت اشتبهت ، وإن أدبرت تبينت » ولو كان أحد مقلعا عنها بعد وقوع فيها لنصح أو تذكير ، لأقلع عنها هؤلاء الطيبون الأخيار .

* * *

بقى الناس ينتظرون هذا الصلح ، وتجرى بينهم الرسل ، وتقبل جماعة منهم إلى جماعة ثلاثة أيام . وكان فيما بين طلحة والزبير وعلىّ مانحن قاصوه عليك :

اجتماع الاقطاب :

سار على من الزاوية يريد طلحة والزبير وعائشة ، وساروا من الفرضة يريدون علياً ، والتقوا عند قصر عبيد الله بن زياد ، ونزلت عائشة مسجد الحُدّان فى الأزد ، وفى ساحتهم نشب القتال فيما بعد . وخطبت هناك عائشة أيضاً :

« أما بعد ، فإنا نقمنا على عثمان : ضرب السوط ، وإمرة الفتيان ، وموضع المسحاة المحمية . ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم ، فلما مصتموه كما يماص الثوب الرحيض عدوتم عليه فارتكبتم منه دماً حراماً ، وايم الله : إنْ كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم لله ...[٢] »

تراءى الجمعان ، وخرج الزبير على فرسه (ذى الخمار) وعليه سلاح — وكان ذلك على رواية الطبرى فى النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين — فقيل لعلى : «هذا الزبير» فقال : « أما إنه أحرى الرجلين إذا ذكر بالله أن يذكر » . وخرج طلحة ، فخرج إليهما على فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم ، فقال على :

« لعمرى لقد أعددتما خيلاً وسلاحاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً ، فاتقيا الله

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٩٣ والطبرى

(٢) شرح نهج البلاغة ٢ — ٨١ الموص : الغسل ، الرحيض : المغسول .

سبحانه ولاتكونا (كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا [١]) » ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دماءكما ؟ فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ »

قال طلحة : « ألَّبْتَ الناس على عثمان !! »

قال على : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ [٢] » ياطلحة تطلب بدم عثمان !! فلعن الله قتلة عثمان » ، « ياطلحة ، جئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت !! أما بايعتنى ؟ »

قال : « بايعتك وعلى عنقى اللج (السيف) »

وقال على للزبير : « ماجاء بك ؟ » قال : أنت ولا أراك لهذا الأمر أهلا ، ولا أولى به منا » . فقال على : « لست لها أهلا بعد عثمان ؟ ! قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ، ففرق بيننا و بينك » . وعظم عليه أشياء تزعم الرواية أنه ذكره بها وأن مما قاله له :

« يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم ، فنظر إلىّ فضحك وضحكت إليه ، فقلتَ (لايدع ابن أبى طالب زهوه) فقال لك رسول الله : (صه إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم) ؟ »

قال الزبير : « اللهم نعم : ولو ذكرت ماسرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً [٣] »

ويذكرون أيضاً — وعلى الرواة العهدة دائماً — أن علياً قال لطلحة والزبير قبل القتال « استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله عليها أربع خصال أن تصدق فيها :

١ — هل تعلم رجلا من قريش أولى منى بالله ورسوله و إسلامى قبل كافة [كذا] الناس أجمعين وكفايتى رسول الله بسيفى ورمحى ؟

٢ — وعلى براءتى من دم عثمان ،

٣ — وعلى أنى لم أستكره أحداً على بيعة ،

---

(١) سورة النحل ١٦ الآية ٩٢ — يعرض لهما على بيعتهما ثم نقضهما . والمضروب بها المثل فى الآية امرأة حمقاء من مكة كانت تنزل طول يومها ، فاذا أمست نقضت كل ما غزلت فى يومها . ضرب الله هذا المثل للذين يعاهدون ثم ينقضون .

(٢) سورة النور ٢٤ الآية ٢٥ .

(٣) كذا فى الطبرى ٣/٥١٤ والله أعلم .

٤ — وعلى أنى لم أكن أحسن قولا فى عثمان منكما » .

فأجابه طلحة جواباً غليظا ورق له الزبير [١]

ولعل هذا الاجتماع قد قرب بين الفريقين ، فرجع على إلى عسكره وقال لهم : « أما الزبير فقد أعطى الله عهدا ألا يقاتلكم » ، ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما ثم تبادلا الرسل ، فأرسل على عبد الله بن عباس من العشى إلى طلحة والزبير ، وكان فيما قال له :

« ائت الزبير ولا تأت طلحة ، فإن الزبير ألين — وأنت تجد طلحة عاقصاً بقرنه : يركب الصعوبة ويقول : هى أسهل — فأقرئه منى السلام وقل له : (يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟؟) » [فجعل الزبير ينقر بمروحة كانت بيده فى الأرض ، ثم رفع رأسه وقال : « ترفع لكم المصاحف غداً فما أحلت حللنا وماحرمت حرمنا » . ثم انصرف فناداه عبدالله بن الزبير ، فأقبل ابن عباس وهو كاره لكلامه] [٢] فقال : « قل له : بيننا و بينك عهد خليفة ودم خليفة ، واجتماع ثلاثة وانفراد واحد ، وأم مبرورة ، ومشاورة العشيرة ، ونشر المصاحف : تحل ما أحلت وتحرم ما حرمت [٣] »

و بعث طلحة والزبير محمد بن طلحة إلى على ، واتفقت كلمة الجميع ظاهراً وباطناً ماخلا الذين اشتركوا فى دم عثمان .

وأرسل على إلى رؤساء أصحابه ، وكذلك فعل طلحة والزبير فأرسلا إلى رؤساء أصحابهما ما كان عليه الإجماع ، فقالوا : « نعم » واتفقوا على الصلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية والسلم الذى أشرفوا عليه ، وبات الذين أثاروا على عثمان بشر ليلة باتوها قط . وجعلوا يتشاورون ليلتهم سراً خشية أن يفطن أحد لما يحاولون من الشر .

---

(١) الإمامة والسياسة ٦٣/١ . ومما ضعف الخبر عندى — عدا استبعادى تكليف على صاحبه تحليف عائشة قبل القتال ، وعدا حزبية صاحب الإمامة والسياسة ، وعدا أن العرب الأولين لا يقولون (كافة الناس) بل يقولون (الناس كافة) — أن عائشة لم تكن حاضرة البيعة فى المدينة ، كانت حينئذ بمكة ولم ترجع إلى المدينة حتى هذا الاجتماع ، فكيف تستحلف على أمر لم تكن شاهدته ؟؟!

(٢) هذه الزيادة الضرورية بين زاويتين عن تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٦٣/٥

(٣) العقد الفريد ٩٦/٣ — أراد هو بالخليفة الأول عمر حيث عهد إلى طلحة والزبير وعلى وبقية الستة أصحاب الشورى عند مقتله : أن يكون الخليفة أحدهم . والخليفة الثانى عثمان . وأراد بالثلاثة طلحة والزبير وعائشة — وابن عساكر يعزو هذا الجواب عدا الجملة الأخيرة (ونشر المصاحف الخ) إلى ابن الزبير لا إلى الزبير كما فى العقد . وهذا أشبه أن يكون .

المؤامرة :

أشرف الفريقان على الصلح والاجتماع ، وكان فى هـذا ما يسر الناس جميعاً إلا فريقاً لا يطيب عيشهم إلا بتأريث الشر ، وهم السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة فى دمه ، عرفوا أن لا مقام لهم سواء : أنتصر علىّ أم خصومه : لأن علياً لن يسكت عن إقامة حـد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص ، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحداً ممن شرك فى دم عثمان ، لقد كان همهم قتلة عثمان أينما كانوا .

جمع ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) وخالد بن ملجم هؤلاء النفر ، وكان منهم علباء ابن الهيثم وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة ، وشريح بن أوفى ، والأشتر . . . فى عدة ممن سار إلى عثمان . . وتشاوروا فقالوا :

« ما الرأى ؟ وهذا والله على — وهو أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك — وهو يقول ما يقول (يعنون خطبته على الغرائر ص ١٤٥) ولم ينفر إليه إلا هم (أى قتلة عثمان) والقليل من غيرهم ؛ فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه وإذا رأى قلتنا فى كثرتهم ؟ . . . أنتم والله ترادون ، وما أنتم بأنجى من شىء » .

فقال الأشـتر : « أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما على فلم نعرف أمره حتى كان اليوم . ورأى الناس فينا واحـد ، وإن يصطلحوا فعلى دمائنا . . فهلموا فلنتواثب على علىّ فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون » .

فقال ابن السوداء : « بئس الرأى رأيت : أنتم يا قتـلة عثمان من أهل الكوفة بذى قار ألفان وخمسمائة ، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع بن عمرو) وأصحابه فى خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلا ؛ فارقأ على ظَلْعك[1] » .

وقال علباء بن الهيثم : « انصرفوا بنا عنهم ودعوهم ؛ فإن قلوا كان أقوى لعدوهم عليهم وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم . دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تثقون به ، وامتنعوا من الناس » .

---

(١) الظلع : الغمز فى المشى والميل ، أى إنك ضعيف فتكلف ما تطيق — القاموس .

فقال ابن السوداء : « بئس ما رأيت : ود — والله — الناس أنكم على جديلة (ناحية) ولم تكونوا مع أقوام برآء ، ولو كان ذلك الذى تقول لتخطفكم كل شىء »

وقال عدى بن حاتم : « والله ما رضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله فى خوض الحديث ؛ فأما إذ وقع ما وقع ، ونزل من الناس بهذه المنزلة ، فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً ؛ فإن أقدمتم أقدمنا و إن أمسكتم أحجمنا » .

فقال ابن السوداء : « أحسنت » .

وقال سالم بن ثعلبة : « من كان أراد فيما أتى الدنيا فإنى لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتى ، ولئن طال بقائى إذا أنا لاقيتهم لا يزيد على جزر جزور[1] وأحلف بالله إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف » .

فقال ابن السوداء : « إن هذا قد قال قولا » .

وقال شريح بن أوفى : « أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغى لكم تأخيره ؛ إنا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدرى : ما الناس صانعون بنا غداً إذا ما هم التقوا » .

ثم تكلم ابن السوداء فقال :

« يا قوم ، إن عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، و إذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر : فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، و يشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون . فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون[2] »

* * *

قاتل الله ابن السوداء ، فوالله ما أراه إلا شيطاناً خلق من مارج من نار . ما أبصره بطرق الفتنة و بث العقارب ؛ وما أدق توهينه تلك الطرق التى أشار إليها أصحابه ، ما أفطنه إلى ضعفها وقلة غنائها ، ثم كيف آل به تقليب الرأى حتى اهتدى إلى التى ليس بعدها شر منها : قاصمة الظهر ومبيدة الأمم !

---

(١) يريد وقتاً بمقدار ما تنحر الذبيحة وتجلد (تسلخ) .

(٢) حفظ هذه المؤامرة الطبرى فى تاريخه ٣/٥٠٧ — ٥٠٨

ومنذا الذى يقرأ هذه المؤامرة وكيف قلّب أصحابها الآراء على وجوهها المختلفة ، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذكره أصحاب السير عن مجلس كفار قريش فى دار الندوة : يجيلون الرأى فى محمد صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، وقد حضر اجتماعهم ذلك إبليس بهيئة شيخ نجدى ، فجعل كلما عرض أحدهم رأياً فى القضاء على دعوة محمد ، وهنه وأظهر فساده . . حتى أعيا القوم جميعاً بحجته ، فسألوه : ما عنده ؟ فقال : « تختارون من كل قبيلة رجلا جلداً فيجتمعون ويضربون محمداً ضرب رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، ولا طاقة لبنى هاشم بقتال العرب كافة » .

أليست تلك المؤامرة نسخة طبق الأصل (كما يقولون) عن هذا المجلس ؟

أليس ابن السوداء هذا إبليس بعينه ؟ وأستغفر الله ، فأين يقع منه إبليس !! لهو والله أبلغ نكاية بهذه الأمة من إبليس ، وأبعد منه أثراً فى الدس والكيد . وأخشى أن يكون الذى ظنوه إبليس : ابناً من أبناء السوداوات أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود : تنكر لهم شيخاً نجدياً إحكاماً لدسيسته .

وبعد ، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء[1] ؟

وهل غرّهم أحد بمثل ما زوّر لهم من كلام ترويجاً لدعوته[1] ؟

وهل دم عثمان إلا ثمرة نجاح خطة ابن السوداء هذا ؟

وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلا ثمرة خبّه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله ؟

وما يزال المسلمون من يومهم ذاك الى الآن فى شرور آخذ بعضها برقاب بعض ، يزجها إليهم أبناء السوداوات[2] فى مختلف الأمصار والأعصار ؛ وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إليهم إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

---

(١) لعلك تذكر ما تقدم عنه فى أيام عثمان ص ٤٨ فما بعد .

(٢) يصح أن يطلق (أبناء السوداوات) على الذين قاموا ويقومون فى المجتمع الإسلامى فى ميادينه الفكرية والعلمية والاجتماعية والسياسية والدينية ... بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيامنا هذه ، تسمية لهم باسم أعظمهم شراً ودساً وكيداً : عبد الله بن سبأ ، ابن السوداء .

الفصل الثالث

الدسيسة والمعركة الكبرى

الدسيسة :

لما كان الغلس انسل هؤلاء المؤتمرون — وما يشعر بهم جيرانهم — إلى الأمر الذى أجمعوا عليه انسلالا وعليهم ظلمة ، فخرج مضريّهم إلى مضريّهم ، وربَعيهم إلى ربعيهم ، ويمانيّهم إلى يمانيّهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بغتوهم . .

فجىء الناس جميعاً ، وخرج طلحة والزبير فسألا : « وما هذا ؟ » قالوا : « طرقنا أهل الكوفة ليلاً » فقالا : « قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ، وأنه لن يطاوعنا » . ثم خرجا فى وجوه الناس من مضر ، فبعثا إلى الميمنة — وهم ربيعة — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يعبئها ، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وثبتا فى القلب .

استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم ؛ فسمع على الصوت — وكان السبئيون المؤتمرون وضعوا طبقاً لخطتهم رجلا قريباً منه ليخبره بما يريدون — فلما قال : « ما هذا ؟ » قال ذاك الرجل :

« ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا ، فرددناهم من حيث جاؤوا فوجدنا القوم على رِجْل فركبونا وثار الناس » .

فقال على لصاحب ميمنته : « اثبت الميمنة » وقال لصاحب ميسرته : « اثبت الميسرة » « قد علمت : أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا » .

والسبئية لا تفتر إنشاباً ، وألجأتهم المعركة إلى الخندق ، فاقتتلوا عليه حتى أفضوا إلى موضع القتال ، وعلى ينادى :

« أيها الناس كفوا ، فلا شىء »

وكان من رأيهم جميعاً فى تلك الفتنة ألا يقتتلوا حتى يُبدؤوا : يطلبون بذلك الحجة على الآخرين ، وقد نادى منادى كل من الفريقين : « لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح[1] » .

المعركة :

أسرع كعب بن سور قاضى البصرة إلى عائشة يقول :

« أدركى فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك » .

فألبسوا هودجها الأدراع ثم بعثوا جملها (عسكر) ، فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الغوغاء وقفت ، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة فقالت : « ما هذا ؟ » قالوا « ضجة العسكر » قالت : « بخير أم بشر ؟ » قالوا : « بشر » .

قالت : « فأى الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون » . ثم كانت كلما سمعت تكبيرهم قالت : « لا تكثروا الصياح فإن كثرة التكبير عند اللقاء من الفشل[2] » .

لم يكن الجند فى الصفين من العامة والغوغاء فحسب ، بل كان فيهم عدد كبير من أماثل الناس وعيونهم وقرائهم وقضاتهم وفقهائهم : فريق مع على وفريق مع عائشة . والعجيب أن كلا من الفريقين أراد إلزام خصمه الحجة ، وأراد ألا يقدم على قتال حتى يبدأه خصمه فيثبت بذلك لنفسه عذراً بينه و بين الله ؛ فكلا الفريقين أرسل رجلا بيده مصحف يدعو إليه ، وكلا الرجلين قتل :

روى الطبرى أن علياً طاف على أصحابه بيده مصحف وقال :

---

(١) الطبرى ٣/٥١٨

(٢) عيون الأخبار ٣/١٠٨ وقبل هذه الفقرة : « قال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه : « ألا ترونهم (يعنى أصحاب محمد) جثياً على الركب كأنهم خرس يتلمظون تلمظ الحيات ؟ »

ورواية العقد الفريد (١/٥١) أنها قالت وقد سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم : « المنازعة فى الحرب خور ، والصياح فيها فشل ، وما برأيى خرجت مع هؤلاء » .

« أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه ؛ فإن قطعت يده أخـذه بيده الأخرى ، وإن قطعت أخذه بأسنانه وهو مقتول ؟ »

فقام إليـه فتى من أهل الـكوفة ، عليه قباء أبيض محشو ، فقال : « أنا » فأعرض عنه ثم قال : « من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيـه وهو مقتول ؟ » فقال الفتى : « أنا » فأعرض عنه ، ثم قال ثالثة ، وقال الفتى : « أنا » فدفعه إليه وقال له :

« اعرض عليهم هذا وقل : هو بيننا و بينكم من أوله إلى آخره ، والله في دمائنا ودمائكم » . فحمله الفتى ودعاهم ، فحملوا عليه فقطعوا يده اليمنى ، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم فقطعوا يده اليسرى ، فأخـذه بصدره والدماء تسيل على قبائه ، فرشقوه رشقاً واحـداً فقتلوه . . فقال علي : « الآن حل قتالهم وطاب لـكم الضراب[1] » .

فبدأ القتال حين قتل هذا الفتى .

كان علي ميمنة على ابنـه الحسن وعلى ميسرته ابنه الحسين ، ورايته مع ابنه محمد بن الحنفية . ويسمى صاحب العقد الفريد زيادة على الطبري : عمار بن ياسر على الخيل ، ومحمد ابن أبي بكر على الرجالة ، وعبد الله بن عباس على المقدمة .

وأما جيش البصرة فكان فيه على الخيل طلحة ، وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير ، والراية مع عبد الله بن حكيم بن حزام .

كان اللقاء بموضع قصر عبيد الله بن زياد ، وكان القتال ذلك اليوم من ارتفاع النهار إلى قريب من العصر :

---

(١) الطبري ٣/٥٢٠ ، ٥٢٢ — وذكر أن أم الفتى قالت بعد ذلك فيما ترثيه :

لاهمّ إن مسلماً أتاهمُ
مستسلماً للموت إذ دعاهمُ
إلى كتاب الله لا يخشاهمُ
فزملوه من دم إذ جاهم
وأمهم فاثمة تراهم
يأتمرون الغي لا تنهاهم
قد خضبت من علق لحاهم »

انهزم أصحاب الجمل بعد مقتل الفتى وحملة أصحاب على عليهم صدر النهار ، فنادى الزبير [١] : « أنا الزبير ، هلموا إلى أيها الناس » ومعه مولى له ينادى : « أعن حوارىّ رسول الله تنهزمون ؟ » وصدق الزبير الحملة ، إلا أن أصحاب على كانوا يفرجون له ولا يقتلونه لما عرفوا من أنه محرج ؛ حتى إن عمارا حمل عليه فى المعركة ، فجعل يحوزه بالرمح فيقول له الزبير : « أتريد أن تقتلنى يا أبا اليقظان ؟ » فيقول عمار « لا يا أبا عبدالله . » ثم انحاز الزبير إلى وادى السباع (فى قصة سيأتى تفصيلها عند الكلام على القتلى) واتبعه فرسان وتشاغل الناس عنه بالناس ، فلما رأى الفرسان تتبعه عطف عليهم ففرق بينهم ، فكروا عليه ، فلما عرفوه قالوا : « الزبير ، دعوه » .

وجرح فى أول المعركة طلحة فمر به القعقاع — وهو على ماعرفت من جنود على — فى نفر وطلحة يقول : « إلىّ عباد الله إلىّ ، الصبر الصبر » فقال له : « يا أبا محمد ، إنك لجريح ؛ وإنك عما تريد لعليل ؛ فادخل الأبيات » . فقال طلحة : « ياغلام ، أدخلنى وابغنى مكاناً » فأدخل البصرة ومعه غلام ورجلان .

* * *

اقتتل الناس — وقد غاب طلحة والزبير — وانهزم أصحاب الجمل صدر النهار وأقبلوا فى هزيمتهم تلك وهم يريدون البصرة ، فلما رأوا الجمل وأطافت به مضر ، عادوا قلباً كما كانوا حيث التقوا ، وعادوا إلى أمر جديد ، ووقفت ربيعة البصرة : منهم ميمنة ومنهم ميسرة وحف بالجمل أولو النجدة الشجعان : كلما أخذ بخطامه قرم فلقى حتفه ، جاء آخر يقوده والأبطال تلوذ به وتذود عنه ، وترتجز : تفدى الجمل ومن عليه . وقد قتل يومئذ سبعون رجلا من قريش .

---

(١) يذكرون أن فارساً أتى الزبير قبيل ذلك فقال له : « السلام عليك أيها الأمير ، قد جاء القوم (أصحاب على) حتى أتوا مكان كذا ، فسمعوا بما جمع الله عز وجل لكم من العدد والعدة ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب فولوا مدبرين » قال الزبير : « إيهاً عنك ، فوالله لو لم يجد ابن أبى طالب إلا العرفج لدب لنا فيه » . — العرفج : شجر سهلى ، والعرافج : رمال لا طريق فيها — الطبرى ٣/٥٢١

والذى أخرج به من هذا النص أن رؤوس أصحاب الجمل موقنون بغلبة على ، وأن اجتهادهم فى القتال كان حمية من جهة وتكفيراً عن تقصيرهم فى حق الخليفة الشهيد ، فأرادوا أن يبلوا عذراً فى الوقيعة بجيش أغلب المؤلبين على عثمان فيه .

تصادمت المجنبتان حين تزاحفتا صداماً شديداً ، وحمى القتال من جديد ، وحملت ميمنة علىّ على ميسرة أهل البصرة فاقتتلوا ، ولاذ الناس بعائشة وأكثرهم من ضبة والأزد وهم ينادون بعلى : «أعطنا سنة العمرين[١] »

وأرادت عائشة وقد أصبحت هى قلب المعركة ، أن تقوم بمحاولة جديدة إن نجحت وقفت القتال ، وإلا كان منه إحماء لجندها حتى يستبسلوا أو يفنوا :

قالت لقائد جملها كعب بن سور :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه » ودفعت إليه مصحفا . وأقبل القوم فاستقبلهم كعب بالمصحف بين الصفين : يناشدهم الله فى دمائهم ، وأعطى كعب درعه فرمى بها تحته ، وأتى بترسه فتنكبه ، وهو يدعوهم مجتهداً إلى كتاب الله والكف عن القتال .

وكان أمام القوم فى كرهم السبئية ؛ يجتهدون فى إنشاب القتال ويتولون إضرامه كلما فتر خوفاً من أن يجرى الصلح ، فتقدموا ، وأدرك علىّ غرضهم فجعل يزعهم (يمنعهم) من خلفهم ويأبون إلا إقداما ؛ فلما رأوا كعباً والمصحف رشقوه رشقا واحداً فقتلوه ، ورموا عائشة فى هودجها فجعلت تنادى :

« يا بنى البقية البقية (ويعلو صوتها كثرة) الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب » فيأبون إلا إقداما . .

فكان أول شىء أحدثته حين أبوا ، أن قالت : « أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم » . وأقبلت تدعو . . وضج أهل البصرة بالدعاء . وسمع علىّ الدعاء فقال : « ماهذه الضجة ؟ » فقالوا : « عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم » فأقبل علىّ نفسه — وعلى يمينه ابنه محمد بن الحنفية وعلى يساره ابن عباس — يدعو أيضاً وهو يقول : « اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم فى السهل والجبل والبر والبحر[٢] »

وأرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث : « اثبتا مكانكما »

---

(١) الكامل للمبرد ص ٨٣ (طبعة أوروبا) والعمران : أبو بكر وعمر

(٢) الطبرى وابن خلدون ٢/١٦٣ والعقد الفريد ٣/٩٠

وحرضت الناس حين رأت أن القوم لا يريدون غيرها ولا يكفون عن الناس .

«فازدلفت مضر البصرة فقصفت مضر الكوفة حتى زوحم على نفسه ، فنخس قفا ابنه محمد صاحب رايته وقال له : « احمل » فنكل ، وأهوى على إلى الراية ليأخذها منه ، فحمل محمد ، وحملت مضر الكوفة فاجتلدوا قدام الجمل حتى ضرسوا[1] ، والمجنبات على حالها لا تصنع شيئاً . ومع على أقوام غير مضر قد أشفق كثير منهم لما عضهم القتال بوطأته ، وكان فيهم زيد بن صوحان — وهو غير مضرى — بيده راية ميسرة أهل الكوفة فقال له رجل : « تنح إلى قومك ، مالك ولهذا الموقف ؟ ألست تعلم أن مضر حيالك ؟ وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ » فقال زيد : « الموت خير من الحياة ، الموت ما أريد . » فأصيب فأخذ الراية أخوه سيحان ثم صعصعة ، ثم ارتث صعصعة واشتدت الحرب ...

فلما رأى ذلك على ، بعث إلى اليمن ور بيعة : « أن اجتمعوا على من يليكم » وقام رجل من عبد القيس ينادى فى أصحاب الجمل : « ندعوكم إلى كتاب الله عز وجل . »

فقالوا : « كيف يدعو إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله سبحانه ، ومن قتل داعى الله كعب بن سور ؟؟ » ورمته ربيعة رشقاً واحداً فقتلوه ، وقام مقامه مسلم بن عبد الله العجلى فرشقوه أيضاً فقتلوه ثم دعت يمن الكوفة يمن البصرة فرشقوهم[2] .

رأى على أن يمن البصرة هزمت يمن الكوفة ، وأن ربيعة البصرة هزمت ربيعة الكوفة ، فزحف بمضر الكوفة إلى مضر البصرة يقول : « إن الموت ليس منه فوت : يدرك الهارب ولا يدع المقيم » فحمى القتال هكذا . وكان إزاء كل قبيلة أقرانهم من أبناء عمهم يقاتلونهم حمية لمصرهم ولرؤسائهم .

ورووا أن علياً قال للأشتر النخعى يوم الجمل : « احمل » فحمل فى أصحابه أهل اليمن فكشف من بإزائه ثم قال لهاشم بن عتبة وكان على الميسرة : « احمل » فحمل فى المضرية فكشف من بإزائه فذكروا أن علياً جعل يقول : « كيف رأيتم مضرى ويمنى ؟ ![2] »

كاد القتال ينتهى صدر النهار بعد غياب طلحة والزبير بعد أن شهدا أوله ، لولا أن

---

(١) مارسوا شدتها حتى صاروا لها محكمين مجربين .

(٢) الكامل للمبرد (ص ٢٣٥ طبعة أوربا) .

عائشة شهدت وسطه وآخره ، ولها اليد الطولى فى دوامه وثبات البصريين بما كانت تحضهم وتخطبهم وتفدّيهم . ثم استحر القتل ثانية واشتد ، واستمات الناس فى القتال حتى لم ير محمد ابن الحنفية صاحب راية على متقدماً إلا على رمح ، وأبوه يقول له : « تقدم لا أم لك » وهو يتلكأ ويقول : « لا أجد متقدماً إلا على سنان رمح » فانتزع علىّ الراية من يده وهو يرتجز :

أنتِ التى غرتكِ منى الحسنى
ياعَيْش إن القوم قوم أعـدا
الخفض خير من قتـال الأبنا[1]

ثم تزاحفت المجنبتان ، واقتتلتا قتالا شديداً يشبه ما فيه القلبان ، واقتتل أهل اليمن ، فقتل على راية على من أهل الكوفة عشرة كلما أخذها رجل قتل : خمسة من همدان وخمسة من سائر اليمن ، فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها فثبتت فى يده وهو يقول :

قد عشت يا نفس وقد غنيتِ
دهراً فقَطْكِ[2] اليوم ما بقيتِ

والتقى عبد الله بن حكيم بن حزام حامل راية قريش من أصحاب الجمل بعدى بن حاتم ، فتصاولا كالفحلين ، فتعاور أصحاب علىّ عبد الله حتى قتلوه ، بعد أن طعن عدياً فى عينه ففقأها .

ما زال القتلى يسقطون حتى تنادى الكماة فى العسكرين :

« يا أيها الناس ، طرِّفوا إذا فرغ الصبر وعز النصر » أى « أصيبوا الأطراف وميلوا عن المقاتل » . وذلك لما رأوا من استماتة الناس وتفانيهم وصبرهم على القتال ، فجعلوا يقصدون الأطراف : الأيدى والأرجل ، فما رئيت وقعة قط قبلها ولا بعدها أكثر يداً مقطوعة ورجلا مقطوعة منها : لا يدرى من صاحبها . وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب يومئذ قبل قتله ،

---

(١) الطبرى ٣/٥٢٤ .
(٢) فحسبك .

وكان الرجل من هؤلاء وهؤلاء إذا أصيب شيء من أطرافه استقتل حتى يقتل .

ثم حمى القتال وزاد شدة ، حتى رجعت ميمنة الكوفة إلى القلب ، ولزقت ميسرة البصرة بقلبهم ومنعوا ميمنة الكوفة أن يختلطوا بقلبهم و إن كانوا إلى جنبهم ، وفعل مثل ذلك ميسرة الكوفة وميمنة البصرة . وجعلت عائشة تشجع الناس وتثنى على حميتهم :

قالت لمن على يسارها : « من القوم ؟ » فقال صبرة بن شيمان: « بنوك الأزد » فقالت : « يال غسان ، حافظوا اليوم على جلادكم الذى كنا نسمع به ، وتمثلت :

وجالد من غسان أهل حفاظها وهِنْبٌ وأوسٌ جالدت وشبيبُ

وقالت لمن على يمينها : « من القوم ؟ » قالوا : « بكر بن وائل » فقالت : « لكم يقول القائل :

وجاؤوا إلينا فى الحديد كأنهم من العزة القعساء بكر بن وائل

فاقتتلوا أشد من قتالهم قبل ذلك .

وأقبلت على كتيبة بين يديها فقالت : « من القوم ؟ » قالوا : « بنو ناجية » ، قالت: « بخْ بخْ ، سيوف أبطحية وسيوف قرشية ، فجالدوا جلاداً يتفادى منه » .

ثم أطافت بها بنو ضبة فقالت : « وَيْهَنْ : جمرة الجمرات[١] » ؛ حتى إذا رقوا وضعفوا خالطهم بنو عدى وكثروا حولها ، فقالت : « من أنتم ؟ » قالوا : « بنو عدى ، خالطنا إخواننا » . فقالت : « ما زال رأس الجمل معتدلا حتى قتلت بنو ضبة حولى » .

فأقاموا رأس الجمل ، ثم ضربوا ضرباً ليس بالتعذير[٢] ، ولا يعدلون بالتطريف ، حتى إذا كثر ذلك وظهر فى العسكرين جميعاً قالوا : « لا يزال القوم أو يصرع الجمل » وثبتت مجنبتا على وطاعنتا حتى صارتا فى القلب وكره القوم بعضهم بعضاً[٣] .

* * *

(١) التجمير : التجميع ، وجمرات العرب ثلاث : بنو عامر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد . وإنما سموا بذلك لأنهم يتوافرون فى أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم لكثرتهم وعزتهم — انظر زهر الآداب ١/٥٥ . ٥٦ (الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية) .

(٢) التعذير : عدم ثبات العذر ، التقصير — يعنى أنهم لم يقصروا .

(٣) الطبرى ٣/٥٢٦ .

من غريب ما يدل على تفانى القوم بإخلاص فى هذه الحرب ، استماتة رجل من الفقهاء الأجلة بين يدى عائشة ؛ وهو عمرو بن يثربى وكان قاضياً على البصرة قبل كعب بن سور . كان عمرو آخذاً بزمام الجمل بعد مقتل كعب بن سور وهو يرتجز :

يا أمنا يا زوجة النبيّ
يا زوجة المبارك المهديّ :
نحن بنو ضبة لا نفرّ
حتى نرى جماجماً تخرّ
يخر منها العلق المحمرّ[1]

فلما انتدب علىّ للجمل من يعقره ، انتدب هند بن عمرو المرادى ، فاعترضه ابن يثربى ، فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثربى ، ثم حمل سيحان بن صوحان فاعترضه ابن يثربى فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثربى ، ثم علباء بن الهيثم فاعترضه ابن يثربى فقتله ، ثم حمل صعصعة فقتله ابن يثربى وجعل يرتجز :

أنا لمن ينكرنى ابن يثربى
قاتل علباء وهند الجملى
وابن لصوحان على دين على

فناداه عمار : « قد — لعمرى — لذت بحريز ، وما إليك سبيل ، فإن كنت صادقاً فاخرج من هذه الكتيبة إلىّ . » فترك ابن يثربى الزمام بيد رجل من بنى عدى حتى كان بين أصحاب عائشة وأصحاب على ، وقال : « من يبارز ؟ » فبرز له رجل فقتله ، ثم برز آخر فقتله وارتجز :

أقتلهم ولا أرى عليا
ولو أشا أوجرته عمريا[2]
أقتلهم ولا أرى أبا حسنْ
كفى بهذا حزنا من الحزن

(١) الكامل لابن الأثير ٣/١٠٦ ، وقد أوردها كما أثبتها (نحن بنو ضبة) .
(٢) أوجره الرمح : طعنه به فى فيه — أمرّ الأمر : أحكمه ، أمرّ الحبل : أحكم فتل طيقانه .

إنا نمرّ الأمر إمرار الرسن[١]

فبرز له عمار بن ياسر وهو يومئذ ابن تسعين سنة ، وكان قضيفاً حمش الساقين[١] ، عليه سيف حمائله بشقه ، قائمه قريب من إبطه ، وعليه فَرْو قد شد وسطه بحبل من ليف ، وإن عماراً لأضعف من بارزه ابن يثربى . فلما خرج جعل الناس يسترجعون ويقولون لضعفه : « هذا والله لاحق بأصحابه » فبدر له عمرو بن يثربى ، فنحّى له درقته (ترسه) ، فنشب سيفه فيها ، وضربه عمار فأوهطه[٢] وأسف[٢] لرجليه فقطعهما فوقع على استه ، وحمل عليه أصحاب على بالحجارة حتى أثخنوه وارتثوه ، فحملوه إلى على فقال له : «استبقنى» فقال على : «أبعد ثلاثة تقبل عليهم بسيفك تضرب به وجوههم[٣]؟» فأمر به فقتل وربما كان هذا هو الوحيد الذى أمر على بالإجهاز عليه ، على رغم ما كان نهى عنه من ذلك .

لما قتل ابن يثربى ، ترك العدوى الزمام ثم خرج فنادى : «من يبارز؟» فخنس عمار ، وبرز إليه من أصحاب علىّ رجل يدعى ربيعة العقلى وهو من أشد الناس صوتا ، فخرج يرتجز ويقول :

يا أمنا أعق أمّ نعلمُ
والأم تغذو ولداً وترحم
أما ترين كم شجاع يُكلم
وتختلى منه يد ومعصم؟؟[٤]

ثم اضطربا ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه فماتا . فقام مقامه رجل من بنى ضبة[٥] مارئى أشد منه قط ، يقلب سيفاً بيده كأنه مخراق وهو يقول :

نحن بنى ضبة أصحاب الجملْ
ننازل الموت إذا الموت نزلْ
لا عار فى الموت إذا حان الأجلْ

---

(١) انظر الحاشية السابقة . القضيف : النحيف . حمش : دقيق .
(٢) طعنه وأوهنه . الإسفاف : دنو الطائر من الأرض فى طيرانه .
(٣) الطبرى ٣/٥٢٨ ، ٥٢٩ .
(٤) يكلم : يجرح . تختلى : تقطع .
(٥) سماه الطبرى الحارث وسماه ابن أبى الحديد عمرو بن ضرار الضبى .

والموت أحلى عندنا من العسل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
إن علياً هو من شر البدل
إن تعدلوا بشيخنا لا يعتدل
أين الوهاد وشماريخ القلل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل[1]

وقد ارتجز ببعض هذا الرجز عدة من أصحاب الجمل ، فأجابه عمير بن أبي الحارث من أصحاب علي ينقض عليه رجزه :

نحن قتلنا (نعثلاً) فيمن قتلْ
أكثر من أكثر فيه وأقلْ
كيف نرد شيخكم وقد قحل
نحن ضربنا صدره حتى انجفل
لحكمه حكم الطواغيت الأول
آثر بالفيء وجافى بالعمل
فأبدل الله به خير بدل
إني امرؤ مستقدم غير وكل
مشمر للحرب معروف بطل[2]

... ، حمى بنو ضبة حول الجمل واستماتوا ، وأتوا بضروب من البلاء عجيبة ؛ شغلتهم نصرتهم لأمهم عن كل شيء ، حتى عن قول (لا إله إلا الله) وقد بلغت الروح الحلقوم : جرح أحدهم (عمير بن الأهلب الضبي) فمر به رجل من أصحاب علي فرآه جريحاً يفحص الأرض برجله وهو يقول :

---

(١) الأسل : الرماح . الوهاد : المنخفضات من الأرض . شماريخ القلل : رؤوس الجبال . بجل : اسم فعل بمعنى حسبك وتأتي حرفاً بمعنى نعم . والمراد بالشيخ : عثمان بن عفان . وانتصبت بنو ضبة على الاختصاص — انظر الكامل للمبرد (ص ٦٥ طبعة أوروبا) .

(٢) ليس في الطبري إلا الشطران الثالث والرابع والزيادة عن شرح نهج البلاغة ١/٨٤ . قحل : يبس جلده على عظمه .

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواه
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمه وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا قريشاً ضلة من حلومنا ونصرتُنا أهل الحجاز غباء
أطعنا بنى تيم بن مرة شقوةً وهل تيمُ الا أعبدٌ وإماء[1]

فقال له الرجل: «ياعبد الله، قل: لا إله إلا الله.» قال: «ادْنُ منى ولقنى فإن فى أذنى وقراً». فدنا منه، فقال له: «ممن أنت؟» فقال الرجل: «رجل من أهل الكوفة» فوثب الجريح عليه فقطع أذنه بأسنانه وقال له: «إذا لقيت أمك فأخبرها أن عمير بن الأهلب الضبى فعل بك هذا».

لقد كان بالرجل من نفسه شاغل عن هذا الأذى لولا ما فى القلوب.

وأكثر رجّاز أهل البصرة من الرجز حول الجمل يحمّسون ويتحمسون، فمن قائل:

أسامع أنت مطيع لعلى
من قبل أن تذوق حد المشرفى
وخاذل فى الحق أزواج النبى[1]

وقائل:

يا أمنا عائش لاتُراعِى
كل بنيك بطل المصاع
ينعى ابن عفان إليك ناعى
كعب بن سور كاشف القناع
فارضى بنصر السيد المطاع
والأزد فيها كرم الطباع[2]

روى الطبرى عن القعقاع فى وصف شدة القتال:

«ما رأيت شيئاً أشبه بشىء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين: لقد رأيتنا ندافعهم

---

(١) الطبرى ٣/٥٣١، ٥٣٢، وتيم قوم عائشة ومنهم طلحة.
(٢) شرح نهج البلاغة ١/٨٤. المصع: الضرب بالسيف.

بأسنتنا ونتكىء على أزجتنا (أطراف رماحنا) ، وهم مثل ذلك ، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم » . ولقد تراموا بالنبل حتى فنيت ، وتطاعنوا بالرماح حتى تشبكت فى صدورهم فلو سيرتْ عليها الخيل لسارت . وكان أحد الذين شهدوها ، كلما مر بعدها بالقصارين (الذين يدقون الثياب) فسمع أصواتهم يضربون ، ذكر قتال الناس يوم الجمل[1] . وذكر شاهد آخر : « أنهم حاصوا حيصة فى القتال ثم رجعوا فإذا عائشة على جمل أحمر فى هودج أحمر ، ما شبهته إلا بالقنفذ مما رمى فيه من النبل[1] » .

وكانت أم المؤمنين فى حلقة من أهل النجدات والبصائر من أفناء مضر ، فكان لا يأخذ أحد بالزمام إلا كان يحمل الراية واللواء ، وكان لا يأخذه إلا معروف عند المطيفين بالجمل : فينتسب لعائشة قائلاً : « أنا فلان بن فلان » ثم روى الطبرى عن أحد شهود الموقعة قوله : « فوالله إن كانوا ليقاتلون عليه (أى الجمل) وإنه لَلْموتُ لا يوصل إليه إلا بطلبة وعنت ؛ وما رامه أحد من أصحاب على إلا قتل أو أفلت فلم يعد[2] » ، وعرفت — لما اختلط الناس بالقلب — أن عدىّ بن حاتم جاءه فحمل عليه ففقئت عينه ونكل ...

وتتابع الناس على خطام الجمل وهم يُقْتلون . وجاء محمد بن طلحة فأخذ بالخطام وقال : « يا أماه ، مرينى بأمرك . » فقالت آمرك أن تكون كخير بنى آدم إن تركت . » ، فحمل ، فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وهو يقول : (حَم ، لا ينصرون) واجتمع عليه نفر من أصحاب على فأنفذه أحدهم بالرمح وقال :

وأشعث قوّام بآيات ربه ... قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه ... فخرّ صريعاً لليدين وللفم
يذكرنى (حاميم) والرمح شاجر ... فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم

---

(١) الطبرى ٣/٥٣٨ — ثم ذهب يوم الجمل فى العرب مثلا فى شدة القتال وتفانى المتحاربين ، وخذ على سبيل المثال قول إسحق بن خلف البهرانى يخاطب على بن عيسى القمى :

وللكرد منك إذا زرتهم ... بكيدك يوم كيوم الجمل

انظر الكامل للمبرد (ص ٣٦١) طبعة ليدن .

(٢) الطبرى ٣/٥٣٢ .

على غير شيء غير أن لستَ تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم[1]

ثم تقدم من الزمام عبد الله بن الزبير ، فقالت حين لم يتكلم : « من أنت ؟ » فقال : « أنا عبد الله ، أنا ابن اختك » فقالت : « واثكل أسماء » خوفا عليه أن يصيبه ما أصاب عبد الرحمن بن عتاب والأسود بن أبي البختري وغيرهم من الأنجاد الذين قتلوا قبله . وكان بعبد الله حينئذ سبع وثلاثون جراحة بين ضربة وطعنة من شدة ما لاقى من الهول ، ولقد رئي به تسع عشرة ضربة ما منها طعنة ولا رمية ، وإن من به مثل جراحاته لكثير . ولقد صدق ابن الزبير في صفة الوقعة حين قال :

« ما رأيت مثل يوم الجمل قط : ما ينهزم منا أحد ، وما نحن إلا كالجبل الأسود ... » وكان أشد ما كان يخشاه ابن الزبير أن يلقاه الأشتر : فقد بلغه عنه أنه قال : « إن ابن الزبير هو الذي أكره عائشة على الخروج ، وأنا أدعو الله أن يُلَقِّنيه » . وقد وصفه له رجل فقال: « علامة الأشتر أن إحدى قدميه بادية من شيء يجد بها » .

وكان أنْ مر به الأشتر فعرفه ، ولقيه كفة لكفة (وجهاً لوجه) ، فعانقه وتعاركا ، وبادره الأشتر فضربه على رأسه ، قال الأشتر : « لما قصد لي ابن الزبير ، سوّى رمحه لرجلي فقلت : « هذا أحمق ، وما عسى أن يدرك مني لو قطعها ؟ ألست قاتله ؟ فلما دنا مني جمع يديه في الرمح ثم التمس به وجهي فعلمت أنه أحد الأقران . » وتعاركا ، واعتنق كلٌّ صاحبه وخرّا إلى الأرض ، فذكروا أن عبد الله بن الزبير صار يصرخ بأصحابه ويقول : « اقتلوني ومالكاً »[2] ومالك اسم الأشتر ، وقد جاد عبد الله بروحه ورضي بذهابها إذا

---

(١) ادعى كل واحد من النفر أنه هو القاتل ، وسيأتي أن الأشتر نفسه قتله . وقائل الأبيات هو — على ما في شرح أدب الكاتب للجواليقي ، ولم أره في مصدر آخر — كعب بن حدير المنقري ، ادعى أنه طعنه . والبيت الرابع موضعه عند الجواليقي ثالثاً وروايته له هكذا :

على غير ذنب غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يظلم

انظر شرح أدب الكاتب ص ٣٥٩ طبعة القدسي .

(٢) رواه الطبري ورواه الميداني في مجمع الأمثال وقال : إنه يضرب لكل من أراد بصاحبه مكروهاً وإن ناله منه ضرر — اهـ .

قلت : هذا هو المشهور إلا أن الواقع غيره ، فقد ذكر الطبري روايتين غير هذه ، وكلتاهما تفيد أن قائله عبد الرحمن بن عتاب لا عبد الله بن الزبير :

قالوا للأشتر لما وصف لقاء ابن الزبير : « فهو القائل : اقتلوني ومالكا ؟ » فقال الأشتر : « لا ، =

كان فى ذلك قتل الأشتر وخلو جيش على منه ، لما له من البلاء العظيم ، ولقد كان — فى الواقع — أردّ على علىّ من العديد الكثير . ولو عرفه أصحاب الجمل لقطعوه إربا إربا من كثرة ما لاقوا منه . قال الأشتر : « ما أحب أن يكون قال : « اقتلونى والأشتر » وأن لى به حمر النعم » وكان الناس لا يعرفونه بمالك ، ولو عرفوه وكانت له ألف نفس ما نجا منها شىء ، وما زال يضطرب حتى نجا[1] .

* * *

= ما تركته وفى نفسى منه شىء ؛ ذاك عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لقينى فلقيت أشد الناس وأروعه ، فعانقته واختلفنا ضربتين ، فصرعنى وصرعته ، وسقطنا إلى الأرض جميعاً ، فنادى : (اقتلونى ومالكا) ، وإن عبد الرحمن لأقطع منزوف » فاعتنقه الأشتر فجلد به الأرض عن دابته ، فاضطرب تحته — ٣/٥٢٨ .

وليس بغريب أن يتواتر هذا المثل عن ابن الزبير ويثبت كذلك فى الأمهات ، فقد غلط الناس فيه لذلك العهد ، وعرفوه كذلك ، حتى صححه الأشتر نفسه . ولا يبعد أن يكون قاله الاثنان : ابن عتاب وابن الزبير ، فيكون الأشتر قد نفى أن يكون ابن الزبير القائل الأول . وعلى ذلك تستقيم الرواية القائلة أن الأشتر قال مخاطباً السيدة عائشة :

أعائش لولا أننى كنت طاوياً ... ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادى والرجال تحوزه ... بأضعف صوت: « اقتلونى ومالكا »
فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه ... خدَبّ عليه فى العجاجة باركا
فنجاه منى أكله وشبابه ... وأنى شيخ لم أكن متماسكا
وقالت : « على أى الخصال قتلته ؟ ... بقتل أتى ، أم ردّة لا أبالكا
أم المحصن الزانى الذى حل قتله » ... فقلت لها : « لابد من بعض ذلكا »

وقد كنت على ظن أن هذه الأبيات وهذا الخطاب مصنوعان ، قبل أن أجد فى مسند أحمد ما يؤيد هذا الخبر ويسمى له زمناً بعد المعركة :

روى الإمام أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ٢٠٥) : أن الأشتر وعمارا دخلا على عائشة ، فسلم عمار فقالت : « السلام على من اتبع الهدى » مرتين أو ثلاثا ، ثم قال عمار : « أما والله إنك لأمى وإن كرهت » . قالت : « من هذا معك ؟ » قال : « الأشتر » . فقالت : « أنت الذى أردت أن تقتل ابن أختى ؟ » ، قال : « نعم ، قد أردت ذلك وأراده » . قالت : « أما والله لو فعلت ما أفلحت ، أما أنت يا عمار فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا من ثلاثة : إلا من زنى بعد إحصان ، أو كفر بعد ما أسلم ، أو قتل نفساً فقتل بها » . ٦/٥٨ اهـ — الخدب : الجمل الشديد الصلب . وكقوله (اقتلونى ومالكا) قول شمشون الجبار : « علىّ وعلى أعدائى يا رب » .

(١) الطبرى ٣/٥٣٣ وهنا خبر وملاحظة :

روى ابن عبد ربه : أن ابن الزبير قال : « التقيت مع الأشتر يوم الجمل ، فما ضربته ضربة حتى ضربنى خمساً أو ستاً ، ثم جرّ برجلى فألقانى بالخندق وقال : « والله لولا قربك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع فيك عضو إلى عضو » العقد الفريد ١/٦٢ ، ٣/١٠٢ — وهذا خبر لطيف يدل على نبل فى الأشتر كبير ومحبة للرسول صادقة ، ويزيده لطفاً أن راويه هو ابن الزبير نفسه . إلا أنه لا يثبت على النقد ، للرواية التى مرت بك آنفاً عن مسند الإمام أحمد . =

عقر الجمل وانتهاء المعركة :

اختلط العسكران ، وحمى الوطيس ، وتضرم القتال ، ولاذ الجميع بالصبر حفاظاً وأنفة ، ولم يعد للرماح مجال فنادى علىّ : « السيوف يا أبناء المهاجرين » وكان على يحمل الحملات الصادقة فتتصدع لحملاته الصفوف ، ويضرب بسيفه حتى ينثنى ، ثم يرجع فيقول : « لا تلومونى ولوموا هذا » ثم يقوّمه أو يأخذ غيره ويعود ، ولقد صدق الذى قال وأحسن:

شهدت الحروب وشيبننى فلم تر عينى كيوم الجمل
أشدّ على مؤمن فتنةً وأفتك منه لخرق بطل
فليت الظعينة فى بيتها وليتك (عسكر) لم ترتحل[1]

واستمات الناس أمام الجمل حتى كثرت القتلى حوله ، وكأن القادم إليه ملق نفسه على الموت يطلبه طلباً ، حتى قيل للواقف حوله « ما يوقفك حيال الجمل ، الموت معك وبإزائك[2] » وكثر الرجز فى ذلك اليوم : يقول قائل من أهل البصرة :

يا أيها الجند الصليب الإيمانْ
قوموا قياماً واستغيثوا الرحمن
إنى أتانى خبر ذو ألوان :
أن علياً قتـــل ابن عفان

= أما الملاحظة فهى أن ابن عبد ربه روى أن ابن الزبير أرسل إلى عائشة يوم الجمل : « إنى صالح » ، فسجدت لله شكراً ، وأعطت من بشرها بخلاصه حين التقى بالأشتر أربعة آلاف — العقد الفريد ٦٢/١ ، ١٠٢/٣ .

وذكر ابن عساكر : أن ابن الزبير أخذ من وسط القتلى يوم الجمل وبه بضع وأربعون طعنة ، وأعطت عائشة للذى بشرها به عشرة آلاف درهم ثم سجدت شكرا . تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٠٢/٧ . فذكر بعض المحققين (وضاع على اسمه وعصره) أن صلتها من بشرها بنجاته كانت يوم إفريقية لا يوم الجمل لشغلها حينئذ عن ذلك بنفسها ، وما تشاهد من أهوال ، ولبعد المال عنها حينذاك .

ولست أرى فى ذلك بعدا ، وأرجح أن العطاء كان منها مرتين ؛ أما بعد المال منها فليس فى النصين : نص ابن عبد ربه ونص ابن عساكر ما يفيد أن العطاء والبشارة كانا فى المعركة لا عقبها . هذا « ولم يكن أحد أحب إلى عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبيها من ابن الزبير ، وما دعت لأحـد مثل دعائها له ، وأوصت له بحجرتها » — المصدران السابقان .

(١) العقد الفريد ٢٠١/٣ .

(٢) انظر فى شدة القتال ص ١٧٠ من هذا الكتاب .

ردوا إلينا شيخنا كما كان
يا رب وابعث ناصراً لعثمان
يقتلهم بقوة وسلطان

فيجيبه مجيب من عسكر الكوفة :

أبت سيوف مذحج وهمدانْ
بأن ترد (نعثلاً) كما كان
خلقاً سوياً بعد خلق الرحمن
وقد قضى بالحكم حكم الشيطان
وفارق الحق ونور الفرقان
فذاق كأس الموت شرب الظمآن ،

ويحمى من عسكر عائشة من يقول :

يا أمنا يكفيك منا دنُوهْ ،
لن يؤخذ الدهرَ الخطامُ عنوه
وحولك اليوم رجال شنوه
وحىّ همدان رجال الهبوه
والمالكيون القليلو الكبوه
والأزد حى ليس فيهم نبوه[1]

ومن يقول :

أبا تراب ادن منى فترا
فإننى دانٍ إليك شبرا
وإن فى صدرى عليك غمرا[2]

---

(١) الهبوة : الغبار (يعنى : أنهم رجال حرب) — الكبوة : عثرة الجواد . النبوة : أن يحيد السيف عن الضريبة ، ومن قولهم « لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة » .

(٢) أبو تراب : كنى بها الإمام على . الغمر : الحقد .

ومن أخذ بخطام الجمل لا يدنو منه أحد إلا خبطه بسيفه ، فيقبل الحارث بن زهير الأزدى وهو يقول :

يا أمّنا يا خير أمّ نعلمُ
أما ترين كم شجاع يُكلم
وتختلىٰ هامتـــه والمعصم

ولعله يريد توفير هـذه الدماء الجارية بعقر الجمل ، فيختلفان ضربتين حتى يراهما الرائى يفحصان الأرض بأرجلهما حتى ماتا[1] .

و إن أحزن لشىء فلهذا الشيخ النبيل الصبيح الوجه ، الذى ملك عليه إخلاصه لعائشة واستماتته دونها ، فخرج وعليه جبة وشى يحض الناس على الحرب والدفاع ، وملء قلبه وجوارحه صدق و إيمان وهو يقول :

يا معشر الأزد عليكم أمّكمْ
فإنها صلاتـكم وصومكم
والحرمة العظمى التى تعمكم
فأحضروها جدكم وحزمكم
لايغلبنْ سم العـدو سمكم
إن العدو إن علا كم رمّكم
وخصكم بجوره وعمكم
لاتفضحوا اليوم ـ فداكم ـ قومكم[2]

وهذا المنطلق كالنمر الغضبان ، من بين بنى ضبة آساد الطعان ، عوف بن قطن الضبى:

---

(١) ثم يقول راوى هذا الخبر : « ... فدخلت على عائشة (بعد ذلك بطويل) بالمدينة فقالت : « من أنت ؟ » قلت : « رجل من الأزد أسكن الـكوفة » . قالت : « أشهدتنا يوم الجمل ؟ » قلت : « نعم » قالت : « لنا أم علينا ؟ » قلت : « عليـكم » قالت : « أفتعرف الذى يقول : « يا أمنا يا خير أم نعلم ؟ » .

قلت : « نعم ، ذاك ابن عمى » فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت » — الطبرى ٣/٥٢٩ .

(٢) رم الشىء : أكله .

يندفع اندفاع السيل وهو ينادى : « ليس لعثمان ثأر إلا على . . » ويأخذ بخطام الجمل وهو يقول :

يا أمُّ يا أمُّ خلا منى الوطنْ
لا أبتغى القبر ولا أبغى الكفن
من ها هنا محشر عوف بن قطن
إن فاتنا اليوم علىّ فالغبن
أو فاتنا ابناه حسين وحسن
إذاً أمتْ بطول هم وحزَنْ[1]

لقد كانت نصرة بنى الأزد و بنى ضبة لعائشة بالغة المدى قوة وشدة واستماتة ، على قدر ما يكنون لها من إجلال وتوقير ومحبة واحترام . حتى لقد ذكر الطبرى : « أن المطيفين بها من الأزد كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتونه و يشمونه و يقولون : بعر جمل أمنا ، ريحه ريح المسك[2] » .

وهذا رجل من أصحاب على يقاتل فيهم وهم حافون بالجمل و يقول :

جردت سيفى فى رجال الأزد
أضرب فى كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نَهْدِ

وعلم علىّ والناس أن القوم ما هم بكافّين عن التساقط حول الجمل ، ولقد كادت بنو ضبة تفنى ، وكذلك بنو عدىّ ، وقد قتل حوله سبعون من قريش خاصة ، وليس أدل على تفانى بنى ضبة وصدقهم القتال وتسارعهم إلى الفناء من شهادة عائشة المشهورة حين قالت : « ما زال جملى معتدلاً حتى فقدت أصوات بنى ضبة » .

أولا تشعر معى — فى شدة تلك الحرب — بالحسرة اللاذعة تملأ قلب الحارث بن سويد وكان شهد يوم الجمل مع طلحة والزبير ، لقد ترك لنا وصفاً موجزاً بليغاً لشدة يوم الجمل ، وكان يتقطع قلبه كلما ذكره بعد ذلك ، قال :

---

(١) الغبن الخسارة . وهذه الأراجيز عن شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١/٨٤ فما بعد .
(٢) ٣/٥٣٠ .

« والله ما رأيت مثل يوم الجمل : لقد أشرعوا رماحهم فى صدورنا وأشرعنا رماحنا فى صدورهم ، ولو شاءت الرجال أن تمشى عليها لمشت ؛ يقول هؤلاء : (لا إله إلا الله) ويقول هؤلاء : (لا إله إلا الله) . . . فوالله لوددت أنى لم أشهد ذلك اليوم وأنى أعمى مقطوع اليدين والرجلين[١] . . . ! ! » .

رأى علىّ أن الواجب يفرض عليه خطة حاسمة ينقذ بها هذه الأرواح القليلة الباقية التى عزمت عزماً لا رجعة فيه : على أن تموت حول الجمل ، فنادى :

« اعقروا الجمل »

وكان آخر من قاتل ذلك اليوم أمامه زفر بن الحارث آخر من أمسك بزمام الجمل ، زحف إليه القعقاع ، فلم يبق حول الجمل من بنى عامر يومئذ شيخ إلا أصيب قدام الجمل : يتسرعون إلى الموت تسرعا . وقال القعقاع لبجير بن دلجة الضبى — وكان من الضبيين القلائل فى عسكر على وأخوه فى عسكر عائشة — : « يا بجير بن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين . »

فنادى هذا قومه وأخاه من عسكر عائشة قائلاً : « يا آل ضبة ، يا عمرو بن دلجة ، ادع بى إليك » . فدعا به ، فقال : « أنا آمن حتى أرجع ؟ » قال : « نعم » فمشى إلى البعير فاجتث ساقه ، فرمى بنفسه على شقه ، وجرجر البعير ولم يسمع قط صوت أشد من عجيجه ، فسئل بجير : « لم عقرته ؟ » فقال :

« رأيت قومى يقتلون حوله ، فخفت أن يفنوا ، ورجوت إن عقرته أن يبقى لهم بقية[٢] » .

وفى ذلك قال الحارث بن قيس أحد أصحاب عائشة :

نحن ضربنا ساقه فانجدلا
من ضربة بالنفر كانت فيصلا
لو لم نكوّنْ للرسول ثقلا
وحرمة لاقتسمونا عجلا[٣]

---

(١) العقد الفريد ٣/١٠٢ .
(٢) الطبرى ٣/٥٣١ .
(٣) ٣/٥٣٧ .

وقال القعقاع لمن يليه : « أنتم آمنون » .

واجتمع هو وزفر بن الحارث على قطع بطان البعير و إنزال الهودج عن ظهره ، فوضعاه و إنه لكالنفذ من كثرة النبل فيه . » وأطافا بالهودج ، ونادى منادى على :

« إنكم آمنون »

فكف بعض الناس عن بعض .

وأمر على محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر فقطعا غُرْضة[1] الرحل ونحيا الهودج فى نفر من أصحابهما . فأدخل محمد يده فيه فقالت عائشة : « من هذا ! »

قال : « أخوك البَرّ »

قالت : « عَقوق ؟ »

قال : « محمد »

قالت : « مذمم ؟ »

قال : « يا أخية ، هل أصابك شىء ؟ »

قالت : « ما أنت من ذاك ؟ »

قال : « فمن إذن ؟ الضلال ؟ »

قالت : « بل الهداة » .

إلا أن هناك رواية ثانية للطبرى هى أحرى أن تكون وقعت ، فقد ذكر أن علياً أمر أخاها محمد بن أبى بكر أن يضرب عليها قبة وينظر : هل وصل إليها شىء ؟ فأدخل أخوها رأسه فى الهودج فقالت : « من أنت ويلك ؟ » قال : « أبغض أهلك إليك . »

قالت : « « ابن الخثعمية ؟ » ، قال : « نعم »

قالت : « بأبى أنت وأمى ، الحمد لله الذى عافاك[2] » .

وهذا أقرب أن يكون بين الإخوة مهما شجر بينهم .

وكانت بادرة من عمار لم تخل من جفاء ، فقد قال لها : « كيف رأيت ضرب بنيك يا أمه ؟ »

---

(١) الغرضة للرحل : كالحزام للسرج — القاموس .

(٢) الطبرى ٣/٥٢٨ .

قالت : « من أنت ؟ » ، قال « ابنك البار عمار »

قالت : « لست لك بأم » ، قال : « بلى وإن كرهت[١] » .

قالت : « فخرتم أنْ ظفرتم ، وأتيتم ما نقمتم . هيهات ، لن يظفر من كان هذا دأبه[٢] » .

أبرزوا السيدة بهودجها من القتلى ، وإن الهودج لمثل الفرخ المقضّب (المقطع) مما فيه من النبل ، وإن صحت إحدى روايات الطبرى يكن القوم قد ارتكبوا خطيئة كبرى بتركها وحدها بلا حراس ، حتى أتاها أحد الأجلاف ممن ليس فى قلوبهم نبل ولا إيمان : أعين ابن ضبيعة المجاشعى « فاطلع فى الهودج . فقالت السيدة : (إليك لعنك الله) فقال (والله ما أرى إلا حميراء) فقالت : (هتك الله سترك ، وقطع يدك وأبدى عورتك) فذكروا أنه قتل — فيما بعد — بالبصرة وسلب وقطعت يده ، ورُمِى به عرياناً فى خربة من خربات البصرة[٣] » .

وأنا — وإن ذكر ذلك الطبرى — أستبعده كل الاستبعاد ؛ فليس يعقل أن يزدحم من حولها المستميتون فى الدفاع عنها ثم يتناثرون فى طرفة عين فلا يبقى منهم أحد ويتركوها عرضة لمثل هذا الجلف بعد أن أمّن الفريقان بعضهم بعضا ، وليس علىّ ولا من معه من أجلاء المسلمين ممن يصح أن يغفلوا عن رعايتها . وما أرى أحداً يتجرأ على السيدة بمثل هذا مهما لؤم ، وليس يعقل أن يتركها أخوها محمد وحدها . وهذا الطبرى قد ذكر فى موضع آخر أنه ضرب عليها فسطاطا[٤] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/١٠٩ والطبرى ٣/٥٣٩ .

(٢) ولم يكتف عمار — على ما يظهر — بهذا الخطاب يسىء به أمه ، فإنه لما عزمت على الرجوع إلى المدينة وخرجت من البصرة وخرج مشيعوها لم يترك عمار أن يقول لها : « يا أم المؤمنين ما أبعد هذا السير من العهد الذى عهد إليك ! » ، ولكن السيدة لطفت به لطف الأم بولدها الناشز ، ورفقت فى جوابها فقالت : « إنك — ماعلمت — لقوّال بالحق » قال عمار : الحمد لله الذى قضى لى على لسانك » — الطبرى ٣/٥٤٨ والكامل لابن الأثير ٣/١١١ .

(٣) الطبرى ٣/٥٣٩ والحميراء فى لغة الحجاز : البيضاء — انظر فى ذلك سير النبلاء للذهبى ٢/٥٠ .

(٤) الطبرى ٣/٥٢٨ — وللطبرى خبر طريف يتعلق بتعويض الأشتر السيدة عن جملها ، فإنه لما فرغوا يوم الجمل ، أمر الأشتر رجلا فانطلق فاشترى له جملا بسبعمائة درهم من رجل من مهرة وقال له : « انطلق به إلى عائشة فقل لها : بعث به إليك الأشتر مالك بن الحارث ويقول : « إن هذا البعير مكان بعيرك » . ففعل الرجل ، فقالت عائشة : « لا سلم الله عليه إذ قتل يعسوب العرب (يعنى ابن طلحة) ، وصنع بابن أختى ما صنع » فرد الرجل البعير إلى الأشتر وأعلمه بما قالت ، فأخرج ذراعين شعراوين وقال : « أرادوا قتلى فما أصنع ؟؟ » — ٣/٥٤٥ .

انتهى على بن أبى طالب إلى السيدة فوقف وقال :

« استفززت الناس وقد فزوا ، فألّبتِ بينهم حتى قتل بعضهم بعضاً . . . » فى كلام كثير . . .

فقالت عائشة : « يا بن أبى طالب ، ملكت فأسجح[١] ، نعم ما أبليت قومك اليوم . »

فقال : « أىْ أمه ، يغفر الله لنا ولكم »

فقالت : « غفر الله لنا ولكم »

وأمر أخاها وعماراً أن يدخلاها البصرة ، فدخلا بها وأنزلها أخوها دار عبد الله ابن خلف الخزاعى ، على صفية بنت الحارث وهى أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف .

***

انتهى القتال ، وأمسى الناس ، ونفث علىّ ما فى صدره من الهم ، وجأر إلى ربه يقول :

إليك أشكو عُجَرى وبُجَرى
ومعشراً غشّوا علىّ بصرى
قتلت منهم مضراً بمضرى
شفيت نفسى وقتلت معشرى ! ![٢]

ونادى مناديه : « ألاّ يجهز على جريح ، ولا يُتَّبَع مولٍّ ، ولا يطعن فى وجه مدبر ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

ثم أمّن الأسود والأحمر[٣] .

***

كانت الموقعة من أول النهار حتى العصر إذ تمت الهزيمة على أصحاب الجمل ، وذلك يوم الخميس (أو الجمعة) فى النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة[٤] .

---

(١) أسجح : سَهّل ، كن سهلا سمحاً .

(٢) العجر : العروق المتعقدة الناتئة فى الجسد . والبجر : ما تعقد منها على البطن خاصة ، ألقيت إليه بعجرى وبجرى : أطلعته على معايبى لتثق به ، أفضيت إليه بعجرى وبجرى : أى ما أعلن وما أخفى من همومى وأحزانى .

(٣) اليعقوبى ٢/٢١٣ .

(٤) فى تواريخهم يوم المعركة بعض التضارب : فالطبرى يجعله فى إحدى روايتيه (٣/٤١٤) يوم =

الفصل الرابع

القتـــلى

الزبير :

أجفلت نفس الزبير من هذا القتال فى أوله لما التقى بعلى وذكر له ما ذكر[1] . فرجع إلى عائشة يقول : « ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى ، غير موطنى هذا »[2] . قالت : « فما تريد أن تصنع ؟ » قال : « أريد أن أدعهم وأذهب » ، فقال له ابنه عبد الله : « جمعت بين هذين الغارين ، حتى إذا حدّد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم

= الخميس فى النصف من جمادى الآخرة ، وابن عبد ربه يجعله يوم الجمعة فى النصف منه أيضاً ، وفرق فى يوم واحد مما يقبل فى الأشهر القمرية . إلا أن هناك رواية ثانية للطبرى يرويها عن الواقدى تجعل موقعة الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (٣/٤٣٩) وهى رواية مرجوحة انفرد بها الواقدى ، فامتحنا الروايتين بالحساب فكانت الرواية الأولى هى الصحيحة دون رواية الواقدى . وعلى ذلك يكون المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار قد تسرّع فى اعتماده الرواية المرجوحة فى كتابه (تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون ص ٤٠٩ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) .

(١) من أطرف ما قرأت مما زعموا أنه دار بين على والزبير ما أورده المسعودى — وهو على ما عرفت راو غير ثقة فى هذا الباب — فى كتابه مروج الذهب ، وهذا هو بنصه :

قال الزبير لعلى وقد ذكره : « كيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان ، هذا والله العار الذى لا يغسل » ، فقال على : « يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار » ، فرجع الزبير وقال :

اخترت عارا على نار مؤججة ... ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لست أجهله ... عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن ... فبعض الذى قد قلت يكفينى

فقال ابنه عبد الله ... الخ » — مروج الذهب ٢/٨ .

(٢) ولصاحب الإمامة والسياسة زيادات مبثوثة فى أنحاء الخبر ، كدأبه فى أكثر ما يروى مما يمس حزبيته (الشيعية) ولا بأس بإيراد ما رواه :

ذكروا أن الزبير دخل على عائشة فقال : « يا أماه ، ما شهدت موطناً قط فى الشرك ولا فى الإسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة غير هذا الموطن ، فإنه لا رأى لى فيه ولا بصيرة ، وإنى لعلى باطل » . قالت عائشة : « يا أبا عبد الله ، خفت سيوف بنى عبد المطلب » . اهـ .

ويورد عبارة عائشة مصدر آخر شيعى هو (الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية) على هذه الصورة : « لا والله ، بل خفت سيوف ابن أبى طالب ، أما والله إنها حداد (تحملها) سواعد أنجاد ، فلئن خفتها لقد خافها الرجال قبلك » . فرجع إلى القتال — ص ١٥٣ .

وتذهب ؟! . . . أحسست رايات ابن أبي طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد . . وعرفت أن تحتها الموت فجبنت . . » .

قال : « إني حلفت ألا أقاتله . » وأغضبه ما قال ابنه وأحماه ، فقال عبد الله : « كفّر عن يمينك وقاتله . » فدعا بغلام له اسمه (مكحول) فأعتقه . فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمي :

لم أر كاليوم أخا إخوانِ
أعجب من مكفّر الأيمان
بالعتق في معصية الرحمن

وقال آخر :

يعتق مكحولا لصون دينه
كفارة لله عن يمينه
والنكث قد لاح على جبينه[1]

ولقد عيّرته عائشة بمثل تعيير ابنه له ، وهما يعلمان أنه ليس بالجبان ، ولكنما أرادا أن يصرفاه عن الاعتزال ، خشية أن يكسر اعتزاله من قوة العسكر . فجعل الزبير يحمل على جند علي فيفرجون له لما أخبرهم به علي من أنه محرج (يقاتل كارها) ، وعرفت أن عماراً حازه بالسيف ولم يؤذه .

وللرواة خبر طريف يعللون به انصراف الزبير عن القتال غير ما ذكره به علي :

حدثه رجل من جيش علي قائلاً : « هؤلاء القوم قد أتوك ، فلقيت عماراً فقلت له وقال لي . » فقال الزبير — وكان على حد تعبير علي فيه : إذا ذكّر بالله ذكر — : « ليس عمار فيهم » [لما رووا من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ويح عمار تقتله الفئة الباغية] فقال الرجل « بلى والله إنه فيهم » والزبير يدافعه ويقول : « والله ما جعله الله فيهم . » ثم

---

(١) الطبري ٣/٥١٤ ، ٥٢٠ ، ويسمى الطبري غلامه (سرجس) — هذا ويذكرون أيضاً صارفاً آخر صرف الزبير عن القتال : لقيه ابن عباس (داهية بني هاشم) يوم الجمل فقال له : « يا بن صفية ، هذه عائشة تملك الملك لقريبها طلحة : وأنت على ماذا تقاتل قريبك ! » ؛ فرجع الزبير . فلقيه ابن جرموز الخ » . تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٦٤ .

أرسل من رجع وأخبره بصدق الرجل . . فيذكر الرواة أن الزبير حينئذ صرخ : «يا جَدْع أنفاه ، وانقطاع ظهراه ! » ثم أخذه أفكَلٌ (رعدة شديدة) فجعل السلاح ينتفض ، فقال أحد من حضره جون بن قتادة : « ثكلتني أمي ، هـذا الذي كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه . والذي نفسي بيده : ما أخذ هذا ما أرى إلا لشيء سمعه أو رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . » فلما تشاغل الناس جلس الزبير على دابته وانصرف .

فلحق جون بالأحنف بن قيس الذي كان اعتزل الفريقين ، فأخبره بما كان وقد مر الزبير قريباً منهم ، فقال الأحنف : « وما أصنع به : أن جمع بين الغارين (العسكرين) حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف ثم يلحق بيته وقد ترك الناس ؟ » .

وجاء فارسان فأتيا الأحنف فناجياه ساعة ثم انصرفا ، وقال للناس : « ما هذا انحياز ، من يأتينا بخبره ؟ » فقال عمرو بن جرموز لأصحابه « أنا » فاتبعه ، فلما لحقه نظر إليه الزبير وكان شديد الغضب وقال له : « ما وراءك ؟ » قال « إنما أردت أن أسألك . » وقال للزبير غلامه : « ما يهولك من رجل ؟ » وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز : « الصلاة . » فقال الزبير : « الصلاة » فنزلا واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في جُرُبّان (شق) درعه فقتله وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه ، وخلّى عن الغلام فدفنه بوادي السباع ، ورجع إلى الأحنف بالخبر ، فدخل معه على عليّ وهو لا يدري أأحسن أم أساء ، فلما أخبر عليًّا دعا بسيف الزبير وقال : « سيف طالما جلّى الكرب عن وجه رسول الله » ثم أنّب الأحنف وبشّر قاتل الزبير بالنار ، وأرسل بسلبه إلى عائشة .

فكان جماعة يرون أن صاحب الزبير هو الأحنف بن قيس[1] .

---

(١) انظر الطبري ٣/٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ — وقالت زوجة الزبير عاتكة بنت زيد ترثيه وتذكر قاتله عمرو بن جرموز :

غدر ابن جرموز بفارس بَهْمة ... يوم اللقاء وكان غير معرّد
يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد
شلت يمينك ، إن قتلت لمسلماً ... حلت عليك عقوبة المتعمد
إن الزبير لذو بلاء صادق ... سمح سجيته كريم المشهد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه ... عنها طرادك يابن فقع القرّدد
فاذهب ، فما ظفرت يداك بمثله ... فيما مضى ، فيما تروح وتغتدي

تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٦٦ وشرح شواهد المغني ص٢٦ — البهمة : الفارس الذي لا يدري =

طلحة :

وأما طلحة فقد رووا أنه ندم أشد ندامة على ما كان منه نحو عثمان ، وأنه كان يكثر أن يقول : « اللهم خذ منى لعثمان حتى يرضى »[١] فأصابه سهم غَرْب (طائش) فى ركبته فكان إذا أمسكوه فتر الدم وإذا تركوه انفجر ، فقال لهم : « اتركوه فإنما هو سهم أرسله الله » . وقال لغلامه : « أردفنى وابغنى مكاناً لا أعرف فيه فلم أر كاليوم شيخاً أضيع دما . » فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول : « لحقنا القوم » حتى انتهى إلى البصرة ، وطلحة يتمثل مثله ومثل الزبير :

فإن تكن الحوادث أقصدتنى ... وأخطأهن سهمى حين أرمى
فقد ضُيِّعْت حين تبعت سهماً ... سفاهاً ما سفهت وضل حلمى
ندمت ندامة الكُسعىّ لما ... شريت رضى بنى سهم برغمى
أطعتهم بفرقة آل لأى ... فألقوا للسباع دمى ولحمى[٢]

فبلغ به خادمه داراً من دور البصرة خربة فأنزله فى فيئها فمات فى تلك الخربة ، ودفن رضى الله عنه فى بنى سعد[٣] .

= من أين يؤتى لشدة بأسه . المعرد : الهارب . الطائش : الخفيف . الفقع : الكمأة الرخوة البيضاء ، القردد : المكان الغليظ (ويقال للذليل : أذل من فقع بقرقرة ، لأنه يوطأ بالأرجل ولا يمتنع على من جناه .

وعائشة هذه صحابية مهاجرة مبايعة ، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة : كانت تحت عبد الله بن أبى بكر فقتل عنها ، ثم تزوجها زيد بن الخطاب فقتل عنها ، ثم تزوجها عمر بن الخطاب فقتل عنها ، ثم تزوجها الزبير فقتل عنها ... فكان على بن أبى طالب يقول : « من أراد الشهادة الحاضرة ، فليتزوج بعائشة » — زهر الآداب ١/٧٤ (المطبعة الرحمانية — الطبعة الثانية) .

(١) ويزيد هنا صاحب الإمامة والسياسة ، فيروى أن طلحة قال : « اللهم إن كنا قد داهنا فى أمر عثمان وظلمناه ، فخذ له مناحتى ترضى » ، فما قضى كلامه حتى ضربه مروان ضربة أتى منها على نفسه ، نخر . وثبتت عائشة وحماها مروان فى عصابة من كنانة وقيس وبنى أسد .. الخ ص ٦٧ .

أما المسعودى فيروى أن مروان رماه فى أكحله ، وأن عبد الملك بن مروان رماه فى جبهته — مروج الذهب ٢/٩ .

(٢) الكسعى : هو غامد بن الحارث اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكمن فى مخبأ : فمر قطيع فرمى عيرا (ظبياً) فنفذ فيه السهم وصدم الجبل فأورى ناراً ، فظن أنه قد أخطأ ، فرمى ثانياً وثالثاً .. إلى آخرها وهو يظن أنه أخطأ ، فعمد إلى قوسه فكسرها ثم بات ؛ فلما أصبح نظر فإذا الظباء مطرحة مصرعة وأسهمه بالدم مضرجة ، فندم فقطع إبهامه وأنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسى ... تطاوعنى ، إذن لقطعت خمسى
تبين لى سفاه الرأى منى ... - لعمر أبيك - حين كسرت قوسى

(٣) الطبرى ٣/٥١٩ ، ٥٣٤ والعقد الفريد ٣/٩٩ .

وإذا ذكرت ما مر بك ص ٨٤ — من أن مروان خرج فى أصحاب الجمل دسيسة لينتقم من جميع خصوم عثمان ، وليدبر أمراً آخر خفياً ييسر للأمويين — ويعسوبهم معاوية بدمشق — ملكاً وطيداً بعد أن يخلو وجه الأرض من أهل السابقة من فحول الصحابة الأجلاء ، وأنه يعرف مسير طلحة فى أمر عثمان ، وأن سعيد بن العاص قال له : «أين تذهب وتأرك على أعجاز الإبل» ؟ وأن مروان فى الدهاء والحيلة بالموقف الذى لا يجهل وأنه كان يعنى ما يقول حين أجاب سعيداً بقوله : « بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً » إذا ذكرت ذلك لم تستغرب ما روى المؤرخون من أن هذا السهم الغَرْب الذى قتل طلحة إنما راشه مروان الذى لما رأى طلحة قال : « لا أنتظر بعد اليوم بثأرى فى عثمان » . فانتزعه بالسهم فقتله[1] ، فكان هو صاحب دمه (مباشرة) كما كان الأحنف قاتل الزبير (غير المباشر) .

أما أنا فعلى يقين من ذلك[2] ، بل إنى لأذهب إلى أن مروان كان يتربص بخصومه من كلا الفريقين ، وأنه — لا بد — قتل كثيرين منهم غدراً ، ممن لم يصل إلينا تفصيل مقتلهم .

بقية القتلى :

قتل طلحة والزبير ، وتقدم فى عرض الحوادث مقتل محمد بن طلحة وكعب بن سور وعمرو بن يثربى وعبد الرحمن بن عتاب . . . وغيرهم من رؤوس الناس وقضاتهم ومشيختهم ، وقتل حول الجمل سبعون قرشياً وسبعون من بنى عدى : كلهم شيخ قد قرأ القرآن ، سوى الشباب . . حتى قالت عائشة : « ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بنى عدى » ، سوى قتلى ضبة التى كادت تفنى عن آخرها حول الجمل .

لم يكن القتال من نية أحد الفريقين غير السبئيين ، لكنه لم يكد ينشب حتى انجلى عن عدد من الضحايا لم يكن ليتوقعه أحد قط ، وكان مَنْ خلّف الفريقان خلفهما من أهل

---

(١) المصدران السابقان ، وفى الفائق للزمخشرى رواية عن السيدة عائشة : « كان طلحة ينثل (يصب) درعه إذ جاء سهم فوقع فى نحره فقال : « بسم الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » — ٣٦٣/٢ .

(٢) أقر مروان نفسه بقتله طلحة — تهذيب تاريخ ابن عساكر ٨٥/٧ .

المدن والبوادى لا يشكون فى أن القوم خرجوا إلى الإصلاح لا يبغون قتالا ؛ فلم ينته اليوم المشؤوم حتى « علم مَنْ بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة : بما ينقل إليهم النسور من الأيدى والأقدام[١] . ويصف ذلك الحجاج بن علاط وقد قتل أخوه فى المعركة بقوله :

فلم أر يوماً كان أكثر ساعياً بكف شمالٍ فارقتها يمينها[٢]

وأقل الروايات على أن من قتل يوم الجمل عشرة آلاف ، نصفهم من أصحاب على ونصفهم من أصحاب الجمل : من الأزد ألفان ومن سائر اليمن خمسمائة ، ومن مضر ألفان ، ومن قيس خمسمائة ، ومن تميم خمسمائة ، وألف من بنى ضبة ، وخمسمائة من بكر بن وائل ، وغيرهم .

هذا عدا خمسة آلاف[٣] من أهل البصرة قتلوا فى المعركة الأولى (يوم الجمل الأصغر) فيكون عدة من قتل خمسة عشر ألفاً على أقل تقدير ، وكفى بهذا نكبة فادحة فى أمة أعملت سلاحها فى نفسها ، وسنت لأخلافها هذه السنة المشؤومة : يشرعون رماحهم فى صدور إخوانهم ، هؤلاء يقولون (لا إله إلا الله) وهؤلاء يقولون (لا إله إلا الله) .

وفى مساء ذلك اليوم طاف على ومعه مولاه ، بشمعة : يتصفح وجوه القتلى . . حتى وقف على طلحة بن عبيد الله متعفراً ، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول :

« أعزِزْ علىّ ؛ أبا محمد أن أراك متعفراً تحت نجوم السماء وبطون الأودية . إنا لله وإنا إليه راجعون . . شفيت نفسى وقتلت معشرى ، إلى الله أشكو عجرى وبجرى[٤] » ، « . . . لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلىٰ تحت بطون الكواكب . أدركت وترى من عبد مناف ، وأفلتتنى أعيار بنى جمح ؛ لقد أتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه[٥] » .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١١/٣ وزاد : أن أهل المدينة علموا بالموقعة قبل أن تغرب الشمس يوم الحرب : من نسر مر بماء حول المدينة ومعه شىء معلق فسقط منه ، فإذا كف فيها خاتم نقشه : عبد الرحمن ابن عتاب ! ! — ا هـ .

(٢) الطبرى ٥٤٨/٣ .

(٣) الطبرى ٥٤٣/٣ فأما اليعقوبى فقد أبلغ القتلى فى يوم الجمل الأكبر فقط ثلاثين ألفاً ونيفاً — ٢ /٢١٣ .

(٤) العقد الفريد ٩٩/٣ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٨٦/٧ والكامل للمبرد (ص ١٢٣ طبعة ليدن) .

(٥) هذه الزيادة عن شرح نهج البلاغة ٤١/٣ .

وجعل يقول : « والله إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : (وَنَزَعْنا ما فى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين[1]) . . وإذا لم نكن نحن فمن هم ؟ ؟ » ثم أجلس طلحة ومسح الغبار عن وجهه و بكى عليه[2] .

وطاف على مع الناس فى القتلى ، فلما رأى كعب بن سور قال : « زعمتم أنما خرج معهم السفهاء وهذا الحبر قد ترون ؟ ! » وجعل يخاطبه قائلا : « والله إنك — ما علمت — كنت صليباً فى الحق قاضياً بالعدل » . وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال : « هذا يعسوب القوم الذى كانوا يطيفون به » أى يجتمعون عليه راضين به لصلاتهم . وجعل على كلما مر برجل فيه خير قال : « زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء ؛ وهذ العابد المجتهد ؟ » .

ثم صلى على قتلاهم من أهل البصرة وعلى قتلاهم من أهل الكوفة ، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء مكيين ومدنيين ، ودفن الأطراف فى قبر عظيم ، وجمع ما كان فى العسكر من شىء ، ثم بعث إلى مسجد البصرة قائلاً :

« من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه سمة السلطان فإنه مما بقى ما لم يعرف ، خذوا

---

(١) سورة الحجرات ١٥ الآية ٤٧ .

(٢) وقع قوم فى طلحة عند على فقال : « أما والله إنه لكما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
فتى لا يعد المال ربا ولا تُرى ... به جفوة إن نال مالاً ولا كبر
فتى كان يعطى السيف فى الروع حقه ... إذا ثوب الداعى وتشق به الجزر
كأن الثريا علقت فى يمينه ... وفى خده الشعرى وفى آخر البدر
وهون وجدى أننى سوف أغتدى ... على إثره يوماً وإن نفسَ العمر

ولما دخل على البصرة استقبل ابنه عمران بن طلحة فرحب به وأدناه وقال له :

« إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال فيهم : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » ثم جعل يلاطفه ويقول « : يابن أخى ، كيف فلانة وفلانة (عن أزواج أبيه) » ثم قال : « لم أقبض أرضكم هذه السنين إلا مخافة أن ينتهبها الناس » ، « يافلان انطلق معه إلى ابن قرظة : مره فليمطه غلته هذه السنين وليدفع إليه أرضه » .

وكان الحارث الأعور جالساً فى ناحية فقال : « الله أعدل من أن تقتلهم ويكونوا إخواننا فى الجنة . » فقال على : « قم إلى أبعد أرض الله وأسحقها ، فمن هو ذا إذن إن لم أكن أنا وطلحة (إخواناً) فى الجنة . » ثم التفت إلى عمران يقول : « يابن أخى ، إذا كانت لك حاجة فأتنا » — العقد الفريد ٣/١٠٠ وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ والكامل للمبرد (ص ١٢٣ طبعة ليدن) والأبيات التى تمثل بها على تنسب للأبيرد الرياحى .

ما أجلبوا به عليكم من مال الله عز وجل ؛ لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء ، وإنما كان ذلك السلاح فى أيديهم من غير تنفل من السلطان[١] » .

* * *

كانت سيرة على فى القتلى سيرة جميلة صالحة عفيفة : ترحّم على الجميع من هؤلاء وهؤلاء ، ودفنهم ، وكلما مر بقتلاهم قال : « اللهم اغفر لنا ولهم » وكان معه عمار ومحمد ابن أبى بكر ، فقال أحدهما لصاحبه متعجباً : « أتسمع ؟ » قال : « اسكت لا يزدك[٢] » .

وسئل عن قتلى الجمل مرة : « أمشركون أم منافقون ؟ » فقال : « من الشرك فروا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ؛ إنما هم إخواننا بغوا علينا » .

وقال أيضاً : « إنما اقتتلنا على البغى ولم نقتتل على التكفير » .

ورمى الحارث بن حوط مرة أمام على بهذا القول : « أظن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل » ، فقال على : « يا حارث ، إنه ملبوس عليك ، وإن الحق والباطل لا يعرفان بالناس ، ولكن : اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف من أتاه[٣] » . وهى كلمة — كما ترى — كبيرة حكيمة .

ثم وقف على فى وجه من تحدثه نفسه بعدوان على أحد من أصحاب الجمل ، وقفته الحاسمة المشهورة ، فقد أمر أصحابه : ألا يقتلوا مدبراً ولا يذففوا (يجهزوا) على جريح ، ولا يكشفوا ستراً ولا يأخذوا مالاً » . فقال قوم يومئذ : « مايحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ » فقال : « من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لجّ حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر ، وهذه السنة فى أهل القبلة » .

فيومئذ تكلمت الخوارج وقالوا : « ما ندرى ما هذا ؟ » فحجهم على بقوله : « هذه عائشة رأس القوم ؛ أتتساهمون عليها ؟ » قالوا : « سبحان الله ! هى أمنا . » قال : « فهى حرام ؟ » قالوا : « نعم . » قال : « فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها[٤] » .

---

(١) الطبرى ٣/٥٤٣ .
(٢) العقد الفريد ٣/١٠٥ .
(٣) اليعقوبى ٢/٢٤٨ .
(٤) العقد الفريد ٣/١٠٥ .

وكذلك كان رأى أصحابه تبعاً لرأيه ، قال عمار فى عائشة — وقد مر بك — على ملأ من الناس فى مسجد الكوفة :

« أما والله إنا لنعلم أنها زوجه فى الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم : أتتبعوه أم إياها ؟ » .

* * *

رحم الله أم المؤمنين ، فقد كانت المرأة الفذَّة فى التاريخ : تزعمت (معارضة سياسية عنيفة) وزحزحت خليفة ، وحاولت نصب خليفة ، وزعزعت أركان خليفة ، وقادت جموعاً ، وخاضت حرباً ، ثم أرادت تجنب القتال فخرج الأمر من يدها إلى أيدى غوغائها ، شأنها فى ذلك شأن على ، . . وكان ما كان مما ترتعد له فرائص كل مسلم : كلما ذكر فتنة الجمل وما استتبعت من ويلات ! !

الفصل الخامس

فى آخر أيام عائشة بالبصرة

دخول عائشة البصرة وتجهيزها الى الحجاز :

« لما كان من آخر الليل خرج محمد بن أبى بكر بأخته عائشة أم المؤمنين حتى أدخلها البصرة فى دار عبد الله بن خلف الخزاعى على صفية بنت الحارث من بنى عبد الدار[1] » . وصار يأوى إليها فى هذه الدار — وهى أعظم دار فى البصرة على ما يقول الطبرى — الجريح والخائف وترسل إلى المتخفين . وكان فيمن أجارت وضمت إليها مروان بن الحكم المشير المشؤوم على عثمان ورأس الشر (غير المتوج) فى نكبة الجمل . وصارت هذه الدار مثابة الناس وملجأهم ، ومناط احترام الفريقين على السواء .

وصارت السيدة تتفقد جماعتها وتسأل عمن كانت تعرف منهم سواء كان معها أم عليها ، وقد غشيها الناس وهى فى دار ابن خلف ، « فكلما نعى لها منهم واحد قالت : « يرحمه الله . » فقال لها رجل من أصحابها : « كيف ذلك ؟ ! » قالت : « كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلان فى الجنة وفلان فى الجنة[2] » . وقولها هذا ضارع قول علىّ السابق : « إنى لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقّى قلبه إلا أدخله الله الجنة » . وهكذا اجتمع رأى الفريقين على حسن الظن بالله وتمنى الخير للجميع .

أقبل وجوه الناس على عائشة مسلّمين — وعلى فى عسكره بعد — وكان فى أول الداخلين عليها : القعقاع بن عمرو ، فسلم عليها ، فقالت : « إنى رأيت رجلين بالأمس اجتلدا

---

(١) أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف — الطبرى ٣/٥٣٩ .

(٢) الطبرى ٢/٥٤٢ وقد روى عقب ذلك بسنده إلى على بن أبى طالب : « ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم آية هى أفرح له من قول الله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أصاب المسلم فى الدنيا من مصيبة فى نفسه فبذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، وما أصابه فى الدنيا فهو كفارة له وعفو عنه : لا يعتد عليه فيه عقوبة يوم القيامة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا فقد عفا عنه ، والله أعظم من أن يعود فى عفوه » اهـ .

بين يدىّ وارتجزا بكذا ، فهل تعرف كوفيّك منهما ؟ » قال : « نعم ، ذاك الذى قال : (أعق أم نعلم ؟) وكذب والله إنك لأبر أم نعلم ولـكن لم تطاعى » فقالت : « والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » .

وخرج فأتى علياً فأخبره بسؤال عائشة ، فسأل على : « ويحك من الرجلان ؟ » قال : « ذلك أبو هالة الذى يقول : كيما أرى صاحبه عليا » . فقال على : « والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » . فكان قولهما واحداً [1] .

ومن طريف كره الأقارب بعضهم لبعض وتفرقهم على معسكرين متعاديين ما جرى بين أخى السيدة محمد بن أبى بكر أحد أقطاب جيش على ، وابن أختها عبد الله بن الزبير من كبار أصحاب الجمل ، وهو فى الوقت نفسه يدل على روح النكتة فى السيدة وتهكمها بهذا الـكره المميت يقع بين القريبيْن :

أوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزد مستخفياً ، وقال له : « ائت أم المؤمنين فأعلمها بمكانى ، وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبى بكر.) فأتى عائشة فأخبرها ، فقالت : «علىّ بمحمد» فقال الرجل : «ياأم المؤمنين ، إنه قد نهانى أن يعلم به محمد» فلم تبال السيدة ، فأرسلت إليه فجاءها فقالت له : « اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئنى بابن أختك . » فانطلق معه ، فدخل الأزدى على ابن الزبير وقال له : «جئتك والله بما كرهت ، وأبت أم المؤمنين إلا ذلك . » فخرج عبد الله ومحمد وهما يتشاتمان : فذكر محمد عثمان فشتمه وشتم عبد الله محمداً ؛ حتى انتهيا إلى عائشة فى دار عبد الله بن خلف [2] ، حيث ضمت السيدة ابن أختها — وكان جريحاً — فى جملة من ضمت من الجرحى .

لبثت السيدة بالبصرة : يأوى إليها الخائف والمرتث يتسللون إليها فيجدون دارها حرماً آمناً ، ويجدون فى كنفها الرعاية التامة .

وبعد انقضاء ثلاثة أيام على الموقعة ، دخل على بن أبى طالب البصرة يوم الاثنين فانتهى إلى المسجد فصلى فيـه ، ثم نزل فأتاه الناس ، ثم قصد عائشة وقت الرواح يزورها

---

(١) الطبرى ٣/٥٤٣ .

(٢) الطبرى ٣/٥٤١ .

ويسلم عليها ، فركب بغلته وانتهى إلى دار عبد الله بن خلف ، فوجد النساء تبكى على عبد الله وعثمان ابنى خلف[١] مع عائشة ، وصفية ابنة الحارث تبكى ، فلما رأته صاحت :

« ياعلى ، ياقاتل الأحبة ومفرق الجمع ، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه » فلم يرد عليها شيئا ووسعها حلمه وتجاوزه وتقديره الموقف ، وتابع سيره حتى دخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها ، وشكا فعل صفية فقال :

« جبهتْنا صفية ، أما إنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم .[٢] »

ولا يخفى على القارىء أن علياً فى شغل عن مثل هذا الاستدراك فى صفية ، بما فى نفسه من هموم ؛ ولكن تغافل وعمد إلى التى هى أليق به وبمحتده النبيل .

فلما خرج على أقبلت صفية وأعادت الكلام ، فكف بغلته وقال : « أما لهممتُ (وأشار إلى الأبواب داخل الدار) أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه ، ثم هذا فأقتل من فيه ، ثم هذا فأقتل من فيه . » يشير إلى حيث كان الجرحى واللاجئون ، وكان عالماً بمكانهم فتغافل عنهم ، فسكتت حينئذ صفية .

لقد تجاوز على وكرم ونبل ، وتكلف تجلداً وحلماً .. وفيما هو خارج ، قال رجل من الأزد يريد قتل صفية : «والله لا تفلتنا هذه المرأة.» فغضب على وقال : «صه» ، «لا تهتكُنّ ستراً ولا تدخلُن داراً ، ولا تهيجُن امرأة بأذى... وإن شتمن أعراضكم وسفّهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ؛ وإن الرجل ليكافىء المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده . ، فلا يبلغَنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس . »[٣]

مضى على فلحق به رجل فقال : « ياأمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمضّ لك شتيمة من صفية.» قال على : « ويحك ، لعلها عائشة؟؟ » قال : نعم ، قام رجلان منهم على باب الدار ، فقال أحدهما :

جُزِيتِ عنا أمَّنا عقوقا

---

(١) قتل عبد الله يوم الجمل مع عائشة ، وأما أخوه عثمان فقتل مع على ، وهكذا فرق المذهب السياسى بين الأخوين فأنزلهما معسكرين متعاديين .

(٢) الكامل لابن الأثير ٣/١١٠ .

(٣) الطبرى ٣/٥٤٤ .

وقال الآخر :

يا أمّنا توبى فقد خطيت

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب فأقبل بمن كان عليه ، فأحالوا على رجلين فقال : « اضرب أعناقهما » ثم بدا له فقال : « لأنهكنهما عقوبة » فضربهما مئة مئة وأخرجهما من ثيابهما »[١]

وظلت السيدة مدة مقامها بالبصرة راضية عن سيرة علىّ ، فقد كانت خطته مع المخالفين خطة إجمال وكفّ وتغافل فى الجملة ؛ وخاصة مع السيدة نفسها ، فقد صانها عن كل أذى ومكروه ، ورعاها وكمّ الأفواه عن قولة السوء فيها ، واشتد فى ذلك على أصحابه حتى أمسكوا .

* * *

لعلك اشتقت إلى روايات ابن أبى الحديد الطريفة ! فقد طال إمساكنا عن أخباره وإضرابنا عن قصصه ؛ فها نحن أولاء مطلعوك على مشهد ممتع وحوار أمتع :

لما فرغ علىّ من القتال دعا بآجرتين : فحمد الله وأثنى عليه وخطب فى أهل البصرة قائلا :

« يا أنصار المرأة ، وأصحاب البهيمة ! رغا فجئتم ، وعُقِر فانهزمتم ، نزلتم شر بلاد ، أبعدها عن السماء ...الخ »

ثم نادى[٢] ابن عباس فأقبل إليه فقال له :

« ائت هذه المرأة فمرها أن ترجع إلى بيتها الذى أمرها الله أن تقرّ فيه . » ثم تمثل :

إنى زللت زلة فأعتذر
سوف أكيس بعدها وأنشمر
وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

(قال ابن عباس) فجئت فاستأذنت عليها فلم تأذن لى ، فدخلت بلا إذن ، فمددت يدى إلى وسادة فى البيت فجلست عليها ، فقالت عائشة : « تالله مارأيت مثلك يابن عباس ! تدخل بيتنا بلا إذننا ، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا ؟ » ، « أخطأت السنة مرتين » .

---

(١) الطبرى ٣/٥٤٤ .

(٢) هكذا يريد ابن أبى الحديد : نداء وصراخاً على رؤوس الأشهاد .

فقلت : « نحن علمنا كم السنة[١] والله ما هو بيتك ، وما بيتك إلا الذى خلفك رسول الله صلى الله عليه وسلم به وأمرك الله أن تقرى فيه فلم تفعلى .

إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجت منه »

قالت : «رحم الله أمير المؤمنين ، ذاك ابن الخطاب . »

قلت : « وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب»

قالت : « أبيتُ أبيت .. »

قلت : « ما كان إباؤك إلا فَواق[٢] ناقة ، ثم صرت ما تُحلين ولا تمرين ، ولا تأمرين ولا تنهين ، وما كنت إلا كما قال أخو بنى أسد :

ما زال إهـــداء الصغائر بيننا نث الحـــديث وكثرة الألقاب
حتى نزلت كأن صـوتك بينهم فى كل نائبة : طنين ذباب »

فبكت حتى علا نشيجها (! ! !) ثم قالت :

« نعم أرجع ، فإن أبغض البلدان إلىّ بلد أنتم فيه » .

قالت : « أما والله ما كان هذا جزاءنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أمّاً ، وجعلنا أباك لهم صديقا . »

قالت : « أتمنّ علىّ برسول الله يا بن عباس ؟ »

قلت : « نعم ، نمن عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا . »

قال ابن عباس : فأتيت علياً فأخبرته بما كان ، فقبّل بين عينىّ وقال : ذرية بعضها من بعض » ، « أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك[٣] » انتهت الرواية .

أما الذى لا يمكن أن يقبله امرؤ ذو رويّة فما رواه المسعودى (المؤرخ الحزبى) فقد زعم أن عائشة قالت لعلى بعـد خطب طويل كان بينهما : « إنى أحب أن أقيم معك فأسير إلى

---

(١) هكذا فى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٨٢ .

(٢) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيـل لتدر ، ثم تحلب — مختار الصحاح .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/٨٢ وانظر العقد الفريد ٣/١٠٣ واليعقوبى ٢/٢١٣ . ولقد كان هـذا الخبر — إن صح — أجدر أن يوجد فى الطبرى . وأرجح أنه راج بعده (مات الطبرى سنة ٣١٠ هـ) ولعله علم به وأهمله لـكذبه . ومن أمعن فى هذه الأقوال استبعد صدورها عن مثل =

قتال عدوك عند مسيرك » . فقال على : « بل ارجعى إلى البيت الذى تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] » .

وهذا خبر غير معقول البتة وهو مخالف منطق الحوادث : أمن تجييش الجيوش على علىّ ، إلى القتال معه ؟ أهكذا انقلاباً فجائياً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بهذه الخفة والسرعة الخاطفة ؟ ؟ ! ألا قليلاً من العقل والروية أيها المؤرخون العصبيون !

* * *

ونعود — بعد هذه الاستجمامة المسلية — إلى التاريخ الجد :

جهّز علىّ عائشة بكل شىء ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام ، وأمر لها باثنى عشر ألفاً من المال[٢] ، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ، وقال لأخيها : « تجهز يا محمد فبلّغها[٣] » .

الوداع الجميل

لما كان اليوم الذى ترتحل فيه جاءها علىّ حتى وقف لها وحضر الناس من الفريقين ، فخرجت عليهم فودّعوها وودّعتهم وقالت : « يا بَنىّ ، لا يعتبْ بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدّنّ أحد منكم على أحد بشىء بلغه من ذلك » .

= ابن عباس ، فليس مما يرضاه ذوق أن تجابه امرأة مهزومة بمثل هذا فكيف بمثل عائشة مكانة وحرمة . والخبر مصنوع بأداة حزبية عصبية طبقية ، وإلا فابن عباس أصح عقيدة وأتقى لله من أن ينسب إلى أسرته ما هو من صنع الله ، وكل مسلم يعلم : أن زواج عائشة كان بوحى من الله ، وأن صديقية أبى بكر كانت هداية من الله وحده ، لا وساما تمنحه أسرة . وكل ما مر بك آنفاً وما سيمر بك عاجلا من معاملة على لعائشة ومخالفيه ... مبعد عن تصديق هذا الخبر الروائى . لقد كان ابن أبى الحديد (أوصناع بعض أخباره على الأصح) فى كثير مما يروى : الصديق الجاهل للامام كرم الله وجهه . والمشهور من نبل على ودينه وسمو خلقه ... يجعل المنصفين يضربون بكثير من هذه الروايات عرض الحائط . وقريب منه فى ذلك ابن عباس .

(١) مروج الذهب ٢/٩ .

(٢) بلغ ذلك عبد الله بن جعفر (ابن أخى على) فاستقل المبلغ ، وأخرج لها مالا عظيما وقال : « إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو على » .

(٣) ذكر اليعقوبى أن علياً وجه معها سبعين امرأة من عبد القيس فى ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة » . وهى رواية غريبة لم أحدها فى مصدر ... إلا عند صاحبنا المسعودى ، فقد كان أكثر إغرابا وإطرافاً وإضحاكا ، قال : « خرجت عائشة من البصرة وقد بعث معها على أخاها عبد الرحمن بن أبى بكر (كذا) وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما : ألبسهن العمائم =

وبهذا كانت أماً للجميع ، سمت على كل ما كان بينهم ، ولم يبق إلا هـذه الأمومة البارة الحانية التى وسعت علياً وأنصاره وأعداءه . إنى لأقرأ هذه الجملة من خطابها للجماهير المودعة فأتخيل القلوب تتقطع حسرة وندامة ، والدموع تطفر فى العيون ساعة الوداع وقد ملأ صـدر كل من المودعين حنو وبر ومحبة لإخوانه عامة ، لقد أعداهم نبل السيدة فأصبحوا جميعاً فى هذه الساعة متآلفين .

ثم التفتت إلى الجماهير تخبرهم بما تُكنّ لعلى من تقدير لم يقلل منه شيئا ما كان بينهما من جفاء ، فواصلت قولها :

« إنه والله ما كان بينى و بين على فى القـديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، و إنه عندى على معتبتى لمن الأخيار » .

وقال على :

« أيها الناس ، صدقتْ والله و برّت ، ما كان بينى و بينها إلا ذلك ؛ و إنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة »[1] .

ورحم الله البحترى ، لـكأنه يعنى هذا الوداع حين قال :

إذا احتربتْ يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

على هذا تم الوداع الجميل ، وخلت القلوب مما علق بها ، على أحسن ما ينبغى أن تكون قلوب المسلمين عليه .

وخرجت بموكبها يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين للهجرة ، وشيّعها علىّ رضى الله عنه أميالاً ، وسرّح بنيه معها يوماً[1] .

توجهت السيدة إلى مكة ، وقد فصل من معها كمروان وأبى الأسود بن البحترى إلى المدينة من الطريق ، وأقامت بمكة إلى الحج ، ثم رجعت إلى المدينة بعد طول غياب .

= وقلدهن السيوف وقال لهن « لا تعلمن عائشة : أنكن نسوة كأنكن رجال ، وكن اللاتى يلين خدمتها » وحملها ، فلما أتت المدينة قيل لها : « كيف رأيت مسيرك ؟ » قالت : « كنت بخير ، والله لقد أعطى على ابن أبى طالب فأكثر ، ولـكنه بعث معى رجالا !! » فعرفها النسوة أمرهن ، فسجدت وقالت : « ما ازددت والله يا بن أبى طالب إلا كرما ، ووددت أنى لم أخرج وإن أصابتنى كيت وكيت ... (من أمور ذكرتها) ، وإنما قيل لى : تخرجين فتصلحين بين الناس ، فـكان ما كان ... » — مروج الذهب ٢/١١ ، وهذا الصنيع أليق بمخرج رواية فـكاهية منه بخليفة غارق فى الهموم والشدائد .

(١) الطبرى

الباب الرابع

وقفة عند حرب الجمل

الفصل الأول

العوامل القريبة والبعيدة

— ١ —

هذه أول معركة يقف فيها المسلم للمسلم وقفة العدو : يسدد إليه سهامه ويصوّب سلاحه يريد إزهاق روحه ، وتيتيم أطفاله وترميل نسائه ، بعد أن جمعهما الإسلام وآخى بينهما وحبّب إلى كل منهما إيثار أخيه على نفسه . فكانت أشأم سابقة ، هان بعدها أن تسفك الأمة الواحدة بعضها دم بعض ، وأن تجعل بأسها بينها وتقوّى بذلك عدوها عليها . ولقد رأيتَ أن كثيراً من أعلام الصحابة الأجلاء كعبد الله بن عمر وأبى موسى الأشعرى وسعد ابن أبى وقاص وغيرهم ... اعتزلوا الفتنة كلها وكانوا صلابا فى هذا الاعتزال ، ما لانت لهم عريكة ولا ضعفت شكيمة . ولعلك لمست فى موقفهم شيئاً من الغلو ، أو لعل نفسك حدثتك به ؛ فاعلم الآن أن أولئك الأعلام كانوا على بصيرة من أمرهم لم تستفزهم الحادثات ولم يستخف أحلامهم ما يستخف الرجال ، وأنهم ذكروا ما نسيه غيرهم : لقد ذكروا فى ذلك آيات وأحاديث اقشعرّت لها أبدانهم ، وخشعت عند ذكرها نفوسهم فاستحضروا الهول المنتظر من الفتنة فأمسكوا .

وحسبك لتستشعر ما استشعروا من الهول هذه الأقوال يرويها أجلاؤهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعظم فيها على المسلمين دماءهم وأن يعودوا إلى أمر الجاهلية يستحل بعضهم دم بعض وماله :

١ — روى أبو بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال :

« ألا تدرون أى يوم هذا ... أليس بيوم النحر ؟ (قلنا : بلى يا رسول الله) ، قال : أى

بلد هذا أليست بالبلدة (الحرام) ؟ (قلنا : بلى يا رسول الله) ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هـذا فى بلدكم هذا . . ألا هل بلغت ؟ (قلنا : نعم) قال :

« اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب[١] » .

٢ — وروى عبد الله بن عمر هذين الحديثين :

« من حمل علينا السلاح فليس منا » ،

« لا ترجعوا بعدى كفاراً : يضرب بعضكم رقاب بعض[٢] » .

٣ — وروى أبو هريرة :

« ستكون فتن : القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ؛ من تشرّف لها تستشرفه ، فمن وجد ملجأً أو معاذاً فليعُذْ بِه[٣] » .

٤ — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النـار . » قيل : « يا رسول الله ، هذا القاتل ؛ فما بال المقتول ؟ » قال : « كان حريصاً على قتل صاحبه[٤] » .

بل إن رسول الله ذكر لهم هذا الوعيد فى أقل من القتل فقد روت بريرة عنه قوله :

٥ — « إن الرجل ليُدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها ، على مِحْجمة دم يريقها من مسلم[٥] » .

و بعض هذا كافٍ فى ردع أقسى القلوب . وهو يكشف لك السر فيما مر بك من اجتهاد

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الحج ٢٥ الباب ١٣٢ ص٤٣٦ و ٤٣٥ من الجزء الأول (طبع ليدن) .

(٢) الصفحة السابقة ج ٤ ص ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٨٢ — فـكان أبو بكرة (وهو الذى روى الحديث الأول وروى عنه أيضاً الحديث الثالث والرابع) شديد التمسك بوصية الرسول هذه فاعتزل الخلاف كله . وأكثر من ذلك أنه خط لنفسه ألا يرد العدوان إن اعتدى عليه أحد :

ذكر الإمام أحمد بعد روايته الحديث الأخير عن ابنه عبد الرحمن أنه لما كان يوم حرق ابن الحضرمى (حرقه جارية بن قدامة) أشرفوا على أبى بكرة .. فقال لزوجه : « لو دخلوا على ما بهشت (مددت يداً) إليهم بقصبة » . مسند أحمد ٥/٣٩ .

(٤) صحيح البخارى ٤/٣١٧ وانظر منها ج السنة ٢/١٨٦ .

(٥) يعنى : بغير حق — والحديث فى الصحيح ذكر ذلك الزركشى فى كتابه (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ص ٤٣ .

الفريقين فى الصلح وفى البعد عن بدء القتال ، وأنهما أخلصا الرغبة فى العافية والسلامة ، لولا مؤامرة الأشرار ولولا أن الله قضى أمراً فكان .

— ٢ —

كانت الخلافة أول ما غيرت القلوب بعضها على بعض . ولئن اشتهر بين الناس أنها فرقت الأمة منذ حرب الجمل حتى اليوم ، إن البوادر السيئة نجمت قبل ذلك ، ولكن كانت للدين صولته فى النفوس ، وكان الناس حديثى عهد بالنبوة وهديها ، فكبحهم دينهم أن يرخوا لأهوائهم أعنتها . وإلا فخلاف المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، وتلكؤ بنى هاشم عن بيعة الصديق ، وإبطاء العباس وتأخر على عن المبايعة ستة أشهر حتى ماتت فاطمة ... كل هذه تشعر بطموح بعض الأصحاب إلى الخلافة . حتى أن أبا بكر نفسه تمنى فى احتضاره أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لمن هذا الأمر من بعده » حتى لا يكون فيه نزاع[1] . وكان طموح بعض الأصحاب إلى الأمر حين عهد الصديق إلى عمر ، أشد على الصديق من سكرات الموت وآلامها :

دخل عبد الرحمن بن عوف على أبى بكر فى علته التى مات فيها فقال : « أراك بارئاً يا خليفة رسول الله » فقال أبو بكر (وتأمل ماقال) :

أما إنى على ذلك لشديد الوجع ، ولَمَا لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى :

إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى (يريد عمر بن الخطاب) ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه . والله لتتخذُنّ نضائد الديباج وستور الحرير ، ولتألمُنّ النوم على الصوف الأذربىّ كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان . والذى نفسى بيده : لأنْ يُقدَّم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد ، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا (وأنتم أول ضالٍ بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالاً) :

يا هادى الطريق حرت ، إنما هو والله الفجر أو البَجْر . . . »

فقال عبد الرحمن وقد تفطر قلبه لتأثر الصديق التأثر العنيف فى آخر لحظاته فى الدنيا :

---

(١) الطبرى ٢/٦٢٠ .

« خفّض عليك يا خليفة رسول الله فإن هذا يهيضك إلى ما بك ، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً[١] . . الخ » .

— ٣ —

سلك عمر مع قريش — وهم أشبه بالأسرة الحاكمة — سياسة فيها من المضاء والحزم بمقدار ما فيها من نفاذ البصيرة و بعد الغور والغوص على خبايا النفوس ونواياها . لقد أخذهم أخذاً صارماً « فحجر على أعلامهم من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فقال :

« ألا إنى قد سننت الإسلام سنّ البعير : يبدأ فيكون جَذَعاً ثم ثَنيّا ثم رَباعياً ثم سديساً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حىّ فلا ! !

إنى قائم دون شِعْب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار[٢] » .

وكذلك فعل رضى الله عنه ، فقد رأى بعين بصيرته أن هؤلاء الطيبين الأخيار من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يئس منهم الشيطان أن يعبدوه ، وأبلوا فى نصرة الإسلام وتمكينه فى الأقطار أحسن البلاء ، وصبروا فى سبيل ذلك على شظف العيش وكلَب العدو وحرمان الطيبات صبراً كانوا فيه مضرب الأمثال رجولةً وقوة وتشميراً . ولن يحيد بهم عن الطريق السوىّ إلا الغنى والترف ، فكان عمر أحرص على سلامة هؤلاء الأصحاب وعافيتهم ، فحال دون خروجهم إلى الأمصار ومعاينة بهارج الدنيا ومفاتنها . ولبث عمر على خطته تلك حتى ملوه وملوا المدينة حيث ألزمهم سكناها لا يخرجون منها إلا بإذن وأجل .

---

(١) الكامل للمبرد ١/٥ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٦٤ هـ) وتاريخ الطبرى ٢/٦١٩ — ورم أنفه : امتلأ غضباً . الصوف الأذربى : نسب إلى أذربيجان . السعدان : نبات شائك . البجر : الشر والأمر العظيم ، والمعنى — على ما ذكره المبرد — إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه . وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحيرها أهلها . هيض العظم : إذا جبر ثم أصابه ما يعنته فآذاه — الكامل ١/٧ .

(٢) الطبرى ٣/٤٢٦ — الجذع : الجمل دخل فى السنة الخامسة . والثنى : الذى دخل فى السادسة ، والرباعى : الذى دخل فى السابعة ، والسديس فى الثامنة . والبازل الذى بزل (خرج) نابه وذلك فى التاسعة . الحجز : الأوساط .

وكان عمر يصارحهم دون غمغمة ، ويقول لهم : « إن أخوف ما أخاف عليكم انتشاركم فى البلاد[١] » . ويأتيه الرجل منهم يستأذنه فى الغزو « وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين — ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة — فيقول : قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلّغك [يكفيك] ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك[١] » .

وبذلك جمع رؤوس الناس وزعماءهم فى قبضته حيث يشرف منهم على سرهم وعلانيتهم ، ويطأ على أصمختهم فلا تحدث أحداً منهم نفسه بإفلات من قبضته ، وبقوا على شاكلتهم تلك لا يحدون عنها متقدماً ولا متأخراً قد كُفوا شر الناس وفتنتهم .

وكانت خطة عمر — على شدتها الظاهرة وقسوتها — تنطوى على رحمة واسعة بالناس وبالمهاجرين معاً ، فإن انتشار هؤلاء الفحول فى الأمصار يشترون الضياع ويقتنون العبيد وتتبعهم الجماهير ... أخطر الأمور على هذه الألفة التى ربطت الجزيرة من أطرافها ، وعمر أخوف الناس على تلك الوحدة أن تتصدع ، وهذا الشمل أن تفرقه الزعامات . ولقد اخترق — رحمه الله — حجب الغيب ببصيرته ، وكأن الله ألقى أمام عينه ما سيكون من أصحابه ، فأدركه لذلك قلق وهمّ لم يفارقاه قط ، وملأ الإشفاق على هذه الأمة قلبه حتى لم يكن ليستطيع إخفاءه :

لما حملوا إليه بالمدينة الأخماس من غنائم (جلولاء) وكانت شيئاً عظيما قال عمر :

« والله لا يُجنّنى سقف بيت حتى أقسمه » . فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله ابن أرقم يحرسانه فى صحن المسجد ، فلما أصبح جاء فى الناس ، فكشف عنه جلابيبه وهى الأنطاع ، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره ... بكى ، فقال له عبد الرحمن : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر » ، فقال عمر : « والله ما ذاك يبكينى ، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم[٢] » .

لقد كان عمر من أوعى الناس لما يحذرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت تقرع أذنه وصايا الرسول لأصحابه الأخيار :

---

(١) الطبرى ٣/٤٢٦ .

(٢) الطبرى ٣/١٣٧ .

« إنما أخشى عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من بركات الأرض[١] » .

« . . . والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم[٢] » .

« . . . إنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم[٣] » .

ولم تمض على وفاة الرسول ثلاثون سنة حتى وقع ما كان خشيه وحذر منه أصحابه .

وقد ألهم عمر — رحمه الله — أن الشقاق سيكون بين على وعثمان وطلحة والزبير ، والمؤرخون يذكرون أنه قال لهم بعد أن أوصى أن يكون الأمر شورى بينهم : « إنى قد نظرت لكم فى أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً إلا أن يكون فيكم ، فإن كان شقاق فهو فيكم[٤] » .

ولأمرٍ ما أمر أبا طلحة الأنصارى أن يقوم على باب البيت الذى يجتمع فيه أصحاب الشورى فى خمسين من قومه ، حتى إذا اجتمع ثلاثة (فيهم عبد الرحمن بن عوف) على خليفة ، وخالف ثلاثة ، شدخ أبو طلحة رؤوس المخالفين بالسيف[٤] » .

نجا عمر من خلاف القرشيين بهذه (الإقامة الإجبارية) التى أخذهم بها ، فحال بينهم وبين الشر مدة حياته .

* * *

فلما مات عمر وولى عثمان ، تغاضى عن أخذهم بما أخذهم به عمر ، ولان جانبه ورقت حاشيته لهم « فانساحوا فى البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس . . . انقطع إليهم المغمورون من الناس ، وصاروا حاشيتهم وأتباعهم ، وأملوهم وقالوا فى أنفسهم : « غداً يؤول الملك إلى هؤلاء فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم[٥] » وبذلك وجد

---

(١) الجامع الصحيح للبخارى ك ٥٦ ب ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٩٢ ، ٢١١ .
(٣) رياض الصالحين ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ .
(٤) الطبرى ٣/٢٩٤ وابن عساكر .
(٥) الطبرى ٣/٤٢٦ و ٤٢٧ بتصرف يسير .

الوهى مسارب إلى وحدة الأمة وطفق يوغل فيها حتى كان ما عرفت .

والغريب أن القرشيين هؤلاء بعد طول الكبت ، سرعان ما أوغلوا فى البلاد حين أفرج عنهم عثمان ، وضربوا فى الأرض « واتخذ رجال منهم بعد سنة من إمارة عثمان أموالا فى الأمصار وانقطع إليهم الناس . . . وكان كل قوم يحبون أن يلى الأمر صاحبهم[1] » إن حدث بالخليفة القائم حدث ، وبذلك وجدت أحزاب وشيع سياسية كل حزب له زعيمه المفضل : يدعو له ويرجو أن يؤول الأمر إليه ، ابتغاء مكافأته لهم فى الغد : على ما يحطبون فى حبله اليوم ويروّجون دعوته .

— ٤ —

للإمام الطبرى نظرات صائبة عميقة يبثها فى مطاوى تاريخه الكبير ، قلّ أن يُفطن إليها لندرتها ولضياعها فى هذا الخِضمّ الزاخر بالروايات والأسانيد . هذه النظرات يكشف فيها عن سر خفى من حوافز الجماهير ، أو يغوص بك فيها على دخائل النفوس مما لا يهتدى إليه إلا الفطن اللقن الملهم .

ونظرته التى أعرضها الآن تجعله مؤرخاً محدثاً من هؤلاء المؤرخين المعاصرين الذين يفسرون التاريخ تفسيراً مادياً ، فقد ألقى إلى القارىء ما يفيد أن أهم العوامل فى فتنة الجمل وتهيئة الأفكار للثورة هو العامل الاقتصادى وإليك البيان :

كان لأهل السابقة من المهاجرين والأنصار والمجاهدين الأولين ممن حضروا فتح فارس غنائم وافرة جداً : فقد حازوا عنوة كنوز كسرى وهى عظيمة يهول الحاسب إحصاء ذهبها وفضتها وياقوتها وزبرجدها وديباجها وحريرها . . . فعظمت سهام المجاهد منهم وملك الأرضين ؛ إلا أنهم فيما بعد ، أقاموا بالحجاز وأموالهم بالعراق تأتيهم غلتها ، وودوا لو وجدوا سبيلا إلى أن تكون أموالهم وإياهم . فلما كانت سنة ثلاثين عرض عثمان هذه الأسهم من الأرضين التى أفاءها الله على المجاهدين بالحجاز على البيع ، فابتاعها أغنياء الصحابة كطلحة والزبير وغيرهم . وفرج الله بذلك عن الناس ، فصار الحجازى يبيع سهامه بالعراق ويشترى بثمنها عقاراً فى بلده ، وأصبح الناس فى سعة من أمرهم . فباع طلحة مثلا « عامة سهمان خيبر إلى ما كان له سوى ذلك ، واشترى بهذه الأموال من نصيب من شهد القادسية

(١) انظر الحاشية السابقة .

والمدائن من أهـل المدينة ممن أقام ولم يهاجر إلى العراق[1] » وكان طلحة واسع الغنى فصار له ولأمثاله الأرضون الواسعة فى العراق ، وفعل فعله رجال من كل قبيلة فصار أكثر العراق ملكا لعدد من المجاهدين الأولين وكانوا بذلك أشبه (مع الفارق) بأصحاب الإقطاع . وظل أغلب الأهلين أصحاب البلاد السابقين فقراء لا ملك لهم ، ولم يفدهم إسلامهم المتأخر — من هذه الناحية فقط — شيئاً إذ كانت الأرضون قد قسمت على الجنود الفاتحين ، فكان فى نفوسهـم من ذلك شىء لا يخفى على القـارئ ؛ فيصف الطبرى هذه الطبقة الناقمة وحالها بقوله :

« ... إلا أن الذين لا سـابقة لهم ولا قدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة فى المجالس والرياسة والحظوة . ثم كانوا يعيبون التفضيل (يريد فى العطاء) ويجعلونه جفوة ، وهم فى ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه لأنه لا حجة لهم والناس عليهم . فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابى أو محرر ، استحلى كلامهم ، فكانوا فى زيادة وكان الناس فى نقصان حتى غلب الشر.[1] »

مرت بك هذه الملاحظة فى إحدى الحواشى (ص ٥٢) وأعـدتها هنا لخطرها وبعد أثرها فى كل ما وقع ، أما شرحها فقد سـبقها ولعلك لم تنسه ، إنه فى تفاصيل الحوادث التى مرت بك وخاصة حين شرح حركة عبد الله بن سـبأ . وينبغى ألا يهمل — فى تعداد العوامل — نقمة الرعاع وطموحهم ، واسـتغلال أبطال الشر تلك النقمة وهذا الطموح ؛ فقد كان إسلام كثير منهم مدخولا ، وكان حنينهم إلى نظمهم البائدة ونحلهم القديمة مكبوتاً خفياً ، ثم كان هذا الحرمان الذى يشعرون بمرارته إزاء غنى واسع يرتع فى بحبوحته الأبطال الفاتحون .

والطريف أن هذه الملاحظة لم تكن لتخفى على البصراء حينئذ وإن لم ينتفعوا بهـا ، إلا أن مؤرخينا لم يهتموا بالتنبيه إليها اهتمامهم بسرد الحوادث نفسها ، فمرت خافية مستكنة فى طنين الحوادث وزحمتها : لا فيها هى ما يلفت النظر العادى ، ولا المؤرخون احتفلوا بها فأبرزوها ، وقد طالعتك أنت نفسك فلم تلتفت إليها فى أغلب الظن ، طالعتك فى عبارة

---

(١) الطبرى ٣/٣٣٣ .

تقدمت من كلام الامام على (ص ١٤٥) إذ فطن إلى ما يحفز الرعاع على الثورة فقال مشيراً إلى قتل عثمان :

« . . . ثم حدث هذا الحدث الذى جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا : حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها والله بالغ أمره ومصيب ما أراد . . . »

ولعلك لم تنس أيضاً أن السبئيين — وهم جند علىّ — خلصوا بعد سماع هذا الكلام نجياً يأتمرون ، وكان فى جملة الحلول التى اقترحت فى هذه المؤامرة قتل علىّ نفسه إذ فطن إلى شرورهم ، وآنسوا منه عزيمة على ملاقاة الشر بمثله ، ثم أجمع رأيهم على إنشاب القتال لعلهم يستريحون من رؤوس المهاجرين السابقين جميعاً .

الفصل الثانى

فى توزيع التبعات

الآن ، و بعد ما تقدم ، نستطيع إرسال القول فيما يخص كلاً من تبعة هذه الحرب المشؤومة ، وقد تقدم كثير من الأحكام فى حينه ومناسبته ، ولا بأس فى ضم ذلك و إجماله وقد انتهيت من تفاصيل الحوادث التى سنشير إليها إشارة ، فنقول :

إن الذى يحمل شر هذه الفتنة مباشرة هم الذين حملوا إثم قتل عثمان والتأليب عليه ، فالسبئيون هم الذين ائتمروا بالجيشين وقد أشرفا على الصلح وأسرعوا فباغتوا الطرفين بإنشاب القتال ، وأعجلوهما عن التروى والتثبت ، فعليهم إذن وحدهم جريمة هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهراقة ، كما كان عليهم وحدهم إثم قتل عثمان مباشرة .

فإذا بلغنا من عليهم التبعات الثانوية (غير المباشرة) ممن قصر أو أخطأ فى اجتهاده ، أو انصاع إلى طموح نفسه أو غلبته منافسته لأخيه ، وجدنا ترتيب أنصبائهم من التبعة فى حرب الجمل على ترتيبها فى الحملة على الخليفة عثمان رحمه الله : من غش له استئثاراً بالمنافع ، أو تقصير فى حقه ، أو خذلان له أو مجاهرة بنقده . فأوفاهم نصيباً منها — فيما أرى — الأمويون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلى :

أما الأمويون فقد كانوا استغلوا قرابة عثمان — على ما عرفت — أسوأ استغلال ، وأبدلوه بما كان يجب له عليهم من المناصحة والعفة : احتكاراً للأعمال واستئثاراً بالأموال و إبعاداً لمن كرهوا من أهل الكفايات ، حتى كانت أعمالهم هذه أشد ما أرّث الشر على عثمان . فلما أن قتل انسلوا من أطراف البلاد واجتمعوا بمكة بعددهم وعددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله : ينفخون فى الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلى أو منافسة له ، وأظهروا ذلك كله وأضمروا من ورائه أمراً آخر : قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم ، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة . . . ليخلص لهم الأمر ويرجع فى بنى أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم .

وأكاد أجعل الأمويين (ورأسهم فى هذه الفتنة مروان) حلقة وسطى تلى السبئيين أصحاب التبعة المباشرة فى هذه الدماء .

وأما طلحة ، فكما كان أشد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على عثمان[1] ، كان هنا أيضاً أشد الناس على علىّ وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعياً فى التأليب عليه ، وأطولهم يداً فى تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة وقد علم : أن إقامة الحدود من حق الإمام لا حق الغوغاء ، وأن أولياء عثمان — وليس هو منهم — أولى منه بهذه الدعوى ، وأن هذا الطلب لم يكن فى وقته المناسب ، وأن ثمرته إضعاف أمر على لا الثأر الحقيقى لعثمان .

وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه فى لدد الخصومة والقوة فيها ولعل ابنه عبد الله أوفى منه نصيباً من التبعة .

وأما السيدة عائشة : فنقدها عثمان كان أشد عليه لما لها من الحرمة والإجلال ونفاذ الكلمة ، وقد عرف الأمويون وطلحة والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة ، وعرفوا ما تكنّ من الكره لخلافة على ، فما زالوا يفتلون لها فى الذروة والغارب حتى نهضت لما أنهضوها وحملت من هذه الفتنة نصيبها .

وأنا أقطع أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التى رأيناها لو غابت عائشة عن فتنة الجمل . لقد كانت السيدة لهذه الفتنة — من حيث لا تريد[2] — روحها ، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير على التطوع لها وعلى تهافتهم على الاستماتة بين يدى جمل عائشة . لقد كان فى طبعها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت للجبن ، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس وتقوية قلوبهم وكان لهذا التحريض والتقوية أثرهما البالغ فى الاستماتة بين يديها على ما مر بك ، ولقد أثر عنها قولها : « إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير : كلما خفقت الريح خفقت ؛ فأفٍ للجبناء » .

هذا وقد أكثر لها الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله الأجلاء وعقلاء أهل المصرين البصرة والكوفة ، فلم تستجب لنصح أحد ونفذ قضاء الله . والله سبحانه

---

(١) كلمة محمد بن سيرين — انظر العقد الفريد ٣/٨٦ .

(٢) لعلك لم تنس قولها الذى مر بك ص ١٥٩ (الحاشية ٢) « وما برأيى خرجت مع هؤلاء » .

أعفى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال ، فلم يكلفهن سياسة ولا إدارة ولا إثارة جماهير ولا تجييش جيوش ولا تأليباً على الخلفاء ، فإن باشرن شيئاً من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها ، وكان المجتمع حينئذ يعالج داء دخيلاً فى كيانه ينذر بالشر المستطير . وسترى بعد قليل أن السيدة ذاتها حكمت على نفسها هذا الحكم ورأت أنها أتت أمراً إداً لا يغتفر .

وأما على ، فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئاً ، لقد فر من الشر فراراً : صبر عليه ، وطاوله ، وغاب عن وجهه والشر يلاحقه ، وكان أكره الجميع للفتنة ولإراقة الدماء ؛ لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن — وهما من آكد واجبات الخليفة — ألزماه المبادرة إلى المخالفين ، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هرّاب منه ، وقد وجّه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر فى جيشه : السبئيون .

فإن يكن من تبعة تلزمه فهى فيما قاله المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار :

« على أن علياً لم يكن القوى على جنده . المالك لزمام عسكره ، الحذر لكل ما يُخاف ، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم . ولقد كان عمر بن الخطاب — وهو بالمدينة — واقفاً على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وإرمينية والشام ومصر وتخوم الروم : لا يغيب عنه شىء من خيرهم وشرهم . ولكن علياً كان تاركاً لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيّتون الشر ويكيدون له وللمسلمين ، حتى لقد كان فى ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمهما ويحقن دم المؤلبين السفاكين الكائدين ، وهم بمرأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يديرون . ولو كان من الضبط لأمره والحيطة فى شؤونه بالمكان الذى يجب أن يكون به ما ساغ للسبئية أن ينشبوا القتال[1] » .

وهذا أشبه بالحق وليس الحق كل الحق ، إذ ما تصح موازنة بين عمر وعلى وقد اختلفت (ظروفهما) الاختلاف كله . فأين عهد الثورات والخلاف والتناحر والفتن والأطماع من عهد الاستقرار والوحدة والزهد والطاعة . على أن الحزم — لو إليه سبيل — كان يقضى على علىّ أن يبث عيونه على هؤلاء الدساسين ذوى النيات الخطرة ، ولم يكن على يجهلهم ولكن

(١) تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون ص ٤١١ .

الأمور انتشرت عليه كما رأيت . والنصفة تقضى على المؤرخ أن يحيط بكل ما لابس الحادثة من (ظروف) قبل أن يصدر فيها حكماً .

وبذلك تدرك أن حكم الأستاذ النجار الآتى بعيد عن الصواب أيضاً ، قال :

« لم يكن عنـد على من الأناة وحسن التأتى للأمور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامح . ولو أنه أرضى الرجلين (يريد طلحة والزبير) ببعض ما فى يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثراً فى العاقبة وأرجى للسلامة . وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن علياً حين أحس بما فى نفس طلحة والزبير ، استشار ابن عباس فأشار عليه أن يولى طلحة البصرة والزبير الكوفة ، فأبى إشفاقاً منه أن يؤلبا عليه الناس ، والبصرة والكوفة فيهما الرجال والمال . على أنه لو أرضاهما فى أول الأمر ، حتى إذا اتسق له صنع ما أراد ، لكان ذلك أحسن فى السياسة وأحقن للدماء[1] » اهـ .

وعجيب أن يصدر المرحوم الشيخ النجار مثل هـذا الحكم والحوادث بين يديه ناطقة بخلافه ، فلئن عذرنا ابن عباس فى خطئه حين أشار بتولية الرجلين : بأنه كان يصدر رأياً فى أمور مغيّبة عنه ، إنا لا نجد للشيخ النجار هذا العذر . لقد كان حدس علىّ صادقاً ولقد دلته بصيرته على الخطر فى توليتهما ، إنه لو فعل لألّبا عليه العراق بالرجال والأموال ، فكلاهما طامح إلى الخلافة منافس لعلىّ فيها . وليس يصح فى السياسة إلا ما فعل علىّ من إبقائهما إلى جانبه وزيرين يستعين بهما .

إنى لم أجد فى مآتى علىّ ما أعده خطأ أو تقصيراً (مئة فى المئة كما يقول الرياضيون) إلا غفلته عما يدبر فى جيشه من مؤامرة ، وإلا ضعفه عن قتلة عثمان لما كانوا فى المدينة . نعم ، لقد اعتذر علىّ بغلبتهم على المدينة — وهذا صحيح بعض الصحة — وطلب من طلحة والزبير وغيرهما أن يثوروا بهم فان عجزوا فهم غداً أعجز ، فلم يفعلوا ؛ إلا أن الواجب كان يقضى على علىّ — والنفوس قتلها الحزن على عثمان وملأها الغضب على الثائرين — أن يستنهض الناس ويوقع بالقتلة بمن نهض معـه مهما قلّ عددهم ، فإن أنصار القتلة متى رأوا الجد تهاونوا فى نصرتهم لهم وتبرؤوا منهم ، وبذلك يقضى على جراثيم الشر .

---

(١) الصفحة نفسها .

ولست أرى اللين بحال مع قتلة عثمان مهما كان شأنهم و بلغ عددهم : إذ أن فى ذلك إضعافاً لهيبة الخلافة وتهاوناً فى الحدود و إفساداً للناس . . . وأخرى أن المدينة خالية من الحامية دائماً ، وفيها أقطاب الناس ، وهى مستودع القادة والقضاة والولاة والخلفاء ؛ فإن تركناها هدفاً لكل كتيبة ثائرة لم يبق للحكم شأن فى النفوس ، واضطرب النظام ولم تبق المدينة عاصمة ، بل بادية .

* * *

إن فيما مر بك من تفاصيل الموقعة لغُنْية عن إشعارك بفداحة الخطب ، لقد كان هذا السيف مرفوعاً عن هذه الأمة ، فلما أعملته فى نفسها بقى مسلطاً على رؤوسها إلى يوم القيامة .

وليس شىء أدل على استفظاع الناس ما قامت عنه فتنة الجمل ، من حال أصحاب الجمل أنفسهم : لقد ندم طلحة وأصابته حيرة قاتلة ، وكان يكثر التفكير و يكثر أن يقول : « اللهم خذ منى لعثمان حتى يرضى » . وكان الزبير أكثر ندماً وأسرع إقلاعاً و يقول : « مغلوب مطلوب : يغلبنى ابنى و يطلبنى ذنبى . » حتى لقد همّ بترك القتال فى أوله لولا تعيير ابنه عبد الله وتعيير عائشة ، ثم ترك القتال واعتزل . أما على فقد عرفت حسرته لما رأى القتلى وعظم الخسارة بهم .

وأما السيدة عائشة ، فقد قلّبت صفحات التائبين والنادمين ، فما رأيت حسرة أشد من حسرتها ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها ، ولا ندماً أعظم إيلاماً من ندمها ، لقد قتلها الندم قتلاً ؛ فما أكثر ما تمنت أن لم تكن خلقت ، وما أكثر ما تمنت أن تكون حجراً أو مدرة ، وكانت تكثر أن تقول :

« لأن أكون قعدت فى منزلى عن مسيرى إلى البصرة ، أحب إلىّ من أن يكون لى عشرة من الولد : كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام[1] » .

والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة ، فقد روى الدينورى عنها مثل هذا الحديث بزيادة مفيدة : قالت : « وددت لو قعدت فى بيتى ولم أخرج فى هذا الوجه (تعنى : إلى البصرة) ، لكان أحب إلىّ من عشرة أولاد لو رزقتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعقله وزهده[2] » .

---

(١) الطبقات الكبير لابن سعد ٥/١ (طبعة ليدن) .

(٢) الأخبار الطوال ص ١٥٦ (طبعة ليدن) .

ولقد ذكر عندها يوم الجمل مرة « فبكت حتى ظنوا أنها لن تسكت[١] وكانت إذا قرأت قوله تعالى : « وَقَرْنَ فى بيُوتِكُنَّ . . » بكت حتى تبلّ خمارها[٢] .

حتى إذا وافاها أجلها وقالوا لها : « تدفنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . » قالت : « لا ، إنى قد أحدثت بعده ، ادفنونى مع أزواج النبى[٣] » فى البقيع .

ولا يهولنك عظم ما رأيت من ندم وتوبة و بكاء وحيرة عند أصحاب الجمل ، فما مر بك فى هذا النزاع من عصبية وتحزب ونعرات فى أراجيز الفريقين وما تمثل به كبار الناس من شعر . . . صورة صغيرة مجددة عن أحوالهم فى جاهليتهم ، إن هذه الروح التى أضعفها الإسلام وكاد يقضى عليها عادت — هنا فى حرب الجمل — إلى الظهور فى بعض الناس كأن الله لم يرسل رسولاً ولم ينزل كتاباً ، وكأن الإسلام لم يكن . فإلى جانب هذه الدماء الغزيرة من آلاف المسلمين نجمت روح سيئة تعصف بأقوى الأمم : روح الخلاف والعصبية ورجوع الأمة الواحدة قبائل متناحرة وفرقاً شتى ؛ فلذلك كان شعور هؤلاء الأبرار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالتبعة قوياً جداً على رغم ما لمست من إيثارهم جميعاً للعافية .

---

(١) الطبرى ٣/٥٢٩ .
(٢) الطبقات الكبير ٨/٥٦ والآية هى ٣٢ من سورة الأحزاب ٣٣ .
(٣) الجزء السابق ص ٥٠ .

الباب الخامس

فى حياة عائشة السياسية بعد حرب الجمل

توطئة فى مظهرها العام :

رجعت السيدة بعد هذه الفاجعة مزعزعة النفس ، مثقلةً — فى رأيها — بالتبعة ، لا تغيب عنها أشباح هذه الألوف من القتلى ، تتمنى أن لم تكن خلقت ، تكثر أن تقول :

« ليتنى لم أخلق » ، « يا ليتنى كنت شجرة أسبح وأقضى ما على . »

« والله لوددت أنى كنت شجرة ، والله لوددت أنى كنت مدرة . »

« لوددت أن الله لم يكن خلقنى شيئاً قط[1] . »

« ليتنى مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة[2] . »

عظم ندمها ، وانكسرت نفسها ، ونهجت لبقية عمرها منهجاً عزمت على ألا تخرج عنه : انقطعت للعبادة ، وقسمت ليلها ونهارها بين صلاة وصيام واستغفار وصدقات ، ونشر علم و بيان سنة .

ولقد استطاعت أن تمضى عزمها هذا دون نكول ، لكن الناس والحوادث كانا يخرجانها أحياناً قليلة إلى دفاع تلقيه ، أو بيان ترد فيه على من نالوا من أبيها ، أو إشارة تشير بها على ولىّ الأمر ، أو شفاعة أو توصية ، أو إنكار على والٍ فى أمر من الأمور . وكل ذلك لم يلجئها إلى استفزاز جماهير أو إعلان بعيب الولاة ، ومضت الأمور هكذا بسلام حتى لقيت ربها . وسترى أن بعض هذه القضايا كان من الخطر بحيث يستدعى شيئاً من المعارضة ، و بعضها أشد مما نقمت على عثمان أو علىّ ، لكن فاجعة الجمل كانت ماثلةً أبداً أمام ناظريها بما طفحت به من دماء الآلاف من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان . فكانت السيدة :

---

(١) الطبقات الكبير لابن سعد ٨/٥٠ .

(٢) الطبرى ٣/٥٤١ ، وقد تقدم هذا ص ١٩١ ، وأنه روى هذا القول نفسه عن على ، وقد ذكرت أمامه وقعة الجمل .

كلما رأت منكراً ، فغضبتْ ، فهمّتْ بإنكاره ... رأت هذا المشهد الماثل لعينيها ، فارتعدت له من فرقها إلى قدمها ، فخففت من الإنكار ولطفت من حدته . وسترى أيضاً أن بعض الأذكياء فطن لهذه الحالة النفسية فى السيدة فلوّح لها بيوم الجمل كلما رآها تهمّ بإنكار أو تغيير ، وحتى استغل هذا الضعف بعض الظرفاء فركبها بالدعابة والتنكيت .

ونحن هنا معنيون بعرض هذه المواقف السياسية التى وقفتها السيدة بعد حرب الجمل إلى أن توفاها الله موقفاً موقفاً ، مستقلا بعضها عن بعض ؛ فلا يهولنك ضعف موقفها فى أمور لا شك فى أنها كانت خرقاً فى الدين ، ولا شك أيضاً فى أنها لو سبقت (يوم الجمل) لكان من السيدة فيها ثورة عنيفة ربما كان حادث الجمل أمامها ضعيفاً لا يذكر ، لا يهولنك ذلك ، فقد استولى على السيدة إشفاق شديد من كل ما يمكن أن يؤدى إلى إهراق دم ، وحق هذا الإشفاق لمن كان تذكّر (الجمل) فقط يهز نفسه هزاً ويملأ قلبه حسرة وكمدا :

وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يُجرّ حبل يَفْرقُ

الفصل الأول

فى موقفها من خصومها السياسيين

ودعت عائشة علياً على ما رأيت ص ١٩٦ ثم لم تره بعد ذلك أبداً . وكانت خطتها منه حتى ماتت خطة تناس و إضراب عن ذكره ، ما فاهت بحقه بكلمة سوء بعد ذلك أبداً إلا مامر بك من إنشادها لما نعى إليها هذا البيت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر[1]

وهذا البيت :

فإن يك ناعياً فلقد نعاه غلام ليس فى فيه التراب[1]

وعرفت أن ذلك — إن صح — كان منها خروجاً على طريقة شرعتها لنفسها إزاءه ، ولما ذُكّرتْ بنبوّ هذا الاستشهاد رجعت وأقرت بالغفله والنسيان .

لقد كانت تحترمه ولكنها تتضايق منه على رغم هذا البعد الفاصل بينهما ، فهى فى المدينة وهو فى العراق يغامر فى هذا الخضم من الفتن .

ولعل مما زاد فى ثقل حياته على نفسها ، انطلاق بعض الألسنة من أنصاره بالحجاز فى الدعاية له والثناء عليه ، وفى زعم أنه أحق الناس بخلافة رسول الله ... انطلاقاً كان يجر إلى شىء من اللوم لأبى بكر وعمر إذ حالا بينه و بين خلافة ابن عمه . واستتبع ذلك — فيما أقدر — عيب بعض أعمالها ، فكان ذلك يستفز السيدة حمية للحق من جهة ونضالاً عن سيرة أبيها وصاحبه عمر من جهة ، ووضعاً من أثر هذه الدعاية من جهة ثالثة . لقد كانت ترسل الخطبة إثر الخطبة فى رثاء أبيها أو الثناء عليه وعلى صاحبه عمر ، فى حجرتها جالسةً للناس أو واقفة على قبره مؤبنة ؛ إلا أنها كانت فى معرض الثناء عليهما ، تنال من غيرهما دون أن تسميه ، وتعرّض بتخلف من بعدهما عن اللحاق بهما .

---

(١) الطبرى ٤/١١٥ .

وأنا أجعل زمن هذ الخطب التى أثبتتها مصادر كثيرة بعد حرب الجمل على كل حال ، لأنه الزمن الذى كان الناس حولها جميعاً أنصاراً لعلى : بايعوه وأخلصوا له ، ولأنه هو الزمن الذى اقتضت دعايتهم من أجله ذكر أبى بكر وعمر ، واقتضى ذلك من جهتها هـذا الدفاع المجيد الحق عنهما ، وذلك التعريض اللين بعلى وغيره فيما أذهب إليه .

ولست أرى فى خطب الدفاع السياسى ، أو التعريض بالخصوم ممـا زخر به تاريخنا الحافل ، أبلغ ولا أسدّ ولا أصدق لهجة وأشد حرارة وأوفى إخلاصاً ، ولا أضبط إحكاماً للرمية من أقوال عائشة هذه .

فأنا أورد لك أكثرها بعد هذه المقدمة ، وقد بلغت من نضالها السياسى إلى فترة الهدوء والحسرة والاعتزال ، لتتأملها مستعيناً بما حف بها من أجواء وملابسات :

— ١ —

قالت عند قبره (يوم الحـكمين) :

« رحمك الله يا أبت ؛ فلئن أقاموا الدنيا لقد قمت بالدين لما وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ؛ انقبضت مما أَصْغَوْا إليه ، وشمّرت فيما وَنَوْا فيه ، واستخففت من دنياك ما استوطنوا ، وصغّرت منها ما عظموا ورعَيْت دينك فيما أغفلوا . أطالوا عِنان الأمن واقتعدت مطىّ الحذر ، ولم تهضم دينك ، ولم تشِنْ غدك ، ففاز عند المساهمة قِدْحك ، وخف مما استوزروا ظهرك[1] » .

— ٢ —

وقالت :

« توفى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فو الله لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبى لهاضها : اشرأبّ النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب . . . فوالله ما اختلفوا فى نقطة (؟)

---

(١) عيون الأخبار ٢/٣١٣ ومفتاح الأفـكار ، وبلاغات النساء لابن أبى طاهر (سنة ٢٠٤ — ٢٨٠ هـ) ص ١٤ — أصغوا : مالوا . العنان : الرسن (والمراد ميلهم إلى الراحة) . القدح : واحـد السهام التى يتقارع عليها أيها الفائز . استوزروا : حملوا (من الذنوب) .

إلا طار أبى بحظها وغَنائها فى الإسلام . . . ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خلق غناء للإسلام ، كان والله أحوذياً نسيجَ وحده ، وقد أعد للأمور أقرانها[١] » .

— ٣ —

وقالت فى مناسبة مماثلة :

« لما توفى رسول صلى الله عليه وسلم ، اشرأبّ النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب قاطبة ، وانحازت الأنصار ، وصار المسلمون كالغنم الشاردة فى الليلة الماطرة . . حتى جمعهم الله على أبى بكر ، فلقد نزل والله بأبى بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها » .

— ٤ —

بلغ عائشة أن أناساً يتناولون من أبيها ، فأرسلت إلى جماعة منهم ، فلما حضروا قالت :

« أبى وما أبيهْ ، لا تَعْطوه الأيدى ، ذاك والله طَوْد منيف وظل مديد ، أنجح إذ أكديتم ، وسبق إذ ونيْتم سبْق الجواد إذا استوى على الأمد .

فتى قريش ناشئاً ، وكهفها كهلاً : يفك عانيها ؛ ويريش مملقها ، ويرأب صدعها ، ويلمّ شعثها . . . حتىّ حليَتْه قلوبها ، واستشرى فى دينه فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيى فيه ما أمات المبطلون[٢] .

وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح ، شجىّ النشيج ، فانصفقت له نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به ، وأكبرتْ ذلك رجالات قريش فخنتْ له قِسِيَّها ، وفوّقتْ إليه سهامها فامتثلوه غرضاً ، فما فلّوا له صفاة ولا قصفوا له قناة . ومر على سيسائه[٣] . . . حتى إذا ضرب الدين بجِرانه ، وأرْستْ أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجاً

---

(١) هاضها : أعجزها وكسرها . الغناء : النفع والفائدة . الأحوذى : الخفيف الحاذق المشمر للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شىء — لقد وقعت السيدة فى وصف عمر على الكلمة التى لا كلمة غيرها فى العربية تصدق على عمر . وهذه من جوامع كلمها وآيات بلاغتها .

(٢) تعطو : تتناول . أكدى : خاب (وأصله أن يحفر طالب الماء فيبلغ صخرة فييأس) . الأمد : الغاية . العانى : الأسير . يريش مملقها : يصلح حال فقيرها . رأب الصدع : أصلح الشق . لم شعثها : جمع ما تفرق منها . حليته : استحلته . استشرى : جد وتمادى . الشكيمة : يراد بها الصلابة .

(٣) وقيذ الجوانح : كأنه مكسور الأضلاع من خوف الله . انصفقت : اجتمعت . السيساء : عظم الظهر (أى استمر ولم يثنه شىء) .

من كل فرقة : أرسالاً وأشتاتاً ؛ اختار الله لنبيه ما عنده . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رُواقه وشد طُنُبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورَجْله ، وألقى بَرْكه واضطرب حبل الدين ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وعاد مُبْرَمه أنكاثاً ، وبُغى الغوائل . . . وظن رجال أنْ قد أكثبتْ أطماعهم نُهَزَها ولات حين الذى يرجون[1] .

وأنّى والصديق بين أظهرهم ؟ ! فقام حاسراً مشمراً قد جمع حاشيتيْه ، وضم قُطْرَيْه ، فردّ نشْر الدين على غَرّه ، ولمّ شعثه بطيّه ، وأقام أوَده بثقافه ، فوقذ النفاق بوطأته ، وانتاش الدين فنعشه . . .

فلما أراح الحق على أهله ، وأقرّ الرؤوس على كواهلها ، وحقن الدماء فى أُهُبها ، وحضرته منيته ، سدّ ثُلْمته بشقيقه فى المرحمة ونظيره فى السيرة والمعْدلة : ذاك ابن الخطاب : لله أم حفلتْ له ودرّتْ عليه ، لقد أوحدتْ[2] به ؛ ففنّخ الكفرة وديّخها ، وشرّد الشرك شذر مذر . وبعج الأرض وبخعها فقاءت أكلها ولفظت خبْأها ؛ ترأمه ويصدّ عنها ، وتصدّى له ويأباها ، ثم وزّع فيئها فيها وتركها كما صحبها . فأرونى ماذا ترتؤون ؟ وأنّى يومئ أبى تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ !

أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم[3] » .

— ٥ —

قيل لعائشة أم المؤمنين : « إن قوماً يشتمون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » فقالت : « قطع الله عنهم العمل ، فأحب ألا يقطع عنهم الأجر[4] » .

* * *

وكان منها فى شأن علىّ من نفى الوصاية وما إليها بلهجة غير طرية ، ما سبقنا إلى ذكره

---

(١) الجران : مقدم عنق البعير ، والضرب بالجران يراد به الثبات والاستقرار . أرسالا : جماعات . الرواق : مقدم الخيمة (المراد : حل الفساد) . الطنب : حبال الخباء . أجلب : صاح . الرجل : جمع راجل . البرك : الصدر . مرج : فسد واختلط . المبرم : المفتول طاقين . النكث : ما نقض من الثياب ليغزل ثانية . أكثبت : قاربت . نهز : فرص .

(٢) الحاشية والقطر : الجانب (والمراد بضم القطر : التشمير لتدارك الأمر) . غره : طيه (الأول) الأود : العوج . الثقاف : آلة التقويم . وقذ : كسر . انتاش : استنقذ . أراح : أعاد . إقرار الرؤوس على الكواهل : يراد به إشاعة الأمن . حفلت : جمعت درها لترضعه . أوحدت به : أتت به واحدا لا نظير له .

(٣) فنخ وديخ : ذلل وقهر . شذر مذر : التفرق فى كل وجه . بعج : شق . بخع : ذلل (والمراد استخراج خيراتها) . ترأمه : تعطف عليه — الفائق للزمخشرى ١/٢٦٥ .

(٤) بلاغات النساء ص ١١ .

(ص ٦٦) فلا نعيده هنا ، إلا أنا ننص على أن زمنه بعد حادث الجمل .

ولعل آخر تعبير عن موقفها السلبي من على بن أبي طالب ، انقباضها عن ولديه الحسن والحسين ، فلقد كانت تحتجب منهما وهما لها من المحارم : إنهما سِبْطا زوجها لا تحل لهما ولا يحلان لها ، ومن المعروف بداهة أنه « لا تحل امرأة الرجل لولده ولا لولد ولده ولا لأولاد بناتهم [١] » .

وهي تعرف ذلك حق المعرفة ، لكنها — على ذلك — حجبتهما ولم تكن تأذن لهما إلا من وراء حجاب ، مبالغة في مباعدتهما ، ولقد علّق على هذا الحادث ابن عباس بقوله : « إن دخولها عليها لحل [١] » .

ثم كانت الأمنية الأخيرة للحسن بعد وفاة على وتنازله لمعاوية عن الخلافة ، أن يدفن عند جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي أمنية حق ما كان ينبغي أن يُحْرمها إذ كان أقرب الأحياء يومئذ من رسول الله ، وهو أمسهم به رحماً بعد بنته وأزواجه . ولكن للأهواء السياسية منحًى لا يخضع لحق ولا منطق :

أوصى الحسن وهو يحتضر أخاه الحسين فقال : « قد كنت طلبت من عائشة أن أدفن مع رسول الله فقالت : « نعم » ، فإذا مت فاطلب ذلك إليها ، وما أظن القوم إلا سيمنعونك ... [٢] » ، « إذا أنا مت فادفني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أجد أولى بقربه مني ؛ . . إلا أن تمنع من ذلك فلا تسفك فيه محجمة دم [٢] » .

ثم مات الحسن ، فأتى الحسين إلى أم المؤمنين عائشة يسألها دفن أخيه في حجرتها إلى جوار جده فقالت : « نعم وكرامة » ثم أخرج نعشه يراد به قبر رسول الله ، فمانع الحزب الحاكم حزب بني أمية ، وركب مروان [٣] بن الحكم وسعيد بن العاص ، وهمّ الحسين أن يلبس ومن معه السلاح لولا أن ردّه أبو هريرة [٣] وكادت تقع الفتنة . ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان ذلك سنة تسع وأربعين للهجرة .

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/٥٠ . (٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٠ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٦٦ — لكن ابن الشحنة في كتابه (روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر : (هامش مروج الذهب ٢/٢٢٥) ينص على أن عائشة نفسها هي التي منعت ، وليس ذلك بشيء . حتى أن اليعقوبي يورد هذه الرواية بصيغة التضعيف مصحوبة بتظرف رواة الأخبار ، فقد ذكر أن عائشة منعت وركبت بغلة شهباء وقالت : « بيتي ولا آذن فيه لأحد » . فأتاها ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر فقال لها : « يا عمة ، ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر ، أتريدين أن يقال : يوم البغلة الشهباء ؟! »

وهذا خبر وضع ليعبر عن تنكيت الرأي العام أكثر من تعبيره عن واقع ، وسيمر بك أن مثل هذه النكتة رويت أيضاً عن غير القاسم في غير هذا الحادث .

الفصل الثانى

فى مواقف متفرقة :

فى مقتل أخيها محمد بن أبى بكر

أنت لم تنس أن محمد بن أبى بكر كان من أشد المؤلبين على عثمان ، وأن عائشة استتبعته أيام الحصار معها إلى مكة فأبى ، وأنه دخل على عثمان الدار مع الداخلين ، وأنه لما زجره عثمان انزجر وخرج . ثم كان من أكبر أنصار على ، وشهد معه الجمل فكان ذا أثر لا ينكر فى هزيمة جيش أخته عائشة .

فاعلم الآن أن علياً عزل قيس بن سعد الأنصارى من ولاية مصر ، وكان ضابطاً لها ، واقفاً بالمرصاد لمعاوية بن أبى سفيان وحزبه حتى أهمهم أمره ، ولم يستطيعوا له شراً إلا بأن يأتوه من قبل أميره علىّ ، فأظهر معاوية أن قيساً من حزبه وأشاع ذلك حتى بلغ علياً من جواسيسه ، فأسرع إلى عزله ، وبذلك خسر مصر وأكسبها معاوية .

ولّى علىّ محمد بن أبى بكر مصر مكان قيس ، ومحمد حدث قليل التجربة ، لم يستفد من خطة سابقه ، فخالفها فوقع فى شرك معاوية ، وتحكم فيه جنده فقتلوه شر قتلة :

كان أهل مصر جميعاً بايعوا علياً إلا قوما غضبوا لمقتل عثمان فاعتزلوا فى (خربتا) ينتظرون ما يؤول إليه أمر الناس . وكان من دهاء قيس وحنكته و بعد نظره ، أن تركهم وسالمهم وعاهدهم وجبى خراجهم . وحاول معاوية بكل كيده أن يوقع حربا داخلية فى مصر فلم يستطع لأن واليها كان بالمرصاد يتدارك الشر قبل استفحاله . فلما كاد له عند على وعزله ، نصح لخلفه محمد بن أبى بكر بمسالمة أهل (خربتا) فاستغشه محمد وخالفه ، وناجزهم القتال ، و بلغ الخبر معاوية وكان ساهراً على تسقّط أخبار مصر ، لا يغفل عن شاردة ، فجهز عمرو بن العاص بجيش كثيف ، وكاتب سراً العثمانية من أهل مصر وفيهم أهل (خربتا) بمجئ المدد فلما اجتاز عمرو بن العاص اجتمعت جموعه بجموع الثائرين وعليهم معاوية بن خديج السكونى ، ولم يستطع محمد بن أبى بكر أن يخرج بأكثر من ألفين ، وانتدب الناس ليخرجوا مع كنانة

ابن بشر فكان معه ألفان أيضاً ، فالتقت الجموع وكان القتال ، ودارت الدائرة على جيش كنانة وقتل ، ثم على جيش محمد فانهزموا حتى بقى محمد وحده ، فدخل خربة فى ناحية الطريق .

* * *

لما بلغ عائشة أن معاوية قد عقد لعمرو بن العاص ، وأمره بالمسير لقتال أخيها محمد بن أبى بكر أمير مصر لعلىّ ، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليتكلم فى أمر محمد ، ففعل فلم يغن عنه شيئاً . ولما كلّم عمرو بن العاص ، تنصل هذا من التبعة وقال لعبد الرحمن : « ما جعل لى معاوية من الأمر شيئاً ، وما أنا إلا براء ، وما الأمر إلا لهذا الكنانى (يريد معاوية بن خديج[1]) » .

دخل عمرو بن العاص الفسطاط عقب القتال ، وخرج معاوية بن خديج فى طلب محمد ابن أبى بكر « حتى انتهى إلى علوج فى قارعة الطريق فسألهم : (هل مر بكم أحد تنكرونه ؟) فقال أحدهم : (لا والله إلا أنى دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس .) فقال ابن خديج : (هو هو ورب الكعبة) فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً ، فأقبلوا به نحو فسطاط مصر ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبى بكر إلى عمرو بن العاص وكان فى جنده فقال :

(أتقتل أخى صبراً ؟؟ ابعث إلى معاوية بن خديج فانهه[2]) .

وطلب عبد الرحمن إيفاد أخيه محمد إلى معاوية ينظر فى أمره ، وهو يعلم أنه إذا أرسل إلى معاوية وسعه حلمه و إحسانه ، فإن لم يصفح عنه كان فى شفاعة أخته أم المؤمنين له ما يحمل معاوية على العفو عنه إرضاء لها وتزلفاً .

فبعث[2] عمرو بن العاص إلى معاوية بن خديج يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبى بكر ، فقال معاوية بن خديج : « أكذاك قتلتم كنانة بن بشر ، وأخلى أنا عن محمد بن أبى بكر ؟ هيهات ، « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ[3] » .

وأراد ابن خديج أن يعاجله خشية أن يخلى معاوية بن أبى سفيان سبيله .

---

(١) ابن عساكر .

(٢) الطبرى ٤/٧٩ .

(٣) سورة القمر ٥٤ الآية ٤٣ — والزبر : الكتب . والخطاب لكفار قريش بعد أن قص الله عليهم ما حل بكفار الأمم من قبلهم لما كذبوا رسلهم .

فقال لهم محمد : « اسقونى من الماء » قال له معاوية بن خديج : « لاسقاه الله إن سقاك قطرة أبداً ، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرما فتلقاه الله بالرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يابن أبى بكر فيسقيك الله الحميم والغسّاق . »

قال محمد : « يابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك إليك و إلى من ذكرت ، إنما ذلك إلى الله عز وجل يسقى أولياءه و يظمئ أعداءه : أنت وضرباءك ومن تولاه . أما والله لو كان سيفى فى يدى ما بلغتم منى هذا . »

قال له معاوية : « أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك فى جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار . » فقال محمد : « إن الله يحرقك و إمامك (يعنى معاوية) وهذا (وأشار إلى عمرو بن العاص) بنار تلظّى كلما خبت زادها الله سعيراً . »

قال معاوية : « إنى إنما أقتلك بعثمان . »

قال له محمد : « وما أنت وعثمان ، إن عثمان عمل بالجوْر ونبذ حكم القرآن ... فنقمنا ذلك عليه فقتلناه . وحسنت أنت له ذلك ونظراؤك ، فقد برأنا الله من ذنبه ، وأنت شريكه فى إثمه وعظم ذنبه ، و[الله] جاعلك على مثاله . »

فغضب معاوية فقدمه فقتله ، ثم ألقاه فى جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار[1] » .

كان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة ، و إياك أن تظن أن هذا حكم معاوية بن خديج وحده ، وتخدع بهذا التنصل الذى تنصله عمرو بن العاص ، أو بما سيمر بك من تنصل معاوية يوم دخل حجرة عائشة بالمدينة فآخذته على قتل أخيها . إنى أجزم بأن الأمر متفق عليه بين عمرو ومعاوية بن أبى سفيان من أول الأمر ، ولو خلص منهم محمد ودخل الكعبة ملتجئاً ما كان ذلك بمنجيه عندهم من القتل ؛ إنهم لن يتركوا امرأً سعى ذلك السعى فى عثمان ، ثم كان منه يوم الجمل ما كان ، ثم كان من أعظم أركان على ، وأشدهم له حباً و إخلاصاً . لم يكن التنصل من تبعة قتله إلا دهاء من معاوية بن أبى سفيان وصاحبه عمرو .

* * *

وصل خبر مقتله هكذا إلى المدينة ، فعظم الحزن عليه : أما أمه أسماء بنت عُمَيْس ، فقد

---

(١) الطبرى ٤ / ٧٩ — ولا تنس أن فى ذلك إجابة لدعوة عائشة عليه إذ كانت تقول : « اللهم اقتل مذمماً بسعيه على عثمان » وقد مر بك ذلك فى ص ١٠٦ .

قامت لما بلغها الخبر — إلى مسجد بيتها وكظمت غيظها (من شدة حزنها وعظم مصابها) — حتى شخب ثدياها دماً[١].

وأما أخته عائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين ، فقد جزعت عليه جزعا شديداً ، وصارت تقنت فى دبر كل صلاة : تدعو على معاوية بن خديج[٢] وعمرو بن العاص . واشتد حزنها عليه شدة ما استطاعت أن تخفف منها بتغيير أو إنكار أو طلب ثأر (لما عرفت من أثر يوم الجمل فى نفسها) ، وحرّمت على نفسها الشواء ، فلم تأكل شواء من ذلك الوقت حتى ماتت[٣] . ثم ضمت عيال محمد إليها وربّت ابنه القاسم فى حجرها فنشأ أفقه أهل المدينة . واحتل هذا الحادث من قلبها مكاناً إلى جانب حادث الجمل ، واحتسبت مصابها عند ربها ، ما تطيق له تنفيساً إلا ما لا بال له — على ما سترى — بين الفينة والفينة : من جمل تُشْعر بضغينتها على معاوية بن أبى سفيان وعهده ، على رغم ما صار بينهما من مجاملة ومداراة .

فى مقتل حجر بن عدى

حجر بن عدى سيد من سادات العرب فى الكوفة ، نافذ الكلمة ، عظيم الوجاهة ، من أولئك الذين لهم فى قومهم مكانة الزعماء يشيرون فتمضى إشارتهم ، ويأمرون فيطاعون . عرف إلى ذلك بالعدالة وحسن السيرة ولزوم الدين ؛ فكان من أخص شيعة على بن أبى طالب ممن نصروه وقاموا بأمره وأحبوه حياً وميتاً ، وأقاموا على مودته والوفاء له والذياد عنه بعد مماته ، تحدى فى ذلك سلطة الخلفاء وسطوة الأمراء .

لما قضى على وتنازل الحسن لمعاوية واجتمعت الأمور له ، ولّى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب وحلمائهم ، وقبل سفر المغيرة دعاه معاوية (فى جمادى سنة ٤١) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) انظر ترجمتها فى الإصابة .

(٢) لم يمنع فعل معاوية بن خديج السيدة عائشة حين سمعت خيراً عنه من الثناء عليه مع عظيم جرمه إليها : فقد كان ابن خديج هذا ممن لهم البلاء الحسن فى غزو المغرب ، رووا أن عائشة زارها وفد من جند الغزو فسألتهم : « كيف كان أميركم فى غزاتكم ؟ » فقالوا : « ما نقمنا عليه شيئاً » وأثنوا عليه . فقالت السيدة : أستغفر الله ، إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخى ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم من رفق بأمتى فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » .

(٣) التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان (مخطوط ص ٢٠٩) .

« أما بعد فإن لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ، وقد قال المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما

وقد يجزئ عنك الحكيم بغير التعليم ؛ وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضينى ويسعد سلطانى وتصلح به رعيتى .

ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتحمَّ عن شتم علىّ وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب على أصحاب علىّ والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم ، وإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه والإدناء لهم والاستماع منهم[1] » .

* * *

وأقام المغيرة فى الكوفة والياً عليها لمعاوية سبع سنين وأشهراً ، فأحسن سياستها وأحكم إدارتها ، ولم يكن الناس ينقمون عليه إلا شتمه لعلى تنفيذاً لوصية معاوية ، فإنه ما كان « يدع ذمّ علىّ والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه[1] » .

فكان حجر إذا سمع ذلك لم يسكت عليه لما جعل الله فيه من الشجاعة والوفاء والحمية والصدع بالحق ، فكلما وقف المغيرة يشتم علياً وأنصاره (وهم جمهور الناس فى الكوفة) ردّ عليه فقال :

« بل إياكم فذمّ الله ولعن . . » ثم قام فقال :

« إن الله عز وجل يقول : (. . . كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ[2]) ؛ وأنا أشهد : إن من تذمون وتعيّرون لأحق بالفضل ، وإن من تزكّون وتطرون أولى بالذم . . » فيجيبه المغيرة : « يا حجر ، لقد رُمى بسهمك إذ كنت أنا الوالى عليك ، يا حجر ويحك اتق السلطان . . . اتق غضبه وسطوته ، فإن غضبة السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك كثيراً . . » ثم يكف عنه المغيرة ويصفح . . .

واستمر الحال بينهما على هذه الصورة ، يرد حجر على المغيرة مقالته كلما وقف يشتم علياً

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٨٨ .

(٢) سورة النساء ٤ الآية ١٣٤ .

وأنصاره ويزكّى عثمان وأشياعه . . . حتى إذا كانت أواخر أيام المغيرة وقف يخطب ويقول على عادته من شتم على والثناء على عثمان :

« اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه واجزه بأحسن عمله ، فإنه عمل بكتابك واتبع سنة نبيك وجمع كلمتنا وحقن دماءنا وقُتل مظلوماً . اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه الطالبين بدمه . . » ويدعو على قتلته . فقام حجر بن عدى فصرخ بالمغيرة صرخة سمعها كل من كان فى المسجد وخارجاً منه وقال :

« إنك لا تدرى بمن تولّع من هرمك أيها الإنسان ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك ، ولم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك ؛ وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين (يريد علياً) وتقريظ المجرمين » .

فقام مع حجر أكثر من ثلثى الناس يقولون : « صدق والله حجر و برّ ، مرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنا لا تنتفع بقولك هذا ولا يجدى علينا شيئاً [1] » . وأكثروا فى مثل هذا القول ونحوه حتى نزل المغيرة .

استأذن على المغيرة بعد هذا الموقف الشديد ، قومه فأذن لهم ، فقالوا : « علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك فى سلطانك هذه الجرأة ؟ ؟ ! إنك تجمع على نفسك بهذا خصلتين : أما أولاهما فتهوين سلطانك ، وأما الأخرى فإن ذلك إذا بلغ معاوية كان أسخط له عليك » .

فكشف لهم المغيرة عن خطته ودهائه وبعد غوره وسعة صدره بقوله لهم :

« إنى قد قتلته : إنه سيأتى أمير بعدى فيحسبه حجرٌ مثلى ، فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بى ، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة .

إنه قد اقترب أجلى وضعف عملى ، ولا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ؛ ولكنى قابلٌ من محسنهم وعافٍ عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم حتى يفرق بينى وبينهم الموت ، وسيذكروننى لو قد جربوا العمال بعدى [1] » .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٨٩ — مات المغيرة وتولى بعده ولاة ... فكان أحد شيوخ الحى يذكر هذا الحديث ويقول : « قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم : أحدهم للبرىء ، وأغفرهم للمسىء ، وأقبلهم للعذر » .

ولقد وقع الأمر كما فصّله المغيرة حرفاً حرفاً .

* * *

ولى الكوفة بعد المغيرة زياد بن أبيه ، فرأى الناس أبطش الناس وأقساهم وأضيقهم صدراً ، بعد أن رأوا أرحم الناس وأوسعهم صدراً . لقد تتابع من زياد وعامله شتم على والبراءة منه ، فكان موقف حجر من ذلك موقفه الأول ، فهدده زياد على ملأ من الناس ... فإنه لواقف يوماً يخطب على منبر الكوفة فأطال وأخر الصلاة حتى قال له حجر : « الصلاة » فمضى زياد فى خطبته ، ثم قال حجر : « الصلاة » فمضى زياد يخطب ، ثم قال حجر : « الصلاة » فمضى زياد فى خطبته ، فلما خشى حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحصى (فى وجه زياد) وثار إلى الصلاة وثار الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك قطع خطابه ونزل فصلى بالناس .

ضاق زياد ذرعاً بحجر وردوده ومناوأته فكتب فيه إلى معاوية وكثّر عليه فى أمره ، فكتب إليه معاوية أن « شدّه فى الحديد ثم احمله إلىّ[1] . »

فلما أراد زياد حمله منعه قوم حجر ، واختفى ملتجئاً من محلة إلى محلة .. فى خبر طويل وبلاء مستطير ، ثم أسلم نفسه فحمل مع بضعة عشر رجلاً من رؤوس شيعة على إلى معاوية فأمر معاوية نفراً من أهل الشام أن يعرضوا عليهم البراءة من على واللعن له ، فإن فعلوا وإلا قتلوا . وعاين أهل الشام منهم صلاة طويلة حسنة وتبتلاً ودينا غالباً ، فلما عرضوا عليهم لعن على رفضوا وقالوا : « بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه » فأمر رسول معاوية بحفر قبورهم فحفرت ، وأدنيت أكفانهم ، فأقاموا الليل كله يصلون »

فلما أخرج حجر ليقتل استأذن جلاديه أن يصلى ركعتين ، فأذنوا ، فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال : « لولا أن تظنوا بى غير الذى أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا » . ثم قال :

---

(١) الطبرى ٤ / ١٩٠ — لخصت فى هذه الأسطر أخباراً بسطها الطبرى فى أكثر من عشرين صفحة (٤/١٨٧ — ٢١٣) تلخيصا يوائم حاجتنا فى هذا البحث .

« اللهم إنا نستعديك على أمتنا ، فإن أهل الكوفة شهدوا[1] علينا و إن أهل الشام يقتلوننا . أما والله لئن قتلتمونى بها إنى لأول فارس من المسلمين هلك فى واديها » .

ثم قال لمن حضر من أهله : « لا تطلقوا عنى حديداً ولا تغسلوا عنى دماً : فإنى ألاقى معاوية غداً على الجادة » ثم قدم فضربت عنقه .

***

كان محمد بن سيرين بعد ذلك إذا سئل عن الشهيد : يُغسَّل ؟ حدثهم حديث حجر . وفى هذا دلالة على نظرة الرأى العام حينئذ لمقتل حجر ، فقد كانوا يرونه المسلم الصادق الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، قضى شهيداً فى سبيل الجهر بالحق ، ما خلع طاعة ولا فارق جماعة ، و إنما أنكر على الولاة لعنهم خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وردد الناس مرثية امرأة من الأنصار له ، وهى هند ابنة زيد بن مخرمة ، فقد كان فى هذه المرثية ما يعبر عن شعورهم ويشبع التياعهم على حجر وسخطهم على معاوية قالت :

ترفَّع أيها القمر المنيرُ تبصّرْ : هل ترى حُجْراً يسير ؟
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها مُحولاً كأنْ لم يحيها مُزن مَطير
ألا ياحجر حجرَ بنى عدى تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً وشيخاً فى دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقاً ، له من شر أمته وزير
ألا ياليت حجراً مات موتاً ولم يُنْحر كما نحر البعير
فإن يهلك فكلّ زعيم قوم من الدنيا إلى هُلْك يصير[2]

---

(١) زور زياد محضراً كتب فيه : « إن حجراً خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع معاوية وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء » . وأشهد عليه سبعين من أماثل الكوفيين .

(٢) الطبرى ٤/٢٠٩ — الخورنق والسدير : قصران مشهوران . وأرض محول : قاحلة ، وأرادت بالشيخ معاوية وبالوزير زياداً . وانظر الأغانى ١٦ / ١٠ وفيه مكان تجبرت الجبابر : تربعت الجبابر وأول البيت الخامس هكذا (أخاف عليك سطوة آل حرب ..) .

وتناقل الناس بعدئذ هذه الجملة وفيها الدليل الناطق على مكانة حجر من قلوب الناس، قالوا : « أول ذلٍّ دخل الكوفة : موت الحسن وقتل حجر[١] » . وكان الحسن البصرى إذا عد أموراً أربعة من أكبر ما ارتكب معاوية ، عد رابعها قتله لحجر ، وعقب على ذلك بقوله : « ويلٌ له من حجر وأصحاب حجر[١] . » ويكرر ذلك .

فذكر ابن سيرين أن معاوية « لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول : يومى منك يا حجر يوم طويل[٢] . »

* * *

فيما بين ولاية زياد ومقتل حجر ، انتشر خبر القبض عليه فى الأمصار الإسلامية — ومنها الحجاز — وبلغ عائشة فأهمتها أمره جداً ، فأرسلت سفيراً خاصا إلى معاوية هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليشفع — على لسانها — لحجر وأصحابه ، فقدم عليه عبد الرحمن وقد قتلهم ، فأسف أشد الأسف ولم يملك إلا أن يعاتب معاوية أمرّ العتاب ، فقال له : « أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ » فأجاب معاوية : « حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى ، وحمّلنى ابن سمية (زياد) فاحتملت » .

فلما طبّق خبر مقتله المدينة جزعت عائشة عليه أشد الجزع ، وعظم غضبها على معاوية ، وثارت ثورتها ، ولست أشك فى أنها كانت تثير الناس وتجيّش الجيوش وتخرج إلى قتاله لولا الدرس المؤلم الذى كانت لا تنساه : درس (يوم الجمل) ، ولا أدل على ذلك من قولها :

« لولا أنا لم نغيّر شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه ، لغيّرنا قتل حجر أما والله إنْ كان — ماعلمت — لمسلماً حجاجاً معتمراً[٣] » .

ولا يفوتنك أن كلمة (لغيّرنا) لا يقولها إلا من أيقن أن سلطانه يطاول سلطان الذى يغيّر عليه ، كانت السيدة معتدة بنفوذها وسلطانها واثقة من أنها — فى بعض النواحى —

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

(٢) الطبرى ٤ / ١٩١ والأغانى (١٠/١٦ طبعة الساسى .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٠٨/٤ والأغانى ١٠/١٦ .

خليفة فوق الخليفة . وإن نفرتها الشديدة من الدماء بعد أن عاينت فظاعتها يوم الجمل هى التى تحول بينها وبين كثير مما يجب ، وكثير مما تريد .

ولقد جمع قولها هذا حسرتين : حسرتها على حجر ، وحسرتها على أنها لا تملك أن تثأر له .

وسترى بعد قليل أنها لما اجتمعت بمعاوية كان مقتل حجر من أول ماقرّعته عليه . وزعم اليعقوبى أن معاوية لما حج استأذن على عائشة فقالت له : « يامعاوية ، أقتلت حجراً وأصحابه ، فأين عزب حلمك عنهم ؟ أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات[1] » .

لم تكن السيدة — مع اعتزالها — ليغيب أثرها عما يهز المجتمع العربى حينذاك من هزاهز .

فى قضية هدبة بن الخشرم

هدبة بن الخشرم شاعر من بنى عامر ، خرج قومه حجاجاً فاصطحبهم هو وأخته فاطمة ، ومع قومه شاعر آخر هو زيادة بن زيد أحد بنى رقاش ، فتعاقب هدبة وزيادة سوق الإبل ، فحدا زيادة بالإبل فرجز يتغزل بأخت هدبة وهى تسمع ، فأحفظ ذلك هدبة فرجز بأخت زيادة الغائبة ، فلم يشف نفسه . وكان بينهما شر استطار إلى قوميهما ؛ فلما انقضى الحج أصاب هدبة غِرة من زيادة فقتله ثم هرب .

قبض والى المدينة — حين فر هدبة — على عم هدبة وأهله فحبسهم ، فلما بلغه ذلك أسلم نفسه إلى السلطان فحبسه وأطلق عمه وأهله .

أهمّ أهلَ المدينة شأن هدبة ، فشفع كثير منهم عند عبد الرحمن أخى زيادة فى أن يقبل الدية فأبى . وجعل القرشيون بالمدينة يكلمونه فى هدبة وأضعفوا له الدية ، وكان فى جملة الساعين أكابر الناس : الحسين بن على ، وسعيد بن العاص والى المدينة ، وعبد الله بن

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٧٥ ومرج عذراء شرقى دمشق ، حيث دفن حجر وأصحابه ، وعذراء قرية هناك سمى المرج بها — هذا ولم يصنع معاوية شيئاً حين اعتذر للسيدة بقوله : « لم يحضرنى رجل رشيد يا أم المؤمنين » .

عمرو ، وعمرو بن عثمان بن عفان ... وهو يأبى . وأشفق الوالى من قتل هدبة فرفع أمره إلى معاوية ، وذهب إليه عبد الرحمن نفسه أخو القتيل .

نظر معاوية فى الأمر وهو لا يريده ، فلاح له مخلص جيد ، فسأل عبد الرحمن : « هل لزيادة ولد ؟ » قال « نعم ، له غلام صغير دون البلوغ ، اسمه المسوّر ، وأنا عمه وولىّ دم أبيه » .

فقال معاوية : « إنك لا تؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق ، والمسور أحق بدم أبيه » وأمر بحبس هدبة حتى يبلغ المسور .

مات خلال ذلك عبد الرحمن وانقضت على حبس هدبة ست سنين حين بلغ المسور . وسعى الناس ، والظاهر أن مسعاهم أثمر لدى المسوّر فمال إلى العفو وأخذ الدية لولا موقف أمه ، فقد قالت له :

« والله لئن لم تقتل هدبة لأنكحنّه ، فيكون قد قتل أباك ثم نكح أمك ، فتسبك بذلك العرب يد المُسْنَد (الدهر) » ، فصرفه ذلك عن مذهبه ، فثأر لأبيه من هدبة فقتله .

* * *

أما السيدة عائشة ، فالظاهر أنها ذهبت فى أمر هدبة الذى أهمّ قريشاً وأهل المدينة والبوادى مذهباً آخر : إنه أول عدوانٍ فيه إحياء لأمر الجاهلية ، وهى تريد أن يقضى على الجاهلية وعدوانها قضاء مبرماً ، وترى السيدة أن ذلك من أهم رسالات الإسلام ، فكانت تحب أن يقتل هدبة بزيادة فيكون ذلك أول قَوَدٍ من نوعه فى الإسلام ، وينزجر كل من لم تنتزع من نفسه عادات الجاهلية وحميتها .

استنتجنا ذلك من جوابها لهدبة : فقد أرسل إليها يقول : « استغفرى لى » .

فأجابته السيدة : « إن قُتلتَ استغفرت لك » .

فلما قُتل برّت له بوعدها فاستغفرت له[1] .

---

(١) انظر تفصيل أخبار هدبة فى كتاب الأمالى للقالى ٤ (كتاب التنبيه) ص ٨٣ ، ٨٤ والأغانى ١٧٧/٢١ (طبعة الساسى) وقد اعتمدنا المصدر الأول وخاصة فى تقدير السنوات التى لبثها هدبة فى السجن .

جرت الأمور فى قضية هدبة على ما يرضى السيدة : من إقامة حدود الله و إحباط الشفاعات حسماً لمادة الجاهلية وعقابيلها فى النفوس ، فكانت بموقفها هذا من هدبة وهوى الرأى العام : الساهرة الراعية لحق الشريعة .

* * *

متفرقات

وفوق ماتقدم ، كانت تكون بين السيدة والخليفة وعماله مراسلات : يسألونها فتجيبهم أو تشفع فيمضون شفاعتها ، إذ يعدونها واجبة الطاعة و يرعوْن مقامها . فإذا تقدمت إلى والٍ بأمر ما ، كان هذا الوالى أعظم إنسان سروراً إذ رأته السيدة أهلاً لمكاتبته أو تكليفه حاجة طُلِبَتْ منها .

فإذا كانت النظرة الأولى لهذه الاستفتاءات من الخليفة أو عماله ، توحى إليك بردّ الأمر إلى ماشاع من أن عائشة أعلم الصحابة فى شؤون الرسول البيتية وأمور النساء ، فإنى أذهب إلى أبعد من ذلك ، أجعل الحافز الأول فى استفتائهم لها تطييب خاطرها و إشعارها بما يكنون لها من تعظيم وحرمة ، رجاء أن يخف إنكارها عليهم فيما يبلغها عنهم من اعوجاج ؛ و إلا ففى كل مصر من فقهاء الصحابة من يغنى المستفتى عن أن يكتب إلى عائشة فى مسألة من المسائل . و إليك بعض هذه المسائل مما لم يمر بك :

— ١ —

كتب إليها معاوية أن : « اكتبى إلىّ بشىء سمعتيه من أبى القاسم صلى الله عليه وسلم » . فوجدت السيدة الفرصة المواتية ، فعمدت إلى الأسلوب الذى يقرّع به مثل معاوية فاختارت هذا الحديث الجامع فكتبت إليه :

سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول :

« من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًّا [1] » .

---

(١) روضة المحبين ص/٤٧ ومسند أحمد ٦/ والبيان والتبيين (٢ / ٢٤٢ طبعة السندوبى الثانية) .

وقد عرفت جوابها معاوية لما سألها أن تروى له حديثاً عن عثمان رحمه الله [١] .

— ٢ —

كتب زياد بن أبى سفيان ـ والى العراق لمعاوية ـ إلى السيدة يستفتيها فى حكم يقرره ابن عباس :

« إن عبد الله بن عباس قال : (من أهدى هدياً حرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر الهدى) وقد بعثت بهدىى فاكتبى لى بأمرك » .

فأجابته :

« ليس كما قال ابن عباس ، أنا فتلت قلائد هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ثم قلّدها رسول الله بيده ، ثم بعث بها مع أبى ، فلم يحرم على رسول الله شىء أحله الله له حتى نحر الهدى [٢] » .

— ٣ —

كتب معاوية إلى زياد : « انظر رجلاً يصلح لثغر الهند فولّه . » فكتب إليه : « إن قِبَلى رجلين يصلحان لذلك : الأحنف بن قيس ، وسنان بن سلمة الهذلى » فكتب إليه معاوية :

« بأى يومَىِ الأحنف نكافئه : أبخذلانه أم المؤمنين ، أم بسعيه علينا فى صفّين ؟ فوجه سناناً [٣] » .

ولا يخفى عليك ما يبتغى معاوية بقوله : (أبخذلانه أم المؤمنين) من الهدف السياسى فإنه إذا بلغ عائشة أن خاذلها حُرم الولاية لخذلانه لها ، عظم رضاها عن معاوية فأسكتها ذلك عما ترى بعض الإسكات ، ونال معاوية بذلك الزلفى عندها فأمن جانبها .

---

(١) ص ٢٣ الحاشية ٢ من هذا الكتاب .

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٩٥ — وقال الزهرى : أول من كشف العمى عن الناس وبين لهم السنة فى ذلك عائشة .

(٣) عيون الأخبار ١/٢٢٧ — وكان من جواب زياد معاوية : « إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل .

— ٤ —

طمح زياد أن يظفر من السيدة عائشة بالاعتراف بنسبته إلى أبى سفيان ، فجعل يكتب إليها عناوين كتبه « إلى عائشة أم المؤمنين من ابنها زياد بن أبى سفيان » رجاء أن يرد فى الجواب : « ... إلى زياد بن أبى سفيان » . لكن عائشة لم تفعل [١] ، بل اكتفت أن تكتب إليه : «من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد» . حتى حدثت لها عنده هذه الحاجة :

كان لعبد الرحمن بن أبى بكر مولًى اسمه مرة بن أبى عثمان ؛ فلما مات عبد الرحمن وكانت عائشة شديدة المحبة والإكرام له ، أتاها مرة يسألها أن تكتب له وصاة إلى زياد والى البصرة إذ عزم مرة على الإقامة بها ، وسألها أن تبدأ فى العنوان باسم زياد قبل اسمها . فكتبت عائشة إلى زياد كتاباً توصيه بمرة وجعلت العنوان :

« إلى زياد بن أبى سفيان من عائشة أم المؤمنين »

وحمل مرة الكتاب إلى زياد بالبصرة .

فلما رأى زياد أنها كاتبته وقدمته ونسبته إلى أبى سفيان ، سر بذلك ، وأكرم مرة وألطفه ، وجعل يقول للناس : « هذا كتاب أم المومنين إلىّ فيه » ويعرضه عليهم ليقرؤوا عنوانه ويروا فيه نسبته إلى أبى سفيان ... وكان موقعه عنده عظيما جداً ، فأقطع مرة مئة جريب على نهر الأبلة ، وأمر أن يحفر له نهر يسمى باسمه : « نهر مرة [٢] » ، ثم كان ابن هذا المولى عثمان بن مرة من أسرياء البصرة بعده .

وليس هذا الخبر يحتاج إلى أن ينبه إلى مافيه مما يشعر بمكانة السيدة ، لقد كان كتمانها

---

(١) كان لزياد أخ يدعى أبا بكرة ، وكان مقاطعاً لزياد ، فلما استلحق معاوية زيادا بنسبه أنكر ذلك أبو بكرة .

ثم عزم زياد على الحج ، فبلغ ذلك أبا بكرة ، فسعى إلى أحد أبناء زياد فقال له : « يابنى قل لأبيك : إننى سمعت أنك تريد الحج ، ولا بد من قدومك إلى المدينة ، ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى صلى الله عليه وسلم (وهى أخته بموجب استلحاق معاوية له) ؛ فإن أذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله ، وإن منعتك فأعظم به فضيحة فى الدنيا » .

فترك زياد الحج . — انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٤١٠ وتاريخ الأمم الإسلامية للشيخ الخضرى ١/٤٧٧ (الطبعة الأولى — مطبعة المعارف بمصر)

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦٠ (طبعة ليدن) ومعجم البلدان لياقوت (مادة نهر مرة) والمعارف لابن قتيبة وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٤١١

فقط — فى رأى زياد — تشريفاً له ونصراً مدنياً سياسياً ، وحجة يحتج بها على نسبه إلى أبى سفيان ، إذ ماذا يريد وراء شهادة السيدة له بهذا النسب .

فى بيعة يزيد بن معاوية

الشورى أساس من أسس الحكم فى الإسلام ، فكلما كان حظ الحكم منها أوفى كان أقرب إلى روح الإسلام . والحاكم الأعلى فى العرف الإسلامى أجير الناس كافة : يسهر على مصالحهم ويستوفى أجره من بيت مالهم ، وليس يملك من الأمر غير ذلك .

انقضى عهد الراشدين ، وفهم أجلاء الصحابة ورؤوس الناس للحكم هذا الفهم ؛ فلما اتفق أن ولّى عثمان بعض الأكفياء من أقربائه أعمالاً ، أنكر الناس ذلك وأعظموه ، وخافوا أن تصير مصالحهم العامة حُكْرة لأحد ، أيّاً كان ، ففشت القالة فى عثمان حتى آلت الأمور إلى ما عرفت .

أما معاوية : فإن أربعين عاماً سلخها فى حكم الشام إلى جوار إمبراطورية الرومان ، وفى ديارها السابقة ، قد انحرفت به عن الجادة فى أمر الحكم ، فلم يسلك به الطريق الإسلامى الذى رأينا أساليب مختلفة له فى عهد الراشدين ، وإنما سلك به طريقاً (رومانياً) وأراده أسلوباً ملكياً على أسلوبهم ، وانتوى نية فطفق يتألف لها الناس ، ويهيئ لها الأمور . فلما وجد الأحوال مواتية ، أعلنها بيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد .

ولم يفعل ذلك حتى سبر أغوار الأمصار وطباع الناس وكانت قد استلانت واستكانت بسبب سياسته وسياسة ولاته الحازمين الأشداء مدة عشرين عاماً . نعم ، لقد استكانت إلى الطاعة ، حتى من يجيش حمية من زعماء القوم وأحرارهم روّض معاوية إباءهم وأنفتهم بلطفه وعطائه الجم ، فإن لم يسلسوا له جعلهم جزر السيوف كما رأيت فى أمر حجر وأصحابه . وقد حصد الموت مدة أربعين سنة أكثر الصحابة ، ورؤوس الناس ممن يهابهم معاوية .

ومع كل ذلك لم يخلُ إعلان البيعة ليزيد من صدمة للنفوس عامة ، فأكثرها وقف ثم رضى بالقضاء المحتم ، وبعضها أنكر ورفع عقيرته بالإنكار .

أما السيدة عائشة فقد لزمت بيتها وسكينتها ، وأنا أقطع أنها جاهدت نفسها أعظم الجهاد

بهذه السكينة ، وكبتها أعظم الكبت ، وكظمت غيظا ما كانت لتكظمه ؛ فما كان هذا الأمر بالأمر الحقير ، إنه أعظم ما مرّ بالسيدة من خروج على الإسلام وتنكر لروحه ، ولكنها الدماء ، الدماء دائماً هى الشبح الذى يلوح لعائشة كلما همت بانكار منكر فترعد فرائصها وتستجير بالله من كل خير يؤدى إلى شر .

لكن أعوان معاوية فاتهم اللطف فى تأتيهم لهذا الخرق العظيم ، ولم يدركوا مافيه من كسر لحرية ألفها العرب ، وشورى يتعبدون بها ، ونظم سامية تجرى منهم مجرى الدم من العروق . ظن أعوان معاوية أن البيعة ليزيد أمر من هذه الأمور الكثيرة التى يرد بها البريد فتعلن للناس وتنفذ فى يسر وصمت ... مما لا يصدم عقيدة ولا يجافى روحاً ولا يكسر تقاليد أصيلة ولا يذل أنفة قومية .

***

أرسل معاوية إلى الأمصار أمره بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، فوقف عامله على المدينة مروان بن الحكم يعلن هذه البيعة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إنكار الناس لها واحداً ، وكان متكلمهم عبد الرحمن بن أبى بكر أخو السيدة عائشة فقد رد على مروان كلامه فقال :

« كذبت والله يامروان وكذب معاوية معك ، لا يكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنة الروم : كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . »

« لقد جئتم بها هرقلية وقوقية[1] ؛ تبايعون لأبنائكم !!؟ »

قال مروان : « سنة أبى بكر وعمر . »

فقال عبد الرحمن : « بل سنة هرقل وقيصر . » ، « ما لأبى بكر لم يستخلفنى ؟ وما لعمر لم يستخلف عبد الله ؟ »

واشتد الغضب والحنق بمروان فقال :

يا أيها الناس ، إن هذا الذى قال الله فيه : « وَالَّذِى قال لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدانِنِى أَنْ أُخْرَجَ . . [2] »

---

(١) الدنانير القوقية : من ضرب قيصر لأنه كان يسمى قوقا — القاموس المحيط .

(٢) سورة الأحقاف ٤٦ الآية ١٧ وتتمتها : « وقد خلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق ، فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين » .

حينئذ ، فرغ صبر عائشة — وهى تسمع من حجرتها — وقد رأت أن عبث مروان تطاول إلى القرآن ، فغضبت وقالت :

« ألابن الصديق يقول هذا ؟؟ » ثم قالت : « استرونى » فستروها فجهرت قائلة :

« كذبت والله يامروان ، ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، إن ذلك رجل معروف نسبه . . . ولكن (رسول) الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت قَضَض (قطعة) من لعنة الله[1] . » ،

« يابن الزرقاء ، أعلينا تتأول القرآن ؟ .. لولا أنى أرى الناس كأنهم يرتعشون لقلت قولا يخرج من أقطارها » فقال مروان : « ما يومنا منك بواحد[2] . »

لقد كان جبها مَروان شديداً عنيفاً حاطماً وما باختيارها جبهته ، ولكن أحرجها : إن الذى بوسعها أن تفعله ، هو حيادها فى أمر هذه البيعة غير المشروعة ، وحسبها ذلك قهراً لنفسها وللواجب عليها . وكذلك كان ، فلم ترد على مروان شيئاً لما أعلن بيعة يزيد ، لكن مروان امتد أذاه إلى أخيها بغير حق ، ثم كان هناك ما هو أشد حرمة من أخيها وما لا يجوز لمسلم أن يقر عبثاً فيه ، لقد امتد عبث مروان إلى كتاب الله يدعى أن آية منه نزلت فى عبد الرحمن وهى لم تنزل فيه . . .

لم يكن للسيدة ولا لغيرها أن تسكت على هذا العبث الذى ارتكبه مروان نصرة لعصبيته السياسية .

امتنع عبد الرحمن بن أبى بكر عن البيعة وامتنع الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وامتنع لامتناعهم أهل الحجاز .

* * *

كتب مروان بالذى كان إلى معاوية ، فأقبل نحو المدينة ، فلما دنا منها « استقبله أهلها وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على وعبد الرحمن بن أبى بكر ، فأقبل

---

(١) تاريخ ابن عساكر (مخطوط) ترجمة عبد الرحمن بن أبى بكر

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٤١ وأمالى القالى ٣/١٧٥ وانظر الإتقان للسيوطي ص ٢٩ وتاريخ دمشق لابن عساكر .

على عبد الرحمن بن أبى بكر فسبه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلا . »

فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلا ، بدنة يترقرق دمها — والله — مُهَريقة . » ،

فلما دخل ابن الزبير قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضب تلعة مدخل رأسه تحت ذنبه . » ،

فلما دخل عبد الله بن عمر قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلا » وسبه ، فقال عبد الله « إنى لست بأهل لهذه المقالة . » قال معاوية : « بلى ، ولما هو شر منها[1] . »

***

٧ معاوية فى بيت عائشة .

دخل معاوية المدينة وكله خوف من السيدة عائشة أن تشتد عليه فيما ابتدع وما يريد أن يبتدع فى الإسلام ، مما يهون معه كل ما كان الناس نقموا على عثمان . ثم هو يخشى أن تكون السيدة سنداً وملجأ وقوة لهؤلاء الأربعة أعلام الحجاز من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعاوية من الذين يتأتّون للشر قبل وقوعه ، ولا تحملهم قوتهم عليه أن ينتظروه فيقضوا عليه ، توفيراً لقواهم ورجالهم ، وسياسة لهؤلاء الخصوم عسى أن يصبحوا فى جملة أنصارهم فيزيدوا بهم قوتهم .

أراد معاوية أن يتلطف لما فى قلب السيدة عليه ، فقد قتل قائده — بأمره على الأرجح — أخاها محمد بن أبى بكر شر قتلة وأشدها نكالا ، ولم ينجه من القتل والاحراق شفاعة عائشة ولا إرسالها فيه رسولاً خاصاً من أشراف بنى أمية ؛ وكذلك أرسلت تشفع أيضاً فى حجر ابن عدى وأصحابه فلم تستفد شيئاً . ولا ريب أن فى نفس السيدة على معاوية — لذلك — ما فيها ، ولكنها كظمت غيظها وردت حنقها . ثم كان من مروان مع أخيها عبد الرحمن فى أمر البيعة ما رأيت آنفاً .

ومعاوية يخشى أن يفيض الإناء فيكون له من عائشة يوم مثل يوم الدار أو يوم الجمل ، والحملة عليه اليوم مواتية ناجحة لاقحة : لهذا الخرق الذى أتاه فى الإسلام بأخذ البيعة

---

(١) أمالى القالى ٣/١٧٥

لابنه يزيد ، مع أن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأولى الحل والعقد من رجال العلم والدين متوافرون ينظرون ويسمعون ، قد تخطى معاوية مشيختهم وأجلاءهم إلى شاب مستهتر سكير سيىء السيرة رقيق الدين فيما زعموا .

لهذا كله ، عزم معاوية أن يروض أصعب الناس عليه يومئذ وأشدهم وأجدرهم إذا قال (هلمّ) أن يلبيه الناس ويثوروا تحت لوائه . عزم قبل كل شيء على زيارة السيدة عائشة والتذلل لها وتملقها وموادّتها ، فأقبل « ومعه[1] خلق كثير من أهل الشام ، حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن ، فأذنت له وحده لم يدخل عليها معه أحد ، وكان عندها مولاها ذكوان ، فلما استقر به المجلس ابتدرته عائشة تقول :

« يا معاوية ، أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟ » كان التقريع عنيفاً مفاجئاً كما ترى ، لكن داهية الأمويين — على ما يظهر — كان يتوقع مثله ، فلم تصدمه المفاجأة فأجاب متملقاً متوددا : « ما كنت لتفعلين ذلك . » قالت : « ولم ؟ » قال : « لأنى فى بيت آمن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

فطامن ذلك من عنفها .

ثم إن عائشة حمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله وذكرت أبا بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما . . ثم صمتت .

وكان على معاوية أن يجيب على خطبتها هذه ، لكنه لم يخطب مخافة ألا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالا فى الأمر الذى قدم من أجله وتلطف فى تهوينه وتقريبه ، قال :

« أنتِ والله يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسوله ، دَلَلْتِنا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك .

وإن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخِيرَة من أمرهم . وقد أكّد الناس بيعتهم فى أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم أفترين أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ؟ ؟ »

فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى أمره فأوصته بهؤلاء المخالفين : أخيها عبد الرحمن وأصحابه فقالت :

---

(١) الإمامة والسياسة ص ١٥٠

« أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله فى هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت » .

ثم قام معاوية ، فلما قام ذكرت عائشة فعلته الشنعاء فى حجر وصحبه فقرّعته قائلة : « يا معاوية ، قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين ؟ ؟ » .

فقال معاوية مراوغاً « دعى هذا ، كيف أنا فى الذى بينى و بينك وفى حوائجك ؟ » قالت : « صالح » . قال : « فدعينا و إياهم حتى نلقى ربنا[1] » .

هكذا انتهى هذا اللقاء الأول بين الخليفة الداهية العظيم وعائشة أم المؤمنين ، وأصاب الخليفة بعض ما يستحق من التعنيف على لسان السيدة .

ثم خرج معاوية ومعه ذكوان مولى عائشة ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشى و يقول : « تالله ما رأيت كاليوم خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] » .

ثم مضى .

ولا تظنن وأنت تقرأ كلام معاوية آنفاً أن فيه حجة أو أن السيدة اقتنعت ، فليس مثل السيدة يقنعها أن يقال لها فى منكر تنكره : (هذا قضاء من قضاء الله) ، لكن عزيمة سبقت منها فى الاعتزال جعلتها تمر بهذه الحجة الواهية متغافلة . ومعاوية يعلم ذلك منها[3] ، وكلا الاثنين يجامل صاحبه و يدافع شره .

ثم كان لقاء آخر بمكة ، زوّر له معاوية جواباً فيه شبه الحجة فى قتل حجر وأصحابه .

***

---

(١) المصدر السابق — ذكروا أن معاوية كان يتعهد السيدة دائما بالعطايا الجسام :
قال عروة : بعث معاوية إلى عائشة بمئة ألف درهم ، فوالله ما أمست حتى فرقتها ، فقالت لها مولاتها : « لو اشتريت لنا بدرهم لحماً » فقالت عائشة : « ألا قلت لى ؟ »
وبعث إليها مرة بقلادة بمئة ألف فقسمتها بين أمهات المؤمنين .
وقيل إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار — انظر سير النبلاء للذهبى ٢ / ٧١ و (والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ص ٧٢

(٢) الإمامة والسياسة وسير النبلاء ٢/٦٧

(٣) ويعلم من نفسه أنها — فى البيعة ليزيد — تسعى فيما يخالف الكتاب ؛ ولقد نقل عنه قوله لابنه يزيد فى احتضاره :
« إنى أعظم ما أخاف الله فيه : ما كنت أصنع لك . » يعنى من أمر البيعة له .

اطمأنت نفس معاوية بعد هذا اللقاء ، وأراد أن يشرع فى أمر الأربعة الذين أبوا بيعة يزيد ، وأمرهم يشغله ويهمه بعد أن أمن جانب السيدة . فيروى الطبرى أن معاوية أرسل إلى كل من هؤلاء الأربعة وابن عباس على انفراد ، وقال له :

« يابن أخى ، قد استوثق الناس لهـذا الأمر (يعنى بيعة يزيد) غير خمسة نفر أنت تقودهم ، فما إربك إلى الخلاف ؟ » فتنصل كل منهم من أن يكون متبوعاً فى هذا الخلاف وضمن لمعاوية أن يبايع إذا بايعوا ... إلا ما كان من عبد الرحمن بن أبى بكر :

فإن معاوية أرسل إليه فقال : « يا بن أبى بكر ، بأية يد أو رجل تقدم على معصيتى ؟ » فأجابه ابن أبى بكر جواباً صريحاً غير متعتع فقال :

« أرجو أن يكون ذلك خيراً لى . » قال معاوية : « والله لقد هممت أن أقتلك . » قال عبد الرحمن : « لو فعلت لأتبعك الله به لعنة فى الدنيا وأدخلك به فى الآخرة النار[1] » .

***

خرج هؤلاء الرهط إلى مكة معتمرين ، ولما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، « فأقبل[2] بعضهم على بعض فقالوا : « لعله قد ندم » فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر قال : « مرحباً بك وأهلاً يا بن الفاروق ، هاتوا لأبى عبد الرحمن دابة . »

وقال لابن أبى بكر : « مرحباً بابن الصديق ، هاتوا له دابة . »

وقال لابن الزبير : « مرحباً بابن حوارىّ رسول الله ، هاتوا له دابة . »

وقال للحسين : « مرحباً بابن رسول الله ، هاتوا له دابة » ... وجعلت ألطافه (هداياه) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، ويحسن إذنهم وشفاعتهم .

ثم أرسل إليهم ، فقال بعضهم لبعض : « من يكلمه ؟ » فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : « فأنت صاحبنا » قال : « . . على أن تعطونى عهد الله : ألا أقول شيئاً إلا تابعتمونى عليه . » فأخذ عهودهم رجلاً رجلاً . . . فدخلوا على معاوية ، فدعاهم إلى بيعة يزيد فسكتوا ، فقال : « أجيبونى » مرتين ، فسكتوا ، فقال لابن الزبير : « هات فأنت صاحبهم . »

---

(١) تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى ٤/٢٢٦ حوادث سنة ٥٦ هـ

(٢) تتمة الحديث هذه للقالى .

قال : « اختر منا خصلة من ثلاث . » قال : « إن فى ثلاث لمخرجاً . »

قال ابن الزبير : « إما أن تفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يستخلف أحداً ، أو تفعل كما فعل أبو بكر : نظر إلى رجل من عُرْض قريش فولاه ، أو تفعل كما فعل عمر بن الخطاب : جعلها شورى فى ستة من قريش » .

قال معاوية :

« ألا تسمعون ! إنى قد عودتكم على نفسى عادة و إنى أكره أن أمنعكموها قبل أن أبين لكم : إن كنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون علىّ فيه وتردون علىّ ؛ و إنى قائم فقائل مقالة فإياكم أن تعترضوا حتى أتمها ؛ فإن صدقت فعلىّ صدق ، و إن كذبت فعلىّ كذبى ، والله لا ينطق أحد منكم فى مقالتى إلا ضربت عنقه » .

ثم وكل بكل رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم ، وقام خطيباً فقال :

« إن عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على وعبد الرحمن بن أبى بكر قد بايعوا فبايعوا » .

فانجفل الناس عليه يبايعونه ، حتى إذا فرغ من البيعة ركب نجائبه إلى الشام وتركهم . فأقبل الناس على الرهط يلومونهم ، فقالوا :

« والله ما بايعنا ، ولكنه فعل بنا وفعل . . [(١)] »

* * *

الظاهر أنه كان لقاء ثان بين معاوية والسيدة عائشة بمكة ، عرفنا منه أن اللقاء الأول لم يشف ما بنفسها ، فعادت إلى تأنيب معاوية بالأسلوب نفسه على قتل أخيها وقتل حجر فيذكر الطبرى أنها قالت له لما دخل عليها :

« يا معاوية أأمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟؟ »

فأجاب معاوية نحواً من جوابه الأول : « بيتَ الأمن دخلت . »

قالت : « يامعاوية ، أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه ؟ » ، « أين كان حلمك عن حجر ؟ »

---

(١) أمالى القالى ١٧٦/٣ باختصار يسير

فقال : « لست أنا قتلتهم ، إنما قتلهم من شهد عليهم . » و « لم يحضرنى رشيد[١] » .

والذى أذهب إليه أن السيدة هنا فى مكة لا تريد ظاهر هذا الخطاب ، وإنما تلوّح لمعاوية بقضايا قد تلجأ إلى التشنيع بها عليه إذا هو حاول أن يمس أخاها عبد الرحمن وصحبه بأذى أو بطش ، ففهم كل منهما عن صاحبه[٢] .

* * *

ترك معاوية هؤلاء الأربعة وشأنهم ، ثم فرغ لتوثيق أمر يزيد يحكمه ويتأتى له حتى رضى عن مسعاه . فلما أحس بالضعف يدب فيه أوصى ابنه يزيد نفسه فقال :

« يابنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطّأت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ... وإنى لا أخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر .

فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته (كسرته) العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ؛

وأما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدَعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيما ؛

وأما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا النساء واللهو ؛

وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ؛ فإذا أمكنته فرصة وثب ... فذاك ابن الزبير ؛ فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرْباً إرباً[٣] » .

وأنا أجعل تاريخ هذه الوصية قبل سنة سبع وخمسين ، لأن عبد الرحمن بن أبى بكر مات سنة ثلاث وخمسين أو ست وخمسين[٤] فلا يعقل أن يوصى ولده بما يفعل بميت .

وأما الوصية الثانية فقد خلت من ذكر عبد الرحمن إذ كانت بعد مماته ، وزمنها سنة ستين حين مرض معاوية مرضته التى كان فيها هلاكه : فذكر الطبرى أن معاوية لما

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٩١ و ٢٠٨

(٢) كانت قدمة معاوية هذه إلى الحجاز سنة ست وخمسين . (٣) الطبرى ٤/٢٣٨

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط)

حضره الموت (وذلك سنة ستين) وكان يزيد غائباً ، دعا بالضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته و بمسلم بن عقبة المرى ، فأوصى إليهما فقال :

« بلّغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فإنهم .. الخ .

... ، و إنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير :

فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قِبَلَك ،

وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ؛ و إن له رحماً ماسة وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه ؛

وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ ، فإذا شخص لك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبلْ واحقنْ دماء قومك ما استطعت [1] » .

لله در معاوية ، كيف غاص على سرائر الناس ففطن إلى ما فى القلوب ، وخبر الناس وطبائع الأمصار ، حتى كان إذا وصف من ذلك شيئاً كأنه يقرأ من صحيفة أو يصف عن عيان ، واخترقت بصيرته حجب الغيب فتنبأ بما يكون بعده ، فجمع سداد ذلك كله وألقاه إلى فلذة كبده يزيد

* * *

كانت وفاة السيدة عائشة رحمها الله بين هاتين الوصيتين (سنة ثمان وخمسين) .

* * *

ذكروا أنها لما احتضرت جزعت ، فقيل لها : « أتجزعين يا أم المؤمنين وأنت زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين وابنة أبى بكر الصديق ؟ !! »

فقالت :

« إن يوم الجمل معترض فى حلقى ... ليتنى كنت نسياً منسيا [2] » .

---

(١) الطبرى ٤/٢٣٩

(٢) بلاغات النساء لابن أبى طاهر ص ١٢

الباب السادس

عائشة فى الفرق الاسلامية

الفصل الاول

موقف الرأى العام من حياتها

تمهيد

أرادت السيدة لما انحرف الناس عن سنة الرسول وصاحبيه ، أن تغيِّر ما ترى من انحرافٍ بلسانها ، فكان ما رأيت منها أيام عثمان من صدعٍ بالنقد ، وإنكار للمنكر على رؤوس الأشهاد ، واستغل أهل الشغب تغييرها ذلك ، وإنكارها هذا حتى وقعت الفاجعة بالخليفة الشهيد . فرأت أن ما وقع فيه الناس من عدوان على عثمان أشد كثيراً مما كانت تنكر وينكرون ، وانتظرت إيقاع القصاص على المعتدين بأسرع وقت ليزدجر الناس عن العدوان . فلم يكن من ذلك شيء ، فثارت ، وهاجها أن يضيع دم صحابى جليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذى سوابق فى الخير معه وهو الآن خليفة أيضاً ، فنهضت مطالبة بدمه ، وخرجت فى وجهها إلى البصرة تدعو الناس للقيام معها فى هذا الواجب الذى لا يجوز تركه ، وفى إهماله تعطيل لحدود الدين ، وإضاعة لأحكام القرآن الكريم . نهضت ومن معها للاصلاح ، لكن الأمور لم تكن مواتية لما يطلبون ، فأفلت الزمام من أيديهم حتى سيق الجميع إلى حرب لم يكن أحد منهم — حاشا المؤلبين على عثمان — لتخطر له على بال فكانت حرب الجمل .

دُفعت السيدة وأصحابها وعلى وأنصاره إلى هذا الصدام دفعاً لاخيار لهم فيه ، فأسفر عن دماء ألوف كثيرة ، وتمنى كل من على وعائشة أن يكون مات قبل يوم الجمل بعشرين سنة . ثم أيقنت السيدة بخطأ اجتهادها فسلخت عمرها نادمة باكية مستغفرة متحسرة ، حتى

وافتها منيتها وحسرتها شديدة جديدة ما تبلى .

وفى بعض هـذا الندم والحسرة والبكاء والتوبة ، كفارة لمجتهد عن خطأ لم يتعمده ، أراده خيراً فأسفر عن شر . لـكن كثيراً من الناس أو الرأى العام (بتجوز) لم يغفر لهـا خطأها ذلك . لقد اعتزلت السيدة الأمور العامة ، ولـكن الأمور لم تعتزلها ، ولم تنج عائشة من قسوة الناس عليها لافى حياتها ولا عند مماتها ولا بعد ذلك حتى يومنا هذا .

إنهم افتنّوا فى التعبير عن نقمتهم فى حياتها : هجراً وتعريضاً وتقريعاً ، ثم كان منهم من وقف منها موقفاً سلبياً إثر وفاتها ، وتتابع الناس يشرّحون أقوالها وأعمالهـا ناقدين : منكرين ومبرّرين ، وأسرف هؤلاء وهؤلاء حتى كثر الأخذ والرد ، وتعددت الآراء ، ونصبت مجالس المناظرة والحـكم ، ثم شاعت هذه الآراء وأصبحت موضوعاً من موضوعات الجدل وعلم الـكلام ، ثم (تبلورت) ودخلت فى (العقائد) ، وصار لـكل فرقة من فرق المسلمين رأيها الرسمى فى عائشة ، وطفق التطرف يخرج بعض الناس من الاعتذار لهـا إلى الانتصـار المطلق والتصويب الـكامل ، ويخرج بعضاً آخر من النقـد إلى الشتم إلى التكفير واللعن .

وإذاً لم ينته تأثيرها فى المجتمع الإسلامى بانتهاء حياتها ، بل أخذ ينمو ويترعرع حتى بعث للسيدة حياة جديدة فى الأجيال الإسلامية حتى اليوم .

ونحن هنا ملمون بهذا الأثر ، فى أطواره الأربعة : فى حياتها وعند وفاتها ولدى معاصريهـا ، ثم بعد انقضاء عصرها حتى اليوم ، عارضون لخطوطه البارزة التى تـكفى لعرض صورة كاملة على القارئ عن حياتها السياسية بعد موتها كما عرف عائشة السياسية فى حياتها .

***

— ١ —

لعلك لم تنس كيف استقبل رؤوس الناس من أهل البصرة قدوم عائشـة ، ولا مقالة زيد بن صوحان والأحنف بن قيس وأضرابهما ، فقد ضربوا جميعاً على وتر واحد عبّر عن

استهجان الرأى العام خروجها من بيتها إذ لم يفرض على النساء الجهاد والأسفار فى سبيل إنكار منكر .

حتى الذين نصروها أدركوا أن خفتهم لنصرتها خطأ من الخطأ ، فبدرت من بعضهم فى القتال أو بعده كلمات تعبّر عن هذا الشعور بالخطأ : مرّ بك (ص ١٦٨) أن جريحاً من بنى ضبة أنصار عائشة كان يفحص الأرض برجله ويقول هذه الأبيات التى نعيدها عمداً هنا لتنم فيها ثانية ، لما بها من صدق التعبير عن رأى كثير من الأنصار وجميع الخصوم :

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا ... فلم ننصرف إلا ونحن رِوَاء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمّه ... وشيعتها مندوحةٌ وغَناء
أطعنا بنى تيم بن مرة شقوة ... وهل تيمُ الا أعبدٌ وإماء

ونحت هذا المنحى أم كعب بن سور قاضى البصرة الذى خرج — كما مر بك — وفى عنقه مصحف يدعو إليه فقتلوه وقتلوا ثلاثة إخوة له خرجوا معه أو أربعة ، فجاءت أمهم حتى وقفت عليهم فقالت :

يا عين جودى بدمع سَرِبْ ... على فتية من خيار العربْ
وما لهم غير حَيْن النفو ... س أى أميرىْ قريش غلبْ[1]

وأظرف من ذلك مارواه المسعودى عن الرجل الأول ، فقد قطع أذن رجل من الكوفيين[2] وقال له : إذا صرت إلى أمك فقالت : من فعل هذا بك ؟ فقل : عمير بن الأهلب الضبى مخدوع المرأة التى أرادت أن تكون أمير المؤمنين[3] » .

لقد جاد هذا الرجل بنفسه وهو أظرف الناس .

وامتعض من مغامرة عائشة فى السياسة كثير من الناس أهل الدين والجد ، وكفوا ألسنتهم عنها ، إلا أنهم هجروها . وقد ذكر لنا منهم الإمام أحمد فى مسنده رجلاً اسمه حكيم بن أفلح (عم عائشة من الرضاعة) :

---

(١) الكامل للمبرد ص ٧١٧ طبعة ليدن .
(٢) انظر التفصيل فى ص ١٦٩ من هذا الكتاب .
(٣) مروج الذهب ٢/١١ .

أتاه سعد بن هشام يريد الدخول معه على عائشة ليسألها عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى حكيم وقال :

« ما أنا بقاربها ، إنى نهيتها أن تقول فى هاتين الشيعتين ، فأبت فيهما إلامضياً [١] »

والظاهر أن بعض أنصار على سلكوا مسلك حكيم هذا فى هجرها ، فإن سعد بن هشام نفسه كان أتى ابن عباس يسأله عن وتر رسول الله ، فأحاله ابن عباس على عائشة قائلا « ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ائت عائشة فاسألها ، ثم ارجع إلىّ فأخبرنى بردّها عليك [٢] » .

كان يستطيع ابن عباس — وبه هذه الرغبة إلى المعرفة — أن يسمع الجواب مشافهة من عائشة ، ولا يوسط بينه وبينها هذا الرحل لولا أن موقفه منها ماقدمنا لك .

وقد يفرط بعضهم فى القسوة عليها ولا يكتفى بهجرها ، بل يدخل عليها بيتها وهى مكسورة النفس فيه ، ممتلئة حسرة وندامة ، تبكى وتستغفر ؛ فلا يرفه عنها ، بل يقسو ويقرعها على خروجها ، ويذكرها دماء الآلاف المهراقة ، وهو ما لا تستطيع نفس السيدة أن تحتمل تصوره ، ومن حسن الحظ أن كان هذا القاسى الذى أتى ما ينبو عنه الذوق امرأة — بحمد الله — لا رجلا :

دخلت أم أفعى العبدية على عائشة فقالت : « يا أم المؤمنين ، ماتقولين فى امرأة قتلت ابناً لها صغيراً ؟ » قالت عائشة : « وجبت لها النار . »

فقالت : « فما تقولين فى امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفاً فى صعيد واحد ؟ ! » فاضطرت السيدة إزاء هذه الأذية أن تطردها قائلة : « خذوا بيد عدوة الله [٣] » .

على أن من الحق أن نقرر أن كثيراً من خصومها الألداء احترموها وانطووا لها على المودة الخالصة وإن أساءتهم . ونستطيع أن نعد فى هؤلاء أكثر الصحابة : علياً نفسه فمن دونه ، فقد عرفت أنه لم يكن ليسمح لأحد أن يذكرها بسوء ، وأنه عاقب من وقع فيها

---

(١) مسند أحمد ٦/٥٣ .

(٢) الصفحة السابقة .

(٣) عيون الأخبار ١/٢٠٢ والعقد الفريد ٣/١٠٨ .

كما مر (ص ١٩٣) وكان يعبر عن احترامه لها إذا ذكرت عنده بقوله : « خليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] » .

حتى عمار ، عمار الذى دخل عليها قائلاً « يا أمه » فبرئت منه السيدة وجبهته من فورها بقولها : « لست لك بأم » ، فأجابها : « بلى وإن كرهت[٢] » ... عمار هذا أتاه يوماً رجل فنال من عائشة عنده ، فلم يكن من عمار إلا أن قال له : اعزب مقبوحاً منبوحاً (منبوذاً) ، أتؤذى حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وزاد : « إنها لزوجته فى الجنة[٣] » .

أما أسرتها فقد كانت عائشة تتلقى نقدهم ، وهم — وإن لم يكونوا قساة فى نقدهم — قد بلغوا من ذلك مالم يبلغه أولئك ، فإنهم كانوا يختارون لها المزاح أسلوباً يزجّون نقدهم فيه فيسير بين الناس ويروى ويتملح به :

اقتتل يوماً غلمان عبد الله بن عباس وغلمان عائشة ، فأُخبرتْ عائشة بذلك ، فخرجت فى هودج لها على بغلة لها ، فلقيها ابن أبى عتيق حفيد أخيها عبد الرحمن فقال لها : « يا أمى ، جعلت فداك ، أين تريدين ؟ » قالت : « بلغنى أن غلمانى وغلمان ابن عباس اقتتلوا ، فركبت لأصلح بينهم » ؛ فقال : « أعتق ما أملك إن لم ترجعى !! » فقالت : « ما حملك على هذا ؟ »

قال : « ما انقضى يوم الجمل حتى تأتينا بيوم البغلة !![٤] »

ولما مات الحسن وأوصى أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أذنت عائشة فأخرج نعشه يراد به قبر رسول الله ، ركب مروان والأمويون ليمنعوا الدفن عنده وكادت

---

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٤٣ .

(٢) مسند أحمد ٦/٢٠٥ .

(٣) الإصابة (ترجمة عائشة) والإجابة ص ٤٣ وابن سعد فى الطبقات ٨/٤٥ .

(٤) المزاح فى المزاح ص ٣٨ وانظر جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص ٣ — ويشك مؤلف الكتاب الثانى فى مقصد راويها وهو الشرقى بن القطامى ، فيقول تعليقاً على هذا الخبر الذى رواه الجاحظ عن الشرقى ما يفيدنا فى موضوعنا أن نورده لك ، قال :

« وهذه حكاية أوردها الشرقى لغله ودغله على وجه النادرة لتحفظ ويضحك منها ويتعلق بها من ضعف عمله وقل عزمه ، فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين رضى الله عنها » اهـ .

تكون فتنة ؛ فروى اليعقوبى — ولا أظنه واقعاً إلا إذا كانت السيدة قد خشيت الفتنة وأرادت حسم النزاع — ماعرفت من أنها ركبت بغلة شهباء وقالت : « بيتى ولا آذن فيه لأحد » فأتاها ابن أخيها : القاسم بن محمد بن أبى بكر فقال لها :

« يا عمة ، ماغسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر : أتريدين أن يقال : يوم البغلة الشهباء ؟ ! ! [١] » .

هذا بعض ما عاينته السيدة فى حياتها من جفاء بعض الناس وشدة موقفهم منها : لم يراعوا انكسارها ولا ندمها ولا شعورها بالتبعة الذى أثقلها ، وكان حقها عليهم أن يرفوا عنها ويسلوها وينسوها حزنها .

***

— ٢ —

ماتت السيدة ، فعظم الحزن على من شغلت الناس نحواً من خمسين سنة : تعلمهم وتهديهم إلى سنة نبيهم وتحيى فيهم سيرته ، واجتهدت للمسلمين وكانت ملجأ المهتدين والملتجئين والمتعلمين على السواء .

والناس حين مماتها فريقان ، شأنهم فى حياتها : منهم المشيع لها بالرحمة والحزن ، ومنهم من منعه موقفها السياسى من المشاركة بالحزن . وأنا أحب أن أشير هنا إلى واحد من أجلاء التابعين وعلمائهم وصلحائهم وهو مسروق ، فقد قال لما بلغه وفاتها :

« لولا بعض الأمر لأقمت المناحة على أم المؤمنين [٢] »

يقول هذا من كان إذا حدث عنها قال : « حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله ، المبرأة من فوق سبع سموات . . . عائشة أم المؤمنين [٣] . »

فما بالك بمن ليس فى علم مسروق ولا دينه من خصومها السياسيين ، أو الحياديين المعتزلين الذين لم يرقهم موقف أحد من الفريقين .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٦٦ والرواية هكذا لا تصح لأن المعروف أن عائشة أذنت ولكن الأمويين منعوا بقوة .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/٥٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ٨/٤٤ وانظر الإجابة ص ٤٢ .

إلا أن هناك من انتقد موقف هؤلاء من مأتمها نقداً حكيما قوياً ظريفاً ، حفظه لنا ابن سعد فى طبقاته ؛ فقد سأل أحد الأكابر قادماً قدم عليه :

« كيف كان وجد الناس على عائشة ؟ »

قال : « كان فيهم وكان ... » يعنى منهم من حزن ومنهم من لم يحزن .

فأجاب بهذا الجواب الحكيم : « أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه[1] » .

يريد أن من لم يحزن عليها فليس بمؤمن .

وهكذا ترى انقسام الناس طائفتين فى أمرها ، ظهر أجلى ظهور فى مماتها : دليلا قوياً على أثرها البعيد فى حياة المسلمين السياسية .

---

(١) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٨ .

الفصل الثانى

انقسام الرأى العام فى أنصارها

لم يقف الأمر عنـد عائشة ، بل كانت نقمة الناس على أنصارها طلحة والزبير وابنه عبد الله الذين أخرجوها أشد وأعظم ، وقد لقى عبد الله بن الزبير من ذلك عنتاً كبيراً . فكأنى بالناس لما تهادنوا ووضعوا السلاح ، أنهوا معركة السيف ليبدؤوا معركة اللسان والجدل والبيان ، فعقدت المجالس ودار فيها الجدل وتصاول فرسان الكلام من الفريقين تصاولاً أذكر الناس بصيالهم فى المعارك .

وسترى أن كلمة الأحزاب اجتمعت على عيب عبد الله بن الزبير وتعييره وأباه على إخراج عائشة من الحجاز .

وقد تلقى ابن الزبير وحده هـذا اللوم كله ، فالناس أجلّوا عائشة عن مجابهتها باللوم وقد انقضى الأمر ، وقتل طلحة وابنه والزبير فى معركة الجمل نفسها ، ولم ينج من أقطاب الجمل ذوى الأثر البالغ غير عبـد الله بن الزبير ، فكان عليه أن يصمد لهجمات الحزبين المتنافسين حينئذ بنى هاشم و بنى أمية على السواء :

قال ابن الزبير لابن عباس فى كلام كان بينهما :

« . . . قاتلت أم المؤمنين وحوارىّ رسول الله . . . الخ »

فكان من جواب ابن عباس ما يصدع صدعاً ، قال :

« . وأما قتالنا أم المؤمنين فبنا سميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، [وكنا لها خير بنين فتجاوز الله عنهـا[1] . .] ، فانطلق أبوك وخالك (يعنى طلحة) إلى حجاب مدّه الله عليها فهتكاه عنهـا ، ثم اتخذاها فتنة يقاتلان دونها ، وصانا حلائلهما فى بيوتهما ؛ فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما : أنْ أبرزا أزواج نبيه وصانا حلائلهما . .[2] »

---

(١) العقد الفريد ٢/٣٣٠ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٣/٤٨٩ .

حتى معاوية الداهية الحليم ، كان إذا أتاه أحد من بنى هاشم أو ابن الزبير أثار هذه القضية وفتح باب الجدل والمفاخرة وذكر القديم فأوقع بين الوافدين عليه واستقبلهم بما يكرهون ، ولا يمنعه فى سبيل ذلك أن كان له فى حادث الجمل موقفان متضادان : الواحد مع بنى هاشم والآخر مع ابن الزبير :

وفد عليه ابن عباس داهية الهاشميين فكان من كلامه له :

« . . . لا يزال يبلغنى عنكم مالا تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم خذلتم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل . . . »

وكان من جواب ابن عباس :

« ... وأما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه[1] . . . »

واستقبل معاوية يوماً فى بعض هذه المجالس الحافلة بالأمويين والهاشميين ، عبد الله بن الزبير بهذا الكلام :

« ... وخدعتم أم المؤمنين ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مددتم على نسائكم السجوف (الستور) وأبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحن الحصيد بأيدى العبيد ، وأما أنت فأفلت بعد أن خشمتك براثنه ونالتك مخالبه . وايم الله ليقومنك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصبحنّ منها صباح أبيك بوادى السباع[2] . »

ويبدو لى أن هذا الكلام مصنوع لا يشبه مذهب معاوية ، حاكى صانعه غضبة الهاشميين فى كلامهم . ولست أذهب إلى أنه مصنوع من أجل ما فيه من السجع فحسب ، إذ أن السجع أخف الأدلة هنا ، ولكن هذا الكلام يصح أن يصدر عن هاشمى لا أموى ، فبنو أمية هم روح الحركة الثائرة على علىّ المطالبة بدم عثمان ؛ وهم خدعوا عائشة فى الخادعين وقدموا لها الرجال والأموال ، ولولا خروج عائشة ما ضعف أمر على ولا قعد معاوية مقعده ذلك خليفة ملكا ، والأمويون كانوا أتباع طلحة والزبير ، ومعاوية نفسه كان يحقد على

---

(١) العقد الفريد ٢/٣٢٧ .

(٢) العقد الفريد ٢/٣٣٣ .

كل من لم ينصر عائشة يوم الجمل ، فبعيد جد بعيد أن يعيب الزبير بخداعه أم المؤمنين وقتاله يوم الجمل . . . فهذا الاتجاه فى التأنيب منطق الهاشميين لا الأمويين . بل لقد مر بك أن معاوية حرم الأحنف بن قيس ولاية الهند لسببين أحدهما خذلانه أم المؤمنين . وهذا هو الأشبه أن يكون وهو الموافق منطق الحوادث وفقهها .

وأى كان فلهذا الخبر المصنوع دلالته على ما تكنّ نفوس بعض الناس لمن خرج بعائشة هذا الخروج .

ائن كان معاوية لا يحمل هذه الحملة على الزبير وطلحة لخروجهما بعائشة ، إنه لم يأل جهداً فى إثارة من يحملها بحضرته على ابن الزبير ليشفى نفسه منه . ولعل رواية العقد الفريد فيها خطأ النسبة إلى معاوية ، وإلا فلا مانع أن تكون الواقعة وقعت بحضرته ، فقد أورد ابن عبد ربه ما يؤيدها على النحو الذى ذهبنا إليه :

كان أبو سعيد بن عقيل بن أبى طالب الهاشمى يوماً عند معاوية فقال لابن الزبير وكان حاضراً :

« . . . ودعا الزبير إلى أمر كان فيه الرأس امرأة ، فلما تراءت الفئتان والتقى الحيان نكص الزبير[1] . . . »

ولا بأس باطلاعك على تتمة هذا الخبر ، فقد بدأ بدمشق عند معاوية ، وانتهى بالمدينة فى الطريق المجاور لحجرة عائشة :

أخبرتْ عائشة بمقالة أبى سعيد ومقالة ابن الزبير[2] ، فمر أبو سعيد بفنائها يوما فنادته : « يا أحول ، يا خبيث ، أنت القائل لابن أختى كذا وكذا ؟؟ » فالتفت أبو سعيد فلم ير شيئا فقال : « إن الشيطان ليراك من حيث لا تراه ! » فضحكت عائشة وقالت : « لله ما أخبث لسانك[1] . »

على أن معاوية لم يقصر تقريعه فى أمر الجمل وعثمان على هؤلاء فحسب ، بل امتد إلى الأنصار أنفسهم : لقد ذكروا أن رهطا من الأنصار دخلوا عليه فقال لهم : « يامعشر الأنصار ، قريش خير لكم منكم لهم ، فإن يكن ذلك لقلى أحد فقد قتلتم يوم بدر مثلهم ،

(١) المصدر السابق ٢/٣٣١ .

(٢) انظر تفصيلهما فى العقد .

وإن يكن لإمرة فوالله ما جعلتم لى إلى صلتكم سبيلا : خذلتم عثمان يوم الدار وقتلتم أنصاره يوم الجمل وصليتم بالأمر يوم صفين[١] . »

وقصد الخوارج ابن الزبير فى القضية نفسها إذ كان هو القطب الباقى على قيد الحياة من أصحاب الجمل . فلما أرسل يزيد بن معاوية — فيما بعد — مسلم بن عقبة وأهل الشام إلى الحجاز المنتقض عليه ، قصد الحروريون (الخوارج) مكة ليمنعوها من جيش الشام ، فأحبوا أن يفهموا ما عند ابن الزبير — وكان هو المتغلب على الحجاز — فى أبى بكر وعمر والبراءة من عثمان وعلى وطلحة والزبير . . . الخ فقالوا له من كلام طويل :

« وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أنْ يقرن فى بيوتهن . . . »

وكان فى رد ابن الزبير عليهم مما تعلق بعائشة قوله :

« . . . ومهما ذكرتموها به (يريد طلحة والزبير) فقد بدأتم بأمكم عائشة ، فإن أبى آبِ أن تكون له أماً نبذ اسم الإيمان عنه : قال الله جل ذكره وقوله الحق : النَّبِيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفُسِهم وأزواجُه أمهاتُهم[٢] . »

وواضح أن ابن الزبير انحرف فى جوابه عن الموضوع .

وامتد اللوم إلى غير الأقطاب ، والظاهر أن أكثر القبائل التى خفت لنصرة عائشة استهدفت لكثير من التأنيب فيما بعد ، هذه الأزد مثلا وهى من أقوى أنصار عائشة كان فيها من يعيب على عامة القبيلة تلك النصرة ، فيذكرون فى حوادث سنة ٣٨ أن شيمان الأزدى — ولم يكن شهد يوم الجمل — قال لقومه : يا معشر الأزد ، ما أبقت عواقب الجمل

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٦٨/٣ وفيه بعد ذلك : فتكلم رجل منهم فقال : « يا أمير المؤمنين ، أما قولك (إن يكن لقتلى أحد . .) فإن قتيلنا شهيد وحينا تائق ، وأما ذكرك الإمرة فإن رسول الله أمر بالصبر عليها . وأما قولك إنا خذلنا عثمان فإن الأمر فى عثمان إلى قتلته ، وأما قولك (إنا قتلنا أنصاره يوم الجمل) فذلك ما لا نعتذر منه ، وأما قولك (إنا صلينا بالأمر يوم صفين فإنما كنا مع رجل لم نأله خيراً . فإن لمتنا فرب ملوم لا ذنب له) . ثم قام هو وأصحابه يجر ثوبه مغضبا ؛ فقال معاوية : « ردوهم » فردوا ، فترضاهم حتى رضوا ثم انصرفوا .

وأقبل معاوية على رهط من قريش فقال : والله ما فرغ من منطقه حتى ضاق بى مجلسى » .

(٢) الكامل للمبرد (طبعة ليدن ص ٦٠٨) والآية السادسة من سورة الأحزاب ٣٣ .

عليكم الإساءة الذكر ، وقد كنتم أمس على علىّ فكونوا اليوم له[١] . . . » . حتى ابنه صبرة بن شيمان وكان ممن نصر عائشة وحضر يوم الجمل قال بعد ذلك :

« إنا والله ما أصبنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل[١] » .

***

وتنقضى مئة عام ويذكر يوم الجمل فيتبرأ عقلاء البصريين من مسارعة بعضهم فى أمر عائشة ، فيقول أحدهم أبو بكر الهذلى وقد سأله أبو العباس السفاح عن قوله فى قتالهم علياً يوم الجمل وشقهم عصا المسلمين : « ما تقول ياأبا بكر » فقال :

« معاذ الله أن يجهل أهل البصرة ، إنما كانت شرذمة منا شذت عن سبل المنهج واستحوذ عليها الشيطان ، وفى كل قوم صالح وطالح . » فتأمل[٢] .

وبعد ، ففيما قدمت بين يديك ما يقفك على ما فى نفوس الناس من طبقات مختلفة نحو خروج عائشة إلى حرب الجمل ، ونحو الذين أخرجوها ونصروها ونحو الذين خذلوها ، ويبين لك ثانية بوضوح ، الأثر الذى أثرته فى (عصرها) سلباً وإيجاباً . فهذه هى البذور الأولى لقضية عائشة فى التاريخ : ألقيت فى تربة المجتمع الإسلامى فأنبتت ما سأعرضه عليك بعد قليل من انقسام فى أمرها بين فرق المسلمين .

— ٢ —

لا جرم أن تفرق السياسة الأمة فرقاً لكل فرقة رأيها ومذهبها ، وحرب الجمل — كما علمت — وقف جمهور البصريين فيها مع عائشة وجمهور الكوفيين مع على ، ثم انقضت بأيامها وتتابعت عليها السنون ، لكنها بقيت مادة لا تنضب فى الجدال والمفاخرة : كل قبيلة تفاخر بمواقفها وتؤنب القبائل المعادية على مواقفها . . . فنرى فيما بعد ، أن جريراً الشاعر يعيّر الفرزدق بما فعل عمه الحتات بن يزيد المجاشعى من غدره بالزبير ، وقد زعموا أنه أجاره لما انصرف من وقعة الجمل ، فكان الحتات سبب قتله :

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/٢٤٧ .

(٢) كتاب البلدان للهمذانى ص ١٦٧ .

لو كنت حراً يابن قين مجاشع شيّمت ضيفك فرسخين وميلا[1]
قُتل الزبير وأنتمُ جيرانه غيًّا لمن غرّ الزبير طويلا

،

قال النوائح من قريش : إنما غدر الحتات ولبّن والأقرع[1]

وعرفت أن بنى تميم منهم من اعتزل الفريقين يتربص ، ورأس هؤلاء الأحنف بن قيس ، ومنهم من قاتل مع أصحاب الجمل ، .. ثم كان بعد ذلك تلاوم بين الفريقين على ما يظهر من هذه الأبيات للحتات بن يزيد المجاشعى نفسه فى قتل كعب بن سور الأزدى :

يلوم على القتال بنو تميم وما أنا فى الحوادث بالمليم
خضبت الرمح من قتلى (علىّ) وزحزحت الفوارس عن (تميم)
مقيماً فى الجماعة ليس حولى سوى السمر الشراحة الصميم
وأم المؤمنين لها عجيج على جمل به عبق العميم
تنادى بالحتات وبابن سور كأنا فى الكتيبة من أديم (؟)
يجالد فى الوغى كعب بن سور كليث الغاب ذى اللبد النشيم
إلى أن حان مصرعه ودارت رؤوس القوم للكرب العظيم
وكان أخى إذا ما ناب أمر وقد يبكى الكريم على الكريم[2]

وطفق الأولاد والأحفاد من البصريين والكوفيين يثيرون حديث هذه الحرب ، ويذكرون مواقفهم مفتخرين ، ومواقف خصومهم معيرين عائبين ، ويحمى الجدل ، وتنشد الأشعار والأراجيز يتناقلها الناس ، وصارت العصبية والحمية تكسوان التحزب حللاً مغرية ، وأخذ الشعراء والرجاز من هذين المصرين ينشئون قصيدهم ورجزهم متملقين الرأى العام فى مصرهم ، فكان فى السياسة بصريون وكوفيون كما فى النحو تماماً ... فيقول أعشى همدان منافحاً عن رأى الكوفيين ومهاجماً البصريين :

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٢٥٨ وشرح ديوان جرير للصاوى (سنة ١٣٥٤ هـ) ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ — لبن : لقب غالب بن صعصعة جد الفرزدق .

(٢) المصدر السابق ٣/٢٦٠ — المليم الفاعل ما يلام عليه ، السمر الشراحة : الرماح الطوال . العميم : الكثير . النشيم : ما فيه نقط بيض وسود .

اكسع البصرى إن لاقيته ... إنما يكسع من قلّ وذلّ
واجعل الكوفى فى الخيل ولا ... تجعل البصرى إلا فى النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا : ... ما صنعنا بكم (يوم الجمل)
بين شيخ خاضبٍ عُثْنونه ... وفتىً أبيض وضّاح رِفلّ
جاءنا يرفل فى سابغة ... فذبحناه ضحى ذبح الجمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجلّ[1]

وتتناقل الألسنة أبيات الأعشى وتمر السنون وتعقد المجالس تتذاكر البصريين والكوفيين ومآتى كل . . . حتى إذا كانت أيام ابن الزبير ، أتى الشعبى البصرة فدخل مسجدها فجلس إلى قوم من بنى تميم فيهم الأحنف بن قيس . . ، فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة ، وفاخروا بينهم إلى أن قال قائل من أهل البصرة : « وهل أهل الكوفة إلا خولنا استنقذناهم من عبيدهم « يعنى الخوارج » . . فيحمى الشعبى لبلده الكوفة ويريد أن يدفع البصريين فتسعفه ذاكرته بأبيات أعشى همدان التى منها الأبيات الآنفة ، فيتمثل بها مجادلاً ، فيضحك الأحنف ويقول : « يا أهل البصرة قد فخر عليكم الشعبى وصدق وانتصف فأحسنوا مجالسته[2] . »

وحضر رجل عند الشعبى هذا فقال له : « كلّ أمهات المؤمنين أحب إلا عائشة » فأجاب الشعبى : « أما أنت فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت عائشة أحبهن إلى قلبه[3] . »

واستمرت الفُرقة السياسية بين البلدين حتى بعد حادث الجمل بعشرات السنين ، (وتبدّر) لكل مصر منهما رأى سياسى واضح فيما كان من أحداث الجمل وفى أبطاله أيضاً حتى قالوا :

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٢٣ (الطبعة الثالثة) والأغانى ١٤٩/٥ (طبعة الساسى) كسعه : ضربه على دبره بصدر قدمه . الرفل : جر الثوب تبختراً وخيلاء . الرفل : المتبختر ، أما الرفل (بكسر ففتح فتشديد) فهو الكثير اللحم الطويل الذنب . السابغة : الدرع الطويلة .

(٢) الأغانى ١٤٩/٥ ، ١٥٠ .

(٣) روضة المحبين ص ١٨٧ .

« من نزل الكوفة فلم يقر لهم بفضل ثلاث فليست له بدار ؛ بفضل ماء الفرات ورطب المشّان وفضل على عليه السلام .

« ومن نزل البصرة فلم يقر لهم بثلاث فليست له بدار : بفضل عثمان وفضل الحسن البصرى ورطب الأزاذ[1] » .

ثم ذكر الهمذانى أنه اجتمع عند أبى العباس (السفاح) أمير المؤمنين عدة من بنى على وعدة من بنى العباس وفيهم بصريون وكوفيون ، منهم أبو بكر الهذلى وكان بصرياً وابن عياش وكان كوفيا ؛ فقال أبو العباس تناظروا . . . الخ فاعترض بعض العلوية وهو الحسن بن زيد فقال :

« يا أبا بكر : أما قاتلتم علياً يوم الجمل ؟ »

فقال : « بلى ، قاتله شرذمة منا وكف الله عز وجل أيدينا وسلاحنا عن قتله نظراً منه لنا ؛ ثم رجع إلى الكوفة فقتلوه وولده وولد ولده و بنى عمه ، وأخرجوا الحسن بن على بعد بيعتهم له حتى هرب منهم . »

فقال ابن عياش : « بل قصّر الله أيديكم بطول أيدى [أهل] الكوفة وبنصرتهم عليكم . وكيف تعيّرنا بباطل رجل واحد منا يبلغ بباطله ما عجز عنه عامتكم ؟ ولقد حدثنى أشياخ من النخع أن أهل الكوفة كانوا يوم الجمل تسعة آلاف رجل مع أمير المؤمنين عليه السلام وكان عليه ثلاثون ألفاً مع طلحة والزبير وعائشة ، فلما التقوا لم يكن أهل البصرة إلا كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . »

فقال أبو بكر : « ومتى كان أهل البصرة ثلاثين ألفاً يقاتلون أمير المؤمنين عليه السلام وقد اعتزلهم الأحنف بن قيس فى سعد والرباب وقد دخلنا بعد ذلك الكوفة فذبحنا بها ستة آلاف رجل من أصحاب نبيهم (المختار) كما يذبح الحملان ... الخ . »

قال ابن عياش : « أتاكم أهل الكوفة يوم الجمل مع على فقتلوكم ، فأرى أهل الكوفة غالبين ومغلوبين : على الحق ، وأرى أهل البصرة غالبين ومغلوبين على الباطل[1] » .

فأنت ترى تغلغل حادث الجمل وأبطاله عائشة وصحبها فى حياة الجماهير فى البصرة

---

(١) كتاب البلدان للهمذانى ص ١٦٦ — ١٦٨ .

والكوفة وما صار له من الأثر فى العامة حتى ليضارع ما لأبطال القصص كعنترة والزير وأضرابهما من الاشتغال بهم والتعصب لهم أو عليهم ، وحتى لتذكر لنا كتب الأدب أسماء ثلاثة من العامة أو أشباههم أوصلهم استغراقهم فى حب أبطالهم إلى شىء من الغفلة أورد لك خبرهم مثلاً لكثير من الناس غيرهم :

كان بالبصرة ثلاثة إخوة من ولد عتّاب بن أسيد :

كان أحدهم يحج عن حمزة (عم النبى صلى الله عليه وسلم) ويقول : استشهد قبل أن يحج » ! .

وكان الآخر يضحى عن أبى بكر وعمر ويقول : « أخطأا السنة فى ترك الأضحية . »

وكان الثالث يفطر عن عائشة أيام التشريق ! ! ويقول : « غلطت فى صومها أيام العيد ؛ فمن صام عن أبيه وأمه فأنا أفطر عن أمى عائشة[1] » ! !

هذا أثرها فى حياة عامة الشعب يبين لك ناحية مغايرة للناحية التى رأيتها آنفا عن أثرها فى الخاصة .

---

(١) عيون الأخبار ٢/٥٥ .

الفصل الثالث

فى تناول الفرق الإسلامية أعمال عائشة

ما انقضت المئة الأولى على الهجرة النبوية حتى كانت بذور التفرقة قد نجمت فى الجسم الإسلامى ، وتناول رؤوس الفرق مسائل من مسائل الاعتقاد يبحثون فيها وجوهها المختلفة وينتهون من بحوثهم إلى رأى من الآراء يستقرون عليه .

كان من جمله مسائلهم أعمال الخلفاء الراشدين والحكم على الفريقين المتحار بين يوم الجمل ويوم صفين . ويعنينا هنا عرضهم لعائشة وأصحاب الجمل بالتصويب أو التخطئة وحكمهم عليهم بالكفر أو الإيمان . ودخول عائشة وأفعالها موضوعاً لبحوثهم (يشرّحون) مآتيها ، آخر دليل وأقواه على أثرها فى المجتمع الإسلامى وتفكير طوائفه . . . أثراً ماثلاً فى حياة المسلمين الفكرية والوجدانية أربعة عشر قرناً ونصف قرن منذ وفاة الرسول حتى يوم الناس هذا .

رأى أهل السنة :

فأما أهل السنة فقد عدّلوا جميع الصحابة وتولّوهم واعتقدوا نجاتهم ، وكان رأيهم فى فريق الجمل المتحار بين رأياً جميلاً ، فقد ذهبوا إلى أنهم جميعاً أرادوا الخير والإصلاح واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد . أما أى الفريقين مصيب وأيهما مخطئ فليس لأهل السنة رأى رسمى حاسم فى ذلك ، بل الحكم متروك لاجتهاد كل مجتهد ؛ فمنهم من رأى أن علياً مصيب ، ومنهم من رأى أن عائشة وصحبها هم المصيبون ، وفريق ثالث وقف ولم يصوّب أحداً منهم ولم يخطئه .

أما الذين ذهبوا إلى أن الحق مع على فقد رأوا أنه هو الإمام الذى بايعه الناس ، وهو الذى يقيم الحدود ويقاضى الناس ، فليس لأحد حق فى أن يثأر لمظلوم أو مقتول وعلى الناس إمام عادل لم يجُر . ورأوا أيضاً أن على الإمام ردّ الخارجين عليه أيّاً كانوا : عائشة فمن

دونها . وعلى هذا يكون محقاً فى خروجه إلى أصحاب الجمل ، ويكون جنوده جميعاً أعواناً له على هذا الحق .

٢ - وأما الذين رأوا أن عائشة وصحبها هم المحقون فإنهم رأوا أن عثمان قتل مظلوماً فى الشهر الحرام وأن هذا حدث فى الإسلام لا يصح السكوت عليه ، ورأوا أن كثيراً من المؤلبين عليه والمباشرين لسفك دمه التحقوا بعلى ولم يعجل قصاصهم ، وأن هذا تعطيل للحدود وهو منكر كبير ينبغى تغييره باليد والسيف ، فخرجوا لإقامة هذا الحد والقصاص من قتلة عثمان ، ولو أسرع على بإقامة هذا الحد ما خرجوا عليه ، وقالوا : « من آوى الظالمين فهو إما مشارك لهم وإما ضعيف عن أخذ الحق منهم ، وكلا الأمرين حجة فى إسقاط إمامة من فعل ذلك ووجوب حربه[1] » . ثم رأوا لزوم تغييرهذا المنكر بالقوة وهم يستطيعونها ، فلا يجزئهم إنكاره بالقلب ولا باللسان ولهم قدرة على التغيير باليد ، فقاموا بهذا الغرض الأساسى فى الإسلام وهم خرجوا للإصلاح لا للقتال .

٣ - وأما الفريق الثالث فقد رأى أن كلاً من الفريقين يعتد بحجج غير ضعيفة وأن معه وجهاً من الحق فالأمر ملتبس ، والفريقان حسنا النية مجتهدان فى الخير ولهما الماضى الجليل فى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأييد الدعوة بأموالهم وأنفسهم فليس من السهل أن ينحرفا عمداً عن الجادة ، فوقفوا ولم يقطعوا لأحد بالصواب أو الخطأ . ورأوا أن تغيير المنكر باليد مؤدٍ إلى فتنة كبيرة لا يقاس إليها هذا المنكر الذى يراد تغييره ، فاعتزلوا الفريقين وعلى رأس هؤلاء سعد بن أبى وقاص الصحابى الجليل وعبد الله بن عمر وأبو موسى الأشعرى وغيرهم . فاكتفوا بإنكار المنكر بالقلب وباللسان أحياناً واجتنبوا خوض الفتن جميعا .

ثم ارتضى أهل السنة مع الزمن الكف عما شجر بين الصحابة ، لا يعرضون له بتصويب ولا تخطئة ، وكثر بينهم ترديد هذه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم[2] » .

« اللهَ اللهَ فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدى[3] » .

---

(١) الفصل لابن حزم ٤/١٥٣ فما بعد. (٢) تيسير الوصول ٣/٢٦٠ .

(٣) صحيح الترمذى وتتمته : « . . فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

« خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم[١] » ،

« لا تسبوا أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه[٢] »

ثم رأوا أن هؤلاء الصحابة جميعاً شهدوا المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم السابقة فى نصرة الدعوة واحتمال الأذى فى سبيل الله ، فأقل ما يجب علينا أن نحفظ رسول الله فى أصحابه وأزواجه . فأصحاب هـذه المقالة يتولَّوْن الجميع ويظنون بهم خيراً ، ولعل كلمة الحسن البصرى أو الإمام مالك تعبر عنهم خير تعبير فقد سئل عن هذه الفتن فقال :

« تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطخ بها ألسنتنا . »

ومثلها يروى عن عمر بن عبد العزيز فقد قيل له : « ما تقول فى على وعثمان وفى حرب الجمل وصفين ؟ »

قال : « تلك دماء كف الله يدى عنها ، فأنا أكره أن أغمس لسانى فيها[٣] »

ثم (تبلور) هذا الرأى مع الزمن ودخل العقيدة الرسمية لأهل السنة ، وصاروا يثبتونه فى المتون التى يُحفّظونها طلبة العلم ، فترى فى متن الزبد للشافعية فى هذا الموضوع :

وما جرى بين الصحاب نسكتُ عنه ، وأجرَ الاجتهـاد نثبتُ[٤]

ونجد فى (متن الشيبانية) للحنفية هذا البيت فى الموضوع نفسه :

ونمسك عن حرب الصحابة والذى جرى بينهم كان اجتهاداً مجرداً

وقد صح فى الأخبار أن قتيلهم وقاتلهم فى جنـة الله خُلِّدا[٥]

وفى متن السنوسية هذا البيت :

وأوِّلِ التشـاجر الذى وردْ إن خضت فيه واجتنب داء الحسد[٦]

ولا ينبغى أن ننسى أن هذا الذى انتهى إليه الزمن من رأى ارتضوه ، ليس مما لا يجوز

---

(١) تيسير الوصول ٣/٢٥٩ ، وانظر صحيح البخارى ك ٥٢ ب ٩ (طبعة ليدن) ومسند أحمد ١/٣٧٨ .

(٢) مسند أحمد ٣/١١ وتيسير الوصول ٣/٢٥٩ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ٣/١٨٣

(٤) الزبد (لأحمد بن رسلان) ص ٨ .

(٥) مجموعة المتون (مطبعة الحلبى سنة ١٣٤٠ هـ) : متن الشيبانية ص ٣٧ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤ .

عندهم غيره ، لا فالأمر على الاتساع : فلك أن تعتقد بإصابة على فى حرب الجمل أو خطئه ، كما لك مثل ذلك فى أصحاب الجمل . . على شرط واحد هو ألا تظن سوءاً بالمخطئ ، وألا تخرجك التخطئة كما أخرجت بعض أهل الفرق : إلى تكفير أو تفسيق أو ذم أو نفى تعديل .

وأنت فى ذلك إنما تترسم خطى الصحابة أنفسهم ، وأرجو ألا تكون نسيت كلمة على نفسه فى مخالفيه : « إنما هم إخواننا بغوا علينا » ، وقوله فيهم : « إن قومنا زعموا أن البغى كان منا عليهم ، وزعموا أنه كان منهم علينا . وإنما اقتتلنا على البغى ولم نقتتل على التكفير[1] » .

فإن أنت أخرجك الغلو إلى شىء من ذلك فقد انحرفت عن الجادة وخرجت على الجماعة إذ قدحت بأحد أصحاب رسول الله وهو الشىء الذى لا يغتفرونه لأحد ، ويرون فيه الخطر كل الخطر على دين القادح .

وخير تعبير عن رأيهم فيمن انتقص السيدة خاصة أو أباها قصيدة اشتهر بعض أبياتها ، نظمت على لسان السيدة عائشة تحتج لنفسها وتذكر خصائصها وتحمل على خصومها وتجادلهم فى فضل أبيها . وقد حظينا بها كاملة فى مخطوط قديم[2] نثبتها لك لما فيها من الدلالة الوافية على موقف أهل السنة أخيراً وحجاجهم فى هذا الموضوع . ولكتابنا هذا الفخر بأنه أول كتاب ينشرها كاملة بعد أن عثرنا على أصل لها قديم نادر الوجود :

« ... أنبأنا الشيخ أبو الطاهر عبد المنعم (؟) بن موهب المصرى[3] الواعظ ، قال : أنشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسى الواعظ لنفسه فى مدح أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأجازه الأفضل أمير الجيوش عليها بمئة دينار مصرية :

---

(١) مر هذا فى ص ١٨٨ ومنها تعرف أن ميل بعض الناس إلى تكفير مخالفيهم فى حرب الجمل نشأ بعد الموقعة نفسها .

(٢) بعض أبيات هذه القصيدة فى كتاب (المحاسن المجتمعة فى الخلفاء الأربعة للصفورى) مخطوط فى دار الكتب الظاهرية منه نسختان رقمهما : تاريخ ٨٢٨ (ص ٢٩) ، تاريخ ٤٤١ (ص ٦٠) . وقد أظفرنا الحظ بالقصيدة كاملة فى مخطوط قديم هو ورقة واحدة عاثت فيها الإرضة ، وخطها سقيم لم نستطع حله إلا بصعوبة ووقت طويل . وهو فى ملك السادة آل عبيد الأفاضل (أصحاب المكتبة العربية بدمشق) كتبت — على تقدير الأستاذ أحمد عبيد — فى المئة الثامنة للهجرة . وقد أعاننا الأستاذ أحمد على حل بعض الكلمات وأباحنا نشر المخطوط فله الشكر على الإعانة والإباحة .

(٣) وقد تكون : (المعرى) .

ما شأن أم المؤمنين وشانى هُدِىَ المحب لها وضل الشانى
إنى أقول مبيناً عن فضلها ومترجماً عن قولها بلسانى :

* * *

يا مبغضى لا تأت قبر محمد فالبيت بيتى والمكان مكانى
إنى خصصت على نساء محمد بصفات بر تحتهن معانِ
وسبقتهن إلى الفضائل كلها فالسبق سبقى والعنان عنانى
قبض النبى ومات بين ترائبى[1] فاليوم يومى والزمان زمانى
زوجى رسول الله لم أر غيره الله زوجنى به وحبانى
وأتاه جبريل الأمين بصورتى فأحبنى المختار حين رآنى
أنا بكره العذراء عندى سره وضجيعه فى منزلى قمران[2]
وتكلم الله العظيم بحجتى وبراءتى فى محكم القرآن
والله فى القرآن قد لعن الذى بعد البراءة بالقبيح رمانى
والله فضلنى وعظم حرمتى وعلى لسان نبيه برّانى
والله وبخ من أراد تنقصى إفكاً ، وسبح نفسه فى شانى[3]
إنى لمحصنة الأزار بريئة ودليل حسن طهارتى إحصانى
والله خصصنى بخاتم رسله وأذل أهل الإفك والبهتان
وسمعت وحى الله عند محمد من جبرئيل ونوره يغشانى
أوحى إليه وكنت تحت ثيابه فحنا علىّ بثوبه وحبانى
من ذا يفاخرنى وينكر صحبتى ومحمد فى حجره ربانى
وأخذت عن أبوىّ دين محمد وهما على الإسلام مصطحبان

---

(١) مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجر عائشة : أسندت رأسه إلى صدرها — التراثب : عظام الصدر .

(٢) القمران : أبو بكر وعمر ، دفنا إلى جنب رسول الله فى حجرة عائشة ، فكأنهما ضجيعاه .

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة فى قصة الإفك : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » — سورة النور ٢٤ الآية ١٦ .

وأبى أقام الدين بعد محمد ... فالنصل نصلى والسنان سنانى
والفخر فخرى والخلافة فى أبى ... حسبى بهذا مفخراً وكفانى
وأنا ابنة الصدّيق صاحب أحمد ... وحبيبه فى السر والإعلان
نصر النبى بماله وفعاله ... وخروجه معه من الأوطان
ثانيه فى الغار الذى سد الكُوى ... بردائه ، أكرم به من ثان
وجفا الغنى حتى تخلل بالعبا ... زهداً وأذعن أيما إذعان
وتهللت بفم[1] ملائكة السما ... وأتته بشرى الله بالرضوان
وهو الذى لم يخش لومة لائم ... فى قتل أهل البغى والعدوان
قتل الألى منعوا الزكاة بكفرهم ... وأذل أهل الكفر والطغيان
سبق الصحابة والقرابة للفدى ... هو شيخهم فى الفضل والإحسان
والله ما استبقوا لنيل فضيلة ... مثل استباق الخيل يوم رهان —
— إلا وطار أبى إلى عليائها ... فمكانه منها أجل مكان
ويل لعبد خان آل محمد ... بعداوة الأزواج والأختان
طوبى لمن والى جماعة صحبه ... ويكون من أحبابه (الحسنان)
حب (البتول) و (بعلها) لم يختلف ... من ملة الإسلام فيه اثنان
أكرم بأربعة أئمة شرعنا ... فهمُ لباب البيت كالأركان
بين الصحابة والقرابة ألفة ... لا تستحيل بنزغة الشيطان
نسجت مودتهم سَدىً فى لُحْمة ... فبناؤها من أثبت البنيان
رحماء بينهمُ ، صفت أخلاقهم ... وخلت قلوبهم من الشنآن
هم كالأصابع فى اليدين تواصلت ... هل تستوى كف بغير بنان
الله ألف بين ودّ[2] قلوبهم ... ليغيظ كل منافق طعّان
فدخولهم بين الأحبة كلفة ... وسبابهم سبب إلى الحرمان

---

(١) فى الأصل (وعللت بفم) هكذا بلا نقط ، فرأينا أقرب شىء ما أثبتناه .
(٢) فى الأصل : راد .

حصرت صدور الكافرين بوالدى ... وقلوبهم ملئت من الأضغانِ
وإذا أراد الله نصرة عبده ... من ذا يطيق له على الخذلان
جمع الإله المؤمنين على أبى ... واستبدلوا من خوفهم بأمان
من حبّنى فليجتنب من سبّنى ... إن كان صان محبتى ورعانى
وإذا محبى قد ألظ[1] بمبغضى ... فكلاهما فى البغض مستويان
إنى لطيبة خلقت لطيب ... ونساء أحمد أطيب النسوان
إنى لأم المؤمنين فمن أبى ... حبى فسوف يبوء بالخسران
الله حببنى لقلب نبيه ... وإلى الصراط المستقيم هدانى
والله يكرم من أراد كرامتى ... ويهين ربى من أراد هوانى
والله أسأله زيادة فضله ... وحمدته شكراً لما أولانى
يا من يلوذ بأهل بيت محمد ... يرجو بذلك رحمة الرحمن
صِلْ أمهات المؤمنين ولا تحد ... عنها فتسلب خلة الإيمان
إنى لصادقة المقال كريمة ... إى والذى دانت له الثقلان

***

خذها إليك فإنها هى روضة ... محفوفة بالروح والريحان
صلى الإله على النبى وآله ... فبهم تتم أزاهر البستان

رأى الخوارج :

انتهى الخوارج فى حرب الجمل إلى رأى حاسم لا جدل فيه عندهم ، وهو أن علياً مصيب فى حربه أصحاب الجمل ، وأصحاب الجمل عائشة وطلحة والزبير ... كلهم مخطئون بمقاتلتهم علياً خارجون على الدين كافرون[2] . وتجمع فرقهم كلها على هذا الحكم ، فأصحاب الجمل عندهم حلال دمهم ومالهم وأعراضهم .

(١) ألظ بالشىء : لزمه .

(٢) انظر : الفصل لابن حزم ٤/١٥٣ والفرق بين الفرق ص ٥٥ والتبصير فى الدين للاسفرايينى ص ٢٦ — هذا ويتولى الخوارج علياً منذ ولى الخلافة إلى حادث التحكيم بعد معركة صفين ، ويبرءون أعماله كلها فى هذه الفترة . أما منذ قبوله التحكيم فقد كفر ، وهم يتبرؤون من أعماله فيما بعد ذلك .

حتى إنهم احتجوا على علىّ عقب يوم الجمل قائلين :

« ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ »

فأجاب على : بأنهم إخواننا لا تحل أموالهم . »

فقالت الخوارج : « ما ندرى ما هذا ؟ »

فقال على : « هذه عائشة رأس القوم : أتتساهمون عليها ؟ »

قالوا : « سبحان الله هى أمنا . »

قال : « فهى حرام ؟ »

قالوا : « نعم . »

قال : « فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها[1] . »

ولم يقتنع الخوارج بهذه الحجة ، ولا غفروا لعلى هذا الخطأ بزعمهم ، فقد عاد أصحاب النُخَيْلة (طائفة منهم) يحاجون ابن عباس فى أخطاء علىّ التى كفر بها عندهم ، فكان من جملتها كفه عن سبى النساء من أصحاب الجمل . ومن كلامهم له فى ذلك :

« إن كان علىّ على حق لم يشكك فيه وحكّم مضطراً فما باله حيث ظفر لم يسْبِ ؟ »

فقال ابن عباس : « . . . فأما قولكم فى السباء أفكنتم سابين أمكم عائشة ؟؟ »

فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وقالوا :

« أمسك عنا غرب لسانك يا بن عباس فإنه طلق ذلق غواص على موضع الحجة[2] . »

رأى المرجئة :

قاعدة المرجئة المشهورة : « لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر[3] »

وعلى ذلك لا يكفرون أحداً من المتقاتلين فى حرب الجمل ويقولون بنجاتهم جميعا . وإن كان بعضهم ذهب إلى أن علياً هو المصيب فى حربه[4] ، فذلك لا يدعوه إلى الحملة على المخطىء بتكفير . وبذلك سلمت السيدة عائشة وأصحابها من ألسنتهم ونقدهم .

---

(١) ص ١٨٨ من هذا الكتاب .

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٧٧ (طبعة ليدن) .

(٣) التبصير فى الدين ص ٦٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ٤/١٥٣ .

رأى المعتزلة :

هؤلاء أبعد الفرق الإسلامية فى تحكيم العقل والاعتماد على منطقه ، عرضوا أعمال الصحابة على النقد فحاكموها وقضوا فيها بما أداهم إليه عقلهم ، لم يغلوا فى حرب الجمل غلو الخوارج القائلين : « إن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم علياً وكان يومئذ على الحق ولكنه كفر بعد التحكيم[١] . » ، ولا وقفوا فى أمر الصحابة حياديين الوقفة التى ارتضاها كثير من أهل السنة فيما بعد ، بل أعملوا عقولهم فذهب جمهورهم إلى أن علياً محق بقتاله أصحاب الجمل[٢] ، واستدلوا على ذلك بأقوال طلحة والزبير وعائشة (وقد مرت بك) المشعرة بندمهم على الخروج ، وبتوبتهم[٣] التوبة النصوح الخلصة . لكن هذه التخطئة لا تحمل فريقاً منهم (الإسكافى وصحبه) على تكفير أو تفسيق ، فهم يتولونهم جميعاً[٣]

فأشبه هؤلاء جمهور الأمة الذين يقولون : « إن فريقى حرب الجمل كانوا مؤمنين مسلمين ولكن الحق كان مع على رضى الله عنه ، والآخرون كانوا على خطأ اجتهاد لا يلزم به الكفر ولا الفسق ، ولا التبرى والعداوة[٤] »

وهناك فريق من المعتزلة لم يقطع على عائشة وأصحابها طلحة والزبير ..: ولا على علىّ وجيشه بخطأ أو صواب لكنهم قطعوا أن إحدى الفرقتين — لا على التعيين — مخطئة ولا يعرفون أيهما هى[٥] ؟ » . من هذا الفريق واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف[٥] وطوائف غيرهم . إلا أن وقوفهم لا يشبه وقوف من قدمنا لك من الصحابة كسعد ابن أبى وقاص وابن عمر ، ولا وقوف جمهور أهل السنة فيما بعد ، بل رتبوا عليه نتائج افترقوا بها عن أولئك ، فهم يقطعون بفسق إحدى الطائفتين لا على التعيين :

---

(١) التبصير فى الدين ص ٤١ .

(٢) الفصل ٤/١٥٣ .

(٣) الانتصار ص ٩٨ — وقد عمم ابن أبى الحديد هذا الرأى كأنه جامع أهل الاعتزال عليه فحكى عن المعتزلة أنهم يقولون : (كل أهل الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته مثل عائشة وطلحة والزبير) شرح نهج البلاغة ٣/٢٩٦ وهو تعميم — كما سترى — غير وارد .

(٤) التبصير فى الدين ص ٤١ .

(٥) الفصل لابن حزم ٤/١٥٣ .

فأما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فرأيا — على ما حكى عنهم صاحب الانتصار — [١] أن علياً وطلحة والزبير وعائشة أبرار أتقياء مؤمنون، قد تقدمت لهم سوابق حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرة وجهاد وأعمال جليلة، ثم وجداهم قد تحاربوا وتجالدوا بالسيوف فقالا : « قد علمنا أنهم ليسوا بمحقين جميعاً ، وجائز أن تكون إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلة، ولم يظهر لنا : من المحق منهم من المبطل ؟ فوكلنا أمر القوم إلى عالمه وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال ؛ فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا : قد علمنا أن إحداكما عاصية ولا ندرى أيكما هى ؟ »

ثم ذهب واصل يفرع على ذلك ويقول : « لو شهد عندى رجلان من هذا العسكر ومن ذلك العسكر لم أقبل . » فقيل له : « لو شهد من هذا العسكر على والحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر . . ومن ذلك العسكر عائشة وطلحة والزبير . . هل تقبل شهادتهم ؟ » فقال : « لو شهدوا جميعاً على باقة بقل لم أقبل [٢] . » وبذلك قال أتباعه (الواصلية) وهم من فرق المعتزلة .

ووافق عمرو بن عبيد (رأس فرقة العمْرية من المعتزلة) واصلا على مذهبه . لكن رواية ثانية — لم أطمئن إليها — تذهب إلى أنه زاد عليه وغلا، وأنه كان يقول : « كلا الفريقين من أصحاب حرب الجمل فسقوا وهم خالدون مخلدون فى النار [٣] . » وتبعه على ذلك فرقته (العمرية) فهؤلاء كسابقيهم لا يقبلون شهادة أحد من فريقى حرب الجمل .

رأى الشيعة :

أما وقد بلغنا فى هذا الموضوع إلى رأى الشيعة فإنا نرى من الواجب التنبيه إلى أمرين اثنين :

١ — ليس كل ما يورده الناس على أنه من آراء الشيعة هو من مذهبهم المعترف به .

٢ — ليس كل ما نقرؤه فى كتاب لشيعى — فى هذا الموضوع خاصة : موضوع

---

(١) ص ٩٧ .

(٢) التبصير فى الدين ص ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢ . وهذا يخالف ماتقدم آنفاً من أن عمرو بن عبيد يرى مع واصل والعلاف أن إحدى الفرقتين لا على التعيين عاصية .

الكلام على الصحابة وما جرى بينهم — هو الرأى الرسمى للشيعة .

بعد هذا التنبيه الذى لا بد منه أستهل الكلام بحكم لمتشيع مشهور هو ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة الشرح الكبير المستفيض ، لأن بين يدىّ الآن كثرة هائلة من الأحاديث التى تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعضها فى تفضيل قوم من أصحابه و بعضها فى ذم قوم آخرين منهم ، وأقل نظرة يلقيها منصف بصير على هذه الأحاديث كافية فى استبعادها عن الرسول وصحبه والقرن الذى يليه .

قال ابن أبى الحديد العالم المتشيع :

« اعلم أن أصل الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلفة فى صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم . فلما رأت البكرية (يريد بعض السنيين) ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها [أبى بكر] أحاديث فى مقابلة هذه الأحاديث . فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا فى وضع الأحاديث . ولقد كان الفريقان فى غنية عما اكتسباه ، ولقد كان فى فضائل علىّ الثابتة الصحيحة وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة ما يغنى عن تكلف العصبية لهما[1] » .

وهو قول طريف ، وأزيد أنا على ذلك فارقاً : أن هناك ميداناً غير ميدان المناقب الذى وصف ابن أبى الحديد اشتراك الفريقين فى الوضع فيه ، هناك ميدان آخر صال فيه بعض المنتسبين إلى الشيعة وجالوا ، وكف أهل السنة عن أن يحوموا حوله بله الدخول فيه . ذلك هو ميدان الطعن فى الصحابة : فأهل السنة دانوا الله بإجلال الصحابة جميعاً مصيبهم ومخطئهم وحماهم مذهبهم أن يطعنوا فى أحد منهم ، أما أولئك فقد أباحوا لأنفسهم الطعن فى خصومهم طعناً قاتلاً ووضعوا لذلك الأحاديث والأخبار المختلقة ترويجاً لمذهبهم السياسى على نحو ما نرى من حرب الدعاية لعصرنا هذا .

***

(١) وجدت هذا النقل فى كتاب (الإسلام الصحيح) للعلامة النقاشبى ص ٣١٢ ، ولم يذكر رقم الصفحة التى هى فيه من شرح نهج البلاغة ، غير أنه أشار إلى أن ابن أبى الحديد لم ينتفع بعلمه هذا فى كثير مما يورده من أحاديث .

يذهب الشيعة — فيما خص حرب الجمل — إلى أن علياً هو صاحب الحق وأنه هو المصيب فى حربه أصحاب الجمل ، وأن الخارجين عليه عائشة وطلحة والزبير ومن معهم مخطئون لخروجهم على الإمام الحق .

هذا هو ما أجمعوا عليه عامة : معتدلهم ومتطرفهم جاهلهم وعالمهم ، وليس فيه — كما ترى — انحراف عن الاعتدال ، ويستطيع أن يقوله سنى دون أن يحيد عن (سنيته) شعرة واحدة ، وكذلك المعتزلى . وحكى ابن حزم أن هذا مذهب جميع الشيعة وبعض أهل السنة وبعض المرجئة وجمهور المعتزلة[1]

***

وهنا ينتهى تقريرنا المذهب الرسمى الجامع للشيعة الأولين فيما خص أصحاب الجمل وعائشة خاصة . ونشرع الآن لمعرفة أثر السيدة فى أهل الفرق الشيعية أفرادهم وطوائفهم ، ببيان هذه الآثار بادئين بأقدمها وأخفها . وسترى أن الآثار هنا عنيفة لا تشبه ما رأيت عند بقية الفرق لسبب واحد هو أن السياسة والشعوبية عملتا عندهم عملهما النشيط البليغ ظاهراً وخفية .

لم تكن الخلافة من هم المعتزلة ولا المرجئة ولا الخوارج ، إذ لم يكن لفرقة من هذه الفرق أسرة مرشحة للحكم ، وعلى هذا سلمت هذه الفرق من تعرض الحكام المتسلطين لهم إلا إذا أحرجتهم هى وكادت لهم وثارت عليهم وحملتهم على الحرب حملا : كالخوارج .

أما الشيعة فهم الحزب السياسى الخطر على الأمويين والعباسيين وحتى ملوك الطوائف ودولة العثمانيين من بعدهم ، لأن أعظم الأسس فى مذهبهم أن الخلافة حق صريح من حقوق بنى هاشم فلا تصح إمامة غير هاشمى أياً كان . وهم مكلفون ديناً ببذل كل وسع فى رد الحق إلى أهله . فلذلك أهمّ أمرهم بنى أمية وبنى العباس ومن بعدهم ، ونزل بهذه الطائفة من الويلات ما يعرفه كل مطلع على التاريخ . بل إن تاريخهم سلسلة متصلة من المآسى والنكبات .

وأمر آخر يعنينا هنا وهو أن عداوتهم لمن حاربوا علياً عداوة شديدة لم يخفف منها مضىّ قرنين أو ثلاثة على تلك الحروب ، لأنهم يرون — وفى رأيهم حق — أنه لولا هذه الحروب

---

(١) الفصل ٤/١٥٣ .

لتوطّد الأمر لعليّ وفرغ لإدارة الإمبراطورية الواسعة فملأها عدلاً ورخاء وسعادة و بقيت الخلافة فى ذريته الأطهار ونعم الناس بحكمهم .

وخصوا عائشة من حملاتهم وطعناتهم بما لم يخصوا غيرها للسبب المتقدم إذ كانت زعيمة أصحاب الجمل والمطاعة فيهم . و إذا دققت النظر فى الحوادث التى مرت بك ، وجدت ما وجدوا تماماً من بليغ أثرها فى زعزعة ولاية عليّ من قواعدها .

فلولا عائشة ما استقام لطلحة والزبير الخروج ، ولو خرجا ما استجابت لهما الجماهير التى لم يثرها شىء مثل وجود أم المؤمنين على رأس الجموع ، ولكُفى عليّ مؤونتهما على أيسر سبيل دون افتراق الناس واقتتالهم ، ولوجد من الوقت ما يسعفه فى القضاء على كيد معاوية والأمويين .

فلا تستغرب بعد هذا ما سأعرضه عليك من هذه السلبية العنيفة التى قابل بها الشيعة فيما بعد — وخاصة عوامهم — عائشة أم المؤمنين ، ولا بأس بتنبيهك ثانية إلى أنه إذا مررت برأى أو قول أو رواية لأحد من غلاة الشيعة فليس لك أن تحمل عليه المذهب أو أهله كلهم .

* * *

أخف ما يلفت نظر المدقق هو أنهم إذا اضطروا إلى رواية عنها أو خبر يتعلق بها فى معرض خير ، طووا ذكرها تورعاً أن يذكروها بجميل : فتجد مثلاً فى أمالى المرتضى رواية ابن عباس : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله ... » وهو حديث صححته السيدة عائشة لابن عباس[1] ... فإذا بلغ السيد المرتضى استدراك عائشة عليه ، لم يذكرها وإنما اكتفى بقوله « وروى عن بعض أزواج الرسول . . الخ[2] »

ثم قوّلوها ما لم تقل ونسبوا إليها ما لم تأت فزعموا أنها هى التى أمرت أباها أن يصلى بالناس فى مرض الرسول ، وأن رسول الله أوصى إلى عليّ واستدعاه فاستدعت أباها بدله[3]

---

(١) انظر فى ذلك ص ٨٣ من كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) .

(٢) أمالى المرتضى ١٨/٢ — فإذا عرفت أن عائشة نفسها لم تكن تطيب نفسها بذكر على بخير (ص ٦٦ من هذا الكتاب) رأيت فى عمل هؤلاء جزاء وفاقا .

(٣) شرح نهج البلاغة ١٩١/٣ .

وأنكرت الوصاية ، ونسبوا إليها أنها هى التى أمرت بقتل عثمان بن عفان وأنها كانت تقول « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » وقد عرفت بطلان ذلك[١]

حتى الأمور المتواترة المشهورة المعلومة من الدين بالضرورة والتى سارت مسير الشمس شهرة ، لا يجد بعض الشيعة بأساً فى العدول بها إلى غير جهتها إرضاء لأهوائهم العصبية وتعزيزاً لمذهبهم السياسى :

لقد كان حادث الإفك المشهور ، ونزلت فى براءة السيدة عائشة آيات فى سورة النور: « إنَّ الذين جاؤوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ منكم . . . الآيات[٢] » ، وتضافرت على رواية خبر الإفك كتب السير والتواريخ والحديث والأخبار . . . وعرف كل مسلم وكل مطلع على التاريخ العربى أن هذه الآيات نزلت فى عائشة كما عرف أن محمداً هاجر إلى المدينة مثلاً ؛ ومع ذلك فقد حكى ابن أبى الحديد المتشيع أن الشيعة تقول : « إن البراءة التى فى سورة النور هى فى السيدة مارية القبطية لا فى السيدة عائشة[٣] . »

ثم ترقوا فى الحب والبغض حتى دفعت بعضهم العصبية العمياء إلى أمور مضحكة إن شفّت عن شىء فعما يتميزون من الغيظ ، وما يأكل صدورهم من الكراهية والحقد حتى أنكروا عقولهم واندفعوا فى سخف فاضح .

إنهم تكلفوا غاية التكلف فى أن المراد بـ(أهل البيت) الواردة فى سورة الأحزاب ضمن آيات بدئت بـ : « يا نساء النبى . . » : على وفاطمة وذريتهما لا أزواجه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك خالفوا الصريح الواضح البديهى لهذه الآيات الكريمة :

« يانِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ

---

(١) انظر ص٤٤ من هذا الكتاب وانظر توهين ذلك فى (منهاج السنة) ٢/١٨٨ .

(٢) سورة النور ٢٤ الآيات ١١ — ٢٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٣/٢٩٦ .

وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً[١] . »

أوردت لك ما قبل الآية التى فيها (أهل البيت) وما بعدها لترى كيف يغرب بعض الناس فى أفهامهم ، لا يردهم عن هواهم وحدة سياق ولا تناقض معنى ولا تحطيم نسق .

ثم ارتقوا درجة فى التهوين من شأن أمهات المؤمنين جملة ليصلوا من ذلك إلى تهوين أمر عائشة ، فلهجوا برواية حديث فيه :

« أذكركم الله فى أهل بيتى . . . » ، لما ورد فيه من سؤال وجواب هذا نصهما :

فقلنا : « من أهل بيته ؟ نساؤه ؟ » فأجاب راوى الحديث : « لا وايم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته : أصله وعَصَبَته[٢] . »

وقول زيد بن أرقم راوى هذا الحديث — إن صحت نسبته إليه — فيه بُعْد ، والله قد رفع شأن المرأة وكرّم[٣] نساء النبى صلى الله عليه وسلم بصريح القرآن ، فمن المستبعد جداً أن ينفى قول يُنسب إلى صحابى ما صرّح به التنزيل وما كانت دلالته صارخة واضحة[٤] .

ثم ترقوا من ذلك إلى زعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوّض إلى على بن أبى طالب أن يطلق من شاء من أزواج النبى بعد وفاته (!!!) ، وأن علياً (مارس) هذا الحق فطلق عائشة من النبى يوم الجمل [بالنيابة عن زوجها المتوفى قبل التطليق المزعوم بخمس وعشرين سنة] ، وحرمها بذلك شرف كونها من أمهات المؤمنين عقاباً لها ، وقد نقل فى

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ الآيات ٣٢ — ٣٤ — ومن أجل هذه الآيات وما قبلها ذهب الامام ابن حزم إلى أن نساء النبى أفضل الصحابة على الاطلاق ، فعائشة وأخواتها أمهات المؤمنين أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ... واحتج لذلك بحجج منطقية سديدة تجدها فى رسالته المنشورة فى آخر كتابنا (ابن حزم الأندلسى ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة)

(٢) صحيح مسلم ١٦٢/٧ (المطبعة العامرة بالأستانة)

(٣) انظر الباب الثانى من كتابنا (الإسلام والمرأة) فهو خاص بنساء النبى أمهات المؤمنين

(٤) روى عكرمة عن ابن عباس : « نزلت (إنما يريد الله .. الخ) فى نساء النبى خاصة .
وقال عكرمة : « من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم »
وكان عكرمة هذا ينادى فى السوق : « إن قوله تعالى : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم — روح المعانى ٤٣/١ وانظر فى تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر تعليقة لمهذبه فى ص ٢٠٥ من الجزء الرابع

ذلك الأستاذ النشاشيبي فى كتابه (الإسلام الصحيح) نقولاً أنا مثبتها لك دون تعليق ، قال :

« ولم يجترىء ذو مأربة بمثل هذا الحديث (حديث زيد بن أرقم آنفاً) وغيره ، بل طلقوا بعض نساء النبى (يعنى بعد مماته) عابثين غير مبالين بسخرية الساخرين ، ففى روح المعانى[1] :

رأيت فى بعض كتب الشيعة نفى الأمومة عن عائشة . قالوا : لأن النبى فوض إلى علىّ أن يبقى من يشاء من أزواجه ، ويطلق من يشاء منهن بعد وفاته وكالة عنه . وقد طلق عائشة يوم الجمل ، فخرجت عن الأزواج ولم يبق لها حكمهن .

ورأيت فى كتاب ألفه سليمان بن عبد الله البحرانى فى مثالب جمع من الصحابة مانصه : روى الطبرسى فى كتاب (الاحتجاج) عن سعيد بن عبد الله أنه سأل القائم المنتظر وهو طفل فى حياة أبيه ! فقال له : « يا مولانا وابن مولانا ، روى لنا أن رسول الله جعل طلاق نسائه إلى أمير المؤمنين حتى إنه بعث فى يوم الجمل رسولاً إلى عائشة وقال :

(إنك أدخلت الهلاك على الإسلام وأهله بالغش الذى حصل منك ، وأوردت أولادك فى موضع الهلاك بالجهالة ، فإذا امتنعت و إلا طلقتك) فأخبرنا يا مولانا عن معنى الطلاق الذى فوض حكمه رسول الله إلى أمير المؤمنين . » فقال :

« إن الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبى فخصهن بشرف أمهات المؤمنين فقال (النبى) يا أبا الحسن ، إن هذا الشرف باق مادمن على طاعة الله ، فأيتهن عصت بعدى بالخروج عليك فطلقها من الأزواج وأسقطها من شرف أمهات المؤمنين . »

وروى الطبرسى فى (الاحتجاج) عن الباقر أنه قال : لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال على : « ما أرانى إلا مطلقها ، فأنشد الله رجلاً سمع رسول الله يقول (يا على ، أمر نسائى بيدك من بعدى) لما قام فشهد . » فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا بذلك الحديث .

---

(١) انظرها فى الجزء السادس ص ٤٦

ورأيت فى بعض الأخبار التى لا تحضرنى الآن ما هو صريح فى وقوع الطلاق » اهـ ما قال البحرانى[١] . » اهـ

ولست أشك فى أن أكثر هذه الروايات لفقها غير أهل البصر من الشيعة ونسبوها لأئمة مرضيين تملقاً للعوام وترويجاً لبضاعتهم عندهم .

ثم جاء منهم من قذفها وافترى عليها وأنكر اختصاصها بأم المؤمنين[٢] . .

وتناولوها بسلاح آخر غير سلاح الروايات الملفقة ، فشارك شعراؤهم فى النيل منها ومن طلحة والزبير وسائر جموعها ، وما أكثر ما تجد أمثال قول القائل :

جاءت مع الأشقين فى هودج تزجى إلى البصرة أجنادها
كأنها فى فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها

وقد نظم بعضهم ما زعموا أنه حديث وهو : « يا حميراء ، كأنى بك تنبحك كلاب الحوءب تقاتلين علياً وأنت له ظالمة[٣] » فقال :

إنى أدين بحب آل محمد وبنى الوصى شهودهم والغُيّب
وأنا البرىء من الزبير وطلحة ومن التى نبحت كلاب الحوءب[٤]

واشتط آخرون فى تأويل بعض الآيات والانحراف بها عن مدلولها انحرافاً مضحكا ، فإذا تلوا قول الله تعالى حكاية عن موسى يخاطب قومه :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً .. » زعموا : أن المراد بالبقرة عائشة[٥] !

---

(١) الإسلام الصحيح ص ٨٦ ، ٨٧

(٢) انظر تفصيل ذلك فى منهاج السنة ٢/١٨٢ ولم أثبته مفصلا لأن عقيدة الشيعة وخاصة الإمامية اليوم بريئة من هذا القذف — انظر فى ذلك جواب المجتهد الشيعى السيد محمد محسن الأمين العاملى لنا عن عقيدة الشيعة فى أمهات المؤمنين ، فى كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥

(٣) قال الإمام الحافظ المحدث شيخ الاسلام ابن تيمية : « وأما الحديث : تقاتلين علياً وأنت ظالمة » فهذا لا يعرف فى شىء من كتب العلم المعتمدة ، ولا له إسناد معروف ، وهو بالموضوعات المكذوبات أشبه منه بالأحاديث الصحيحة ، بل هو كذب قطعاً : فإن عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال وإنما خرجت بقصد الاصلاح بين المسلمين ... الخ منهاج السنة ٢/١٨٥

وهذا من ابن تيمية نقد داخلى لمتن الحديث ، ومن أدلة الوضع عندهم مخالفة الحديث للواقع ، وواقع التاريخ يؤيد ما ذهب إليه ابن تيمية .

(٤) العقد الفريد ٣/١٠٨

(٥) انظر (مقدمة فى أصول التفسير) لابن تيمية ص ٢٢ (دمشق مطبعة الترقى ١٩٣٦) ونقل =

ثم غلا الغلاة منهم فى شأنها وشأن طلحة والزبير وأبى بكر وعمر وعثمان ، فجاوزوا الطعن والبراءة إلى اللعن الصريح ، ثم جاء قوم فجعلوا لعن عائشة ومن ذكرنا قربة يتقربون بها إلى الله ، حتى إنك لترى لعنهم فى أدعية مأثورة ونسبوا بعضها إلى على بن أبى طالب نفسه بينما أقوال على وأفعاله كلها متضافرة على تعظيم هؤلاء وحبهم والاستغفار لهم ، وقد مر بك قوله فى طلحة والزبير وعائشة عقب حرب الجمل . . وبعض هذا كافٍ فى إبطال ما ينسبونه إليه ، وقد أجلّه الله عن أن يكون لعّاناً لأصغر الناس فكيف يلعن الأجلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

وأى كان ، فقد توارث بعض الشيعة هذا اللعن وتلك الأدعية ، ونسبوها — زوراً — إلى علىّ ، وتقربوا إلى الله بهذا اللعن ، فإذا فتحت كتابهم (مفتاح الجنان) وهو كتاب أدعية يشبه (دلائل الخيرات) الذى يقبل عليه العوام فى مصر والشام ، وجدت فى جملة الأدعية دعاء صدروه بهذا الكلام :

(هذا دعاء صنمىْ قريش من كلام أمير المؤمنين عليه السلام)

ووجدته يبتدئ هكذا :

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، والعن صنمى قريش وجبْتَيْهما وطاغوتيهما وإفكَيْهما وابنتَيْهما ... الخ[1]

وكان بعض أهل السنة يقابلون هذا العدوان على صحابة رسول الله خبراً بخبر وشعراً بشعر ، يدافعون هجمات خصومهم دون أن ينالوا من أئمة الشيعة لأنهم أئمتهم أيضاً ، فما أكثر ما تجد من مقالاتهم فى إعظام عائشة وطلحة والزبير وأبى بكر وعمر الخ

وقد يدفع التحزب بعضهم — كما قال ابن أبى الحديد آنفاً — أن يقابل اختلاق الروايات باختلاق مثله . ثم ترى الشعراء أيضاً ينافحون عن هؤلاء الصحابة ويردون مطاعن الشيعة عنهم ، فترى كثيراً من أمثال القصيدة التى أثبتها لك آنفاً فى السيدة عائشة ، ولا تنس أن

= بعدها من المضحكات شيئاً كثيراً . كقولهم إن المراد بقوله تعالى (فقاتلوا أئمة الكفر . » طلحة والزبير . . . الخ .

(١) مفتاح الجنان ص١١٤ — وظاهر أنهم يريدون بالصنمين أبا بكر وعمر وبابنتيهما عائشة وحفصة زوجتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانظر الكافى للكلينى ٣٩١/٣

إجازة الأمير لصاحبها بمئة دينار ، لها دلالتها فى هذا الباب فكان انتصار الشاعر للشعور العام المعتدى عليه مما يُرضى عنه حينئذ .

ثم إن غلو بعض الشيعة غير المعقول حمل فريقاً على كره على ، وكان ذلك بمثابة (رد الفعل) أو (عكس التأثير) كما يقولون ، وسمى هؤلاء بالناصبة ؛ وجعلوا يتتبعون أقوال الشيعة فى حملاتهم فيحملون مثلها ، فربما أتوا أحياناً بالسائغ المعقول (ظاهراً) وربما شابهوا أولئك فى بعدهم عن الحق والمنطق . فمما يقبل من كلامهم مما يمس موضوعنا ما أورده ابن تيمية فى صدد حرب الجمل وحملة الشيعة على طلحة والزبير لأنهما أخرجا عائشة من بيتها ولم يراعوا حرمة الرسول فى زوجه :

مما يقوله الناصبى (رداً على حملة الشيعة) فى التشنيع على على :

« . . . إن ذنب من جعل جملها هدف السهام وجعله غرض الإهانة من عسكره ، أعظم من ذنب من أخرجها من بيتها كالملكة يأتمر بأمرها . . . فبأى وجه يلقى رسولَ الله الأولُ ؟ . . . [1] »

هذا وربما أدى الخروج على الأدب فى الطعن عليهم إلى شىء من العنف فيما بعد : فالطبرى يذكر لنا فى حوادث سنة (٢٤١) أن صاحب خان عاصم ببغداد واسمه عيسى ابن جعفر شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة جهاراً أمام الناس ، فشكوه إلى القاضى وشهد عليه سبعة عشر رجلاً ، فجاء أمر الخليفة أن يضرب فى مجمع الناس حد الشتم ، ثم خمسمائة سوط بعد الحد للأمور العظام التى اجترأ عليها من لعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر ، « فإن مات ألقى فى الماء من غير صلاة ليكون ذلك ناهياً لكل ملحد فى الدين خارج من جماعة المسلمين [2] . »

ويروى ابن الجوزى حادثاً مشابهاً وقع بعد قرن من الحادث السابق فيقول : « كان فى الموضع المعروف ببراثا مسجد يجتمع فيه قوم ممن ينسب إلى التشيع : يقصدونه للصلاة والجلوس ، فرفع إلى المقتدر بالله أن الرافضة يجتمعون فى ذلك المسجد لسب الصحابة والخروج

---

(١) منهاج السنة ٢/١٩٥

(٢) تاريخ الطبرى ٧/٣٧٥

عن الطاعة فأمر بكبسه يوم الجمعة وقت الصلاة ، فكبس وأخذ من وجد فيه فعوقبوا وحبسوا حبساً طويلاً وهدم المسجد حتى سوى بالأرض وعُفّى رسمه ووصل بالمقبرة التى تليه ومكث خراباً إلى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة[١] . »

***

وعرفت بعض الأمصار حينا من الزمن بشدة الغلو فى التشيع حتى صار يختفى فيها أهل السنة ومن ظهر منهم كتم مذهبه خشية على روحه ، ويصور لنا هذه الشدة خير تصوير طرفة عن أحد الظراف : قالوا إنه كان يمشى فى أحد هذه الأمصار حين غلبة الشيعة وكان يكنى أبا بكر ، فإنه ليمشى بين الناس إذ نادته امرأة تعرفه : « يا أبا بكر » فما كان أسرع الرجل إلى أن يقول : « لبيك يا عائشة ! » ولم يكن هذا اسمها فاستغربت تقول : « سبحان الله كأن اسمى عائشة » قال الرجل : « أتريدين أن يقتلونى وحدى إذن ! ! »

***

رأى أحد مجتهدى الشيعة اليوم :

وجدت من الأمانة للبحث أن أسأل أحد مجتهدى الشيعة اليوم عن رأيهم الرسمى فى السيدة عائشة وعن المصادر المعتمدة عندهم ، فبعثت إلى الشيخ الجليل السيد محمد محسن الأمين العاملى مفتى الشيعة الأكبر فى الشام بأسئلة أحدها :

« ما رأى الشيعة فى السيدة عائشة خاصة وجميع ما كان منها ؟ ثم ؛ ما رأيكم الخاص بصفتكم أحد مجتهدى الشيعة الكبار اليوم ؟[٢] »

فوردت أجوبته مفصلة فى (الثالث من المحرم سنة ١٣٦٣ هـ) وهاك جوابه عن موضوعنا حذفت منه الحوادث التى مرت بك قبل ذلك تجنباً للتكرار ، قال :

« وأما الجواب عن السؤال الثانى فهو أن السيدة عائشة أم المؤمنين كانت راوية

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ٦/٣١٧

(٢) وقبل هذا ، سؤال عن عقيدتهم فى أمهات المؤمنين عامة نشرت جواب السيد عنه كاملا فى كتابى (الاسلام والمرأة) فى حاشية الصفحات ٨٥ — ٨٧ فارجع إليه لعلاقته ببحثنا هنا .

للحديث بصيرة بالفقه جريئة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ظهر منها ذلك فى عدة مواضع حفظها التاريخ لا يتسع المقام لذكرها : منها قولها له فى غزاة فتح مكة : « إنك تزعم أنك رسول الله فما لك لا تعدل (كما فى السيرة الحلبية) ، ولما أراها ولده إبراهيم لترى ما بينه وبين ولده من عظيم الشبه قالت : (إنها لا ترى بينهما شبها) ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبى براءتها منه .

ويرون أنها أخطأت بخروجها على الإمام العادل مظهرة الطلب بدم عثمان وهى كانت أعظم المحرضين عليه[1] . . . وقد قال النبى لأزواجه : « ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ، تخرج فتنبحها كلاب الحوءب ، يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة[2] » وقد أمرت أن تقر فى بيتها بقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى[3]) .

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فأخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة الله واسعة . ويصعب علينا الإذعان بأن هذا كان اجتهاداً ، وإذا جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظراً لم يتأثر بشىء وجدناه بعيداً عن الاجتهاد غاية البعد .

[ثم نقل السيد ما تمثلت به عائشة لما بلغها نعى على بن أبى طالب وقد مر بك (ص ٦٦ ، ٢١٤ وزاد عليه نقلا من مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى] — :

ثم تمثلت :

ما زال إهداء الصغائر بيننا ... شتم الصديق وكثرة الألقابِ
حتى تركت كأن قولك فيهمُ ... فى كل مجتمع طنين ذبابِ

وقال بعض علماء الأعصار الأخيرة من الشيعة :

(عائشُ) ما تقول فى قتالكِ ... سلكت فيه سبل المهالكِ

---

(١) نقل السيد هنا حديث ابن أم كلاب عن الطبرى وابن الأثير وقد ذكرناه مع ما يرد عليه ص ٥٣ و٦٨ فما بعد .

(٢) انظر فى نقد هذا الحديث ص ٨٧ من هذا الكتاب

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٣٢ .

ويا حميرا ســـــبك محرم لأجل عين ألف عين تكرم[١] »

اهـ جواب السيد

فأنت ترى أن هـذا المجتهد الشيعى نفى أن تكون السيدة مجتهدة مخطئة كما هو رأى بعض أهل السنة ، ولم ينص على أنها مذنبة تائبة كما يرى المعتزلة ، أو كافرة كما يرى غلاة الشـيعة والخوارج . ولعل كلمته (ويرون أنها أخطأت بخروجها على الإمام العادل) معبرة عن رأيه الاجتهادى الخاص هو ومن على شاكلته من معتدلى الشيعة المتقدمين والمتأخرين وكثير من أهل السنة يقول هذه الكلمة نفسها . وقد ذكر السيد اعتذارين عنها : (اجتهدت وأخطأت) و (أذنبت فتابت) ، ثم نفى الاعتذار الأول وسكت عن الثانى ؛ فهل سكوته أخذ بهذا الثانى كما يتبادر إلى الذهن ؟ لست أدرى . وأنا أردت منه حكما صريحاً فجاء كما ترى ! ! على أن القول الثانى (أذنبت فتابت) هو رأى السيدة عائشـة فى نفسها كما عرفت .

أما ابن أبى الحديد — وكتابه شرح نهج البلاغة من المراجع المعتمدة عنـد الشيعة فى رأى السيد محمد محسن الأمين العاملى — فينص على أن « الإمامية كفّروا أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع[٢] » .

هذا ولا تناقض عندهم — ولا عند غيرهم — بين زوجية المرأة للنبى وكفرها كما كان كتب إلىَّ السيد نفسه[٣] .

والذى نخرج به مما تقدم كله أن الشيعة ذهبوا فى السيدة عائشة من ناحية مغامراتها السياسية مذاهب سلبية مختلفة فيها المعتدل وفيها الغالى المتطرف ، وأن للمرء أن يعتقد فى أمرها — بعد إثبات الحق والصواب لعلى — ما يشاء دون أن يخرج عن شيعيته ، فالأمر

---

(١) انتهى ما نقلناه من كلام السيد ، ومن المفيد أن نثبت هنا جوابه لنا عن المراجع المعتمدة عند الشيعة ، قال :

« المراجع المعتمدة عند الشيعة كتب السيد المرتضى وأمثاله [؟] من أعيان الشيعة . وتجدون كثيراً من آرائه وأقواله منقولة فى شرح النهج الحديدى المطبوع . ومن المراجع المعتمدة فى التفسير مجمع البيان للطبرسى المطبوع ومروج الذهب للمسعودى فى التاريخ ، وإن كان الاعتماد عليها لايعنى أن جميع مافيها صواب فلا ينزه عن الخطأ غير كتاب الله العزيز . » اهـ وأنصف السيد .

(٢) شرح نهج البلاغة ٣/٢٩٦ .

(٣) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥ فما بعد .

على الاتساع ، ومتأخروهم صائرون إلى الاعتدال ، وتحكيم العقل بعض التحكيم ، ومجانبة التقليد بعض المجانبة . أما القذف فينكرونه أشد الإنكار لأن عقيدتهم صريحة فى أن أزواج الأنبياء يجوز عليهن الكفر ولا يجوز عليهن الخطيئة[١] .

* * *

وقبل أن أختم هذا الفصل ، أرى من الضرورى أن أنبه على أمرين مهمين :

الأول — قد اندس فى الشيعة كثير من الذين تظاهروا بالإسلام غشاً وكيداً فأفسدوا عقائد المسلمين ، وحملوا إلى الإسلام كثيراً من عقائدهم القديمة ونحلهم الأجنبية : المجوسية أو اليهودية . وكان هدفهم الأول تهديم المجتمع الإسلامى سياسة وأخلاقاً وعقيدة ، وجعلوا غلوهم فى التشيع أحبولة لخداع الطيبين من الشيعة وأهل السنة ، فقبلوا عنهم كثيراً من آرائهم الهدامة ، وسرت هذه الآراء ، ودان بها جماعة كثيرون وتسربت إلى مصادر كثيرة بعضها محترم ؛ واحتال هؤلاء الدساسون فجعلوا على آرائهم الصبغة التى تسهل إساغتها فى الحلوق ، حتى صعب على الناقد من مخلصى الشيعة تمييزها من غيرها واختلط الحابل بالنابل .

هذا أمر واقع لا شك فيه ، وبعض العلماء يعنى هؤلاء الدساسين حين يقول (الرافضة[٢]) فليس الرافضة عندهم هم الشيعة ، ولكن ذلك الفريق الذى دخل الإسلام ليوهنه ويفسد على أهله دينهم ، وعلى الأمة وحدتها وقوتها . وأوضح مثل أورده لك هو عبد الله بن سبأ الذى رأيته فى مكره وكيده وغشه وخطر الهدف الذى يهدف إليه ، والبطل الأول الذى (طبخ) فاجعة عثمان وحرب الجمل . وأكثر هؤلاء يبتغون الثأر لقوميتهم التى أضاعها الإسلام أو نحلتهم التى أضعف أمرها .

---

(١) انظر جواب السيد فى كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥ فما بعد .

(٢) أول من أطلق هذه الكلمة (الرافضة) على فريق من غلاة الشيعة : الإمام زيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب رأس (الزيدية) فقد سأله هذا الفريق من شيعة الكوفة فقالوا : « رحمك الله ، ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ » قال زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً » ... فقارقوه ونكثوا بيعته إذ لم يتبرأ من أبى بكر وعمر ، فسماهم (الرافضة) . — تاريخ الطبرى ٥ / ٤٩٨ — وكان زيد هذا أعلم آل على ، ورواياته وفتاويه عمدة (الزيدية) اليوم . قتل فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

هذا وقد صار لكلمة الرافضة على الزمن مفهوم آخر كما سترى فى كلام ابن تيمية .

وابن تيمية لم يبعد من الصواب حين قال :

« إن الرافضة من أول مقاصدها النيل من الإسلام وحربه ، وإنهم الباب الذى وضعه أولو الزندقة من المجوس للدخول إلى عقائد المسلمين وتزييفها [١] » ثم استشهد بعدة وقائع أعان فيها الرافضة الكفار على المسلمين فى خراسان ومصر والشام والعراق والجزيرة .

ويرى المؤلف نفسه « أن الرافضة وحدها من بين سائر الأهواء بنوا بدعتهم على زندقة وإلحاد ، وليس كذلك الخوارج ولا غيرهم [٢] » .

وهـذا نعت لا يصح بحال أن يلصق بالشيعة الذين خبرناهم بالعراق والشام ، وعرفنا مقالاتهم ورأيت آنفاً آراء مفتيهم ، إن هذا الغلو منبعه الفرس واليهود ، فإن كانت منه بقية اليوم ففى فارس والهند ، ومن اطلع على تآليفهم البشر وإغراقهم فى المحال أيقن أن هذه الآراء بعيدة البعد كله عن جوهر الإسلام ، وأنها صنع عقلية متأثرة بماضيها المجوسى أو اليهودى ، وأنها على كل حال لم تنبت فى منبت عربى قط . وصدق الشعبى حين وصف هؤلاء المتسترين بالتشيع :

« لم يدخلوا فى الإسلام رغبة ولا رهبة ، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم ، قد حرّقهم على بن أبى طالب ونفاهم إلى البلدان ، منهم عبد الله بن سبأ : يهودى من يهود صنعاء ، نفاه إلى ساباط ... الخ [٣] » .

هذا تمييز بين الشيعة المسلمين وهؤلاء ، لابد من التنبيه إليه لمعرفة الحق ووضع الأمور فى نصابها . وقد خبط بينهما وخلط ، كثير ممن تصدى للتأريخ قديماً وحديثاً .

الثانى — أما الأمر الثانى فهو نتيجة لما سبق : لقد امتلأت كتب الخلاف بالطمّ والرمّ من الأخبار والأحاديث الموضوعة التى تغذى الخلاف وتوسع شقته ، لفقها الملفقون غشاً وكيداً أو غفلةً ، ومن النادر أن تجد مصدراً خلا منها .

وقد تنبه إلى هـذا الخطر أهل البصر السنيين والشيعيين ، ورأوا خطة سديدة فى التغلب عليه أنا ذاكرها لك :

---

(١) منهاج السنة ١ / ٥ .
(٢) المصدر نفسه ١ / ١٥ .
(٣) منهاج السنة ١ / ٦ .

الفريقان الشيعة وأهل السنة مجمعون على الاحتجاج بالقرآن الكريم ، ثم يختلفون فى الاحتجاج بالروايات والأحاديث : فبعض أهل السنة يروون أحاديث وروايات فى باب الفضائل وحروب الصحابة لا يأخذ بها الشيعة ولا يرونها صحيحة ، وبعض الشيعة يحتجون كذلك بروايات وأحاديث يرى أهل السنة أنها مختلقة ؛ وهناك أحاديث يجمع عليها الفريقان .

فإذا اتفقنا على الاحتجاج — فى هذا الباب — بالقرآن الكريم وما أجمع الفريقان على صحته من الحديث وأغفلنا ما وراء ذلك : إذ كان لا يدخل فى أصول العقائد ولا ثمرة عملية له ، زال كل خلاف بين الطرفين ، وقضينا على هذه الفرقة غير المجدية التى طال أمدها .

هذا رأى منصف سديد حكيم لا غبار عليه .

والطريف حقاً أن يقول به شيخ الإسلام المحدث الكبير ابن تيمية نفسه خصم الشيعة المشهور فى المتقدمين ، والسيد محمد محسن الأمين المجتهد الشيعى فى المعاصرين :

قرر ابن تيمية : « إمكان تركنا الاحتجاج بالرواية إن ترك الشيعة ذلك[1] » ، وإليك رأى السيد محمد محسن الأمين من أجوبته التى أرسلها إلى فى كراس لطيف أنقله بالحرف :

« ... وأما قولكم (إن فى نيتكم أن تكون الدراسة [عن السيدة عائشة] حيادية) فنعم ما تفعلون إذا أمكنكم ذلك فإن مافى الكتب الإسلامية مما يرجع إلى الآراء والديانات قد اختلط فيه الحابل بالنابل والحق بالباطل ، واعتورته العصبيات والأهواء . ومضى على المسلمين أحقاب وقرون ، دخلت فيها السياسة فى الدين ، واستُغِلَّ الدين لتوطيد الملك ، واختلقت الأحاديث والأقوال حسب رغبة الملوك والأمراء والسلاطين وبعض من يحملون لقب الخلافة ، ... فعل ذلك خوفاً وطمعاً ولإرغام فريق وتأييد فريق كما هو الشأن فى كل عصر وزمان ؛ ... [وهنا ضرب السيد مثلا مظالم الشيعة فى العهدين الأموى والعباسى] ثم قال :

ومهما بذل العلماء جهودهم فى تنقية الأخبار لم يستطيعوا — وإن تخيلوا ذلك — لأن العصبيات المذهبية والعداوات الدينية تأصلت فى النفوس ، وتوارثها الخلف عن

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٦ .

السلف ، ومن أراد تجريد نفسه عنها لم يوفق لكثرة مافى الأمر من الاختلاط إلا ما شاء الله ، ولا يمكننا تنزيه ما عند فريق دون فريق عن ذلك ؛ فما علينا إلا أن ننعم النظر ، ونأخذ بما اتفق عليه الكل وتوافقت عليه الأخبار من الطرفين ، وأيده الكتاب العزيز والسنة الثابتة عند الجميع » اهـ .

ولعل من هذا المذهب ابن أبى الحديد المتشيع أيضاً حين قال ما ذكرته لك سابقاً : « اعلم أن أصل الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان ... الخ[1] » .

وهذه الخطة التى توارد عليها ابن تيمية والسيد محمد محسن الأمين ، خطة عملية ظاهرة الصواب . وما غمر عصرنا هذا من روح العلم وحرية التفكير والاعتداد بالكرامة الإنسانية واحترام الفردية ... كفيل بالقضاء على روح التفرقة والتعبد لآراء الرؤساء والعصبية الجاهلية التى قضى عليها الإسلام ولم يعرفها السلف الصالح من أهل السنة والشيعة معاً .

* * *

و بعد ، فهذه جناية الحزبية السياسية على وحدة الأمة : أفسدت على الناس كل شىء حتى دينهم ، ففرقتهم فرقاً متنابذة فيه ، وملأت تاريخهم الطويل بالفواجع والمآسى . ورحم الله السيدة عائشة فلم ينته انقسام الناس بسببها حتى اليوم .

---

(١) ص بتمامه ص ٢٦٩ فارجع إليه . — هذا ، وأنا موقن أن تطبيق القواعد التى أقرها الأصوليون من علماء الحديث بصرف النظر عما ألحق المتأخرون بها من قيود وتقليد ، كاف بإقصاء كل تلك الأحاديث من كتب الفريقين ؛ إذ أنها قواعد محكمة سديدة ، وهى مقاييس فى النقد دقيقة هيهات أن يلحق بها أدق ماوضع نقدة التاريخ لعصرنا . ولكن قومنا يدرسونها تبركا ولا يمارسونها البتة ، وكان الحق أن يطبقوها بحرية واسعة فى هذا الباب باب المناقب والملاحم على الأقل .

الخاتمـــة

عبرة الحوادث

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومغامراتها السياسية وآثارها القريبة والبعيدة فى حياة المسلمين ، أودعك موصياً أن تجعل بالك أبداً ـ كلما قرأت التاريخ ـ إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شىء أحسنه ، وتربأ بنفسك و بأمتك أن تغامر فى تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذى قدمناه فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامى بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التى تعرض لقارئ هذا الكتاب : تنقذاننا مما نحن فيه اليوم من تخبط ، وتنيران لنا طريقاً طال تعسفنا فى المتاهات دون أن نهتدى إليه :

أما الأولى : فهى أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفسها فى المنازعات السياسية . إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بعواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك فى القلاقل والاضطرابات والفتن . إن بيدها مفاتيح خطرة فى التأثير فى نفوس الجماهير وفى استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم ، وهذا السلاح غير حميد فى العواقب ولا يصح استعماله بحال . وقد أبنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة فى أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث فى تاريخنا التغير كله ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقى مباركا ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية .

وكأن الله الذى جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال و إدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى ، كلفتهم كل تلك الدماء المهراقة ، وفجعتهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعاظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس ... ليعلموا : أنْ لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بامرأة ، لقام بهذه السيدة الحصيفة التى أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة

والصلاح ... ما لم يؤته رجال كثيرون مجتمعين ، والتى جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفرق فى العدد العديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجمل مناراً فى تاريخ المسلمين : كلما نزغ بهم نزغ من تقليد أعمى لغيرهم من الأمم ؛ أو مسٌّ من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أوهموا أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلقت له ... قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة فى صدر تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعيدها عبثاً ، أو أن نهرق فى سبيلها ثانية دماء جديدة ونخرب بيوتاً عامرة ... ومن لنا مع هذا بمثل عائشة .

إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين تجد وقتاً فاضلاً عن شؤون التربية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيراً ورحمة وإحساناً . هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب فى وسع المرأة أن تلجها فتمارس أموراً عظاماً وتبذل مجهوداً مشكوراً يعود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر .

أمامها من ميادين الخير : التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات جنسها بالعلاج والدواء والطعام والكساء . وفى مجتمعنا من المحتاجات ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفى بحاجتهن عشرات المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل فى بنات جنسها ، فلتنشىء لهن المعاهد ذوات المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لها برامج الذكور (ببعض التعديل) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى الآن لم نقم التعليم الصالح للبنات[1] .

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء الميامم وتعهد أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة .

ويجب أن ينشأ فيهن المتخصصات فى جميع الفروع التى يحتاج إليها النساء والأطفال

---

(١) ينبغى أن تكون أكثر مواد هذا التعليم بحوثاً واسعة تجريبية فى كل ما تحتاج إليه الأم فى الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين وحسن العشرة ... لا خليطاً غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة . ولنجعل التاريخ الذى يدرسنه مملوءاً بسير الذين ضربوا المثل العليا للبشر فى سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس ، وفى الفضائل الحية ممن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للانسانية حماتها الأبطال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء . ولنتجنب شحنه لهن بأخبار القلاقل والاضطرابات والفتن والحروب ومُثُل الفساد والطغيان .

وأن يكون منهن العدد الوافى بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء فى علاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخلية والجلدية وفى حاجات التوليد .

فإن كان ولا بد من زيادة فإلى المساهمة فى كفاح ما يتفشى فى المجتمع من امتهان المرأة و إشقائها عن طريق البغاء والقمار والخمور وغيرها من المفاسد التى ضاق بشرورها المفكرون فى الغرب والشرق .

لدى المرأة إذنْ كثير من أعمال الإحسان ينتظر من يقوم بها ، وفى ذلك الخدمة المخلصة للأمة و إعمارُ البيوت و إفاضة الخير والسعادة فى المجتمع ...

ونحمد الله على أن فى فضليات نسائنا من تحاول سد هذه الثلمة ، إلا أن نسبتهن قليلة جداً بالقياس إلى اللائى تنكبن الجادة متخبطات على غير بصيرة ، فهجرن بيوتهن واكلات أمورهن إلى الخوادم ، وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أُسرهن وأمتهن إلا بالضرر الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات ساهرة محجلة ، وغشيان مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ، وعقد مؤتمرات لا يبلغن فيها أمراً نافعاً ، بل كثيراً ما يرجعن وقد سبقتهن أشأم الحوادث وأسوأ الأخبار . . . مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

يقلدن بذلك نساء ضج عقلاء أممهن من أحوالهن[1] ، وسقط مقامهن فيها من كثرة

---

(١) وددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للنسوة اللاتى يطالبن بالحقوق السياسية فى أوروبا وأمريكا واللاتى استغرق (نشاطهن) الاجتماعى كل وقتهن ، فلعل فى أعماق نفوسهن هوى سحيقة ومهارات ألمية وعللا وشذوذاً ... وشعوراً صارخاً بنقص ماثل لأعينهن كيفما توجهن ، فآثرن تناسيه والهرب منه بذلك (النشاط الاجتماعى) . والطريف أن هؤلاء لم يكثر عددهن إلا فى هذه السنين الثلاثين الأواخر ، حين فقدت أوروبا الشعور بدفء الأسرة ونعيمها وروحها ، وخلت البيوت من جوها الجميل الجذاب جو التآلف والاجتماع والتحاب والتعاطف ، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنان بعد أن تشرد أفراد الأسرة وتبعثروا فى المطاعم والسهرات . فلو كان بناء الأسرة متماسكا متيناً حبيباً كعهده أول ، ما كان المطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتمثيل السياسى وما إلى ذلك . وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ فى روسيا السوفييتية ، حيث يراد إقامة مجتمع لا بناء للأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضوة عاملة فى أسرة ثم تكون مندفعة فى تيارات السياسة وما إليها فى وقت معاً .

ووددت أيضاً لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللائى أنعم الله عليهن بالزوج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلا ، ثم أحصوا نسبة الجميلات منهن ، ثم .. ثم .. إنى لأخشى أن تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمهن الله الجمال والزوج والولد ، فتقمن على المجتمع نظامه =

هذا التبذل والعبث ، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوّثن من سمعة المرأة عامة . ليتنا إذ جننا بالتقليد اخترنا من نقلد ، ففى كل أمة من فضليات النساء النافعات ما يحسن الاقتداء به ، ولـكننا ننتقى أحط المبتذلات ثم نسبقهن فى الابتذال أشواطاً يخجلن هن أنفسهن من السعى إليها .

وأبعد من هذا ، أننـا إذا أمعنا فى البيت وما يحتاج إليه تدبيره على خير نسق من علم واسع غزير فى الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف ، ورعاية ذلك كله . . وجدنا أن علم ذلك و إتقانه وحسن إمضائه يكاد لايبقى للمرأة القديرة ذات المواهب الجمة من فراغ أو جهد ، فـكيف المتوسطات بله الضعيفات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة) ليتضاءل أمامه — فى اعتقادى — كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة .

وعلى المرأة الجادة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن تشارك فى شرف الخدمة فيها ، على شرط واحد : هو أن تنهى كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولاً ، وإنمـا يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد .

* * *

هذا ، ولست أقول إن المرأة لا نفع منها فى باب السياسة ، أستغفر الله ، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط : هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشّئ عليها أولادها ، فما فى امرأة فرّطت بفضائل دينها من خير قط . والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التى شرعها الله . والدين للمرأة هو كل شىء فى نظر زوجها وولدها وأسرتها والناس أجمعين ، فإذا جاهرت بشىء من الخروج عليه فقدت كل احترام فى النفوس ، وانتقلت نظرة الناس لهـا دفعة واحدة من التقديس إلى الزراية .

إن من لم تكن أمينة لدينها لن ينتظر منها إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها ، مثلها فى ذلك

= وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها على الأرض ، وآلين على أنفسهن ألا يضعن الحرب حتى يعم العدل وجه الأرض ، وما العدل عندهن إلا هدم الأسر وأنظمة الزواج ، وسلطان الضمير ، ومحو السعادة جملة .

مثل الرجال رق دينهم : فلما مارسوا الشؤون العامة مالئين الدنيا صخباً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم ، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة ، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفاً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وغلاء وإهداراً للكرامات والقيم وتضييعاً للأمانات والحقوق . وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر ... ومن مات وازعه الدينى ونسى يوم الحساب فلن يرده عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب .

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات — إلى حد بعيد — عن هذا الخزى الذى ارتطموا فيه ، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب . لقد حرمنهم النشأة الدينية الفاضلة فلم يعرفوا لذتها ، ولم يتعهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا فى أنفسهم الكرامة الإنسانية ، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب ، فعم البلاء البلاد والعباد ...

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غير دين ، وتعظم المصيبة ، وتستفحل آثار شرورها فى مستقبل الأمة وسلامة المجتمع .

فلها إذنْ آثار بعيدة فى السياسة ، وهى تسدى لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكاية ، لا بنفسها مباشرة فقط ، ولكن بنفسها وبما تنشىء عليه أبناءها سياسيى الغد من فضائل أو رذائل ، وبما تنال ضمير الناشئ ووازعه الدينى من عناية أو إهمال .

***

ذلك ، وقد أعان على تردّى المرأة فى الخروج على أنوثتها وفطرتها ، فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا نصحاً . دفعهم الرياء المغشوش على أن يغرقوا فى مجاملة المرأة المشتطة الطائشة ابتغاء العبث بها وبكرامتها ، فحمّلوها فوق ما تستطيع من السخط على الطبيعة التى فيها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق ، وإلى ما يعزها فى المجتمع سيدة بيت ومربية أجيال . وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوى بها الطيش فى مكان سحيق فتفقد ما لها من حرمة هى ملاك أمرها كله فى المجتمع .

ليتنا فى غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضى ونسير غير متخبطين : نبصر مواطئ أقدامنا ونتقى المزالق ، ونجند كلاً فى ميدانه الذى يصلح له . لقد تداعت علينا الأمم ، وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق ، وغزينا فى أخلاقنا وبلادنا وأموالنا ... وليس فى جهودنا فضل ننفقه فى رد العابثين عن عبثهم ؛ فليتق الله حملة الأقلام وليصونوا الشاردات عن القطيع ، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن فى أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولاً ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا .

وما الانهيار السريع الذى قضى على بعض دول الغرب العظمى فى مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة ، ببعيد فينسى . ولنا فيه درس وموعظة و بلاغ .

***

وأما العبرة الثانية : ففيما يثمر الخلاف من الثمرات المرة الأليمة :

لقد كان أمر المسلمين الأولين عجباً من العجب : امتلأت نفوسهم بكل ما حباهم ربهم من خير فى الإسلام ، فأحسنوا فهمه وأحسنوا العمل به وأحسنوا الاستجابة لرسوله نساء ورجالا ، فوطدوا أركانه فى الجزيرة العربية ، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه ، واندفع هؤلاء الصحابة الأخيار يريدون إعلاء كلمة الحق و إنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان : من شرور الظلم والجهل وامتهان الإنسان ، فحرّر الله على أيديهم أقطاراً وشعوباً كثيرة ، فأشركوا الناس كافة فى سعادتهم وعدلهم وأمنهم . ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاماً فقط يأكل بعضهم بعضاً ويعدو قويهم على ضعيفهم : قبائل متعادية ، وطوائف يغزو بعضها بعضا ... عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذى ألّف بين قلوب ما كانت لتتألّف ، وأدرك سر المعجزة التى أتى بها الإسلام فى توحيدهم وخلقهم خلقاً جديداً جعل من سفكة الدماء أنبياء رحمة ورسل هداية للبشر .

لقد أتوا — وكلهم واحدة — بالعجائب فى الحرب والفتح ثم فى البناء والتنظيم ، وكان منهم الخير كل الخير لأنفسهم ولغيرهم .

فلما صبت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيديهم ، وتقادم ما كان جديداً من روعة الدين

وعهد الرسول وصاحبيه ، وكان أمر الشورى المعلوم ، وكثرت فى هذه الإمبراطورية الواسعة المناصب والولايات . . . بدأت نوازع الطموح تتحرك فى نفوس هؤلاء الأبرار فيكبتونها رهبة من الله . لكن عناصر الشر والغش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المغلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهى الخبيرة بمداخل الشر ومخارجه ، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين فى الذروة والغارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون ، ودب دبيب الخلاف بينهم ، واشتغل بعض ببعض ، ووقفت الفتوح أيام علىّ حتى خيف على المسلمين من فلول الروم .

أرأيت ما يفعل الخلاف فى الدولة القوية المتماسكة المتينة الآساس ؟ إنه يُطمع فيها حتى الضعيف المغلوب المشرف على الدمار ، دع ما أريق فى سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم أرفدت بدماء عشرات الألوف . وهذا يوم الجمل وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير فى بضع ساعات ، فلا تسل عما بعده من يوم النهروان ويوم صفين وغيرهما من تلك الأيام التى أعملنا فيها سلاحنا فى أنفسنا فأوقعنا الوهى فى دولتنا والتفرقة فى صفوفنا والعداوة فى قلوبنا . . وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف .

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين اجتمعت على الخير فسارت إلى عدوها فى الشرق والغرب لأكلت الدنيا بقوتها ولأحالت العالم جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان . لكن الله الذى أيّد هذه الأمة أول أمرها قضى أن يكون بأسها بينها ، فامتلأ تاريخنا بالحروب الداخلية وتحوّل عن مجراه السعيد الذى جرى فيه أولاً لخير الإنسانية عامة ؛ قضاء من قضاء الله لا حيلة فيه .

ولست أدرى : ما يكون حال دنيانا الآن ، لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن ولم تنزل بأسها بينها ؟ ... ولو ذهب باحث يحصى هذه الدماء المهراقة فى سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم ، فى المشرق والمغرب والأندلس ... لأفزعته هذه الملايين منها ، ملايين لو بذلت فى سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف ، ولكُنا أهل الحضارة حتى الآن وإلى الأبد لا يُلم بشمسنا أفول .

وقد خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته آثار الخلاف ، فسأل ربه فيما سأل أن يجنبها أضراره ، إذ علم أن هـذه القوى الهائلة المتراصة التى يعمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلا ... كفيلة بفتح الأرض كلها ، لاتقف لها قوة إلا أن تنشق على نفسها ، فرووا عنه أنه قال :

« سألت ربى ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة :

سألت ربى ألا يهلك أمتى بالسنة (بالقحط) فأعطانيها ،

وسألت ربى ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ،

وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[1] » .

ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

* * *

انقضت الخلافة والخلاف بخيرهما وشرهما ، ولم يبق منهما إلا هـذا التاريخ بين أيدينا مملوءاً بالعبر ، فلنتعظ به ، ولنتجنب أى تفرقة بيننا بكل ما نستطيع ، ولتكن تلك الدماء الذاهبة ضياعاً : حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة ، فلا نعيدن فاجعتها جذعة ، ولنهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجرب ، فإنهما يبدآن صغيرين تافهين لا يؤبه لهما ثم يعظمان حتى يلتهما الأخضر واليابس .

وإن أعجب لشىء فلأولئك الذين ما زالوا يجتمعون ويتفرقون متجادلين فى هؤلاء الصحابة الأخيار : أيهم المؤمن وأيهم الكافر ؟ أيهم يحمد وأيهم يذم ! ويتقربون إلى الله بلعن رجال : ما منهم أحد إلا وله السوابق الحسان فى نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله والدفاع عن رسول الله ، وما فيهم إلا من كان فى جهاده وتفانيه فى النصرة قرة عين الأمة والدين والرسول ، وليس فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام ، فخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على ترامى أطرافها ، إنها وحدة جامعة عجزت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة عشر قرناً عن أن تنال منها ما يقضى عليها ويمحوها ؛ فما زال العراق إذا هبط أقصى المغرب فى مراكش ، لا يحس بغربة عن أهل ولا وطن ، أستغفر الله ،

---

(١) صحيح مسلم ٨/١٧١ (الأستانة سنة ١٣٣٣ هـ) وانظر مسند أحمد ١/١٧٥ .

بل ما زال الصينى من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب . . . لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة فلن يفرق أحد ماجمع الله بمحمد وصحبه .

لست بسبيل تعداد المآثر المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعائشة ... ، فأصغر أعمالهم عند الله يمحو كل ما يذكر خصومهم من أخطاء ، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذى أرضوه بأعمالهم ورضى عنهم ، وسجل رضاه هذا فى قرآنه الكريم يُتلىٰ ما بقى على الأرض إنسان .

فلنمحضهم جميعاً محبة واحدة ، ولنستغفر لهم ولأنفسنا ، ولنذكرهم بكل خير جزاء ما خلّفوا لنا من وحدة قوية ، ودولة مثالية بنوها بجهادهم فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، جهاداً أرخصوا فيه مهجهم وضحوا بأعز ما يملكون ؛ ولنطرح عن عواتقنا مخلّفات عصور الانحطاط والشعوبيات ، ولنقتدِ بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعضهم لذكر بعض ، فقد عاينت حسن رأى كل فريق بإخوانه ، وعلمت أن الله نزع ما فى صدورهم من غلّ ، وأنهم عادوا إخواناً متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا .

وإن الله عز وجل لم يتعبّد أحداً بشتم أحد من الصحابة ولا لعنه ، بل عظّم من شأنهم وغفر لهم ما أخطؤوا قبل أن يخطئوا ، ولولاهم لكان العرب اليوم فى وثنية أو مجوسية ؛ فما هذا جزاء من أُنقذنا به من الضلال والفُرقة ومن خلّف لنا ملكاً سعيداً وماضياً مجيداً وتاريخاً حافلاً بكل مايرفع الرأس ويخلد أحسن الثناء والذكر .

* * *

فرّقت السياسات قديماً أمر المسلمين وشتتت شملهم ، ثم عزّزها أهل الكيد والدس بغشهم حتى جعلوها تتغلغل فى الأديان والعقائد ، وصار الدين الواحد أديانا والأمة الواحدة أمماً . وما الأمر كله بالذى يستوجب بعض ذلك ، فلنأخذه بالتوسعة والتسامح ، ولكل رأيه فى السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيقن أحد ذرعا بفهم أخيه ، ولا نجعلن خلاف الرأى فى السياسات والحزبيات ماضيها وحاضرها مفرقاً وحدتنا وصادعا شملنا ومخمداً نارنا ، ولا نجعلن هذه الأحقاد والعداوات تتوارث إلى يوم الدين .

إن الأمم من حولنا اليوم كالجياع على القصاع كما أخبر بذلك الرسول الأعظم [١] صلى الله عليه وسلم ، فلن يجدينا فى موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة ، بخُويصَة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل ، وفى مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق ... فلنقابلها صفاً واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله ، ولننبذ عصور الظلام بآثارها جميعاً . إن ربنا واحد ورسولنا واحد ، وكتابنا واحد ، فلنعد أمة واحدة كما أراد الله لنا ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وتفرقة . إنا محاطون بالأعداء داخلا وخارجاً ، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا فلا نعينهم على أنفسنا ، ولا نضعن فى أيديهم السلاح الذى يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائغة .

* * *

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلا ، ولا جعل بأسنا بيننا ، وليت هذه السابقة التى هوّنت على المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً لم تكن قط :

فليت الظعينة فى بيتها وليتك (عسكرُ) لم ترتحلْ

ثم ليتنا بعد ذلك كله نعتبر بما فى الخلاف من ضرر بالغ فى كبير أمرنا وصغيره ، فنجنب أنفسنا وبلادنا وذرارينا شروره .

---

(١) فى الحديث المشهور : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القوم إلى قصعتهم . . . » انظره فى مسند أبى داوود ٤/١٣٣ رقم ٩٩٢ فهو من جوامع الكلم وآيات البلاغة النبوية .

فهارس الكتاب

١ — فهرس الأعلام
٢ — « الجماعات
٣ — « الأماكن
٤ — « الأيام
٥ — « المصادر
٦ — « الموضوعات

تنبيهات :

١ — قد يتكرر اسم العلم أكثر من مرة فى الصفحة الواحدة ، فإذا كان يعنى القارئ البحث عن علم فليقرأ الصفحة إلى آخر حواشيها .

٢ — قد يرد ذكر العلم غير صريح : مضمراً أو مشاراً إلى صفة مشهورة له ، فجرينا على إثبات رقم الصفحة المشار إليه فيها

٣ — أسقط أثناء المراجعة (ال) التعريف ، وفى فهرس الجماعات قد تحذف كلمة (بنى) فى بعض الأحيان وكلمة (قبيلة) دائماً ، فتنبه لذلك .

٤ — ألحقنا أعلاماً قليلة مشهورة من غير البشر فى فهرس الأعلام تيسيراً .

٥ — إذا ورد اسم العلم فى صفحات متتالية اكتفينا بذكر الأولى والأخيرة مع خط صغير بين رقميهما .

١ — فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم بن النبي ٢٧٩
إبليس ١٥٧
ابن أبي الحديد ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٦ — ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٩٣ — ١٩٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢
ابن أبي سرح = عبد الله بن أبي سرح
ابن أبي سعد ٨٢
ابن أبي طاهر = أحمد بن أبي طاهر
ابن أبي عتيق ٢٤٧
ابن الأثير (صاحب التاريخ) ٥ ، ٩٣ ، ١٢١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢٧٩
ابن أم كلاب = عبيد بن أبي سلمة
ابن بديل ٥٨
ابن تيمية ٢٦ ، ٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ — ٢٨٤
ابن الجوزى ١٢٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
ابن حزم ٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣
ابن الحضرمى ١٩٨
ابن الحنظلية = القعقاع بن عمرو
ابن خلدون ٥ ، ٥٧ ، ٨١
ابن الزبير = عبد الله بن الزبير
ابن سعد (وانظر : طبقات ابن سعد) ٢١٠ ، ٢٤٧ — ٢٤٩
ابن سلام ٦٥
ابن السوداء = عبد الله بن سبأ
ابن سيرين = محمد بن سيرين
ابن الشحنة ٢١٨
ابن شهاب = الزهرى
ابن عباس = عبد الله بن عباس
ابن عبد البر ٨٨
ابن عبد ربه ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١
ابن عساكر ١٧ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٨٣ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، ٢٥٥
ابن عياش ٢٥٧
ابن قتيبة ٥ ، ٨١ ، ٢٣٢
ابن قرظة ١٨٧
ابن المحرش ١١٩
ابن مسعود = عبد الله بن مسعود
أبو الأسود بن البخترى ١٩٦
أبو الأسود الدؤلى ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦
أبو أيوب الأنصارى ١١٥
أبو بردة ١٦
أبو بكر الصديق ١٥ — ١٨ ، ٢٠ — ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢١٤ — ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ — ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣
أبو بكر الهذلى ٢٥٤ ، ٢٥٧
أبو بكرة ٩٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨
أبو بكرة (أخو زياد) ٢٣٢
أبو الجرباء ١١١ ، ١٤٦ ، ١٤٩
أبو جعفر الطبرى = الطبرى
أبو حيان التوحيدى ١٨ ، ٦٩
أبو داوود الطيالسى ١٢
أبو الدرداء ٥٠
أبو ذر ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٥٠
أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب ٢٥٢
أبو سفيان بن حرب ٢٢٧ ، ٢٣٢
أبو سلامة الدالانى ١٤٧
أبو سمعان (ورد فى شعر) ١٤٥
أبو طلحة الأنصارى ٢٠٢

أبو العباس السفاح ٢٥٤ ، ٢٥٧
أبو عبيدة بن الجراح ٧٦
أبو عمران موسى الأندلسى ٢٦٢
أبو الفرج الأصفهانى ٢٨ ، ٢٧٩
أبو القاسم = محمد رسول الله
أبو قتادة ٩٣
أبو قحافة ٣٠
أبو ليلى بن عمر بن الجراح ٧٦ ، ١٢٩
أبو موسى الأشعرى ١٣٠ — ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٩٧ ، ٢٦٠
أبو هالة ١٩١
أبو الهذيل العلاف ٢٦٧
أبو هريرة ١٥ ، ١٩٨ ، ٢١٨
الأبيرد الرياحى ١٨٧
أحمد = أحمد بن حنبل
أحمد بن أبى طاهر ٦٩ ، ٨٢ ، ٢١٥ ، ٢٤٢
أحمد بن حنبل (وانظر : مسند أحمد) ١٢ ، ٢٢ — ٢٤ ، ٦٥ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ — ٢٤٧
أحمد بن رسلان ٢٦١
أحمد عبيد ٢٦٢
الأحنف بن قيس ١٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٢ — ١٢٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ — ١٥٧
أسامة بن زيد ٣٥ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ١١٥
إسحق بن خلف البهرانى ١٧٠
الإسفراييني ٢٦٥
الإسكافى (المعتزلى) ٢٦٧
أسماء بنت أبى بكر ١٧١
أسماء بنت عميس ٢٢١ ، ٢٢٢
الأسود بن أبى البخترى ١٧١
الأسود بن سريع السعدى ١٠٧
الأشتر ٥٤ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ — ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٩
الأشرف بن حكيم بن جبلة ١٢١
أعشى همدان ٢٥٥ ، ٢٥٦
الأعمش ٥٤
الأعور المنقرى ١٤٧
أعين بن تميم ٥٨
أعين بن ضبيعة المجاشعى ١٧٩
الأفضل أمير الجيوش ٢٦٢
الأقرع (فى شعر جرير) ٢٥٥
ألكسيس كاريل ١١
أم أفعى العبدية ٢٤٦
أم حبيبة بنت أبى سفيان ٤٥ ، ٥٩ ، ٢٣٢
أم سلمة ٣٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٩ — ٨٢ ، ٩٣
أم الفضل بنت الحارث ٩٢
أم كثير ١٣
أم كعب بن سور ٢٤٥
أندره موروا ١٠

(ب)

الباقر ٢٧٤
البتول = فاطمة بنت محمد
بجير بن دجلة الضبى ١٧٧
البحترى ١٩٦
البخارى ٢٤ ، ٦٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٦١
بريرة ١٩٨
البلاذرى ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٢٣٢

(ت)

الترمذى ١٣٦ ، ٢٦٠
تمام بن العباس ٩٣ ، ١١٥

(ث)

(ج)

الجاحظ ١٠٥ ، ٢٤٧
جارية بن قدامة السعدى ١٠٩ ، ١٩٨
جبريل ٢٢ ، ٢٦٣
جرير (الشاعر) ٢٥٤ ، ٢٨٧
جرير بن شرس ١٤٥
الجمل (جمل عائشة) ٥ ، ٨٠ ، ٨٤ — ٨٨ ،

١٠٩ ، ١٦٤ — ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥
— ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٥٥
٢٧٩
الجواليقى ١٧١
جون بن قتادة ١٨٣

(ح)

الحارث الأعور ١٨٧
الحارث بن حوط ١٨٨
الحارث بن زهير الأزدى ١٧٥
الحارث بن سويد ١٧٦
الحارث الضبى ١٦٧ ، ١٧٧
الحاكم ١٦
الحتات بن يزيد المجاشعى ٢٥٤ ، ٢٥٥
الحجاج بن علاط ١٨٦
الحجاج بن غزية الأنصارى ١٢٩
الحجاج بن يوسف الثقفى ٤٢
حجر بن عدي ١٣٧ ، ٢٢٢ — ٢٢٨ ، ٢٣٦
٢٣٨ ، ٢٤٠
الحرشة الضبى ١٢٣
حرقوص بن زهير ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،
١٤٢ ، ١٤٨
الحسن البصرى ٢٢٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦١
الحسن بن زيد العلوى ٢٥٧
الحسن بن على بن أبى طالب ٤٠ ، ٤١ ، ٦١ ،
٧٥ ، ٩٥ — ٩٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦
— ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٧٦ ، ٢١٨ ،
٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ،
٢٦٨
الحسين بن على ٤٠ ، ٤١ ، ٦١ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ،
١٧٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
٢٣٩ — ٢٤٢ ، ٢٦٨
الحصرى (صاحب زهر الآداب) ٥٩
حفصة أم المؤمنين ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٦ ، ٢٧٦ ،
٢٧٧
الحكم بن أبى العاص ٣٥
حكيم بن أفلح ٢٤٥ ، ٢٤٦
حكيم بن جبلة ٥٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ،
١١٨ — ١٢١ ، ١٣٠
حكيم بن سلامة ١٤٨
حمزة (بن عبد المطلب) ٢٥٨

(خ)

خالد بن ملجم ١٥٥
خديجة أم المؤمنين ٢٠
الخضرى (الشيخ محمد) ٢٣٢
الخنساء ١٣
خولة بنت الأزور ١٣

(د)

الدينورى ٢١٠

(ذ)

ذريح ١١٩ ، ١٢١
ذكوان (مولى عائشة) ٢٣٧ ، ٢٣٨
الذهبى ١٦ ، ٢٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٧٩ ، ٢٣٨

(ر)

ربيعة العقلى ١٦٧
الرسول ، رسول الله = محمد رسول الله
الرعل ١٢١
رفاعة بن رافع ١٢٨
رفيدة ١٣

(ز)

الزبير (بن العوام) ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ،
٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ — ٥٧ ، ٧٠ —
٧٤ ، ٧٦ — ٧٨ ، ٨١ — ٨٥ ، ٩٠ ،
٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٤
١٠٧ — ١١٣ ، ١١٥ — ١٢٦ ، ١٢٩

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ —
١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،
١٧٦ ، ١٨١ — ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ — ٢١٠ ، ٢٥٠
— ٢٥٧ ، ٢٦٥ — ٢٧١ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٩٣
الزركشى ١٦ ، ٢٠ ، ١٩٨
زفر بن الحارث ١٧٧ ، ١٧٨
الزمخشرى ٨١ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١١١ ، ١٢٣ ،
١٨٥
الزهرى ١٦ ، ٣٧ ، ٢٣١
زياد بن أبى سفيان ١٧ ، ٢٢٥ — ٢٢٧ ،
٢٣١ — ٢٣٣
زياد بن حنظلة ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٣
زيادة بن زيد ٢٢٨ ، ٢٢٩
زيد بن أرقم ٢٧٣ ، ٢٧٤
زيد بن ثابت ٤٦
زيد بن الخطاب ١٨٤
زيد بن صوحان ١٠٢ ، ١٣٤ - ١٣٦ ،
١٦٣ ، ٢٤٤
زيد بن على (إمام الزيدية) ٢٨١
الزير ٢٥٨
الزيلعى ١٤
زينب بنت أبى سلمة ٦٦
زينب بنت جحش (أم المؤمنين) ٣٥

(س)

السائب بن مالك الأشعرى ١٣٢
الساسى (طابع الأغانى) ٢٨
سالم بن ثعلبة ١٥٥ ، ١٥٦
سراقة (فى بيت شعر) ١٤٥
سرجس (غلام الزبير) ١٨٢
سعد = سعد بن أبى وقاص
سعد بن أبى وقاص ١٣ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١٩٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧
سعد بن معاذ ١٣
سعد بن هشام ٢٤٦
سعيد بن زيد ٢٥ ، ١٨٤
سعيد بن العاص ٢٣ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٥
١٨٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٨
سعيد بن عبد الله ٢٧٤
سعيد بن عبيد الطائى ١٢٧ ، ١٢٨
سعيد بن المسيب ٣٧
سلمى بنت مالك الفزارية ٨٩
سليمان بن عبد الله البحرانى ٢٧٤ ، ٢٧٥
سنان بن سلمة الهذلى ٢٣١
سهل بن حنيف ٧٤ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٢١
سودان بن حمران ٤١
سيحان بن صوحان ١٣٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦
السيوطى ٢١٨ ، ٢٣٥

(ش)

شأس العبدى ٥٩
شبث بن زبعى ١٣٥
الشرقى بن القطامى ٢٤٧
شريح بن أوفى ١٥٥ ، ١٥٦
الشعبى ١٧ ، ٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٨٢
شمشون ١٧٢
الشيطان ٢١٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤
شيبان الأزدى ٢٥٣

(ص)

الصاوى ١٠
صبرة بن شيمان ١٠٢ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠
١٦٥ ، ٢٥٤
الصديق = أبو بكر الصديق
صعصعة بن صوحان ١٦٣ ، ١٦٦
الصفورى ٢٦٢
صفية (بنت عبد المطلب) ١٣
صفية بنت الحارث ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٢

صهيب بن سنان ١١٥
صوحان ١٦٦

(ض)

الضحاك بن قيس الفهرى ٢٤١
ضرار بن الأزور ١٣

(ط)

طارق بن شهاب ٩٤
الطبرسى ٢٧٤ ، ٢٨٠
الطبرى ٥ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ — ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ — ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ — ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ — ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ — ١١٨ ، ١٢٤ — ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ — ١٦٢ ، ١٦٤ — ١٧١ ، ١٧٥ — ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ — ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ — ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ — ٢٤٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
طلحة (بن عبيد الله) ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ — ٥٧ ، ٦٨ ، ٧٠ — ٧٨ ، ٨١ — ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٤ ، ١٠٧ — ١١٣ ، ١١٥ — ١٢٦ ، ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ — ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٤ — ١٨٨ ، ٢٠٢ — ٢٠٤ ، ٢٠٦ — ٢١٠ ، ٢٥٠ — ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ٢٧٦ ، ٢٩٣
طلحة الطلحات ١٨٠ ، ١٩٠
طليحة الأسدى ٨٩

(ظ)

ظفر (الجهنى) ٩٢

(ع)

عائشة بنت زيد ١٨٣ ، ١٨٤
عامر بن مطر ١٣٠
عبادة بن الصامت ٥٠
العباس بن عبد المطلب ٦٤ ، ٦٥ ، ١٩٩
عبيد ابن أم كلاب = عبيد بن أبى سلمة
عبد خير ١٣٨
عبد الرحمن بن أبى بكر ١١٨ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٣٧ ، ٢٣٩ — ٢٤١ ، ٢٤٧
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧
عبد الرحمن بن زيد ٢٢٨ ، ٢٢٩
عبد الرحمن بن سليمان التيمى ١٨٢
عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ٤٥ ، ٨٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧
عبد الرحمن بن عساكر ٩٠
عبد الرحمن بن عوف ٢٤ ، ٢٥ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
عبد الله بن أبى بكر ١٨٤
عبد الله بن أبى سرح ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨
عبد الله بن أرقم ٢٠١
عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ١٩٥
عبد الله بن حكيم بن حزام ١٦٤
عبد الله بن خلف الخزاعى ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢
عبد الله بن الزبير ١٦ ، ١٩ ، ٤٠ — ٤٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧١ — ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ — ٣٤٢ ، ٢٥٠ — ٢٥٣ ، ٢٥٦

عبد الله بن سبأ ٤٧ — ٥٣ ، ٥٧ ، ١٥٥ — ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢
عبد الله بن سلام ٩٤
عبد الله بن عامر ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٧٧ — ٧٩ ، ١٠٠
عبد الله بن عباس ١٤ — ١٦ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ، ١٩٣ — ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣
عبد الله بن عمر ١٥ ، ٨٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٣٩ — ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧
عبد الله بن عمرو بن العاص ٢٢٨
عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعرى
عبد الله بن مسعود ٢٩ ، ٣٨ ، ٣٩
عبد الملك بن مروان ١٨٤
عبد المنعم بن موهب المصرى ٢٦٢
عبد الوهاب النجار ٧٤ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
عبيد بن أبى سلمة ٥٣ ، ٦٨ ، ٢٧٩
عبيد بن كعب ١٢٦
عبيد الله بن زياد ١٥٢ ، ١٦٠
عبيد الله بن عباس ٧٤
عتاب بن أسيد ٢٥٨
العتابى ٨٢
عتبة بن ربيعة ١٥٩
عثمان بن حنيف ٧٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥ — ١١٤ ، ١١٦ — ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠
عثمان بن خلف ١٩٢
عثمان بن عفان ٧ ، ١٧ ، ٢٠ — ٤٦ ، ٤٨ — ٥٠ ، ٥٣ — ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ — ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ — ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٥ — ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ — ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٧ — ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ — ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ — ١٤٦ ، ١٥٠ — ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ — ١٧٥ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ — ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ — ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣
عثمان بن مرة ٢٣٢
عدى بن حاتم ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٠
العرنى (صاحب جمل عائشة) ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٧
عروة بن الزبير ١٦ ، ١٧ ، ٢٣٨
عسكر (وانظر : جمل عائشة) ٨٥ — ٨٧ ، ١٥٩ ، ١٧٣ ، ٢٩٤
العلاء بن يسار ٦٥
عكرمة ٢٧٣
علباء ابن الهيثم ١٥٥ ، ١٦٦
علقمة بن وقاص ١٥١ ، ١٥٢
على بن أبى طالب ٧ ، ١٧ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٤ — ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٢ — ٥٧ ، ٥٩ — ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ — ٩٩ ، ١٠٢ — ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ — ١٣٨ ، ١٤٠ — ١٥٠ ، ١٥٢ — ١٥٦ ، ١٥٨ — ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ — ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ — ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ — ٢٧١ ، ٢٧٣ — ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣
عمار بن ياسر ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٥ ، ١٠٦ ، ١٣٣ — ١٣٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨
عمارة بن شهاب ٧٤
عمر (ابن أم سلمة) ٧٩ ، ١٢٩

عمر بن الخطاب ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ — ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ١٩٩ — ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ — ٢١٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣
عمر بن عبد العزيز ٢٦١
عمران بن حصين ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٥٠
عمران بن طلحة ١٨٧
عمرو بن جرموز ١٨٢ ، ١٨٣
عمرو بن دلجة الضبي ١٧٧
عمرو بن ضرار الضبي ١٦٧
عمرو بن العاص ٣٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ — ٢٢٢
عمرو بن عبيد ٢٦٧ ، ٢٦٨
عمرو بن عثمان بن عفان ٢٢٩
عمرو بن يثربي ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٥
عمير بن أبي الحارث ١٦٨
عمير بن الأهلب الضبي ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٤٥
عمير بن ضابيء ٤١ ، ٤٢
عمير بن عبد الله التميمي ١٠٠
عمير بن مرثد ١٢٥
عنترة ٢٥٨
عوف بن قطن ١٧٥ ، ١٧٦
عيسى (عليه السلام) ٤٨
عيسى بن جعفر ٢٧٧

(غ)

الغافقي ٤١
غالب بن صعصعة ٢٥٥
غامد بن الحارث ١٨٤

(ف)

فاطمة بنت الخشرم ٢٢٨
فاطمة بنت محمد رسول الله ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ — ٦٦ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٦٤
الفرزدق ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٨٧
الفضل بن العباس ٦٦

(ق)

القائم المنتظر ٢٧٤
القاسم بن محمد بن أبي بكر ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٤٨
القالي ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩
قتيرة الكوفي ٤١
قثم بن العباس ٧٦ ، ٩٣
قرظة بن كعب الأنصاري ١٣٣
القعقاع بن عمرو ١٣٦ ، ١٤١ — ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣
قنبر (مولى علي) ٤٠
قيس بن سعد ٢١٩
قيس بن العقدية ١٠٧
قيصر ٢٣٤

(ك)

كسرى ٢٠٣
الكلبي ١٨٤
كعب بن حدير المنقري ١٧١
كعب بن سور ١٠١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥
كلثوم بن تجيب ٤١
كلثوم بن عمرو = العتابي
كليب الجرمي ١٤٣ ، ١٤٤
كميل بن زياد ٤٢
كنانة بن بشر ٢٢٠ ، ٢٢١
الكونتس أوف أكسفورد ١٠
الكونتس دي بورت ١٠

(ل)

لبيد ١٧
لبّن = غالب بن صعصعة

(م)

مارية القبطية ٢٧٢ ، ٢٧٩
مالك (الإمام) ٢٦١
مالك بن الحارث = الأشتر
المبرد (صاحب الكامل) ٥٧ ، ٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٣٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦
مجاشع بن مسعود ١١٧
محمد رسول الله ١ ، ٦ ، ١٢ — ٣١ ، ٣٤ — ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٦١ — ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ ، ٨٩ — ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ — ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ — ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ — ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ — ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ — ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ — ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ — ٢٧٤ ، ٢٧٦ — ٢٩٤
محمد بن أبي بكر ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٧٨ — ١٨٠ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠
محمد بن أبي حذيفة ٢٦
محمد بن جعفر ١٣١
محمد بن حزم الأنصاري ٤٠
محمد ابن الحنفية ٧٦ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٦٠ — ١٦٤
محمد بن سيرين ٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
محمد بن طلحة ٤٠ ، ٤١ ، ٨٥ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٥٠
محمد بن طلحة الشافعي ٩٩
محمد بن مسلمة ١٠٩
محمد محسن الأمين العاملي ٢٧٥ ، ٢٧٨ — ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
المختار (بن عبيد الثقفي) ٢٥٧
مخزومي ؟ ٣٢
مذمم = محمد بن أبي بكر
مرة بن أبي عثمان ٢٣٢
المرتضى ٢٧١ ، ٢٨٠
مرثد بن قيس ١٢٥
مروان بن الحكم ٣٥ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٨٢ — ٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٤ — ٣٣٦ ، ٢٤٧
مسروق ٥٤ ، ١٣٣ ، ٢٤٨
المسعودي ٨٧ ، ٨٨ ، ١٣٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٥ ، ٢٨٠
مسلم (أحد جنود علي) ١٦٠
مسلم (صاحب الصحيح) ٢٤
مسلم بن عبد الله العجلي ١٦٣
مسلم بن عقبة المري ٢٤٢ ، ٢٥٣
المسور بن زيادة ٢٢٩
معاذ بن عبيد الله ٨٥
معاوية (بن أبي سفيان) ١٧ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ٢١٨ — ٢٤٢ ، ٢٥١ — ٢٥٣ ، ٢٧١
معاوية بن خديج الكوفي ٥٨ ، ٢١٩ — ٢٢٢
المغيرة ابن شبعة ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٢٢٢ — ٢٢٥

المقتدر بالله ٢٧٧
المقطع العامرى ١٣٧
مكحول (غلام الزبير) ١٨٢
المنجاب بن راشد ١٤٩
المنذر بن الجارود ١٠١
منية (أم يعلى بن أمية) ٧٤
موسى (عليه السلام) ٢٧٥
موسى بن طلحة ١٢٢
الميدانى ١٧١

(ن)

نائلة بنت الفرافصة ٤٠ ، ٤١ ، ٧٥
النبى = محمد رسول الله
نجدة بن عامر الحروري ١٤
نسيبة (الأنصارية) ١٣
النشاشيبى ٢٦٩ ، ٢٧٤
نعثل ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ٢٧٢
النعمان بن بشير ٢٣

(هـ)

هاشم بن عتبة ١٣٢ ، ١٦٣
هدبة بن الخشرم ٢٢٨ ، ٢٢٩
هرقل ٢٣٤
هشام بن عامر ١٠٦
هشام بن عبد الملك ٢٨١
هلال بن وكيع ١٤٩
همام بن الحارث النخعى ١٣
الهمذانى (صاحب كتاب البلدان) ٢٥٤ ، ٢٥٧
هند ابنة زيد بن مخرمة ٢٢٦
هند بن عمرو ١٣٧
هند بن عمرو المرادى ١٦٦

(و)

واصل بن عطاء ٢٦٧ ، ٢٦٨
الواقدى ١٨١
الوليد بن عقبة ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٥

(ى)

ياقوت الحموى ٨٩ ، ١٠٧ ، ٢٣٢
يحيى حميد الدين (إمام اليمن) ٢٠
يزيد بن عبدالله بن مرثد ١٢٥
يزيد بن قيس ١٦٤
يزيد بن معاوية ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٢٣٧ — ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣
اليعقوبى ٨١ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨
يعلى بن أمية ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٥١

٢ — فهرس الجماعات

(أ)

آل أبي قحافة ٣٠
آل الحكم ٣٦
آل لأى ١٨٤
آل محمد (وانظر أهل البيت) ٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
الأئمة ١٣٧
أبناء السوداوات ١٥٧
الأزد ١٢٥ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٥٣
أزواج الرسول = أمهات المؤمنين
أسد * ١٢٧ ، ١٨٤ ، ١٩٤
أسرة عائشة ٢٤٧
الأصحاب ، أصحاب رسول الله = الصحابة
أصحاب الجمل ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ — ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ — ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٠
أصحاب السير ١٥٧
أصحاب الشورى = أهل الشورى
أصحاب النخيلة (من الخوارج) ٢٦٦
الأعراب ٣٤ ، ٧٣ ، ٧٧
الإمامية ٢٧٥ ، ٢٨٠
أمهات المؤمنين ١٦ ، ١٨ — ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٢ ، ١٦٩ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ — ٢٦٥ ، ٢٧١ — ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٧٧٩
الأمويون = بنو أمية
الأنبياء ١ ، ١٩ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ١٤٠
الأنصار ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٥٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٨٥
أهل البصرة = البصريون
أهل البيت (وانظر : آل محمد) ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨١
أهل الحجاز (وانظر : الحجاز) ٢٤٢
أهل الذمة ٥٠
أهل السنة ٢٥٩ — ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ — ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ — ٢٨٤
أهل الشام ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣
أهل الضراع = المشركون
أهل الشورى : ٧٠ ، ٨٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٥٤ ، ٢٠٢
أهل العراق (وانظر : العراق) ١١٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
أهل الكتاب ٥١
أهل الكوفة = الكوفيون
أهل المدينة ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
أهل مصر ٣٨ ، ٧١
أهل مكة ٩٢ ، ١٨٧ ، ٢٠١
أوس ١٦٥

(*) انظر التنبيه الثالث في ص ٢٩٦ .

(ب)

باهلة ١٠٤
بجيلة ١٣
البصريون ٣٣ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٤٠ — ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ — ٢٥٧
بكر بن وائل ٩٧ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٥ ، ١٨٦
البكرية (من أهل السنة) ٢٦٩
بنو أبي العاص ٣٦
بنو أمية ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ — ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ — ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
بنو تيم ٣٩ ، ٩٨ ، ١٦٩ ، ٢٤٥
بنو جمح ١٨٦
بنو الحارث بن كعب ١٦٥
بنو حرب ٣٦ ، ٢٢٦
بنو رقاش ٢٢٨
بنو زهرة ٣٨
بنو سعد ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٤ ، ٢٥٧
بنو سهم ١٨٤
بنو شيبان ١٣٠
بنو العاص ٣٦
بنو عامر ١٦٥ ، ١٧٧ ، ٢٢٨
بنو العباس ٢٥٧ ، ٢٧٠
بنو عبد الدار ١٩٠
بنو عبد المطلب ١٥٣ ، ١٨١
بنو عبد مناف ٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٥١
بنو عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم ١١١
بنو علي (بن أبي طالب) ٢٥٧
بنو العيص ٣٦
بنو غفار ٣٨
بنو غنم ١٥٣
بنو كعب ١٤٥
بنو ليث ٦٨
بنو مخزوم ٣٨
بنو ناجية ١٦٥
بنو هاشم ٤٠ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٥٧ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٥٠ — ٢٥٢ ، ٢٧٠

(ت)

التابعون ١ ، ٢٤٨
تميم ١٧ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٨٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦

(ث)

ثقيف ٨٤

(ج)

جمرات العرب ١٦٥
الجلدون = أصحاب الجمل
الجند (بإفريقية) ٣٦
جهينة ٩٢ ، ١١٠

(ح)

الحروريون (وانظر : الخوارج ٢٥٣
الحنفية ٢٦١

(خ)

خزاعة ١٤٥
الخلفاء الراشدون ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٥٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤
الخوارج ١٨٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ — ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢

(د)

دهاة العرب ٨٤ ، ٢٢٢

دول الاستعمار ٩٦
دولة العثمانيين ٢٧٠

(ر)

الرافضة ٤٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢
الرباب ١٢٥ ، ١٤٩ ، ٢٥٧
ربيعة ١١٨ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣
الرواة ١٩ ، ٨٥ ، ١٥٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣
الروم ٤٨ ، ٥٠ ، ٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٩١
الرومان ٢٣٣

(ز)

الزط ١١٦ ، ١٢٥
زيد (قبيلة) ١٤٩
الزيدية ٢٨١

(س)

السبئيون ٣٢ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ — ٢٠٨
السيابجة ١١٦ ، ١٢٥

(ش)

الشافعية ٢٦١
شبيب ١٦٥
الشيعة ٢٦٨ — ٢٧٢ ، ٢٧٤ — ٢٨٤

(ص)

الصبيان ١٣ ، ١٤
الصحابة ١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ — ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ — ٤١ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ — ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ — ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ — ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
الصهيونيون ٢٩٠

(ض)

ضبة ١٤٩ ، ١٦٢ ، ١٦٥ — ١٦٨ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٥

(ط)

طيّ ١٢٧ ، ١٣٧

(ع)

عبد القيس ١١٧ — ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٤١ ، ١٦٣ ، ١٩٥
عبس ٧٤
عبيد (إخوان) ٣٤ ، ٢٦٢
العجم = الفرس
عدى ١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ٢٢٦
العرب ١٢ — ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣
عرينة ٨٦
العشرة المبشرون بالجنة ٢٧ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٨٤
علماء النفس ٢٨٧
عمرو (قبيلة) ١٤٩
العمْرية (من المعتزلة) ٢٦٨

(غ)

غسان ١٦٥

(ف)

الفرس ١٣ ، ٩٧ ، ١٤١ ، ٢٨٢
فرنسا ١٠
الفقهاء ١٤ ، ١٦٦ ، ٢٨٥

(ق)

قتلة عثمان ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠
القراء (من الصحابة) ٢٩ ، ٣٥ ، ٢٨٥
القرامطة ٤٩
قريش ١٥ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٨٥ — ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ — ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦
قريظة ١٠٩
القصارون ١٧٠
قيس (قبيلة) ٧٥ ، ١٢٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦

(ك)

كفار قريش ١٥٧
كنانة ١٨٤
الكوفيون ٣٣ ، ٧١ ، ٩٤ ، ١٣٠ — ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ — ٢٥٧

(م)

المؤرخون ٣ ، ٦ ، ٤٦ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ — ٢٠٤
مجاشع ٢٥٥
المجوس ٢٨٢
المحدثون ٦ ، ٨٨ — ٩٠ ، ٢٨٤
المدنيون = أهل المدينة
مذحج ١٧٤
مراد ٦٦
المرتدون ١٢٧
المرجئة ٢٦٦ ، ٢٧٠
المرسلون ١ ، ١٤٠
المشركون ١٣ ، ٦٩ ، ١٢٣
مضر ٧٥ ، ١٠١ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٨٦
المعتزلة ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠
الملائكة ٢٣ ، ٢٦٤
الملحدون ٣٦
ملوك الطوائف ٢٧٠
المنافقون ٢٣ ، ٦٢ ، ١٣٩ ، ١٨٨
المهاجرون ١٣ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١١٧ ، ١٥٧ ، ١٧٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٣٧ ، ٢٨٥
مهرة ١٧٩

(ن)

الناصبة ٢٧٧
النخع ١٣ ، ٤٢ ، ٢٥٧
النساء ٩ — ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٨ ، ٢٤٤

(هـ)

هذيل ٣٨
همدان ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٩٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
هند ١٦٥

(و)

الواصلية (من المعتزلة) ٢٦٨
الوضاعون ٨٩

(ى)

اليهود ٤١ ، ٦٢ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ١٥٧ ، ٢٨٢

٣ — فهرس الأماكن

(أ)

الأبواء ١٢٣
أحد ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦١
أذربيجان ٢٠٠
ارمينية ٢٠٨
الأستانة ٢٧٣ ، ٢٩٢
افريقية ١٧٣
أمريكا ١١ ، ٢٨٧
الأندلس ٢٩١
إنكلترا ٥٠
أوروبا ١١ ، ٢٨٧
أوطاس ٨٤ ، ٩٠

(ب)

بحر الظلمات ٢٩٣
البحر المتوسط ٤٨
البحرين ٧٩
بدر ٢٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ١٥٩ ، ٢٥٢
برائا ٢٧٧
البصرة ١٧ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ — ٨٦ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ — ١٠٧ ، ١١١ — ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ — ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٩ — ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ — ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ — ٢٥٨ ، ٢٧٥
بغداد ٢٧٧
البقيع ٢١١ ، ٢١٨
البلد الحرام = مكة
البيت (الحرام) ٢٤ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ١٠٥ ، ٢٢١
بيت المال ٣٠ ، ٧٠

(ت)

تبوك ٧٤
تهامة ٨٣

(ج)

الجزر البريطانية ١٠
الجزيرة (العربية) ٢٠١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠
الجلحاء ١٤٩
جلولاء ١٣٥ ، ٢٠١
الجنة ٤٦ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٤٧ ، ٢٦١

(ح)

الحجاز ١٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٩١ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣
الحجر ٦٨
حجرة عائشة ١٧٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٦٣
الحرة (حرة المدينة) ٢٠٠
الحسينية (مطبعة) ٣٣
الحفير ١٠٤
حلوان (بالعراق) ٧٤
الحوءب ٨٠ ، ٨٥ — ٩٠ ، ٩٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩

(خ)

خان عاصم ٢٧٧
خراسان ٢٨٢

خربتا ٢١٩
خندق (البصرة) ١٥٩
الخورنق ٢٢٦
خيبر ٦٥ ، ٨٤ ، ٢٠٣

(د)

الدار (دار عثمان بن عفان) ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣
دار الرزق (بالبصرة) ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩
دار الكتب الظاهرية (بدمشق) ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٩٠ ، ٢٦٢
دار الندوة ١٥٧
دار الهجرة = المدينة
الدباغين (محلة بالبصرة) ١٠٩
دجلة ٤٦
دمشق ٢٠ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٧٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥

(ذ)

ذات عرق ٨٣ ، ٩٠ ، ٩٤
ذو قار ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٢٩ — ١٣٢ ، ١٤٠ — ١٤٣ ، ١٥٥

(ر)

الربذة ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٧ — ١٢٩ ، ١٣١
روسيا ٤ ، ٢٨٧
روما ٣

(ز)

الزابوقة ١١١ ، ١٤٨
الزاوية (بالبصرة) ١٤٨ ، ١٥٢

(س)

ساباط (المدائن) ٤٩ ، ٢٨٢
السدير ٢٢٦
سرف ٦٨

(ش)

شارع داونتج ١٠
الشام ٤٨ — ٥٠ ، ٧١ ، ٧٤ — ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٢٤ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢

(ص)

صفين ٨٤ ، ١٢٨ ، ١٦٩ ، ٢٣١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٩١
الصلصل ٥٥
صنعاء ٧٤ ، ٢٨٢

(ض)

الضمار ٩١

(ط)

الطائف ٣٥ ، ٨٤

(ع)

العراق ٢٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٢

(غ)

الغار (فى حديث الهجرة) ٢٦٤

(ف)

فارس (وانظر الفرس) ٥٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٨٢
فدك ٦٥
الفرات ١٣٥ ، ٢٥٧
الفردوس ٨١

القرضة (بالبصرة) ١٥٢
قسطاط (مصر) ٢٢٠
قلج ٩١ ، ١٠٤

(ق)

القادسية ١٣ ، ١٠٢ ، ٢٠٣
قبر رسول الله (وانظر حجرة عائشة) ٢٤٧ ، ٢٦٣
قديد ٦٤
قصر عبيد الله بن زياد ١٥٢ ، ١٦٠

(ك)

الكعبة = البيت الحرام
الكوفة ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ — ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ — ٢٢٧ ، ٢٥٦ — ٢٥٨ ، ٢٨١

(ل)

لندن ٣
ليدن ٣٣ ، ٥٧ ٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٦

(م)

المدينة ١٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٧ — ٧٠ ، ٧٥ — ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٢ — ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٠ — ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ — ٢١٠ ، ٢١٤ — ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٣
مراكش ٢٩٢
المربد ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٢
مرج عذراء ٢٢٨
المسجد = البيت الحرام
مسجد البصرة ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٨٧ ، ١٩١
مسجد الحدان ١٥٢
مسجد الرسول (مسجد المدينة) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٧٠ ، ١٠٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٤
مسجد الكوفة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٩ ، ٢٢٥
المشرق ٢٩١ ، ، ٢٩٣
مصر ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢
المطبعة الأزهرية (مصر) ٢٧ ، ٤١
مطبعة الاستقامة (مصر) ١٣ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٢٠٠
مطبعة الترقى (دمشق) ٢٧٥
مطبعة الحلبي (مصر) ٢٦٧
المطبعة الخيرية (مصر) ٦٥
المطبعة الرحمانية (مصر) ٥٩ ، ١٦٥ ، ١٨٤
المطبعة السلفية (مصر) ١٨١
المطبعة العاصرة (بالأستانة) ٢٧٣
مطبعة المعارف (مصر) ٢٣٢
مطبعة النيل (مصر) ٨٢
المغرب ٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
مقبرة بنى حصن (بالبصرة) ١١١
مقبرة بنى مازن (بالبصرة) ١١١
مكة ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٧ — ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ — ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٥٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ — ٢٤١ ، ٢٠٦ ، ٢٧٩

المكتبة العربية (بدمشق) ٢٦٢
المكتبة الهاشمية (بدمشق) ٢٠
المنبر (بمسجد المدينة) ٧١ ، ٢٣٤
منبر دمشق ٧٥
المنكدر ٩١
منى ٣٤

(ن)

النار ٤٦ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٦٨
نجد ٨٣ ، ٩١
النخيلة ٢٦٦
نهر الأبلة ٢٣٢
نهر مرة ٢٣٢ ، ٢٣٣
النهروان ٢٩١

(هـ)

الهند ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢

(و)

وادى السباع ١٤٩ ، ١٦١ ، ١٨٣ ، ٢٥١
واسط ٩١ ، ٩٧

(ى)

اليمامة ٩١ ، ١٢٤
اليمن ٣٤ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠١ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٦

٤ — فهرس الأيام

(ب)

بيعة الرضوان ٢٩

(ى)

يوم الجمل ٤١ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١٢٧ — ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ — ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ — ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١

يوم الجمل الأصغر ١١٢ ، ١٨٦ ، ١٩٩

يوم الحكمين ٢١٥

يوم السقيفة ١٩٩

يوم الفتح ٣٥ ، ٢٧٩

يوم القادسية ١٣ ، ١٠٢ ، ٢٠٣

يوم قريظة ١٠٩

يوم النحيب ٨٢ ، ٨٣

يوم النهروان ٢٩١

٥ – فهرس المصادر

(أ)

ابن حزم الأندلسى ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة ١٣٦ ، ٢٧٣
الإتقان ٢٣٥
الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٦٦ ، ١٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧١
الاحتجاج ٢٧٤
الأخبار الطوال ٢١٠
أخبار النساء ١٢٣
الأربعين فى مناقب أمهات المؤمنين ٩٠
أساس البلاغة ١١١
الاستيعاب ٨٨
أسد الغابة ٣٥
الإسلام الصحيح ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
الإسلام والمرأة ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ١٠٧
الإصابة ٣٥ ، ٧٤ ، ٢٢٢ ، ٢٤٧
الأغانى ٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦
الأمالى (للقالى) ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
أمالى المرتضى ٢٧١
الإمامة والسياسة ٦٨ ، ٨٢ — ٨٤ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٥٤ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
الإمتاع والمؤانسة ١٧ ، ١٨ ، ٦٩ ، ٢٥٣ ، ٢٦١
الأموال (لابن سلام) ٦٥
الانتصار ٢٦٧ ، ٢٦٨
أنساب الأشراف ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٨
الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية ٩٩ ، ١٨١

(ب)

البدء والتاريخ = تاريخ اليعقوبى[1]
بلاغات النساء ٦٩ ، ٨٢ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٤
البيان والتبيين ١٠٥ ، ٢٣٠

(ت)

تاريخ ابن عساكر = تاريخ دمشق
تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون (للنجار) ٧٤ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١٨١ ، ٢٠٨
تاريخ الأمم الإسلامية (للخضرى) ٢٣٢
تاريخ الخلفاء (للسيوطى) ٢١٨
تاريخ دمشق لابن عساكر (وانظر : تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر) ١٧ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٤٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤١
تاريخ الطبرى[1] = الطبرى (فى فهرس الأعلام)
تاريخ اليعقوبى[1] (وانظر : اليعقوبى فى فهرس الأعلام) ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٨١ ، ١٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨
التبصير فى الدين ٢٦٥ — ٢٦٨
التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ٣٤ ، ٥٨ ، ٢٢٢
تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١٧ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٨٣ ، ١٠٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٨٢ — ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٣
تيسير الوصول ١٤ ، ١٣٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

---

(١) الأصل أن تذكر الأرقام هنا لولا أن شهرة الكتاب غلبت بالاسم الثانى كما جرى فى تاريخ الطبرى وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن عساكر .. الخ

(ج)

الجامع الصحيح للبخاري (وانظر: البخارى) ١٩٨، ٢٠٢، ٢٦١
جمع الجواهر فى الملح والنوادر ٢٤٧
جمهرة رسائل العرب ٩٩، ١٠٢
جمهرة خطب العرب ٢٥٤

(د)

دلائل الخيرات ٢٧٦

(ر)

روح المعانى ٢٧٣، ٢٧٤
روضة المحبين ٢٣٠، ٢٥٦
روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر ٢١٨
رياض الصالحين ٢٠٢
الرياض النضرة ٢٥

(ز)

الزبد ٢٦١
زهر الآداب ٥٩، ١٦٥، ١٨٤

(س)

السمط الثمين ٦٢، ١٣٦
سير النبلاء ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٦٢، ٦٣، ٨٨، ٨٩، ١٧٩، ٢٣٨
السيرة الحلبية ٢٧٩

(ش)

شرح أدب الكاتب للجواليقى ١٧١
شرح ديوان جرير ٢٥٥
شرح شواهد المغنى ١٨٣
شرح الزيلعى على متن الكنز ١٤
شرح نهج البلاغة ٤٣، ٥٣، ٥٦، ٦٣، ٦٤، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٩٣، ١٠٢، ١٠٩، ١١٢، ١١٦، ١٢٦، ١٥٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٨٦، ١٩٤، ٢٥٠، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٨٠
صحيح البخارى = الجامع الصحيح
صحيح الترمذى ٢٦٠
صحيح مسلم ٢٧٣، ٢٩٢

(ط)

الطبقات (الكبير) لابن سعد ٣٥، ٦٦، ٧٤، ٢١٠ — ٢١٢، ٢١٨، ٢٤٧ — ٢٤٩

(ع)

العقد الفريد ٢٧، ٣٧، ٤١، ٤٦، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٦٦، ٧٥، ٨١، ١٠٢، ١٠٥، ١٢٣، ١٤٠، ١٥١، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٤، ١٨٦ — ١٨٨، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٤٦، ٢٥٠ — ٢٥٢، ٢٧٥، عيون الأخبار ١٥٩، ٢١٥، ٢٣١، ٢٤٦، ٢٥٨

(ف)

الفائق للزمخشرى ٨١، ٨٨، ١٢٣، ١٨٥
فتوح البلدان (للبلاذرى) ٢٣٢
فجر الإسلام ٢٥٦
الفرق بين الفرق ٢٦٥
الفصل (لابن حزم) ٢٠، ٢٦٠، ٢٦٥ — ٢٦٧، ٢٧٠
فى السجلات ١٠
فى المفاضلة بين الصحابة (وانظر : ابن حزم ...) ٢٠

(ق)

القاموس المحيط ٨٨، ١١٠، ١٤٣، ١٥٥، ١٣٤

القرآن الكريم ٥ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ١٠٨ ، ١٢٣ — ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

(ك)

الكافى للكلينى ٢٧٦
الكامل (لابن الأثير) ٥ ، ٩٣ ، ١٢١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٢
الكامل (للمبرد) ٥٧ ، ٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦
كتاب البلدان (للهمذانى) ٢٥٤ ، ٢٥٧
كتاب التنبيه ٢٢٩
كتاب الله = القرآن الكريم
الكنز ١٤

(م)

مأساة فرنسا ١٠
متن السنوسية ٢٦١
متن الشيبانية ٢٦١
مجلة الرسالة ١٠
مجلة (المختار من ريدر زدايجست) ١١
مجمع الأمثال ١٧١
مجمع البيان ٢٨٠
مجموعة المتون ٢٦١
المحاسن المجتمعة فى الخلفاء الأربعة ٢٦٢
المراح فى المزاح ٢٤٧
مروج الذهب ٨٧ ، ١٣٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٨٠
المستدرك (للحاكم) ١٦
مسند أبى داوود ١٢ ، ٢٩٤
مسند أحمد ١٢ ، ١٥ ، ٢٢ — ٢٤ ، ٦٥ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٥ — ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٩٢
مطالب السول فى مناقب آل الرسول ٩٩
المعارف (لابن قتيبة) ٢٣٢
معجم البلدان ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ٢٣٢
مفتاح الأفكار ٢١٥
مفتاح الجنان ٢٧٦
مقاتل الطالبيين ٢٧٩
مقدمة فى أصول التفسير ٢٧٥
المنتظم ٢٧٨

فهرس الموضوعات

٣ — بين يدى الكتابة

تمهيد

٩ — المرأة والسياسة

١٥ — سطور فى التعريف بعائشة

الباب الأول

— فى عهد عثمان

٢١ — تمهيد : عمل السيدة فى عهد عثمان — بروزها بغتة فى ميدان السياسة ٢٢ هى وعثمان : إجلالها عثمان قبل خلافته — ماروت فى حب النبى لعثمان ، حياء النبى منه ، الرسول يناجيه ويوصيه ، إحسان عثمان إلى بيوت النبى ، سفارته لأزواج النبى إلى أبى بكر ، حجه بهن فى عهد عمر .

٢٦ — الفصل الأول : كيف سارت العلاقات بين السيدة وعثمان

رعايته أخا عائشة فى خلافه من أجلها — ٢٧ نقصه عطاءها — تأييدها وفد مصر — تأييدها وفد الكوفة وغضبها على عثمان — عتب عائشة وغضب عثمان — ٢٩ غضبها لابن مسعود — ٣٠ غضبها لعمار ، اشتداد الغضب بعثمان — أثرها فى تخشين الصدور عليه .

٣٢ — الفصل الثانى : احتجاج عثمان وتتابع الحوادث

غاية الناقين — ٣٣ دفاع عثمان — ٣٧ تتابع الحوادث حتى مقتل عثمان — رواية سعيد بن المسيب .

٤٣ — الفصل الثالث : فى أبطال الفتنة الحقيقيين ونصيب عائشة فيها

مبالغة الأخباريين فى وصف معارضتها لعثمان — ٤٥ استنجاد عثمان بعائشة لما حوصر — بينها وبين مروان — ذواليد الطولى فى فاجعة عثمان ، ابن سبأ البطل الخفى المخيف : دسائسه فى ميادين مختلفة — بثه الفساد فى الأقطار — ٥١ إحكامه المؤامرة .

٥٣ — الفصل الرابع : فى دفع اتهامات خاطئة

١ — اتهامها بتلقيبه وتكفيره والأمر بقتله ٢ — اتهامها بكتابة الكتب إلى الأمصار ٣ — اتهامها بتمهيد الأمر لطلحة — أفكوهة مؤرخ حزبى — ٥٦ كلمة إنصاف .

الباب الثانى

مواقفها فى عهد على حتى يوم الجمل

٦٠ — كيف استقبل على خلافته

٦١ — الفصل الأول : فى طبيعة عمل تقسمها الماضية

ما كان بين على وعائشة — ١ — استياؤها من التزامه جانب ضرائرها — ٢ — موقفه

منها فى حادث الإفك ٣ — غيرتها منه على الرسول ٤ — استياؤها من موقفه فى بيعة أبيها ٥ — تضايقها منه .

٦٧ — **الفصل الثانى : موقفها من بيعة على والحالة العامة**

شدة وقع المبايعة عليها — ٦٨ دخولها مكة وإعلانها المعارضة — ٧٠ موقف طلحة — إحباط على مسعى طلحة أيام عثمان — ٧١ موقف الزبير — موقف بنى أمية — ٧٢ مواقف الناس من بيعة على — أمر الثأر — ٧٣ الحالة فى الأمصار — عزل ولاة عثمان — ٧٤ خلاف معاوية — تجهز على لغزوه .

٧٧ — **الفصل الثالث : عائشة فى طريقها إلى البصرة**

الائتمار على الخروج إلى البصرة — بعض الإسفار عن أغراض بنى أمية — ٧٩ نصح أم سلمة لعائشة — ٨٢ يوم النحيب — الجماهير فى طريقها إلى البصرة — ٨٤ ثأركم على أعجاز الإبل — اعتزال ثقيف — فطنة عائشة لكيد مروان — ٨٥ الجمل والحوءب — ٨٧ تقدرواية — الاقتراب من البصرة .

٩٢ — **الفصل الرابع : لحاقه على بأصحاب الجمل**

خطة على مع المخالفين — وقع خروج أصحاب الجمل — ٩٣ انصراف على عن معاوية إلى أصحاب الجمل — خروجه من المدينة إلى الربذة — ٩٥ دفاعه عن خطته — ٩٦ مناقشة مؤرخ — قصده ذاقار — بينه وبين ابنه الحسن أيضاً — ٩٨ مراسلته عائشة .

١٠٠ — **الفصل الخامس : فى مساعى الجملين السياسية ثم مفاوضاتهم**

عائشة قرب البصرة — : أ — مراسلات ومفاوضات — ١٠٣ مكائد الأمويين

(ب) السفارات والوفود .

١٠٦ استعداد أمير البصرة لعلى — ١٠٧ احتلال عائشة المربد — انقسام أهل البصرة — خطاب عائشة — ١٠٩ لوم الناس عائشة وطلحة والزبير — ١١٠ اقتتال الفريقين : يوم الجمل الأصغر — الهدنة — ١١٢ وثيقة الصلح — مناقشة مؤرخ .

١١٥ — **الفصل السادس : فى استيلاء الجملين على البصرة**

سفارة كعب بن سور إلى المدينة — كتاب على إلى عامله بالبصرة — ١١٦ رجوع كعب واعتذار العامل عن إنفاذ الشروط — استيلاء الجملين قهراً على البصرة — اعتراض الناس على طلحة والزبير — ١١٨ مناوشة حاسمة — الإيقاع بقتلة عثمان — ١١٢ دعاية عائشة — ١٢٣ احتجاج الأحنف عليها — ١٢٤ كتابها إلى أهل الكوفة — ١٢٦ كتابها إلى حفصة فى المدينة .

الباب الثالث

يوم الجمل الأكبر

١٢٦ — **الفصل الأول : على فى طريقه إلى الكوفة : سفارات ومراسلات**

انضمام الناس إليه — وصول والى البصرة — نحو ذى قار — ١٣١ سفارات على ومراسلاته — كتابه إلى أهل الكوفة — السفارة الأولى — الثانية — الثالثة — معارضة أبى موسى الأشعرى عامله على الكوفة — السفارة الرابعة ونجاحها — تثبيط أبى موسى واختلاف الرأى — خطاب أبى موسى الأخير — استجابة الناس هذه المرة — ١٣٨ تنحية أبى موسى قسراً .

١٤٠ — الفصل الثانى : سفارات على إلى أصحاب الجمل وأهل البصرة

٩٩ خطابه الكوفيين النافرين — ١٤١ سفارة القعقاع إلى أصحاب الجمل — ١٤٣ اختلاف الوفود بين البصريين والكوفيين — تقارب الآراء — ١٤٥ الإشراف على الصلح — تهدئة الزعماء للمتحمسين — ١٤٨ نزول على البصرة — اعتزال الأحنف بأمر على — القبائل بين النهوض والاعتزال — ١٥٢ اجتماع الأقطاب — عدول الزبير — سفارة ابن عباس إلى الزبير — ١٥٥ المؤامرة .

١٥٩ — الفصل الثالث : الدسيسة والمعركة الكبرى

الدسيسة — المعركة : الدعوة إلى كتاب الله — ١٦٠ بدء القتال — غياب الزبير وطلحة من أوله — ١٦٢ عرض المصحف ثانية بأمر عائشة — قتل حامل المصحف : كعب بن سور — تدارك الضعف فى جيش على — ١٦٤ كثرة القتلى وتواصى الفريقين باجتناب المقاتل — تفانى المتقاتلين — ١٦٦ استماتة شيخ جليل — ١٦٧ الأراجيز فى الحرب .

١٦٩ شدة القتال — أبطال الزمام — ١٧٠ مقتل محمد بن طلحة — ١٧١ الأشتر و ابن الزبير — اقتلونى ومالكا — استماتات — ١٧٧ عقر الجمل — انتهاء القتال وتأمين الناس — ١٧٨ عائشة وأخوها محمد — عائشة وعمار — ١٨٠ على وعائشة — حسرة على .

١٨٠ — الفصل الرابع : القتلى

الزبير — ١٨٤ طلحة — ١٨٥ بقية القتلى — ١٨٦ عدة القتلى — بكاء على طلحة ١٨٧ سيرة على فى القتلى . دفاعه عن خصومه .

١٩٠ — الفصل الخامس : آخر أيام عائشة فى البصرة

فى دار عبد الله بن خلف — تقاطر الناس عليها — سلام القعقاع عليها — ١٩١ ابن الزبير ومحمد بن أبى بكر — دار السيدة ملجأ الخائفين والمرتثين — زيارة على لها — ١٩٢ الإساءة إليه — وصيته بالتجاوز عن إساءة النساء ١٩٣ لقاء روائى جاف — تجهيز على عائشة — ١٩٥ الوداع الجميل .

الباب الرابع

وقفة عند حرب الجمل

١٩٧ — الفصل الأول : العوامل القريبة والبعيدة

(١) تخوفهم الفتنة — (٢) طموح الرؤوس ١٩٩ — (٣) سياسة عمر فى الضغط على قريش وخشيته وفرة الغنى عليهم ٢٠٠ — (٤) العامل الاقتصادى فى الفتن ٢٠٣ .

٢٠٦ — الفصل الثانى : فى توزيع التبعات

التبعة الكبرى يحملها السبئيون — ذوو التبعات الثانوية المباشرة : الأمويون — ٢٠٧ ذوو التبعات الثانوية غير المباشرة : طلحة — الزبير وابنه — عائشة — على — ٢٠٨ مناقشة حكم الشيخ النجار على على — ٢١٠ ندم على وأصحاب الجمل .

الباب الخامس

فى حياة عائشة السياسية بعد حرب الجمل

٢١٢ توطئة فى خطتها العامة — العزلة .

٢١٤ — الفصل الأول : فى موقفها من خصومها السياسيين

موقفها من على — التعريض به فى ثنائها على أبيها وعمر — خطبتها يوم الحكمين على قبر أبيها — قولها فى أبيها وعمر — قولها فى أبيها أيضاً ٢١٦ دفاعها المشهور عن أبيها — تفريظ ابن الخطاب — ٢١٨ موقفها من ولدى على : الحسن والحسين .

٢١٩ — الفصل الثانى : فى مواقف متفرقة

فى مقتل أخيها محمد بن أبى بكر — حزنها عليه وفنوتها على قاتليه — ٢٢٢ فى مقتل حجر ابن عدى — شفاعتها له — ٢٢٨ فى قضية هدبة بن الخشرم ٢٣٠ متفرقات : مراسلة معاوية لها — جوابها زياداً — بين معاوية وزياد فى شأن خاذلها — ٢٣٢ جنون زياد بكتاب عائشة إليه ونسبتها له إلى أبى سفيان — ٢٣٣ فى بيعة يزيد بن معاوية : كبت عائشة نفسها فى أمر البيعة — ٢٣٤ أخو عائشة يعارض — بين أخيها ومروان بن الحكم ٢٣٥ تقريع عائشة مروان — معارضة أهل المدينة للبيعه . مجىء معاوية وتعنيفه المعارضين — ٢٣٦ معاوية فى بيت عائشة تعنيفها له على قتله أخاها محمداً — تلطف معاوية وتملقه عائشة — ٢٣٨ تقريعها إياه على قتله حجراً — ثناؤه على بلاغتها — ٣٣٩ لقاؤه الأربعة المعارضين ، استقباله المعارضين بمكة أيضاً . تخييرهم معاوية فى ثلاث — تهديده لهم — ٢٤٠ لقاء ثان بين معاوية وعائشة — دهاء عائشة — ٢٤١ وصيتا معاوية ليزيد فى شأن الأربعة المعارضين — وفاة السيدة بين الوصيتين .

الباب السادس

عائشة فى الفرق الإسلامية

٢٤٣ — الفصل الأول : موقف الرأى العام منها فى حياتها

تمهيد — ٢٤٤ استهجان رؤوس البصرة خروجها — ٢٤٥ هجر بعض الناس لها — ٢٤٦ خذوا بيد عدوة الله — نيل بعض خصومها — ٢٤٧ التنكيت عليها : يوم الجمل ويوم البغلة — ٢٤٨ موقفهم من مأتمها .

٢٥٠ — الفصل الثانى : انقسام الرأى العام فى أنصارها

بين ابن الزبير وابن عباس — ٢٥١ حملة معاوية من أجلها — مناقشة رواية — تعييرهم من أخرجها — غضب عائشة لابن الزبير — ٢٥٣ جدال الخوارج ابن الزبير من أجل عائشة — جوابه لهم — ٢٥٤ نقد الناس القبائل التى نصرت عائشة — ٢٥٥ تقائض البصريين والكوفيين بسبب يوم الجمل — مواقف بعض العامة .

٢ — الفصل الثالث : فى تناول الفرق الاسلامية أعمال عائشة

٢٥٩ رأى أهل السنة — ٢٦٢ قصيدة الواعظ الأندلسى — ٢٦٥ رأى الخوارج — ٢٦٦ رأى المرجئة — ٢٦٧ رأى المعتزلة ٢٦٨ رأى الشيعة — اختلاق الأحاديث — ٢٧٠ الرأى الجامع للشيعة — تاريخ آراء الشيعة قديماً وحديثا — النظرة السياسية — ٢٧١ حملتهم على عائشة — لا يذكرونها بخير — الافتراء عليها — تكلف بعضهم فى تجريدها من بعض مزاياها المتواترة — ٢٧٢ من أهل البيت ؟ ٢٧٣ زعمهم تفويض الرسول إلى على تطليق نسائه من بعده ! ! — على يطلق عائشة من زوجها المتوفى قبل ٢٦ سنة — ٢٧٥ هجومهم لها — تأويلات مضحكة بحقها — ٢٧٦ تقرب بعضهم إلى الله بلعنها — ٢٧٧ رد الفعل — الإيقاع بشاتمها .
٢٧٨ رأى أحد مجتهدى الشيعة اليوم .
٢٨١ أدعياء التشيع — الرافضة — إهمال المختلقات ، خطة موحدة .

الخاتمة

عبرة الحوادث

١ — المرأة واختصاصها ٢٨٥ .
٢ — أثر الخلاف فى تقويض الأمم ٢٩٠ .

---

٢٩٥ فهارس الكتاب .
٢٩٧ فهرس الأعلام .
٣٠٦ فهرس الجماعات .
٣١٠ فهرس الأماكن .
٣١٤ فهرس الأيام .
٣١٥ فهرس المصادر .
٣١٨ فهرس الموضوعات .

تصحيحات[1]

ص	س	خطأ	صواب
٤	١٠	كان	كأن
٦	٦	تدع	وتدع
	١٩	فتصحح	فتصحح
١١	١٢	ذى	ذو
٦٤	٢٢	إذا	حتى إذا
٨٨	١٥	وتجدها	وتجده
١٠٧	٦	البصرة	بالبصرة
١٥٨	٨	وما	ما
١٦٢			
١٦٣		أوروبا	ليدن
١٦٨			
١٩٤	١٣	قالت	قال
١٩٨	١٨	ج	و ج
٢٢٤	١١	تنتفع	نتنفع
٢٦٢	٦	زعموا	زعمنا
٢٨٢	٢١	السنين	من السنين
٢٨٥	١٠	أنفسها	أنفها
٢٨٨	٧	يكاد لا	لايكاد
٢٨٨	٢٢	لدينها	على دينها
٢٩٤	٦	نعينهم	نعينهم
٣٠٢	١٧	العطاء	عطاء
٣٠٤	٣٧	ابن شبعة	بن شعبة

(١) نشير إلى أهم ما رأينا من أخطاء الطبع وإن كان لا يخفى أكثره على القارئ العادى .

آثار المؤلف المطبوعة

(ا) تأليفاً :

١ — أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام .
٢ — ابن حزم الأندلسى .
٣ — الإسلام والمرأة .

(ب) نشراً وتحقيقاً :

٤ — الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة : للزركشى .
٥ — فى المفاضلة بين الصحابة : لابن حزم [نشرت فى آخر كتاب ابن حزم الأندلسى] .
٦ — سير النبلاء : للذهبى [جزء أول فى ترجمة ابن حزم] .
٧ — « « « [جزء ثان فى ترجمة السيدة عائشة] .

تطلب : من المكتبة الهاشمية بدمشق
ومن المكتبة العربية بدمشق لأصحابها (عبيد إخوان)

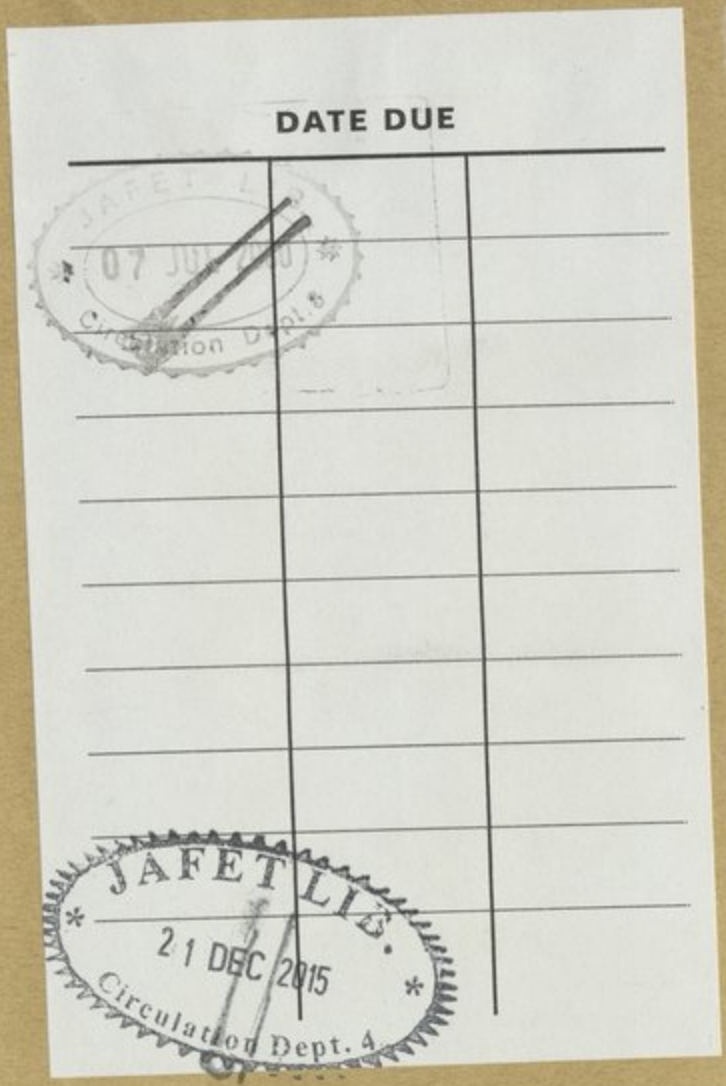
DATE DUE
JAFET LIB.
07 JUN 2010
Circulation Dept. 6
JAFET LIB.
21 DEC 2015
Circulation Dept. 4

297.64:A299aA:c.1
الافغاني، سعيد
عائشة والسياسة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01011716

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

B
A29a/A

General Library